



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

الفكر التربوي الإسلامي

عند الأئمة

جعفر الصادق

تأليف

دكتورة حسناء ديمانه

دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

1431 هـ - 2010 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفكر التربوي الإسلامي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

كاتب:

حسنا ديامه

نشرت في الطباعة:

المكتبة العصرية

رقمي الناشر:

مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
22	الفكر التربوي الإسلامي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام
22	اشارة
22	اشارة
24	الإهداء
26	تقديم
29	شكر و تقدير
31	الإطار العام للدراسة المقدمة
31	اشارة
32	أسباب اختيار الدراسة:
32	إشكالية الدراسة:
33	صعوبات الدراسة:
33	منهج الدراسة و حدودها:
35	الدراسات السابقة:
35	خطوات الدراسة:
41	فصل تمهيدي التربية من المنظور الإسلامي
41	اشارة
42	- مفهوم التربية الإسلامية و أهميتها:
42	أ - التربية لغة:
45	ب - التربية اصطلاحا:
46	ج - أهمية التربية الإسلامية:
46	- العوامل المؤثرة في التربية:
46	اشارة

47	أ - عامل الوراثة:
47	ب - عامل البيئة:
47	اشارة
49	الأسرة
49	المدرسة
50	المجتمع
51	- مصادر التربية الإسلامية وسماتها:
51	اشارة
51	أ - مصادر التربية الإسلامية:
51	اشارة
52	القرآن الكريم
52	السنة النبوية المطهرة
54	ب - سمات التربية الإسلامية:
54	اشارة
54	ربانية:
54	تكاملية شاملة:
55	متوازنة:
56	وسطية:
58	سلوكية عملية:
59	مستمرة:
60	سهلة ومرنة:
61	عالمية وخالدة:
62	- أهداف التربية الإسلامية وأسايلها:
62	اشارة
62	أ - أهداف التربية الإسلامية:

63	ب - أساليب التربية الإسلامية:
63	اشارة .
64	التربية بالوعظ و النصح:
66	التربية بالقُدوة:
67	التربية بالقصة:
67	التربية بالترغيب و الترهيب:
68	التربية بالتشبيه و ضرب الأمثال:
72	التربية بالعمل و العادة:
74	الفصل الأول دراسة شخصية الإمام الصادق
74	اشارة .
76	تمهيد
80	المبحث الأول المعالم البارزة في عصر الصادق ..
80	الجانب السياسي:
80	اشارة .
80	أولاً: العصر الأمويّ:
83	ثانياً: العصر العباسي:
87	الجانب الديني
87	اشارة .
87	أ - الخوارج:
88	ب - المعتزلة:
89	ج - الجهمية أو الجبرية:
90	د - القدرية:
90	هـ - المرجئة:
91	و - الغالية (من الشيعة):
93	الجانب الاجتماعي

98	الجانب العلمي و الثقافي
104	المبحث الثاني المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق
104	ولادته و تسميته:
104	والده:
105	والدته:
105	- نشأته:
107	روافد علمه و فكره
109	لمحات من صفاته و أخلاقه
109	اشارة
109	أ - الإخلاص:
110	ب - عبادته:
110	ج - سخاؤه:
111	د - حلمه و سماحته:
111	هـ - إكرامه للضيوف:
113	و - تواضعه و مواساته للضعفاء:
114	ز - حضور بديته:
114	ح - هيئته:
116	مكانته العلمية و آثاره
116	اشارة
121	مؤلفات الإمام جعفر بن محمد الصادق:
123	أقوال العلماء في شخصيته
126	رواياته و كبار المتخرجين من تلاميذه
126	اشارة
129	أبان بن تغلب:
130	جابر بن حيان:

135	المبحث الثالث إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق
135	أساسيات التربية عند الإمام:
135	اشارة
135	أ - الله:
137	ب - الكون:
139	ج - الإنسان:
139	اشارة
140	طبيعة الإنسان وفطرته:
142	حرية الإنسان وإرادته:
145	اهتمامات الصادق التربوية بالبعدين الروحي والجسدي
149	العوامل المؤثرة في التربية عند الإمام
151	تربية الطفل ورعايته في فكر الصادق
155	طرائق التربية والتعليم في مدرسة الصادق
155	اشارة
155	أ - طريقة الوعظ:
156	ب - طريقة الرسائل:
158	ج - طريقة المناظرة والحوار:
159	د - طريقة الإملاء:
160	ه - طريقة الوصايا:
161	و - طريقة الدعاء:
164	الفصل الثاني التربية العقديّة و العبادية في مدرسة الإمام الصادق
164	اشارة
166	تمهيد
170	المبحث الأول البناء العقدي
170	العقيدة وأهميتها:

172	موقع العقيدة الإسلامية في فكر الإمام التبريزي
174	تكوين العقيدة الصحيحة في منهج الإمام التبريزي
174	إشارة
175	أ - معرفة الله وتوحيده:
175	إشارة
175	دلالة فطرية:
178	دلالة حسية:
180	دلالة عقلية:
182	تعريف الله بأسمائه وصفاته:
184	ب - الإيمان بالمالئكة:
185	ج - الإيمان بالكتب السماوية:
185	إشارة
187	التربية على التمسك بالقرآن الكريم:
188	د - معرفة أنبياء الله ورسله:
188	إشارة
190	التربية على اتخاذ الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة واتباع سنته:
190	إشارة
190	أولاً: بيان سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والدعوة إلى التأسّي والافتداء بها:
191	ثانياً: القيام بنشر أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والتحديث عن آبائه عن جده:
192	ثالثاً: اعتبار السنة ضابطاً لتمييز الحق والباطل من الأقوال:
194	هـ - المعرفة باليوم الآخر:
195	و - المعرفة والإيمان بالقدر:
198	تحصين الأمة من التيارات المنحرفة والخاطئة
198	إشارة
198	أ - مواجهة الإلحاد والزندقة:

201	ب - تحذير الأمة من الأفكار المنحرفة:
203	ج - صيانة الناس عن التصورات الخاطئة:
209	المبحث الثاني البناء العبادي
209	[لا ينفصل البناء العقدي في التربية الإسلامية عن البناء العبادي]
210	- مفهوم العبادة وأهميتها في مدرسة الصادق:
212	الالتزام بالنظرية و التطبيق في فكر الإمام
214	تعليم فقه العبادات في مدرسة الصادق
216	تربية الروح بمظاهر العبادة
216	إشارة
216	أ - تقوية الصلة بالله عن طريق الصلاة:
219	ب - تطهير النفس و المال بالزكاة:
220	ج - كمال الانقياد و العبودية بالحج:
221	د - ضبط الأهواء و الشهوات بالصيام:
222	هـ - التعليم الذاتي بتلاوة القرآن الكريم:
224	و - إظهار الافتقار إلى الله بالدعاء:
225	التركيز على الاعتدال في العبادة:
227	الفصل الثالث التربية العلمية و العقلية في مدرسة الإمام الصادق
227	إشارة
229	تمهيد:
233	المبحث الأول البناء العلمي
233	أهمية العلم و حث الإمام على طلبه:
236	مدرسته العلمية و خصائصها
236	إشارة
237	مركزها:
237	طلابها:

238	أنواع علومها:
239	مراعاة التخصص في العلوم:
240	التأليف والتدوين:
242	الإفادات التربوية حول العالم والمتعلم
242	إشارة
242	أ - شخصية العالم المعلم في فكر الصادق:
242	إشارة
243	المقومات الشخصية للعالم المعلم:
243	إشارة
243	1 - الإخلاص:
244	2 - العمل بمقتضى العلم:
244	3 - نشر العلم:
245	4 - ترك الفتوى من غير علم:
246	5 - عدم التباهي والتفاخر بالعلم:
246	المقومات المهنية للعالم المعلم:
246	إشارة
248	1 - البدء بالبسملة:
248	2 - الوضوء والطهارة:
249	3 - التواضع واحترام الدرس:
249	4 - المحبة وعدم العنف:
250	5 - العدل بين الطلاب:
251	6 - مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين:
252	ب - شخصية المتعلم في فكر الصادق:
252	إشارة
255	1 - الإخلاص:

257	2 - الحلم:
257	3 - التواضع:
259	4 - تعظيم العالم:
259	5 - طلب العلم بالجد والاجتهاد والسؤال:
261	6 - كتابة الدروس والمحافظة على الكتب:
264	الأساليب التعليمية عند الصادق
264	إشارة
264	أ - استخدام الوسائل التعليمية:
265	ب - تشجيع الطالب والثناء عليه:
266	ج - التضاد أو المقارنة:
266	د - التمثيل والتشبيه:
267	هـ - تنظيم المعلومات وتقسيمها:
268	و - الترتيب والأعداد:
268	ز - أسلوب الاستجواب:
269	ح - التعليم العملي:
270	ط - التدريب والتقييم:
275	المبحث الثاني البناء العقلي
275	[العقل آية من آيات الله]
277	مكانة العقل في مدرسة الصادق:
280	العلاقة بين العقل والدين
282	العلاقة بين العقل والسلوك الأخلاقي
284	سبل تنمية العقل عند الصادق
284	إشارة
284	أ - تدريب العقل على حرية التفكير والابتعاد عن الجمود والتقليد:
286	ب - حث العقل على التفكير والنظر والتدبر:

286	اشارة
287	النظر في حكمة الكون و مخلوقاته:
288	النظر في حكمة التشريع:
289	النظر في السنن الإلهية:
289	ج - تعويد العقل التفكير العلمي:
289	اشارة
290	الخطوة الأولى: الدعوة إلى استخدام الحواس للوصول إلى المعرفة (مرحلة الملاحظة و الاستبطان).
291	الخطوة الثانية: إدراك العلاقة بين الظاهرة و مسبباتها (مرحلة الاستدلال العقلي).
292	الخطوة الثالثة: استخدام التفكير المنطقي (مرحلة الاستنتاج).
295	الفصل الرابع التربية الخلقية و الاجتماعية في مدرسة الإمام الصادق
295	اشارة
297	تمهيد:
301	المبحث الأول البناء الأخلاقي
301	ماهية الخلق و أقسامه:
304	موقع الأخلاق في صرح الإمام الصادق التربوي
308	أهداف التربية الخلقية في مدرسة الصادق
311	مبادئ التربية الخلقية في مدرسة الصادق
311	اشارة
311	أ - تكوين بصيرة أخلاقية:
311	اشارة
312	تعريف السلوك الأخلاقي بظواهره:
313	تحديد السلوك الأخلاقي و تمييزه عن غيره:
314	تبيين آثار السلوك الأخلاقي و نتائجها:
316	ب - تكوين عاطفة أخلاقية:
316	اشارة

- 316التذكير بالوازع الداخلي أو الحس الأخلاقي:
- 318تحريك عنصري الطمع والخوف:
- 319تشجيع الناس على محاسبة النفس (المراقبة الذاتية):
- 320ج - تكوين قوة الإرادة:
- 320إشارة
- 321الدعوة إلى مخالفة الهوى وجهاد النفس:
- 322الالتزام بالورع والتقوى:
- 322تقوية الثقة باللّه و التوكل عليه:
- 324أساليب التربية الخلقية عند الإمام الصادق
- 324إشارة
- 324أ - الأسلوب العملي المباشر:
- 325ب - الإفادة من الاهتمامات الفكرية والعاطفية لدى المتلقي:
- 326ج - أسلوب التعريض أو التلميح:
- 327د - ردود الفعل السلوكية:
- 328ه - انتهاز الفرص والظروف المناسبة:
- 329و - التنبيه إلى الجوانب الخفية من العمل:
- 330ز - التوجيه والإرشاد من خلال قضاء الحاجات:
- 331ح - الأوامر والنواهي المباشرة:
- 334المبحث الثاني البناء الاجتماعي
- 334[الإنسان مدني بالطبع]
- 336تتمية روح التعلق بالمجتمع
- 338تتمية الشعور بالمسؤولية في المجتمع
- 338إشارة
- 338أ - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات الخاصة:
- 338إشارة

- 339 العائلة المثالية في فكر الصادق: ..
- 339 اشارة ..
- 339 - العلاقة بين الزوجين: ..
- 340 - العلاقة بين الوالدين و الأبناء: ..
- 341 العلاقة الطيبة مع الأرحام و الأقارب: ..
- 342 علاقة الجيران و الأصدقاء: ..
- 344 ب - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات العامة: ..
- 346 مبادئ التربية الاجتماعية في فكر الصادق ..
- 346 اشارة ..
- 346 أ - مبدأ التآخي و التعاطف: ..
- 346 اشارة ..
- 347 التزاور: ..
- 347 التناصف: ..
- 347 التهادي: ..
- 349 التصريح بالحب و المودة: ..
- 349 الحفاظ على الحشمة: ..
- 349 ترك ما يكدر المودة: ..
- 350 ب - مبدأ التعاون و التكافل: ..
- 350 اشارة ..
- 351 تأصيل خدمة الناس و قضاء حوائجهم: ..
- 353 الحث على الإقراض و الإمهال: ..
- 354 الدعوة إلى الموساة و الإغاثة: ..
- 356 ج - مبدأ الصلح و الأمانة: ..
- 356 اشارة ..
- 357 إلزام الناس بأداء الأمانة إلى صاحبها: ..

357	التشجيع على هذا المبدأ من خلال عرض القدوة:
358	وضع هذا المبدأ معيار لمعرفة الأشخاص:
358	التركيز على النتائج الإيجابية لهذا المبدأ في التعامل الاجتماعي:
358	التحذير من الائتمان بالفاسق:
360	د - مبدأ الإصلاح الاجتماعي:
360	إشارة
362	المراقبة و النقد الاجتماعي:
365	مواجهة الخلافات و الخصومات الاجتماعية:
365	إشارة
366	1 - تجنب جذور الخلافات و الخصومات:
366	إشارة
366	- تتبع العثرات و العيوب:
367	- الاستهزاء و الاحتقار:
367	- النميمة و السعاية:
368	- الجدل و المراء:
368	- الغيبة:
368	- التهمة:
369	- السبّ و اللّعن:
370	2 - التغافل و حسن الظن:
371	3 - إصلاح ذات البين:
373	4 - العفو و مقابلة الإساءة بالإحسان:
376	الفصل الخامس التربية الاقتصادية و المهنية في مدرسة الصادق
376	إشارة
378	تمهيد
382	المبحث الأول البناء الاقتصادي

382 مفهوم الاقتصاد وأهميته:
386 الجانب الاقتصادي في فكر الإمام التبريزي
389 تربية المسلم الاقتصادية في المجال المعرفي
389 اشارة
389 أ - تعميق مفهوم المال والملكية:
389 حقيقة المال:
392 حقيقة الملكية:
393 دور المال في حياة الإنسان:
393 اشارة
394 أولا المال قوام الدين والعون على الآخرة
394 ثانيا المال قوام الدنيا وتحقيق السعادة فيه
395 ثالثا في المال اطمئنان النفس وراحتها
396 رابعا المنافع الاجتماعية للمال
397 ب - تصحيح المفاهيم الخاطئة في طلب المعاش:
397 الرزق بين التقدير والطلب:
400 ضرورة الوعي بمؤثرات الرزق:
400 اشارة
401 - في المبادئ الأخلاقية:
401 - في المبادئ الاجتماعية:
402 - في المبادئ العبادية:
403 ج - تقويم النظرة إلى الربح والكسب:
403 التوازن بين الربح المادي والمعنوي:
405 العلاقة بين الكسب والعمل
408 تربية المسلم الاقتصادية في المجال السلوكي
408 اشارة

409	أ - تربية المسلم على الإنتاج في مدرسة الصادق:
409	أهمية الإنتاج وجوهره:
410	أهداف الإنتاج وضوابطه:
412	عناصر الإنتاج وحسن استغلالها:
412	إشارة
412	1 - الطبيعة والانتفاع بها:
414	2 - رأس المال وتكوينه:
416	3 - العمل والحث عليه:
419	ب - تربية المسلم على الاستهلاك في مدرسة الصادق:
419	أهمية الاستهلاك وترشيده:
422	تبيين وجوه الإنفاق والحضّ عليه:
425	تحديد الإنفاق والإلزام به:
425	إشارة
426	1 - التحديد الكيفي:
428	2 - التحديد الكمي:
428	إشارة
429	- الحث على التقدير:
430	- التحذير من الإسراف والإفراط:
431	- غرس روح القناعة:
432	- النهي عن التقتير والتفريط:
437	المبحث الثاني البناء المهني
437	[التربية المهنية]
438	مفهوم المهنة وأهميتها
439	الجانب المهني في فكر الإمام التبريزي
442	تصنيف المهن والحرف في مدرسة الصادق

442	اشارة
443	أ - الزراعة:
444	ب - الرعي:
444	ج - الصناعة:
445	د - التجارة:
448	أخلاقيات المهن و الحرف في مدرسة الصادق
448	اشارة
448	أ - الخبرة و المهارة:
449	ب - الإقتان:
450	ج - الصلح و تجنب الغش:
451	د - الالتزام بالأمانة:
451	ه - حسن المعاملة:
453	الخاتمه
453	اشارة
454	التربية على الصعيدين العام و الخاص:
454	التربية المتعددة الأبعاد:
455	تربية الصالح المصلح:
455	التربية التدريجية
456	سيادة الروح الأخلاقية:
457	التربية التطبيقية:
457	تقديم التكليف على الحق:
458	البدء بالنفس
459	الفهارس العامة
459	اشارة
461	فهرس الآيات الشريفة

470 فهرس الأحاديث النبوية
473 فهرس الأعلام
482 المصادر و المراجع
482 - القرآن الكريم
482 [- سائر الكتب]
502 المجالات:
503 فهرس المحتويات
522 تعريف مركز

الفكر التربوي الإسلامي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

إشارة

الفكر التربوي الإسلامي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

نويسنده: ديالمه، حسناء

زبان: عربى

ناشر: المكتبة العصرية - صيدا - لبنان

سال نشر: 1431 هجرى قمرى | 2010 ميلادى

كد كنگره: BP 45/35 / د9ف8

ص: 1

إشارة

الفكر التربوي الإسلامي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق

نويسنده: ديامه، حسناء

ص: 2

إلى المرابي الأول و الناصح الأكمل و الأب الأمثل

سیدنا محمد رسول الله صلّی الله علیه و سلّم

و إلى محبي سنته الشريفة

باعث الروح و العلم و الأخلاق في الأجيال

و مجدّد النهضة الفكرية و الثقافية في الإسلام

إلى الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق

أيها الإمام العظيم، أيها المفكر الجليل، أيها المرابي الشفيق، ترى هل وفيتك حقك و أنا أقفو خطاك في هذا البحث المتواضع؟ لكن يا ابن رسول الله إنّ الهدية على قدر مهديها.

عشت معك ساعات و أياما و شهورا و أعواما و أنا أتقل بين روائع عطاياك في المراجع و المصادر بذكرك، فوجدتك في جميعها عظيما و منيرا و معلما كبيرا. أنعم الله عليك فأجزلت بنعمه على كل إنسان جمعت العلم من مكانه العميقة و رصعته بالنور بجهودك النشيطة و قدمته للأمة لتفجر به طاقاتها الكريمة.

أ. د. محمد منير سعد الدين

الحمد لله و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه و بعد... إن الكتاب الذي بين يدي القارئ هو في الأصل أطروحة دكتوراه عنوانها: «الفكر التربوي عند الإمام جعفر الصادق»، تقدمت بها الطالبة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية حيث كلفت من المجلس العلمي بالإشراف عليها.

هنا أشير أنه عند ما جاءتني الطالبة الباحثة بعد تكليفي بالإشراف عليها شعرت بالعبء الكبير الملقى على عاتقها، و الجهد الذي عليها أن تبذله، بخاصة و هي تخوض في الفكر التربوي للإمام جعفر الصادق، لأن الباحث في الفكر التربوي الإسلامي عامة أشبه بمن يجمع ذرات من التراب فهو يقرأ كتباً ضخمة متعددة الأجزاء فيخرج منها بمحصول ضئيل أو بلا شيء، و أيضاً ظاهرة عدم تركيز علماء المسلمين في أعمالهم على النشاط التربوي في كتب خاصة، و الأمر نفسه بالنسبة للإمام جعفر الصادق فهو إنسان ترك تراثاً موسوعياً كبيراً.

و لكنه لم يترك كتباً تربوية مستقلة. كذلك لم يترك المعاصرون ممن سبقوا الباحثة كتابات تربوية بهذه الإفاضة العلمية و الإمام بالجانب التربوي كما قدمته. و ما زاد شفقتي أيضاً أنها من أصول فارسية و هي بحاجة إلى تمكن في اللغة العربية. و أيضاً رغم ممارستها التعليم فهي لم تكن مختصة بالتربية. و مع كل هذا استطاعت أن تذلل صعوبات كثيرة و اجتهتها بالصبر، و طول النفس، و القدرة الفائقة على التعلم.

و لا بد من وقفة عند الإمام جعفر بن محمد بن علي الملقب بالصادق، و الذي عاش في نهاية الدولة الأموية و بداية الدولة العباسية، و في عهد تبادل أفكار و تقاعل مع الأمم و الحضارات، حيث تمخضت الحركة الفكرية عن مذاهب فلسفية و فقهية مختلفة، و مدارس كلامية، و أشاعرة، و معتزلة، و قدرية، و جبرية، و خوارج، و متصوفة، و زنادقة، و ملاحدة و غيرها.

لقد ملأ جعفر الصادق الدنيا بعلمه (كما يقول الجاحظ)، و عمل على إعداد قيادات واعية، و معلمين عاملين على نشر الإسلام، و تركزت جهوده العلمية في مختلف الاختصاصات من الفلسفة و علم الكلام و الطب و الرياضيات و الكيمياء، إضافة إلى القواعد و الأصول الاجتماعية و الفقهية كركيزة متينة للتشريع الإسلامي تضمن بقاءه و استمراره. و واجه أخطار الزنادقة و الملاحدة بأسلوب مرن و هدوء و رصانة ناقداً و داحضاً آراءهم و حججهم.

أما الحديث عن علمه و مدرسته و الأجيال التي تخرجت على يديه حيث يقال إنه قد يلقي عدد طلابه أربعة آلاف طالب.

و لقد اشتهر من طلابه: مالك بن أنس، و أحمد بن حنبل، و أبو حنيفة بن النعمان، و سفيان الثوري، و جابر بن حيان، و هشام بن الحكم و غيرهم كثير.

و نقل عنه كثير من العلماء أمثال: مالك بن أنس، و محمد بن إدريس الشافعي، و إبراهيم بن أدهم، و مالك بن دينار و غيرهم.

يقول عنه مالك بن أنس: «ما رأيت عين و لا سمعت أذن و لا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلا و علما و ورعا و عبادة».

و يقول عنه كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي: «عبد الله أبو جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، هو من عظماء أهل البيت و سادتهم (عليهم السلام)، ذو علوم جمّة، و عبادة موفورة، و أوراد متواصلة، و زهادة بينة، و تلاوة كثيرة، يتبع معاني القرآن الكريم، و يستخرج من بحره جواهره، و يستفتح عجائبه، و يقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكر بالآخرة، و استماع كلامه يزهّد في الدنيا، و الاقتداء به يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنه من سلالة النبوة، و طهارة أفعاله تصدع بأنه من ذرية الرسالة».

ذلك هو الإمام جعفر الصادق و الذي طرقت الباحثة بابه لتغرف من بحر علمه، و بالذات من فكره التربوي، و لتقدم الأطروحة في صورتها كما هو واضح من فصولها في هذا الكتاب:

الإطار العام للدراسة: يتضمن المنهجية العلمية للدراسة.

الفصل التمهيدي: التربية من المنظور الإسلامي.

الفصل الأول: دراسة شخصية الإمام الصادق.

الفصل الثاني: التربية العقدية و العبادية.

الفصل الثالث: التربية العلمية و العقلية.

الفصل الرابع: التربية الخلقية و الاجتماعية.

الفصل الخامس: التربية الاقتصادية و المهنية.

الخاتمة:

بعد هذا العرض لجهد مشكور، من باحثة جادة، خاضت عملا صعبا، و لكنها استطاعت أن تشق طريقها بنجاح، يسرني أن يكون هذا الكتاب لبنة من اللبنة التي قامت عليها سلسلة الكتاب التربوي الإسلامي.

و الله ولي التوفيق.

لقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ (1)، والشكر كما يقول الإمام جعفر الصادق: «زيادة في النعم وأمان من الغير».

أما وإني قد انتهيت من إعداد هذه الأطروحة فلا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والامتنان للعلي القدير على ما وفقني إليه.

ويجدر بي في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى فضيلة الأستاذ الدكتور محمد منير سعد الدين (حفظه الله) الذي أشرف على هذه الدراسة وما قدّمه لي من نصح وتوجيه وإرشاد لإغناء البحث وإثرائه، فجزاه الله خيرا لخدمة العلم.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى الأستاذ الفاضل الدكتور نايف معروف على مراجعته للبحث وملاحظاته القيمة.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى كلية الإمام الأوزاعي - عمادة وأساتذة وعاملين - والتي أتاحت لنا هذه الفرصة الذهبية في العودة إلى التربية السليمة وفق منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ولا بدّ من توجيه الشكر إلى المكتبات والعاملين فيها ببلدان وإيران.

ثم أتوجه بشكري وتقديري للجنة المناقشة التي ستكون ملاحظاتها إنارة لطريقي في هذا البحث واعتناء وإثراء له.

كما أوجه الشكر إلى كلّ من مدّد العون والمساعدة في إعداد هذه الدراسة العلمية.

ومن الحري أن أذكر في هذا المقام أخي الشهيد الذي كان أول من عزّفني على مدرسة الإمام الصادق وربّاني على حبّ النبي صلّى الله عليه وسلّم وأهل بيته.

وكذلك والدي المرحوم العزيز الذي بدأت هذا السبيل مشيعة بدعواته الخيرة، غير أنّ القدر الإلهي لم يمهل لي شهيد اكتمال هذا المسعى فمضى إلى ربّه.

وأقدم خالص شكري إلى أمي الحنون التي شاهدت منها العزيمة الثابتة على

الأخلاق و التحلّي بجميل الآداب و معذرة من القلب لأتني انصرفت عنها و قضيت من الأوقات بين جنبات الكتب أكثر ممّا قضيت معها،
أسأل الله لها العافية و الدرجات العالية.

و يطيب لي أن أسجل عميق شكري لرفيقة دربي و شريكة أملّي، أختي الوحيدة، و التي كانت لي خير معين و مساعد لإنجاز هذا الجهد،
كما كانت لي بمنزلة نعم العون في طاعة الله طيلة حياتي. و كذلك أشكر عائلتها جميعا (زوجها و أولادها) على دعمهم و تشجيعهم و
مواقفهم الطيبة، فلهم مني جميل الثناء و استمرارية الدعاء.

و أسأل الله أن يجعل جهدنا جميعا فيه خالصا لوجهه تعالى فيما يحب و يرضى من خير للإسلام و المسلمين إنّه سميع مجيب.

ص: 8

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الأمين وعلى آله وصحبه الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وبعد...

لا يخفى على أحد من المختصين أهمية التربية في حياة الإنسان. فهي ضرورة من ضروريات الحياة وشأن أصيل من شؤون الإنسان لأن قيمة المجتمع لا تتمثل في معادنه و ثرواته وإنما قيمته مرهونة بالعقول الناضجة والأفراد المهذبين، الذين يعيشون فيه.

وبما أن التربية الإسلامية تربي الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح، وعن طريقها تتقدم الحضارات وتصنع الأجيال و تنمو المفاهيم الإنسانية الخيرة بين البشر، من هنا تتضح الحاجة إلى معرفة نظرة التربية الإسلامية للإنسان مستلهمين أصالتنا التربوية و فكرنا الإسلامي القائم على الكتاب والسنة.

إن البشرية تعاني اليوم من أزمات حادة ومعضلات صعبة، رغم التطور العلمي والتقني، ولا تعود هذه الأزمات إلى طبيعة النظام العالمي والنظم الاقتصادية، بل تعود إلى فشل المدارس الفكرية والتربوية في بناء الإنسان المتوازن بين قابلياته المعنوية وميوله النفسية.

ومع الأسف نرى أن التربية السائدة في النظم التعليمية المعاصرة في عالمنا الإسلامي متأثرة إلى حد كبير بأنظمة التعليم وأفكار التربية الغربية دون تدقيق في محتوى و مضمون هذه التربية أو في الظروف الغربية الخاصة التي أدت إلى ولادة هذه التربية و مفاهيمها.

ولست التربية في بلادنا اليوم تربية إسلامية خالصة، ولا تعبر عن أوضاعنا وطموحاتنا وأهدافنا. ونحن في الوقت الحالي في أمس الحاجة إلى النظام التربوي الإسلامي الذي يتناسب مع واقعنا وعقيدتنا. وهذا يقتضي منا بشكل ملح على العودة إلى تراثنا الإسلامي الزاخر بأراء وأفكار تربوية متميزة من خلال ما خلفها السلف الصالح والتي جاءت أمينة وصادقة.

من ثم اهتم كثير من الباحثين وبعض المنظّمات بدراسة العديد من الشخصيات الإسلامية البارزة لإظهار فكرهم التربوي للإفادة منه في بناء نظرية تربوية إسلامية معاصرة التي تصلح لحاضرنا ومستقبلنا.

ومن الشخصيات الإسلامية التي كان لها دور بارز في النظام التربوي الإسلامي الإمام جعفر بن محمد الصادق، حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أسهم إسهاما فاعلا في دفع عجلة التربية إلى الأمام، فهو مرتّ قدير تتلمذ على يديه عدد من العلماء البارزين، وقد خلف من بعده من إرشادات و تعاليم، و تراث موسوعيّ يفتح على كل قضايا الإنسان في حياته الفردية

و الاجتماعية و الذي يتّضح من دراسته مدى قيمته اتفاقه مع الكتاب و السنّة. كما قال الإمام جعفر بن محمد نفسه:

«حديثي حديث أبي، و حديث أبي حديث جدّي، و حديث جدّي حديث الحسين، و حديث الحسين حديث الحسن، و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين علي، و حديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، و حديث رسول الله قول الله تعالى»(1).

من أجل هذا، أردت الإسهام في هذا الموضوع، و الهدف منه لا يقف عند إبراز دور هذا المفكر في الحضارة الإنسانية، إنّما يتعدّى ذلك إلى تبيين فكره و توظيفه في التربية المعاصرة، خصوصا أنّ عصره كان عصر ثقافات أجنبية متعددة و أيضا ديانات مختلفة، و من ثمّ فقد عاش في عصر أقرب إلى عصرنا هذا الذي نعيش فيه.

و لقد حاولت - قدر استطاعتي - إعطاء صورة واقعية لقضايا التربية عند الإمام، و لا أظن أنني بهذه الأطروحة قد أتيت على كل آراء الإمام جعفر الصادق التربوية، و ربّما فاتني الكثير منها، و هذه الدراسة لا تمثل كل النظام التربوي لديه، بل تمثل جزءا من آرائه في التربية، و هناك دراسات كثيرة يجب الكشف عنها و إخضاعها للبحث و الدراسة، لعلّها تكشف عن أصالة الفكر التربوي في الإسلام.

أسباب اختيار الدراسة:

ثمة دوافع دفعتني إلى اختيار هذه الدراسة جملة منها:

أولاً: التربية الإسلامية تختلف عن غيرها من النظم التربوية في إعداد الإنسان للحياة الدنيا و الآخرة، و مما لا شك فيه أن استقراء مناهج هذه التربية عند المفكرين الإسلاميين يضعنا في خندق المواجهة مع أزمة التربية الإسلامية اليوم، و السعي لإيجاد النظام التربوي الإسلامي الذي يعيد إلينا كرامتنا و يعود بنا إلى الإسلام.

ثانياً: كشف الفكر التربوي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق المفكر، العالم، الذي كان له مدرسة نموذجية في تربية الإنسان و الأخذ بمنهجه للسعي باتجاه وضع الماضي في خدمة الحاضر و المستقبل.

ثالثاً: عند ما بحثت في المكتبات الإسلامية وجدت على الرغم من قيام عدد من الدارسين بالدراسة في شخصية الإمام الصادق و مناهجه في المواضيع المختلفة كالمنهج الفقهي و السياسي لم يتعرضوا إلى أفكاره التربوية، الذي اهتم بها اهتماما بالغاً في حياته كلها. و قد رميت إلى تبيين هذه الفكرة من خلال هذه المحاولة المتواضعة مع الالتزام بقواعد المنهج العلمي.

إشكالية الدراسة:

آمل أن أتمكن من خلال هذه الأطروحة من الإجابة عن هذا التساؤل الرئيسي:

ص: 10

ما النظام التربوي الإسلامي في مدرسة الإمام الصادق؟ و من الذي يمثل الشخصية الصالحة عند الإمام، و كيف يمكن تربيته؟

و يترتب على ذلك طرح تساؤلات فرعية مثل:

- ما الأسس التي تقوم عليها التربية في فكر الإمام الصادق؟

- ما الميادين التي تقوم فيها التربية عند الإمام؟

- ما أهم المبادئ و الأساليب التربوية في مدرسة الإمام؟

صعوبات الدراسة:

قد تعرضت لصعوبات كثيرة في هذه الدراسة و منها:

- كثرة تراث الإمام جعفر من أقواله و رسائله و خطبه و حكمه، لأنّه ليس شخصية عاديّة، محدودة الأبعاد، و الفكر، و محدودة الآراء، فيصعب الإمام بأطرافه.

- إنّ الإمام الصادق رغم كثرة تعاليمه لم يترك لنا كتابات تربوية مستقلة كسائر التربويين و مع ذلك في كل ما قاله الإمام، تربية.

- صعوبة استخراج و تنسيق آراء الإمام التربوية و تبويبها، نظرا لأنّها متناثرة في مجالات مختلفة و التي تؤدي إلى البحث في هذه المجالات العديدة كلها.

- عدم وجود أبحاث سابقة في هذا الموضوع.

منهج الدراسة و حدودها:

اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي - الاستردادي - باعتباره المنهج الذي يرجع إليه في تحليل الظروف السياسية و الاجتماعية و الثقافية في ذلك العصر، إضافة إلى المنهج الوصفي - التحليلي عند تتبع آراء الامام جعفر لاستنباط أفكاره التربوية.

لا بد لاستقصاء أقوال الإمام في هذه الدراسة من العودة إلى كافة المصادر المقبولة عند المسلمين، و هذا لا يعني أنني وثقت بكل ما روي عن الإمام الصادق، لأن وجود الكذابين و الوضاعين بين الرواة حقيقة، أشار إليها الإمام نفسه، حيث قال:

«إنّ الناس قد أولعوا بالكذب علينا و إنّي أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير وجهه و ذلك أنّهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله و إنما يطلبون الدنيا و كل يحب أن يدّعي رأساً»(1).

من أجل ذلك فقد سلكت في هذا الطريق ذلك الأسلوب الذي أشار إليه الاستاذ محمد أبو زهرة في دراسته عن الإمام الصادق بقوله:

«نتلقى منه ما لا يعارض كتاباً أو سنة بل نجد فيها تأثيراً لأحكامها و ما اشتملا عليه من عقائد و تتفق مع ما عرف عن الصادق رضي الله عنه»(2).

- 1- محمد بن الحسن الطوسي، اختيار معرفة الرجال، مؤسسة آل البيت، قم، ج 1، ص 247.
- 2- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق حياته وعصره، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993، ص 76 (بتصرف).

و هذا هو المعيار ذاته الذي قرره الإمام جعفر نفسه لطلاب الحقيقة، حيث يقول: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق الكتاب و السنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة»⁽¹⁾.

أمّا الحدود الزمنية للبحث فإنها تقتصر على الفترة ما بين سنة 80 حتى سنة 148 هـ: ق، حياة الإمام جعفر، رغم أنني أشرت إلى فترة سابقة، لأن فكره له ارتباط بذلك.

الدراسات السابقة:

لا جرم أن بحوثاً و دراسات قيمة كثيرة قد أنجزت لحد الآن حول شخصية الإمام الصادق، و وضعت العديد من الكتب في هذا المضمار. و قد ركزت هذه الدراسات غالباً على شخصية الإمام من زوايا عقدية و سياسية و دعوية مختلفة، و سلطت الضوء قبل كل شيء على آرائه الفقهية باعتباره زعيم أحد المذاهب الإسلامية. من بين أهم هذه الكتب يمكن الإشارة إلى:

كتاب الأستاذ أبو زهرة بعنوان: «الإمام جعفر بن محمد، حياته و آراؤه، عصره و فقهه» و كتاب «الإمام الصادق رائد السنة و الشيعة» من تأليف الدكتور عبد القادر محمود.

إلا أن أياً من هذه المؤلفات لم تتجه اتجاهاً تربوياً، و لم تكتب بغية استخلاص الآراء و الأساليب التربوية لهذا المعلم المبرز في تاريخ المسلمين.

و مع أن كثيراً من الآراء و الأفكار التربوية لهذا المفكر ممكنة الرصد في ثنايا هذه الكتب، و كذلك الكتب المؤلفة حول الأفكار التربوية لمذهب الإمامية ككتاب: «الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية» تأليف أمير علاء الدين قزويني، و كتاب «تاريخ التربية عند الإمامية» لعبد الله فياض، بيد أن أياً من هذه الدراسات لم تعن بالجانب التربوي لفكر الإمام الصادق. و على الرغم من أهمية هذا الجانب و ضرورته إلا أن دراسة علمية مستقلة لم تظهر في هذا الميدان (في حدود علمي).

من هنا فقد حاولت في هذه الأطروحة التركيز على هذا البعد المنسي و كشف النقاب عن الأفكار و الأساليب و الآليات التربوية لدى الإمام بقصد اكتشاف النظام التربوي العام عند هذا المعلم و المربي الكبير.

خطوات الدراسة:

تتكون الدراسة من فصل تمهيدي و خمسة فصول:

فصل تمهيدي: التربية من المنظور الإسلامي

في مستهل هذا الفصل تم تعريف التربية لغوياً و اصطلاحياً، و جرى الحديث عن

اهمية التربية الإسلامية و مكانتها. ثم أشير إلى العوامل المؤثرة في التربية الإسلامية، ولا يفوتني أن أسلط الضوء بعد ذلك على مصادر و خصائص التربية الإسلامية التي تميزها عن التربية البشرية. و في الخاتمة تمت الإشارة إلى أهداف التربية الإسلامية و بعض أبرز أساليبها.

الفصل الأول: «دراسة شخصية الإمام جعفر بن محمد»

يشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث. و قد حاولت في المبحث الأول أن أقدم صورة للخصائص البارزة في عصر الإمام الصادق. و عنيت في المبحث الثاني بمراجعة عاجلة لحياة الإمام مسأطة الضوء على المنزلة العلمية للإمام و تصورات العلماء و الشخصيات الإسلامية حوله، و سمات مدرسته الفكرية و التلامذة الذين تخرجوا منها.

المبحث الثالث يحمل عنوان «إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق» و يعالج الإطار العام للعملية التربوية من منظور الإمام، و من ذلك الرؤى الأساسية في المقولات الثلاث (الله - الكون - الإنسان)، و العوامل المؤثرة في التربية من وجهة نظر الإمام، و كذلك طرائق التربية و التعليم. و لا يفوتني أن أشير في هذا البحث كذلك إلى التربية الجسمية و الروحية التي عني بها الإمام في مدرسته عناية بالغة، كما تم التطرق باختصار إلى مكانة و أهمية تربية الأطفال في فكر الإمام الصادق.

في الفصل الثاني فما بعد تناولت بالتفصيل في كل واحد من الفصول أبعادا تتعلق بمجالات مختلفة في تربية الإمام و قدمت أهم النقاط ذات الصلة بهذه الأبعاد. فكانت مضامين الفصول كما يلي:

أما الفصل الثاني فإنه يختص «بالتربية العقيدية و التعبدية» في مدرسة الإمام، و يشتمل على مبحثين: في المبحث الأول عمدت ابتداء إلى تعريف العقيدة و بيان أهميتها في الإسلام و تصورات الإمام الصادق، ثم انتقلت إلى عرض منهج الإمام في خلق و تكريس العقيدة الإسلامية على أساس محورين، الأول: تكوين العقيدة الصحيحة، و المشتمل على أساليب الإمام في تحكيم الأركان العقيدية الستة. و الثاني: تحصين الأمة عن التيارات المنحرفة و الخاطئة، حيث تم التطرق لأساليب الإمام في صيانة الأمة الإسلامية من الشبهات و الفتن الفكرية الوافدة من خارج الإسلام كالإلحاد و الزندقة، و كذلك الانحرافات داخل الإسلام من قبيل الأفكار المغالية و المتطرفة.

أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد خصص لتربية روح العبادة لدى أفراد المجتمع.

و قد تناولت فيه المفهوم العبادة و أهميتها في مدرسة الصادق، و كيفية تعليم فقه العبادات من قبل الإمام، و التربية الروحية عن طريق مظاهر العبادة كالصلاة و الحج و... الخ.

و ذكرت في هذا المبحث ايضا «الالتزام بالنظرية و التطبيق» و «التركيز على الاعتدال» هما السمتان الرئيستان لمنهج الإمام.

الفصل الثالث خصصته لمنحى الإمام في «التربية العلمية و العقلية» لتلاميذه، و يضم

مبحثين: المبحث الأول يختص بأهمية العلم و صفات المعلم و المتعلم من وجهة نظر الإمام. و أخيرا تم بحث و دراسة أبرز الأساليب التعليمية عند الإمام.

أما أهم عناوين المبحث الثاني في هذا الفصل فهي: مكانة العقل في مدرسة الإمام، علاقة العقل بالدين و الأخلاق، أساليب تنمية العقل و طريقة التفكير المنطقي و العلمي، و يختص الفصل الرابع بأبرز منحى للإمام في التربية ألا و هو «التربية الأخلاقية و الاجتماعية»، و يحتوي مبحثين اثنين: في المبحث الأول الخاص ببنية السلوك الفردي لدى الإنسان الصالح من وجهة نظر الإمام الصادق، تطرقت إلى ماهية الأخلاق و مكانتها في الأفكار التربوية للإمام، و كذلك أهداف و أساليب هذا المربي الكبير في المضمير المذكور.

خلق رصيد معرفي للسلوكيات، إلى جانب إيجاد حالة الحب و الإقبال على الفضائل الأخلاقية، بالإضافة إلى آليات تعزيز الإرادة الفردية من جملة أصول و مبادئ التربية الأخلاقية عند الإمام التي تناولناها بالبحث و الدراسة.

المبحث الثاني في هذا الفصل مخصص لاتجاهات الإمام في التربية الاجتماعية، و كيفية تنمية الشعور بالمسؤولية لدى الفرد تجاه الآخرين - سواء كانوا أفراد عائلته أم أقباه أم اصدقاءه أم جيرانه أم سواهم - و في النهاية جرى الحديث عن أهم المبادئ التربوية للإمام في إيجاد السلوك الاجتماعي المناسب لدى الإنسان الصالح، و منها: الأخوة، و التكافل، و الصدق، و الأمانة، و الإصلاح الاجتماعي.

أما الفصل الخامس و هو آخر فصول هذه الأطروحة فيحمل عنوان «التربية الاقتصادية و المهنية» و يشتمل أيضا على مبحثين:

درست في المبحث الأول مناهج التربية الاقتصادية عند الإمام ضمن محورين، الأول في المجال النظري حيث بينت جهاد الإمام من أجل صياغة رؤية صائبة (مستخلصة من الإسلام) بخصوص المال و الملكية و الكسب و الربح. و الثاني في المجال العملي حيث أوضحت كيفية تربية الإنسان المسلم على أساس نموذج صحيح للإنتاج و الاستهلاك في مدرسة هذا المعلم الكبير.

في المبحث الثاني من الفصل الأخير تطرقت إلى أهمية الشغل و المهنة من وجهة نظر الإمام إلى جانب ضوابط و أخلاقيات المهنة عند الإنسان الصالح.

و هكذا نصل إلى نهاية دراستنا بخصوص الفكر التربوي للإمام جعفر الصادق.

و في خاتمة الدراسة قد تناولت باختصار بعض السمات المميزة للمنهج التربوي للإمام جعفر بن الصادق.

أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في معالجة هذا الموضوع.

فصل تمهيدي التربية من المنظور الإسلامي

- مفهوم التربية الإسلامية وأهميتها:

- العوامل المؤثرة في التربية الإسلامية:

- مصادر التربية الإسلامية وسماتها:

- أهداف التربية الإسلامية وأساليبها:

ص: 15

لم يعد خافيا على أحد ما للتربية، بمفهومها الواسع و مضامينها العريضة، من أثر و أهمية في حياة الأفراد و المجتمعات و تجددتها.

إن التربية إنما تكون قاعدة أساسية لتطور الإنسان و ارتقائه فكريا فيما إذا استهدفت الازدهار التام لشخصيته و عنيت بغرس النزعات الخيرة في نفسه، و إذا لم تعن بذلك فإن الإنسان يفقد أصالته و ذاته.

فهي عملية اجتماعية تختلف من مجتمع إلى آخر حسب طبيعة المجتمع و القوى المؤثرة فيه و القيم التي اختارها، ليسير عليها في حياته.

فالتربية بهذا المعنى وسيلة و هدف، طريقة و غاية، تبدأ من بدء الحياة، و لا تنتهي برغم نهاية حياة الأفراد؛ لأنها عملية اجتماعية تخص المجتمع، كما تخص كل فرد فيه.

و الحديث عن التربية الإسلامية يستند إلى الحديث عن الإسلام نفسه؛ لأن الإسلام دين للبشر كافة، و لأنه نظام يتضمن كل ما يتصل بحياة الإنسان من جوانبها المختلفة ككل⁽¹⁾ «و هو منهج ربّاني للحياة البشرية، ينظم شؤونها في الدنيا في كافة المجالات للفرد و الأسرة و المجتمع، فيضمن للإنسان الفرد، و الإنسان الأمة، و الإنسانية جمعاء إذا ما اتقوا ربهم في القول و العمل، السعادة في الدارين»⁽¹⁾.

فالتربية الإسلامية هي تلك التربية التي تجمع بين «تأديب النفس، و تصفية الروح و تثقيف العقل و تقوية الجسم فهي تعنى بالتربية الدينية و الخلقية و العلمية و الجسمية دون تضحية بأي نوع منها على حساب الآخر»⁽²⁾.

ص: 17

1- - إسحاق أحمد فرحان و آخرون، نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية و التعليم، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية، 1399 هـ، ص 10، (بتصرف).

2- أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 9.

أ - التربية لغة:

إذا تتبعنا معنى مصطلح التربية من الناحية اللغوية فإننا نجد أنه يعود إلى أصول لغوية ثلاثة وهي:

الأصل الأول: ربا، يربو بمعنى: نما، ينمو وزاد، يزيد

وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى: وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّاً لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ (1).

وقال الراغب الأصفهاني (2): الربّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام (3).

كما يقول البيضاوي (4) في تفسيره: فرّباه بمعنى نمّاه، و التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا، ثم خرجت الكلمة إلى وصف الله تعالى على سبيل المبالغة (5). ويقول الفيروزآبادي (6) في القاموس المحيط: ربّ جمع وزاد (7).

و الأصل الثاني: ربّي، يربّي بمعنى نشأ وترعرع.

ص: 18

1- سورة الروم جزء من الآية 39.

2- هو الحسين بن محمد بن المفضل، (ت 502 هـ) المعروف بالراغب الاصفهاني، من علماء التفسير واللغة، من كتبه: تحقيق البيان في تأويل القرآن، مفردات ألفاظ القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة (عادل نويهض، معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسس نويهض الثقافية، بيروت، 1988، ج 1، ص 158 و 159).

3- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، كتاب الرءاء، الدار الشامية، بيروت، 1992، ص 336.

4- عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد أو أبو الخير ناصر الدين البيضاوي (م 685 هـ) قاض، مفسر، علامة، ولد في المدينة البيضاء (قرب شيراز) وتوفي في تبريز. من تصانيفه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» في التفسير و«لب اللباب» في علم الإعراب و«طوالع الأنوار» في التوحيد». (الزركلي: الأعلام، 110/4).

5- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، 1968، ج 1 ص 7.

6- محمد بن يعقوب بن الفيروزآبادي (ت 817 هـ) ولد في شيراز، وتوفي في زيد باليمن، من أئمة اللغة والأدب، من كتبه القاموس المحيط وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. (الزركلي: الأعلام، 146/7).

7- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987، ماده ربّ.

و عليه قول ابن الأعرابي(1):

فمن يك سائلا عني فإني بمكة منزلي و بها ربيت

و الأصل الثالث: ربّ يرّب بمعنى: أصلح، و ساس، و رعا، و تولى. و من هذا المعنى قول حسان بن ثابت(2) كما أورده ابن منظور(3) في لسان العرب:

و لأنت أحسن إذ برزت لنا يوم الخروج بساحة القصر

من درة بيضاء صافية مما ترّبّب حائر البحر

و قال: يعني الدرّة التي يربّيها في الصّدف في قعر الماء، و بيّن بأن معنى:

ترّبّب حائر البحر: أي مما ربّبه و ترببه أي رباه مجتمع الماء في البحر.

قال: و ربيت الأمر أرّبّه ربّا و ربابا: أصلحته و متنته.

و قال: ربّ ولده و الصبي يرّبّه ربّا... وليّه حتى يفارق الطفولية.(4)

و يمكن استنباط مجموعة من العناصر من خلال هذه الأصول اللغوية:

«أولها: المحافظة على فطرة الناشئ و رعايتها.

ثانيها: تنمية مواهبه و استعداداته كلها، و هي كثيرة متنوعة.

ثالثها: توجيه هذه الفطرة و هذه المواهب كلها نحو صلاحها و كمالها اللائق بها.

رابعها: التدرج في هذه العملية، و هو ما يشير إليه البيضاوي بقوله: (...)

شيئا فشيئا) و الراغب بقوله: (حالا فحالا...)(5).0.

ص: 19

1- محمد بن زياد (150-231 هـ) المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله، رواية، ناسب علامة باللغة، من أهل الكوفة، و مات بسامراء له تصانيف كثيرة منها «تاريخ القبائل» و «النوادر» و «تفسير الأمثال» و «معاني الشعر». (الزركلي: الأعلام، - 131/6).

2- حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد (م 54 هـ) الصحابي، شاعر النبي صلّى الله عليه و سلّم و أحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية و الإسلام، كان من سكان المدينة، كان شاعر الأنصار في الجاهلية، و شاعر النبي في النبوة و شاعر العمانيين في الإسلام. و عمي قبل وفاته. (الزركلي، الأعلام 175/2)

3- محمد بن مكرم بن علي بن منظور (ت 711 هـ)، ولد و توفي في مصر، من أئمة اللغة و الأدب، من كتبه معجم لسان العرب. (الزركلي،

4- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج 1، مادة رب، ص 401.

5- عبد الرحمن الباني، مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، المكتب الإسلامي، دمشق، 1400، ص 20.

للتربية في الاصطلاح تعريفات كثيرة، تتلاقى أو تتقارب في مضمونها، ولعل أكثرها وضوحاً التعريفات الثلاثة الآتية:

«التربية عملية قصدية، يتم عن طريقها، توجيه الأفراد الإنسانيين، لنموهم»⁽¹⁾.

وجاء في تعريف آخر للتربية بأنها «العملية المقصودة أو غير المقصودة، التي اصطنعها المجتمع، لتنشئة الأجيال الجديدة، بما يسمح بتنمية طاقاتهم وإمكاناتهم إلى أقصى درجة ممكنة، ضمن إطار ثقافي معين، قوامه: المناهج، والأفكار، والنظم التي يحددها المجتمع»⁽²⁾.

ومن أشمل التعريفات الواضحة التي تراعي التكامل بين الجانبين الفردي والاجتماعي للشخصية الإنسانية، هو التعريف التالي: «التربية عملية تشكيل الشخصية السوية المتكاملة في جميع جوانبها روحياً وعقلياً وجدانياً وخلقياً واجتماعياً وجسمياً والقادرة على التكيف مع البيئة الاجتماعية والطبيعية التي تعيش فيها»⁽³⁾.

والمقصود من التربية الإسلامية أنها: «تنشئة و تكوين إنسان مسلم متكامل من جميع نواحيه المختلفة من الناحية الصحية، والعقلية، والاعتقادية، والروحية، والأخلاقية، والإدارية، والإبداعية في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام، وفي ضوء أساليب التربية التي بينها»⁽⁴⁾.

هذه التربية عملية مستمرة تمتد منذ طفولة الإنسان، وتستمر حتى وفاته.

وما دام الدين هو الحياة، فالتربية الإسلامية هي الحياة إذن، فهي لا تعني فقط الأخلاق أو العقائد أو العبادات، بل إنها تعني ما هو أعظم من هذا وأكبر،

ص: 20

1- فيليب ه فينكس، فلسفة التربية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965، ص 28 (بتصرف).

2- سيف الدين فهمي، وسليمان نسيم، مبادئ التربية الصناعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967، ص 4.

3- عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993، ص 25.

4- مقداد يالجن، جوانب التربية الإسلامية، مطابع القصيم، الرياض، 1985، ص 29.

بحيث يمكن القول «إن التربية الإسلامية تعني منهجا كاملا للحياة، وللنظام التعليمي بكامله، و مكوناته»(1).

ج - أهمية التربية الإسلامية:

تبرز أهمية التربية الإسلامية في الارتقاء بالإنسان نحو الكمال، «و هوية الأجيال المسلمة لا تشكّل إلا بهذه التربية عن طريق المفاهيم الإسلامية و القيم الأصيلة و الأفكار العملية الناضجة و الاتجاهات البتاء الصادقة بعد تجسيدها إلى سلوكيات و أعمال مفيدة»(2). فإننا بالتربية الإسلامية نحرر الإنسان من أن يكون عبدا لحاجاته و دوافعه و رغباته، و نربي فيه المعالي و الهمم التي تجعله متطلعا للغايات الكبرى و الأهداف النبيلة، يحمل الخير و يسعى للخيرية، يحب الفضيلة و يتحلى بالفضائل، يتطهر من الرذيلة و ينفر من الرذائل، يسهم في تلبية حاجات الإنسانية في التهذيب و السلوك السوي، و كذلك بالتربية الصالحة نحمي أمتنا من أن تتربى على الفساد بكل أشكاله و التبعية بكل صورها، و نحميها من أن ينشأ فيها جيل ينتمي لغير أمته فكرا و سلوكا، و لا ينسجم مع البيئة الإسلامية التي نشأ فيها و تربى على أرضها.

- العوامل المؤثرة في التربية:

أشارة

مما لا شك فيه أن البشر متفاوتون متميزون بعضهم من بعض، بحيث لا يتطابق اثنان منهم تطابقا كاملا.

و من المعلوم أن العلماء و المفكرين اتفقوا على أن الشخصية الإنسانية تتأثر في تكوينها و تفاعلاتها المختلفة، بعاملين رئيسيين هما: العامل الداخلي أو الذاتي الذي يعرف بعامل الوراثة، و العامل الخارجي أو المكتسب الذي يعرف بعامل البيئة.

«و يتضافر هذان العاملان، منذ اللحظة الأولى في حياة الفرد و حتى موته في تكوين شخصيته»(3).

ص: 21

1- علي خليل مصمصطفى أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مكتبة إبراهيم حلبي، المدينة المنورة، 1980، ص 133.

2- علي خميس الغامدي، الإنسان الصالح و تربيته من منظور إسلامي، دار الطيبة، مكة المكرمة، 2003، ص 11.

3- عبد العزيز القوصي، أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1988، ص 15، (بتصرف).

أ - عامل الوراثة:

عرف البشر تأثير الوراثة في النبات و الحيوان منذ زمن طويل، إذ اكتشفوا أن البذرة الجيدة الصفات تنتج نبتة قوية ترث عنها صفاتها العامة و خصائصها البيولوجية، و تعطي ثمارا صحيحة جيدة كذلك، و أن النبتة المريضة أو المصابة أو الضعيفة تنتج ما يتوافق مع صفاتها.

و الإنسان مثل بقية المخلوقات، يتأثر بالوراثة، إذن «لم تكن البشرية تجهل قانون الوراثة تماما فيما مضى، بل كانوا يجهلون خصوصياتها. إن علماء الماضي كانوا يعلمون أن في بذرة الزهرة و نواة الشجرة و نطفة الإنسان و الحيوان ذخائر تنقل صفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة»(1).

و قد أقر الإسلام مبدأ الوراثة في خصائص الأفراد، فمسألة اختيار الزوج التي لفت إلى أهميتها تقوم على مبدأ الوراثة، على نحو ما بيّنه النبي صلى الله عليه و سلم في حديثه الشريف: «تخيروا لنطفكم فإنّ العرق دساس»(2).

و الحديث يشير إلى أن أخلاق الآباء تنتقل إلى الأبناء بمعنى أنه في حال توافرت في الآباء صفات الصلاح و الفلاح و الأخلاق الفاضلة، و النزعات الكريمة و الميول الحسنة و النوايا الطيبة لا بدّ و أن يكون للطفل نصيب منها و هو في بطن أمه. و سيكون على عكس ذلك فيما لو طغت نزعات الشقاء على والديه.

ب - عامل البيئة:

إشارة

أكد الباحثون المتخصصون على أهمية تأثير عامل البيئة في العملية التربوية، و تكوين شخصية الناشئين منذ فجر حياتهم الأولى.

إن الإنسان لا يخضع في سلوكه لتكوينه الداخلي فحسب، وإنما يخضع للعوامل الخارجية التي تتفاعل معه، و تؤثر فيه. و بذلك تطبع البيئة آثارها في دوائر النفس، و تكسبها الخلق و العادات.

البيئة الأولى للإنسان و هي رحم الأم، التي يحصل منها الجنين على مقومات بقائه. و لذا طلب الشارع من النساء تناول الغذاء الذي تتوافر فيه العناصر اللازمة

ص: 22

1- محمد تقي فلسفي، الطفل بين الوراثة و التربية، دار المعارف للمطبوعات، بيروت، 1987، ج 1، ص 60.

2- أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، ح 46، يدسه، دسا، إذا أدخله في الشيء بقهر و قوة. (ابن منظور، لسان العرب، مادة دسس).

لتكوين الجنين و حمايته و اكتمال نموه. كما طلب من الأم أن تبقى بحالة نفسية هادئة، لأن «حالة الأم النفسية تؤثر على صحة الجنين كما تؤثر في نفسيته مستقبلاً»(1).

و يتعرض الإنسان بعد ولادته للعديد من المؤثرات البيئية المختلفة، و هذه البيئة إما أن تكون طبيعية و إما اجتماعية:

فالبيئة الطبيعية و يقصد بها كل ما يحيط بالإنسان من الأمور المادية، تتمثل في المناخ و ما يشتمل عليه، الأرض ظاهرها و باطنها و موقع البلد و...، تؤثر في ألوان الناس و أجسامهم و عقولهم و أخلاقهم و عاداتهم، أما المجتمع البشري الذي يحيط بالإنسان و ما يربط بين أفراد هذا المجتمع من صفات مشتركة و علاقات متبادلة و عادات و تقاليد و نظم متبعة، كل ذلك يشكل البيئة الاجتماعية. فهي «تكوّن الميول العقلية و العاطفية في سلوك الأفراد إذ تدفعهم إلى ألوان من الأعمال تذكى فيهم ضروريا من البواعث»(2).

و لذلك حينما نتكلم عن البيئة الاجتماعية للطفل نقصد بها الأجواء الاجتماعية التي تحتضنه، و تؤثر في أدوار نموه و تكامله، كالعقائد و الأعراف و التقاليد و طريقة التفكير.

و الإنسان يمر ببيئات تربوية متعددة، ابتداء بالأسرة و مروراً بغيرها من الجماعات كجماعة اللعب و الجوار و المدرسة و العمل و غيرها، و في كل هذه المراحل يكون عرضة للمؤثرات المختلفة التي تشكل شخصيته وفق العادات و التقاليد التي تتسجم مع نظرة هذه الجماعات إلى الحياة. و يمكن تلخيص البيئة الاجتماعية بالمجالات الآتية:

- الأسرة.

- المدرسة.

- المجتمع.9.

ص: 23

1- سليمان أحمد عبيدات، الطفولة في الإسلام، جمعية المطابع التعاونية، العمان، 1989، ص 39.

2- محمد ناصر، قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات للنشر، 1977، ج 1 ص 459.

فالأسرة تمثل المدرسة الأولى لتشكيل وتوجيه سلوك الفرد وعاداته و طابعه.

«ويعتبر الأب و الأم القدوة المثلى للأبناء، يرون فيهما صورة الكمال و يقلدونهما و يحاكونهما في سلوكهما و تصرفاتهما، و يكتسبون بطريقة لا شعورية، كثيرا من القيم و المبادئ و المثل و الفضائل الأخلاقية، و ما يفتقر إليه الأبوان من السمات و الصفات الصالحة ينعكس في مفهوم الأبناء الأخلاقي»⁽¹⁾.

ولذلك قد أوصى الرسول صلى الله عليه و سلم باختيار الزوجة الصالحة ذات الدين حتى تنشأ أولادها تنشئة صالحة، و تغرس في نفوسهم التمسك بالدين و مكارم الأخلاق. قال الرسول صلى الله عليه و سلم: «تنكح المرأة لأربع: لجمالها و لجسمها و لدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»⁽²⁾. و كذلك أوصى الرسول باختيار الزوج الصالح ذي الدين و الخلق الطيب فقال: «إذا خطب إليكم من توفون دينه و خلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض و فساد عريض»⁽³⁾.

إن اهتمام الرسول صلى الله عليه و سلم بتوجيه أصحابه إلى اختيار الزوج الصالح و الزوجة الصالحة إنما يدل على اهتمامه بتهيئة الجو الأسري الصالح للطفل لكي ينشأ نشأة سليمة صالحة، يتربى فيها تربية حسنة، و يتعلم فيها من والديه التعاليم الإسلامية الصحيحة، و العادات الحسنة، و الأخلاق الحميدة.

و بما أن الفرد «في هذه البيئة الاجتماعية الصغيرة يتلقى أول إحساس بما يجب و ما لا يجب القيام به»⁽⁴⁾، فقد جعل الإسلام لها قيمة اجتماعية مفروضة، و شرع لها قوانين تضبطها و دعا إلى إنزال أشد العقوبات على من يتعدى عليها، و ينتهك حرمتها.

المدرسة

إنّ المدرسة تتم دور الأسرة في تربية الطفل، «فهي المكان الذي يمكن أن تساعد فيه الأطفال على تنمية عقولهم و حواسهم بطريقة منظمة و مخططة و منسقة، و ذلك بتهيئة الجو المناسب لهم من حيث حرية السؤال و التعبير عن الآراء

ص: 24

1- عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 163.

2- أخرجه أبو داود في سننه، ح 2047.

3- أخرجه الترمذي في سننه، ج 4، ص 305.

4- محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية، بيروت 1978، ص 67.

و المناقشة و الإفصاح عن آرائهم بما يتناسب مع مستواهم العقلي»(1).

و المعلمون في المدارس ممثلون للقيم، و إن كانوا يختلفون فيما بينهم، إلا أنهم يتشابهون فيما يجلبون من بعض قيم كقيمة النظام و المعرفة و احترام الكبير، من هنا فإن المعلم يحظى بالاحترام و التقدير في كثير من المجتمعات، نظرا للدور العظيم الذي يقوم به في تربية الناشئة. و لذلك تؤدي المدرسة دورا مهما في التربية، فالبيئة الاجتماعية فيها أوسع من بيئة المنزل و أكثر تنوعا و أكثر ثراء فيما تقدمه من خيارات في المجال التربوي.

المجتمع

المجتمع هو الدائرة الأوسع التي يعيش فيها الإنسان، يتأثر بما يسود فيها من قيم، و يؤثر فيها، يأخذ منها و يعطيها، يلهمها و يستلهم منها، نتيجة التفاعل الذي يحدث بينه و بين أفراد المجتمع.

ففيه تنشأ العلاقات بين الأفراد أو الجماعات، و يستطيع المجتمع بما يحمله من قيم و مبادئ أن يعطي الفرد القدرة على حسن التعامل مع الآخرين، و المشاركة في التفاعل الاجتماعي، و إحراز مكانة في الجماعة الذي ينتمي إليهم.

فإن المجتمع بهيئاته المختلفة: كالمؤسسات التعليمية و الثقافية، و الروابط الاجتماعية و المهنية و السياسية و غيرها ذو أثر كبير في سلوك الفرد و قيمه و اتجاهاته.

و قد عني الإسلام بصورة بالغة في أمر البيئة الخاصة، فلاحظ أهم جوانبها المؤثرة في انفعال الفرد و إكسابه العادات و الأخلاق، و منها «الصدقة»، فإنها من أقوى العوامل التربوية التي تنقل خلق كل واحد و اتجاهاته و ميوله إلى الآخر.

قال النبي صلى الله عليه و سلم: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخال»(2).

و قد حث الإسلام بإصرار بالغ على مصاحبة الأخيار، و الملتزمين بدينهم، و مصاحبة ذوي الشرف و النبل و الاستقامة حتى يكتسب منهم حسن السلوك و مكارم الأخلاق، و محاسن الأعمال.

و حذر من مصاحبة الأشخاص المصابين ببعض الأمراض النفسية و العاهات الأخلاقية.

و قال النبي صلى الله عليه و سلم: «إنما مثل الجليس الصالح و الجليس السوء كحامل المسك

ص: 25

1- سيف الإسلام علي مطر، التغيير الاجتماعي دراسة تحليلية من منظور التربية الإسلامية، دار الوفاء، القاهرة 1986، ص 67.

2- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، ح 4833.

و نافع الكبير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة. و نافع الكبير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد فيه ريحا خبيثة»(1).

و لذلك أجمع المعنيون في البحوث التربوية أن «المجتمع من أهم العوامل التي تعتمد عليه التربية و تستغله في تشكيل الشخصية الإنسانية و تحقيق رغبات الأفراد و الطبقات داخل النطاق الحضاري العام، كما تعمل على تحقيق درجة عالية من التكامل الاجتماعي، كما أنها في الوقت نفسه، تقلل من ظهور التوترات، و مظاهر السلوك المنحرف»(2).

- مصادر التربية الإسلامية و سماتها:

إشارة

إنّ التربية في الإسلام تعنى بإيصال الإنسان إلى أرقى صور الكمال الإنساني، لذا عرفت هذه التربية بأنها عملية مقصودة تهدف إلى تنشئة الإنسان الكامل. و يزداد الكمال الإنساني كلما ازدادت طاعته لله سبحانه و تعالى، لذا فإن الهدف العام للتربية الإسلامية هو الإقرار بالعبودية لله سبحانه و تعالى». و ليس أدل على ذلك من قول الله تعالى:

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (3).

و هذا الهدف يتطلب تربية الإنسان على النحو الذي يمكنه تحقيق ذلك. «فإن التربية الإسلامية جزء لا يتجزأ من الإسلام نفسه، بل إن التربية الإسلامية يجب أن تكون انعكاسا و صورة واضحة للإسلام»(4) و هذا يعني بالضرورة أن تكون مصادر الإسلام هي مصادر التربية الإسلامية نفسها، و لها سمات خاصة تميّزها من سائر المناهج الوضعية. كما يلي:

أ - مصادر التربية الإسلامية:

إشارة

لكل تربية مصادر تستقي منها النهج الذي تسير عليه في تصوراتها، و نقصد بالمصادر تلك الينابيع و الأصول التي تستند إليها التربية في محتواها و أهدافها و خصائصها، «و ما دمننا نقول تربية إسلامية، معنى ذلك أن مصدرها الإسلام الذي دستوره القرآن الكريم، و هو المصدر الأول، و المصدر الثاني هو السنّة النبويّة الشريفة الشارحة للقرآن، المبيّنة لمقاصده و المفصلة لأهدافه»(5).

ص: 26

1- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر و الصلة، ح 2628.

2- باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1988، ص 120.

3- سورة الذاريات، الآية 56.

4- يعقوب حسين نشوان، المنهج التربوي من منظور إسلامي، دار الفرقان، بيروت، 1992، ص 257.

5- محمد منير سعد الدين، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، دار المحروسة للطباعة و النشر، بيروت 1992، ص 23.

و للقرآن الكريم وقع عظيم و أثر تربوي بالغ في نفوس المسلمين، و السر في ذلك أن له أسلوباً رائعاً و مزايا فريدة في تربية الإنسان على الإيمان بوحداية الله و باليوم الآخر.

و هكذا السّنة المطهّرة، لأن الرسول صلّى الله عليه و سلّم كان نموذجاً تربوياً كاملاً للإنسان، فهو مربّب عظيم ذو أسلوب تربوي فذّ يسمو بالفرد و ينهض بالمجتمع. على هذا فإن القرآن الكريم و السّنة النبويّة ينطويان على أصول تربوية تشكل أسس التصور الإسلامي للتربية كما يلي:

القرآن الكريم

إن أعظم و أهم مصدر تربوي في حياة المسلم هو القرآن الكريم، و لا غرو في ذلك، فهو كلام الخالق - سبحانه و تعالى - إلى خلقه، و هو الأدرى و الأعلم بهذا الخلق، و بما يحتاج إليه، و بما يفيدّه أو يضرّه؛ لقوله تعالى:

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (1).

و ممّا يدعو إلى الدهشة أن أول ما نزل من القرآن الكريم آيات تربوية حيث قال جل من قائل:

إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (2).

كما أقسم - تعالى - أحد عشر قسماً أن النفس الإنسانية قابلة للتربية (3) و التزكية و التسامي.

فإن آيات القرآن هي المتكفلة بهداية البشر و تربيتهم في جميع شؤونهم و أطوارهم، في أجيالهم و أدوارهم، و إذا ما نظرنا إلى الأسلوب القرآني من الوجهة التربوية، نجد ثمة المنهج التربوي القرآني الأصلاح في مناهج التربية التي عرفتها البشرية، و التي تحقّق انسانية الإنسان، لما له من أثر عظيم في إصلاح الفرد و الجماعة، و تربية الناشئة على القيم و الأخلاق.

السّنة النبوية المطهّرة

السّنة بالإجماع هي «ما أضيف إلى النبي صلّى الله عليه و سلّم من قول أو فعل أو تقرير أو وصف

ص: 27

1- سورة الملك، الآية 14.

2- سورة العلق، الآية 1-5.

3- سورة الشمس من قوله تعالى (وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا...) إلى قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) الآية (1، 10).

خُلِقِي أَوْ خُلِقِي(1). وقد أمر الله تعالى في كتابه العزيز بإطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل أمور الحياة بقوله تعالى:

وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا (2).

فالسنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وهي تمثل - في الوقت نفسه - مصدرا رئيسا من مصادر التربية الإسلامية، ولما كان القرآن الكريم دستورا يعالج كل أمور الحياة وقضايا الإنسان، ويتناول أصول التشريع فقد وكل الله عز وجل إلى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهمة إيضاح هذه الأصول، من بيان حكمة التنزيل في كل أمر من الأمور، وتفصيل الأوامر والنواهي التي جاءت عامة في القرآن الكريم، كما ورد في قوله - تعالى -:

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (3).

وكذلك تتناول السنة بيان تشريعات وآداب أخرى كما ورد في قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«ألا- وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»(4). فكل ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمور الدين ليس من لدنه وإنما هو بوحى من الله تعالى:

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (5).

ولذلك يعتبر تطبيقا عمليا لبناء مجتمع إسلامي متكامل، وفق التربية الربانية، وتحديدًا للمثل الإسلامي الأعلى للحياة الذي يستهدفه، وما يجب أن يسود فيه علاقات، وأساليب التعامل التي ترتقي به.

وقد بذل رسولنا الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهدا كبيرا في بناء النفس البشرية، ويمثل الجانب التربوي محورا من أهم المحاور في رسالته، ومن يدرس شخصيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسوف يجده مربيا عظيما ذا أسلوب تربوي فريد.

ولذلك كان «السنة النبوية في المجال التربوي فائدتان عظيمتان:

أ- إيضاح المنهج التربوي الإسلامي المتكامل الوارد في القرآن الكريم وبيان التفاصيل التي لم ترد في القرآن الكريم.

ب- استنباط أسلوب تربوي من حياة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه، ومعاملته الأولاد، وغرسه الإيمان في النفوس»(6).5.

ص: 28

1- نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992، ص 212.

2- سورة الحشر، جزء من الآية 7.

3- سورة النحل، جزء من الآية 44.

4- أخرجه أبو داود في سننه، باب لزوم السنة، ح 4604 وأحمد في مسنده ح 17172.

5- سورة النجم، الآية 3-4.

6- عبد الرحمن النحلوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1423، ط 2، ص 25.

جدير بالذكر إن الأمر الذي يجب أن لا- نغفل عنه أن التراث التربوي الإسلامي زاخر بآراء وأفكار تربوية التي خلفها علماؤنا السلف بجهودهم على امتداد قرون فعلينا الرجوع إلى هذا التراث لكونه إحدى المصادر في بيان معالم النظرية التربوية الإسلامية.

ب - سمات التربية الإسلامية:

إشارة

إن التصور الإسلامي للكون والإنسان والمجتمع ينعكس بوضوح على التربية الإسلامية و لذلك تشتمل هذه التربية جملة من الخصائص، والمميزات، والسمات التي تختص بها عملية التربية في الإسلام دون سواها. لأن «طريقة الإسلام في التربية فهي معالجة للكائن البشري كـ، معالجة شاملة لا تترك منه شيئا ولا تغفل عن شيء»⁽¹⁾.

فهي تربية صالحة لكل إنسان في كل مجتمع إنساني، وفي كل زمان ومكان. إنها تتصف بالرفعة والسمو وتمسّى مع فطرة الإنسان، «التي خلقه الله عليها لا تغفل شيئا من هذه الفطرة، ولا تفرض عليها شيئا ليس في تركيبها الأصل»⁽²⁾.

وفيما يلي نستعرض أهم تلك الخصائص والمميزات التي تنفرد بها التربية الإسلامية عما عداها:

ربانية:

التربية الإسلامية تربية إلهية تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهما مصدران موحى بهما من عند الله تعالى، فهي تربية ربانية، كونها من عند رب العالمين.

و الوصف بالإلهية يقابله الوضعية التي يضعها البشر من عند أنفسهم، وهو الواقع الذي ينطبق على كافة الأنماط التربوية خلا التربية الإسلامية، وشتان بين تربية وضعها البشر، وتربية وضعها رب العالمين الذي خلقهم، وهو أعلم بهم من أنفسهم.

والتربية الإسلامية تركز على غائية الخلق والوجود والمصير الإنساني، وما حَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ومهما طالت الحياة بالإنسان، فإن مصيره الموت، من هنا فإن «التربية القرآنية تجعل غايتها الخيرة، وهدفها البعيد، حسن الصلة بالله تبارك وتعالى والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية القرآن، وهي غاية الإنسان المسلم»⁽³⁾.

تكاملية شاملة:

التربية الإسلامية تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة تشمل كل جوانب الشخصية، فهي تربية للجسم والروح والعقل معا.

ص: 29

1- محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، بيروت، 1980، ج 1، ص 18.

2- المصدر نفسه والمكان نفسه.

3- علي خليل أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 293.

وكل هذه الجوانب تؤثر سلباً أو إيجاباً في الجانب الآخر، و تتأثر به. فالرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(1).

وأكد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أهمية الجسم في التربية الإسلامية فقال: «إن لبدنك عليك حقاً... فاعط كل ذي حق حقه»(2).

والتربية الإسلامية تعنى بالعقل عنايتها بالجسم والروح، ولذا «تخاطب العقل، وتحتكم إليه، والإسلام دين العقل والنظر والتفكير والتأمل ويحتل العقل فيه مكاناً هاماً.. فهو أساس التكليف والاختيار والحساب»(3).

وهكذا التربية الإسلامية ترقّي الروح بالإيمان والعبادة، وتنمي العقل بالتعلّم والكسب المتواصل للمعارف والتدبر في آيات الله في الكون، وتقوي البدن بتلبية مطالبه المادية المشروعة، على أساس من التوازن.

متوازنة:

تعمل التربية الإسلامية على تحقيق المتطلبات المتوازنة بين الأطراف المتضادة في حياة الإنسان، فلا ينفرد أحدها بالتأثير، و يطرد الطرف المقابل، ومعنى هذا أنّها تعطي كل شيء حجمه المناسب «فالتوازن في نظر الإسلام، شامل يشمل كل نشاط الإنسان، فهو توازن بين طاقة الجسم، وطاقة العقل، و طاقة الروح. توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته، توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية... توازن في كل شيء في الحياة»(4).

وهذه الخاصية ملازمة لخاصية التكامل والشمول، وهو في التصور الإسلامي متوازن أيضا «وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك، لأنّ هذه الآفات لم يسلم منها أي تصور آخر»(5).

فالتربية الإسلامية تستهدف الجمع بين حسنتي الدنيا والآخرة للإنسان، وهي لا ترى هناك تعارضا أو تناقضا بين الدين والدنيا إذا فهم الإنسان الصلة الوثيقة بينهما على الوجه السليم، قال جل جلاله:

ص: 30

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، ح 31.

2- المصدر نفسه، كتاب الأدب، ح 86.

3- محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد، عالم الكتب، القاهرة، 1993، ص 64.

4- محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ج 1، ص 27.

5- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، بيروت، 1992، ص 114.

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (1).

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعا، فإن الدنيا بلاغ للآخرة»(2).

على هذا فإن التربية الإسلامية ليست مادية بحتة، ولا روحانية خالصة، تخالف الطبع وتقطع عن العمل.

فهي تهذب الفرد تهذبا ذاتيا، كما تهذبه تهذبا اجتماعيا تجعله يشعر بانتمائه إلى المجتمع الذي يعيش فيه، وبقيمة أخيه المسلم؛ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره»(3).

كما قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(4).

وسطية:

التربية الإسلامية تربية وسطية تنظر إلى الأمور نظرة وسطية، وتحافظ على مبدأ الاعتدال في الشخصية الإسلامية، حتى في الأمر الواحد؛ فعلى سبيل المثال: قال سبحانه: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (5)

وقال عز وجل:

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (6).

هذه هي أبرز سمات التربية الإسلامية المتوازنة التي تضع لكل شيء حده، وتحسب لكل أمر قدره حتى لا تختل الموازين وتضطرب أمور الحياة.

فإن خاصية «الاعتدال» تجعل المجتمع الإسلامي مجتمعا إنسانيا «وسطا»، لا يسرف في أموره، ولا يفرط فيها، قال تعالى:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (7).

ولا جرم أن مبدأ الوسطية هو الذي جعل الأمة الإسلامية تمتاز عن غيرها من الأمم، و ما أصابها من تردّد ونكوص على الأعقاب إنما أصابها بسبب اتباع أبنائها سبيل الإفراط والتفريط، فضلا عن بعض العوامل الأخرى التي ليس ههنا محل لمناقشتها.

ص: 31

1- سورة القصص، جزء من الآية 77.

2- المتقي الهندي، كنز العمال، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1990، ج 1، ص 24.

3- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، ح 3.

4- أخرجه مسلم في صحيحه، باب خصال الإيمان، ص 38.

5- سورة الفرقان، الآية 67.

6- سورة الإسراء، الآية 29.

7- سورة البقرة، جزء من الآية 143.

خاصية التطبيق من أهم خصائص التربية الإسلامية لأن هذه التربية لا تقتصر على النصح والموعظة والتوجيه والإرشاد النظري، بل تهتم بتطبيق التعاليم والتوجيهات الدينية والمبادئ والقيم الخلقية، في الحياة الإنسانية، وتجسدها في الواقع، ولذا تربط بشكل متكامل بين الإيمان والعمل، والعقيدة والسلوك، والنية والتنفيذ، والقول والفعل، والنظرية والتطبيق. «وإذا نظرنا إلى الأركان الرئيسة الخمسة التي بني عليها الإسلام نجد أنها تتطلب سلوكاً عملياً؛ فالشهادة بوحداية الله ونبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم شهر رمضان كلها تتطلب سلوكاً عملياً»(1).

وبمعنى آخر فإنها ترى «أن الإيمان إذا لم ينعكس في العمل فهو إيمان عليل ناقص، وأن العمل إذا لم يتجسد ويستهد بالإيمان فهو عمل مادي زائف، وأن مبادئ الأخلاق إذا لم تنعكس في السلوك فهي شعارات جوفاء. وأن السلوك إذا لم يجسد القيم والفضائل فهو سلوك أعمى غاشم»(2).

ولذلك نجد في كتاب الله تعالى الكثير من الآيات التي تربط الإيمان والعقيدة بالعمل والسلوك.

* لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (3).

«فالإسلام ينظر إلى الإيمان على أنه ما قرّ في القلب ونطق به اللسان وصدقه العمل، فالعمل إذن ثمرة المعرفة والعلم، ولا قيمة لمعرفة أو علم لا يستفاد منه بالعمل، ومن تمام كمال الإنسان المسلم أن تتطابق أقواله مع أفعاله»(4).

قال جل جلاله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (5).

ص: 32

1- محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد، مرجع سابق، ص 67.

2- عبد الحميد الزنتاني، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة، الدار العربية للكتاب، الجماهير العربية الليبية، 1993، ص 462.

3- سورة البقرة، الآية 177.

4- محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها، مرجع سابق، ص 68.

5- سورة الصف، الآية 2-3.

أما بالنسبة للسنة النبوية المطهرة، فهي في جوهرها وحققتها ربط حي فعال للعقيدة بالعمل، و للدين بالأخلاق، و للتعالم النظرية بالتطبيقات الواقعية المعاشة في الحياة الإنسانية. قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المسلم من سلم الناس من لسانه و يده».

و المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(1).

على صعيد آخر «تشمل التربية العملية التربية المهنية التي تمثل قيمة العمل النافع في الحياة، و الذي يتضمن المعرفة على تسخير ظواهر الكون و الاستفادة من الأرض الطيبة المعطاء، و تصنيع مواردها و ثرواتها و خاماتها فيما ينفع الفرد و المجتمع و الإنسانية جمعاء»(2).

فالإسلام يفترض في كل فرد أن تكون له مهنة يعتاش منها، و يحث الرسول الكريم على احترام العمل و السعي إليه، فيقول: «ما أكل أحد طعاما قط، خيرا من أن يأكل من عمل يده، و إن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده»(3).

و لذلك تحرص التربية الإسلامية على توجيه الفرد إلى الاهتمام بوقته، و عدم تضييعه سدى في اللهو و العبث، بل يجب عليه أن يستغل في تنمية مواهبه و ميوله و هواياته بما يعود عليه و على مجتمعه بالفائدة المرجوة.

مستمرة:

إنّ التربية الإسلامية لا تنتهي عند مرحلة معينة، إنّما تمتدّ على طول حياة الإنسان كلها.

فهي «كعملية تنشئة و تكوين للأجيال الصاعدة تتميز عن سواها، بخاصية - الاستمرار - و الثبات المستمدة من ثبات شرع الله تعالى و استمراره إلى أن يرث الله الأرض و من عليها. و لا شك أن قواعد الإيمان و العبادة و الأخلاق و السلوك هي قواعد ثابتة مستمرة خالدة لا ترتباطها بالمنهج الرباني الذي لا يداخله ضلال، و لا يلابسه ريب»(4).

على هذا تتصف التربية في الإسلام بالدوام و الاستمرار، حيث تبدأ من المهد، فما أن يخرج المولود إلى الدنيا حتى يحنّك و يؤذّن في أذنه اليمنى، و تقام الصلاة في أذنه اليسرى، إلى غير ذلك مما ينبغي الشروع فيه من الأحكام الخاصة بالمولود،

ص: 33

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، ح 10.

2- إسحاق أحمد فرحان، التربية بين الأصالة و المعاصرة، دار الفرقان، عمان، أردن، 1983، ص 57.

3- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، ح 1966.

4- الزنتاني، فلسفة التربية الإسلامية من القرآن و السنة، مرجع سابق، ص 465.

وتستمر التربية بحسب الأحكام الشرعية المتعلقة بالرضيع والصبي واليافع الشاب، والراشد والرجل والكهل والعجوز بحيث لا تنتهي إجراءات التربية الإسلامية وأحكامها الشرعية إلا عند ما يصير الإنسان إلى اللحد.

فالفرائض والعبادات إن هي في حقيقتها إلا تربية مستمرة متصلة بالإنسان، طيلة حياته، تزكي روحه، وترقي نفسه، وتقوّم خلقه، وتهذب سلوكه، على مدار الأيام والأسابيع والأشهر والأعوام، بلا انقطاع؛ وذلك لأن الإنسان يمر بتربية يومية بالصلوات الخمس، وتربية أسبوعية بصلاة الجمعة، وتربية شهرية بصوم النوافل، وتربية سنوية بصوم شهر رمضان، وصلاة العيدين.

ولكن لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الذي يتولى مراقبة السلوك وتقويمه بعد البلوغ عند الفرد إنما هو الفرد نفسه، قال سبحانه وتعالى: **بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (1)**، وقال سبحانه وتعالى: **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)**، والنفوس اللوامة نفس حميدة تلوم صاحبها على فعل الذميمة من السلوك، وهذا مفهوم المراقبة وتقويم الذات، وهو من أبرز عناصر التربية المستدامة في التربية الإسلامية، ومن هنا تتراءى أهمية التقوى في حياة الفرد المسلم، حيث يظل على أساس هذا المعيار في مراقبة مستمرة لسلوكه وحركاته وسكناته، حتى إذا ما شعر بأنه قد انحرف عاد إلى الجادة من جديد.

سهلة ومرنة:

مما لا شك فيه أنّ خاصية «التيسير» من أهم خصائص التربية الإسلامية المتمشية مع الفطرة البشرية والقدرة الإنسانية، بحيث لا يكلف الإنسان إلا بما يدخل في نطاق استطاعته وقدرته واحتماله: من تكاليف دينية أو واجبات دنيوية، على حدّ سواء.

وبهذه الخاصية الإيجابية تجنّب التربية الإسلامية الإنسان المشقة والعنت، والضيق والحرَج، ولا تحمله من الأمور إلا بما يكون في وسعه، واستطاعته. وقال تعالى: **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ (3)**.

وعن أنس بن مالك، قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا» (4).

وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «ما خير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أمرين قط، إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه» (5).

ص: 34

1- سورة القيامة، الآية 14.

2- سورة القيامة، الآية 2.

3- سورة البقرة، جزء من الآية 185.

4- أخرجه مسلم في صحيحه، ح 1734.

5- أخرجه البخاري في صحيحه، ح 5775.

و من الجدير بالذكر أنّ «خاصية التيسير في التربية الإسلامية، لا تعني أنها تربية تتساهل في أمور الإيمان والعقيدة، والعبادة والأخلاق، فهي لا تسمح بالتعدي على حدود الله تعالى وانتهاك حرّات الدين، ولا العبث بمبادئ الأخلاق وفضائل الآداب.

وهي - وإن كانت ترفع الحرج في الضرورات والمشقات - فإنها تسد الذرائع، وتقطع السبل في وجه انتشار الضلال الديني والفساد الخلقي والتحلل الاجتماعي، وتؤكد على ضرورة اتقاء الشبهات وترك ما يريب إلى ما لا يريب»(1).

عالمية و خالدة:

تعتبر التربية الإسلامية تربية عالمية؛ قال عزّ وجلّ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (2)». وقال تبارك وتعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (3)». فإنّ الإسلام رسالة عالمية جاءت للناس كافة، وغاية الرسالة لا تتحقق إلا بتغيير معتقدات الناس وسلوكهم إلى معتقدات وأنماط سلوك إسلامية، وهذا لا يمكن الوصول إليه إلا بالتربية، وعالمية الرسالة الإسلامية تعني أيضا عالمية التربية الإسلامية، وهي موجهة إلى الناس جميعا، وليست مختصة بقوم دون قوم، أو جنس دون جنس، أو لون دون لون، أو فئة دون فئة، فلا تلمح فيها أثرا قوميا، أو عنصريا، أو نحوهما البتة، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة»(4).

فهي تربية يتساوى فيها الجميع، والتفاضل بينهم يكون بالتقوى والإيمان لا بالحسب والنسب والجاه.

و من جانب آخر فإن التربية القائمة على هذا الدين الحنيف تربية خالدة، تصلح لكل زمان ومكان؛ لأنها تنبثق من قواعد وقيم شرعية تعالج الإنسان بوصفه إنسانا، لا تتغير، ولا تختلف من زمن، إلى زمن، أو من مكان إلى مكان، كما أن «قيم الإسلام قواعد ثابتة، فالصدق قيمة خلقية سامية لا يمكن أن يتطور ليصبح خلقا ذميما، وكذلك الأمانة والاستقامة، والعدل، والتواضع هي قيم أخلاقية، يسعى الإسلام إلى تحقيقها لدى أبنائه بالتربية الإسلامية، كما لا يمكن أن يصبح الكذب قيمة خلقية سامية، ولا الزنا، ولا القمار والغيبة، ولا شيء من ذلك، وهذه بجملتها تركز على قواعد شرعية ثابتة، تعالج كافة المتغيرات، وتعطي حلولا لكل البدائل المحتملة»(5)، لأن الإسلام

ص: 35

1- عبد الحميد الصيد الزنتاني، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص 453.

2- سورة سبأ، الآية 28.

3- سورة الأعراف، جزء من الآية 158.

4- أخرجه البخاري في صحيحه، ح 434.

5- أمين أبولوي، أصول التربية الإسلامية، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية 1991، ص 41.

دين الحياة و الدين الخاتم قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (1).

وقال عز وجل: وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (2).

- أهداف التربية الإسلامية وأساليبها:

إشارة

إن تحديد الهدف أمر أساس في كل عمل، و بعد أن يتم توضيحه، و توجد القناعة بأهميته يرسم الطريق المؤدي إليه، و يبدأ السير عليه، و دون ذلك تضعيف الجهود و تتعثر الخطوات، و يصبح المرء كمن يدور في حلقة مفرغة، فيثاقل إلى الأرض، و لا يرغب في القيام بأي جهد.

و الوسائل هي أدواتنا الوحيدة لتحقيق ما نؤمن به من الأهداف، و ينبغي العناية الكاملة بها، و التدقيق في بحثها و اختيارها، إذ الوسيلة الفاسدة تضعيف الهدف الصالح و تحيد عن الطريق. «و حين يتم تحديد هدف التربية بشكل صحيح، و يكون هذا الهدف واضحاً للمربين، و مقبولاً من الذين يعملون في حقلها و يتأثرون بها، و توضع الوسائل المؤدية إليه، و يبدأ العمل بأساليب محكمة، فإن التربية تؤتي ثمارها، و تصبح ذات أثر كبير في رقي الأمة و ازدهار المجتمع» (3).

و من ثم فالوسائل و الأهداف عنصران أساسيان من عناصر المنهج التربوي، و لا تفتقر، و لا يمكن تقويم الهدف من غير الوسيلة التي تؤدي إلى تحقيقه، و لا يمكن تقويم الوسائل بمعزل عن الأهداف. و للتربية الإسلامية أهداف سامية جداً، تستهدف تحقيقها، كما لها أساليب خاصة سامية أيضاً لتحقيق هذه الأهداف.

أ - أهداف التربية الإسلامية:

تمتاز أهداف التربية الإسلامية عن غيرها من الأهداف تبعاً لتمييز نظرة الإسلام لله و الإنسان و الكون و المجتمع و الحياة الآخرة. و هذه الأهداف هي القاعدة الأساسية في بناء الفرد و المجتمع و الحضارة و الدولة الإسلامية. و قد صرح القرآن الكريم بأن الهدف الأساس لوجود الإنسان في الكون هو عبادة الله و الخضوع له في قوله تعالى:

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (4).

(و مفهوم العبادة في الإسلام مفهوم واسع شامل، لا يقتصر على أداء الشعائر

ص: 36

1- سورة آل عمران، جزء من الآية 19.

2- سورة آل عمران، الآية 85.

3- عمر أحمد عمر، فلسفة التربية في القرآن الكريم، دمشق، دار المكتبي، 2000، ص 137.

4- سورة الذاريات الآية 56.

التعبدية فحسب، بل يشمل نشاط الإنسان كله من اعتقاد وفكر وشعور وتصور وعمل ما دام الإنسان يتوجه بهذا النشاط إلى الله، ويلتزم فيه شرعه، ويسير على منهجه»(1). و إذا كانت هذه مهمة الإنسان في الحياة فإن تربيته يجب أن يكون لها الهدف نفسه.

فنرى أن التربية الإسلامية تهدف إلى «تنمية الإنسان العابد الصالح و ينطوي تحت هذا الهدف مجموعة من الأهداف الخاصة التي تجعل من الإنسان هدفا في حد ذاته، وهي علامات في طريقه إلى الهدف الأعلى من التربية الإسلامية»(2). وهذا الإنسان لبنة صالحة لبناء المجتمع الصالح الذي تحكمه خشية الله وتقواه، وبصلاحه يصلح المجتمع المسلم.

وعلى هذا «فإن التربية الإسلامية نظام متكامل لبناء شخصية الإنسان المسلم في ذاته وفي مجتمعه، و من ثم فهي وسيلة لإيجاد مجتمع خيرٍ فاضل قدر المستطاع»(3)و لذلك «تكون الغاية النهائية لهذه التربية هي تحقيق العبودية لله في حياة الإنسان الفردية و الجماعية»(4).

نستنتج مما سبق أن الهدف الثاني للتربية الإسلامية هو إيجاد الأمة الرائدة، لتأخذ دورها بين الأمم و تحمل راية التوحيد إلى الأمم جميعا تأمر بالمعروف، و تنهى عن المنكر، و تدعو إلى الخير امثالاً لقوله تعالى:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (5).

أمة يسعى كل فرد فيها إلى قضاء حوائج أخيه، و يطمع أن يتحقق فيه قول رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته و من فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة»(6).

فهي أمة يتعاون فيها الجميع، و الذكور و الإناث، و الكبار و الصغار، لتنفيذ شرع الله تعالى و هداية البشرية إلى الصراط المستقيم.

ب - أساليب التربية الإسلامية:

إشارة

إذا كانت التربية الإسلامية تتميز بالشمول و التكامل، فإن أساليبها تتميز كذلك

ص: 37

1- سعيد إسماعيل علي، اتجاهات الفكر التربوي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، 1991، ص 25.

2- علي خليل أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 209.

3- إحسان عباس، التربية العربية الإسلامية، المجتمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان 1990، ج 4، ص 1501.

4- عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 108.

5- سورة آل عمران، جزء من الآية 110.

6- صبحي الصالح، منهل الواردين شرح رياض الصالحين للإمام الحافظ محيي الدين بن زكريا يحيى بن شرف النووي، دار العلم

للملايين، بيروت، 1973، ص 207، ح 232.

بالتعدد و التنوع في شمول معجز و تكامل دقيق و توازن محكم.

و لو اتجه المتخصصون إلى استعراض آيات القرآن الكريم، و فهمها، لخلصوا منها إلى صور عديدة مشرقة لأساليب هذا النهج الرباني في التربية، الذي يتميز باتزان محكم دقيق. فكيف لا و هو من الله خالق الإنسان و مبدع الوجود!

فنعرض لأهم الأساليب في حدود ما يشير إليه القرآن الكريم:

التربية بالوعظ و النصح:

من الأساليب المعروفة في التربية الإسلامية، الموعظة و النصح «ففي النفس الإنسانية دوافع فطرية في حاجة دائمة للتوجيه و التهذيب، و لا بد في هذا من الموعظة»(1).

فالموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان كما نرى أمر الله تبارك و تعالى رسوله صلى الله عليه و سلم في طريق الدعوة: أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (2).

لا شك أن «الإنسان قد يصغي و يرغب في سماع النصح من محبيه و ناصحيه، فالنصح و الموعظة يصبحان في هذه الحالة ذا تأثير بليغ في نفس المخاطب، و لا سيما حين يكونان صادرين عن محبة و من القلب إلى القلب و ما لم يكن الوعظ صادرا من القلب إلى القلب فتأثيره يكون ضعيفا أو معدوما تقريبا»(3).

و نرى كثيرا من النصائح و المواعظ القيمة في القرآن الكريم، و هو الذي وصف بأنه جاء موعظة للناس. كما قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (4).

و خير مثال على ذلك من كتاب الله ما جاء في موعظة لقمان لابنه، و هو ينهاه عن الشرك، و يأمره بالصلاة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و يأمره بمكارم الأخلاق.

قال الله تعالى:

وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (5). و يقول

ص: 38

1- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنهجية الإسلامية و التربوية، و الباحث: ماجد عرسان الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص 21.

2- سورة النحل، جز من الآية 125.

3- محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، الدار التونسية للنشر، 1972، ص 111.

4- سورة يونس، الآية 57.

5- سورة لقمان، الآية 13.

اللَّهِ تَعَالَى: * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (1).

ففرى «معظم المواعظ القرآنية تدور حول تربية الإنسان عقليا وسلوكيا، و من ثم تأتي أهمية هذه الطريقة العظيمة من طرق التربية الإسلامية لتكوين و تنشئة و إعداد المسلم العابد الصالح بحيث يكون سلوكه صائبا في معتقده و دينه و عقله و علمه و هذا هو هدف الموعظة كما جاءت في القرآن الكريم» (2). و هو الأمر الذي يهدف إليه الكتاب العزيز بالجملة.

التربية بالقدوة:

ترى التربية الإسلامية تقديم القدوة من وسائل التربية، و هو أقوى تأثيرا من التوجيه بالوعظ و القول، فلا فائدة ترجى من قول لا يترجم إلى عمل، لأنَّ المربي حين يعطي القدوة، ينبغي ألا يثير التناقض بين ما يأمر به و بين ما يترجمه إلى سلوك.

«و الفرد في تربيته لا بدَّ له من قدوة تتمثل في والديه و معلميه و المحيطين به، لكي يتشرب قيم مجتمعه و آدابه عن طريق هذه القدوة، فهي التي تجعل الصور الذهنية لتلك القيم و المبادئ المثالية معروضة عرضا واقعا أمام عينيه» (3).

فالطفل منذ ولادته يكتسب ألوان السلوك بتقليده للآخرين و محاكاتهم، و يتوقف ما يكتسبه الطفل من عادات مرغوب فيها أو غير مرغوب فيها على نوع القدوة التي تأثر بها في حياته التربوية.

و القرآن يؤكد أهمية القدوة في تقرير مصير الإنسان تأكيدا قويا، و هو يدعو المسلمين لأن يدرسوا سيرة الرسول صلَّى الله عليه و سلَّم فيتخذوها قدوة لهم، قال تعالى:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (4).

و حقا «كان رسول الله صلَّى الله عليه و سلَّم أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، و كان مربيا و هاديا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به» (5).

و لقد كان لهذه الطريقة أثر عميق في تعليم المسلمين و تثقيفهم و تغيير اتجاهاتهم و تعديل سلوكهم و الأخذ بيدهم نحو بناء الشخصية الإسلامية و المجتمع الإسلامي.

ص: 39

1- سورة النساء، الآية 58.

2- علي خليل أبو العينين، فلسفة التربية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 234.

3- عبد الغني عبود، التربية الإسلامية و تحديات العصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990، ص 492.

4- سورة الأحزاب، جزء من الآية 21.

5- محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 183.

التربية بالقصة:

القصة من أكثر أساليب التربية فعالية، وهي وسيلة مشوقة للصغار والكبار، تحدث أثرها في النفس مع الشعور بالمتعة، وتجعل الإنسان ينجذب إليها وينتبه إلى أحداثها، ولا يشرذم بذهنه عن يريه. «و الإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة، ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم»(1).

و القرآن يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه، قال الله تعالى: نَحْنُ نُقْصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ (2).

فإذا صدرت القصة عن الحكيم الخبير العليم ببواطن النفس، وبما يصلحها وبكيفية إصلاحها آتت ثمارها يانعة، وحققت الغاية منها، و كانت قصص القرآن الكريم طويلة حيناً وقصيرة أحياناً. وهي كل مرة تقع في القمة من البلاغة والأسلوب البياني ومن الناحية الأدبية والفنية وبالنظر إلى مغزاها وآثارها التربوية.

إن الحكماء والمربين ليستنبطون العبر ممّا في القرآن من قصص الأنبياء وغيرهم، ويجعلونها وسيلة من وسائل التربية القويمة كما قال الله تعالى:

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3).

التربية بالترغيب والترهيب:

مصطلح الترغيب والترهيب يطلق عند المربين المسلمين على الوسائل الدافعة لفعل الشيء، أو المانعة من فعله، وهذا الأسلوب من الأساليب التي لا يستغني عنها المربي في كل زمان ومكان. «و يتمشى مع طبيعة الإنسان حيثما كان، وأياً كان جنسه أو لونه أو عقيدته، فالإنسان يتحكم في سلوكه، ويعدل فيه بمقدار معرفته بالنتائج الضارة أو النافعة، و السارة أو المؤلمة التي تترتب على عمله و سلوكه»(4).

و التربية الإسلامية تستخدم أسلوب الترغيب والترهيب، لما له من أهمية بالغة في التنشئة الصالحة لأبنائنا؛ لأنّ «الإنسان يولد وفيه استعداد الخوف والرجاء متجاورين..»

ص: 40

1- المصدر نفسه، ص 193.

2- سورة يوسف الآية، 3.

3- سورة يوسف الآية 110-111.

4- ماجد عرسان الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، 1987، ص 128.

و ينمو الطفل و معه هذان الخطان، هما هما، في تقابلهما و ازدواجهما يحددان له مشاعر الحياة و اتجاهاتها و الطفل على قدر ما يخاف، و على نوع ما يرجو، يوفق بين سلوكه و بين ما يرجو و ما يخاف»(1).

فأسلوب القرآن الكريم في تصوير الجنة بخيرها و نعيمها، و النار بأهوالها و عذابها إنما هو أسلوب مناسب لطبيعة الإنسان التي تسعى دائما وراء المنفعة، و تتعد ما أمكن عن المضرة.

قال تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (2).

و في الدنيا وعد الله المتقين المتوكلين عليه بالفرج و العون و الرزق الوفير.

قال تعالى:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3).

و قد حذر القرآن الناس من غضب الله و نعمته إن هم عصوه و كفروا به.

قال تعالى:

أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (4).

كما حذرهم من عذابه في الدار الآخرة. قال تعالى:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (5).

التربية بالتشبيه و ضرب الأمثال:

من أساليب التربية الإسلامية التي تؤثر تأثيرا فعّالا في سلوك الأفراد ضرب الأمثال و استعمال التشبيهات لتوضيح المعاني المجردة، (و يؤدي تشبيه هذه المعاني الذهنية بالأشياء الحسية الملموسة إلى وضوحها، و يؤدي ضرب الأمثال إلى تقريب الأفكار من العقل و جعلها مفهومة، كما يؤدي التشبيه و التمثيل إلى إدراك المعنى و تكوين صورة له

ص: 41

1- عبد الغني عبود، التربية الإسلامية و تحديات العصر، مرجع سابق، ص 495.

2- سورة النساء، الآية 57.

3- سورة الطلاق، الآية 2-3.

4- سورة النحل، الآية 45-46.

5- سورة فاطر، الآية 36.

في المخيلة، ويجعل التأثير بتلك الصورة أشد من الأفكار المجردة، إضافة إلى ما في التصوير والتشخيص الحي من الإثارة والمتعة»(1).

وقد أشار القرآن الكريم الى استخدام هذا الأسلوب من أساليب التربية بقوله:

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (2). ذلك لأن «الأمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوم في الإقناع»(3).

وقد كثر الاعتماد على هذا الأسلوب في القرآن الكريم، حتى ضربت فيه الأمثال بكثير من الأشياء الصغيرة وبعض الحشرات الحقيرة.

قال تعالى:

* إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (4).

وفي الحقيقة «إذا كان الغرض التأثير، فالبلاغة تقضي بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتفجير عنه، بحال الأشياء التي جرى العرف بتحقيرها واعتادت النفوس النفور منها»(5).

ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى شبه ضلال المشركين وضعف أوليائهم الذين يلجؤون إليهم من دون الله بالأنسجة التي تنسجها العنكبوت لقنص فريستها، فقال:

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (6).

وأخبر الله تعالى عن إحباط أعمال الكافرين بقوله:

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (7).
«فكما أن الريح الشديدة والعاصفة القوية تبعثر الرماد، ولا تبقي منه شيئا، فإن أعمال الكافرين تتبدد فتصبح هباء منثورا، ولا ينفعهم شيء مما عملوه وكسبوه؛ لأنهم لم يجعلوه خالصا لوجه الله»(8).8.

ص: 42

1- عمر أحمد عمر، فلسفة التربية في القرآن، مرجع سابق، ص 204.

2- سورة العنكبوت، الآية 34.

3- عبد الغني عبود، التربية الإسلامية وتحديات العصر، مرجع سابق، ص 497.

4- سورة البقرة، الآية 26.

5- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج 1، ص 236.

6- سورة العنكبوت، الآية 41.

7- سورة إبراهيم، الآية 18.

8- ناصر مكارم شيرازي، مثالهاي زيباي قرآن (أمثال القرآن)، نسل جوان، قم، 1420، باللغة الفارسية، ص 318.

و شَبَّه مَضَاعِفَةَ ثَوَابِ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِهِ بِالْحَبَّةِ الَّتِي أَنْبَتَتْ سَنَايِلَ كَثِيرَةً فِي كُلِّ مِنْهَا حَبَاتٌ عَدِيدَةٌ، فَقَالَ:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (1).

التربية بالعمل والعادة:

إنَّ التربية الإسلامية ليست تربية نظرية «و لا تكتفي بالقول و إنما تتعداه إلى الممارسة و العمل، لأنَّ من تمام كمال الإنسان المسلم أن تتطابق أقواله و أفعاله» (2)، فتكوين الأخلاق الفاضلة لا يتم بالوعظ فقط و لا بالحفظ وحده، و لا بالافتناع العقلي بمفرده بل يحتاج إلى ممارسة فعلية يقوم بها الإنسان حتى يتعود هذه الأخلاق الفاضلة فتصبح جزءاً من كيانه و لا يطمئن قلبه بغيرها و لا يرتاح ضميره إذا خرج عنها.

فالإسلام دعوة إلى العمل كما أنَّ التفاضل بين المسلمين تفاضل بالأعمال الصالحة و الخالصة لوجه الله تعالى.

و لقد اعتمد هذا الدين على التربية بالعمل من أول الدعوة فكان الواحد من الصحابة حين يعتنق الإسلام يدفعه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إلى من يعلمه القرآن الكريم، فيتعلم عشر آيات، و يقول لمن يعلمه: دعني حتى أذهب و أعمل بهذه الآيات ثم أعود فأتعلم غيرها (3).

و قال أبو عبد الرحمن السلمي (4): «حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ و كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن و العمل جميعاً» (5).

و حين يكرّر الإنسان الأعمال التي تعلمها مرات عديدة تصبح عادة متأصلة في نفسه «فالاعتقاد أمر مهم في ميدان التربية، و إن لم يكن كل شيء في التربية و لقد بالغ بعض المرين حين عبروا بأنَّ التربية عادة، فقال ابن سينا مثلاً: التربية عادة. و أعني

ص: 43

1- سورة البقرة، الآية 261.

2- سليمان عبد الرحيم الخيل، التربية الإسلامية، مطابع الشريف، الرياض، 1412، ص 73.

3- كما روي عن عبد الله بن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن و العمل بهنّ. (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 4/1).

4- محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي، أبو عبد الرحمن (325-412) شيخ الصوفية و صاحب تاريخهم و طبقاتهم و تفسيرهم و بلغت تصانيفه مائة أو أكثر منها «حقائق التفسير» و كان مولده و وفاته في نيسابور (الزركلي: الأعلام 6/99).

5- إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، 1401، ج 1، ص 4.

بالعبادات فعل الشيء الواحد مرارا كثيرة زمانا طويلا في أوقات متقاربة»(1).

والعبادات التي أمر الله بها عباده، ما هي إلا «وسائل تربية الإنسان و توجيهه نحو الأهداف التربوية التي يدعو إليها القرآن»(2). ولذلك «تتطلب ممارسة و أسلوبا عمليا»(3).

على سبيل المثال أمر الله تبارك و تعالى:

حَافِظُوا عَلَي الصَّلَاةِ وَ الصَّلَاةِ الوُسْطَى وَ قَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (4).

إن الصلاة تربّي الإنسان روحيا و خلقيا إذ تربط بينه و بين خالقه، و تقوي إرادته و تعودّه، ضبط النفس و المحافظة على المواعيد، فالعبادات في الإسلام طرق للتربية على منهج الإسلام و هي «تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، و أن يظل متمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيّرت أمامه الظروف»(5).

لذلك حرص المرّبون المسلمون على استخدام الممارسات العملية في التربية لتكوين العادات الحسنة و ترك العادات السيئة.

هذه هي أهم أساليب الإسلام في التربية، و هي تتعاون كلها في تحقيق هدف واحد و هو بناء شخصية المسلم و يستخدم منها ما يتلاءم مع طبيعة كل إنسان و إمكاناته و تهيؤه النفسي و سنّه و قدرة إدراكه.7.

ص: 44

1- مقداد يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام، دار المريخ، الرياض، 1981، ص 320.

2- محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي، مرجع سابق، ص 105.

3- محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها و تطورها، مرجع سابق، ص 139.

4- سورة البقرة، الآية 238.

5- محمد الغزالي، خلق المسلم، دار القلم، دمشق، 1989، ص 7.

الفصل الأول دراسة شخصية الإمام الصادق

إشارة

المبحث الأول: المعالم البارزة في عصر الصادق

المبحث الثاني: المعالم البارزة من حياة الإمام

المبحث الثالث: إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق

ص: 45

تستلزم دراسة الفكر التربوي عند الرجال، تحليل ظروف واتجاهات العصر الذي عاشوا فيه؛ لأنّ السعي لمجانبة الحقيقة و التزام الصدق و الأمانة العلمية في مجال الأبحاث الفكرية لا يتأتى إلاّ من خلال الإحاطة بالظروف الاجتماعية و الفردية الخاصة بالشخصية موضوع البحث، «فالتربية بطبيعتها عملية مشروطة بالزمان و المكان و يستحيل على الباحث التربوي أن يحيط علماً بأي نظام تربوي و أن يقف على حقيقة أمره في مجتمع من المجتمعات، دون أن يتعرف إلى الأبعاد السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية و الثقافية المحيطة به، فدراسة هذه الأبعاد ليست من قبيل العمل التمهيدي للبحث و إنّما هي جزء أساسي له»⁽¹⁾.

لهذا يقتضي في هذا الفصل الإيماء إلى الحالة الفكرية و السياسية و الاجتماعية التي عايشها الإمام جعفر بن محمد الصادق.

أما بالنسبة لحياته الشخصية لا يخفى على أحد من المسلمين و رواد العلم و غيرهم منزلة و مكانة هذا الإمام الجليل، فهو كان مشعل الهداية و مصباح الدين الذي تألأت أضواؤه في كل مكان و تخرّج في مدرسته الرواة و المحدثون و الفقهاء.

و ليس بإمكاننا التعرّف إلى هذا المفكر التربوي الكبير حق المعرفة إلاّ بالمرور الخاطف على بعض زوايا حياته، من سيرته و أخلاقه و أقوال الكبار و العلماء في شأنه، مدرسته العلمية و تعاليمه، تلاميذه و رواته مع إشارة موجزة إلى كبار المتخرجين في مدرسته.

فالحديث عن الإمام الصادق حديث عمّن أغنى الفكر الإنساني بأنواع المعارف و العلوم و دفع الحياة إلى الازدهار في مجالاتها الفكرية و الاجتماعية و التربوية و الأخلاقية.

و لعلّ أكثر ما اهتم به الإمام جعفر هو بناء الشخصية الإسلامية و إيصالها إلى مستوى التكامل و الرقي، فقد مارس هذا الدور بشكل عملي و وظيف أفكاره و أساليبه و طرقه في إطار نظري منسق بهذا الاتجاه. و «استمرّ يناضل في سبيل الإسلام مجاهداً

ص: 47

1- أمينة أحمد حسن، نظرية التربية في القرآن و تطبيقاتها في عهد الرسول صلّى الله عليه و سلّم، دار المعارف، القاهرة 1985، ص 11.

ولكنه لم يحمل سيفاً، كان جهاده هو الجهاد الأكبر وهو ضبط النفس عن أهوائها والإرشاد والتعليم»(1).

وقد استوعب مجال التربية عند الصادق كثيراً من ميادينها إذ قدم الإمام منهجاً شاملاً - ناشئاً من القرآن الكريم وسيرة جدّه صلّى الله عليه وسلّم - بين يدي المريين عسى أن ينفعهم في مهامهم الإصلاحية والتربوية.

سنحاول فيما يلي أن نعرض المعالم البارزة في عصر الإمام وحياته وكذلك الاتجاهات الرئيسة لفكره التربوي وما ينطوي عليه.0.

ص: 48

1- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 50.

المبحث الأول المعالم البارزة في عصر الصادق

- الجانب السياسي:

- الجانب الديني:

- الجانب الاجتماعي:

- الجانب العلمي والثقافي:

ص: 49

إشارة

يتمتد عصر الإمام الصادق من آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة أبي جعفر المنصور، أي سنة 83 هـ إلى سنة 148 هـ.

وقد عاش جعفر بن محمد حتى الحادية عشرة من عمره مع جده زين العابدين، وحتى الثانية والثلاثين مع أبيه محمد الباقر، وعاش بعد أبيه أربعاً وثلاثين سنة، وكان في هذه السنوات بقية ملك هشام بن عبد الملك، وأيام ملك الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم يزيد بن الوليد الناقص، ثم إبراهيم بن الوليد، ثم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، ثم صارت المسوّدّة (لاتخاذهم شعار السواد) مع أبي مسلم سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فملك أبو العباس الملقب بالسفاح، ثم ملك أخوه أبو جعفر الملقب بالمنصور، وتوفي الإمام بعد عشر سنين من ملكه.

فالإمام الصادق عاش في مرحلة من أدق المراحل التاريخية الإسلامية من الناحية السياسية و اختلاف دولتين، هما دولة بني أمية و دولة بني عباس اللتان مارستا دورا حساسا خطيرا في هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي.

أولاً: العصر الأموي:

يتمتد من سنة 41 إلى سنة 132 للهجرة (661-750 م)، أي نحو تسعين عاماً من الدهر. والخلفاء الذين حكموا في هذه الدولة فرعان:

الفرع السفيناني و الفرع المرواني.

بعد معركة صفين صار معاوية بن أبي سفيان، خليفة على البلاد الإسلامية، ثم حكم عشرين سنة، من السنة 41 هـ إلى السنة 60 هـ و ثبتت الملك في أثنائها لبني أمية، و جعل الخلافة وراثية في نسله. و «كانت فكرة الوراثة في الملك غريبة عن العرب.

فجهد معاوية بضع سنوات حتى استطاع أن يمهد لها»⁽¹⁾.

ولما ولى معاوية ابنه يزيد العهد، انتقلت الدولة من ذلك النظام الذي ساد عهد

ص: 51

1- عمر فروخ، تاريخ صدر الإسلام و الدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ص 132.

الخلفاء الراشدين، إلى النظام الذي سار عليه الأمويون «و هو النظام الملكي الذي يقوم على أساس الوراثة. وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسية منها إلى الدين واستحالت بذلك إلى ملك»(1).

مات معاوية سنة 60 هـ فخلفه ابنه يزيد و «لم يكن من الدّهاء السياسي كأبيه(2)» وقد وقعت في عهده وقائع وأحداث نتيجة لموقف المعارضة منها، فكانت في أيامه مأساة كربلاء في 10 المحرم 61 هـ، ومقتل الحسين بن علي وأهل بيته(3) ثم كانت في أيامه وقعة الحرّة(4) في ذي الحجة من سنة 63 هـ(5) فكثرت أعداء الأمويين وخصومهم في العراق وفي الحجاز(6).

و جاء بعد يزيد ابنه معاوية وكانت مدة خلافته قصيرة أقل من شهر، فلمّا توفّي عاد النزاع على الخلافة من جديد، «ولكن بين عدد أكبر من الطامعين فيها، ثم بين نفر من رؤوس بني أمية على الأخص»(7).

تغلّب مروان بن الحكم يومذاك على الطامعين، فعادت الخلافة إلى الاستقرار في بني أمية، ولكن في فرع جديد عرف في التاريخ باسم الفرع المرواني نسبة إلى مروان بن الحكم. وعاش مروان بن الحكم في الخلافة عشرة أشهر، ثم خلفه ابنه عبد الملك، فبقي في الخلافة إحدى وعشرين سنة امتدّت من سنة 65 إلى سنة 86 هـ.

و اتسعت الفتوح في المغرب (ليبيا و تونس و ما وراءهما)، وكذلك في خراسان و بلاد الترك و السند في الجانب الشمالي الشرقي من شبه جزيرة الهند، ثم فتحت الأندلس زمن ابنه الوليد الذي حكم عشر سنوات.هـ.

ص: 52

1- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 7، 1964 ج 1 ص 437.

2- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ج 1، ص 351

3- البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1977، ج 3 ص 218.

4- حرّة واقم إحدى حرّتي المدينة، وهي الشرقية و فيها كانت وقعة الحرّة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية وأمير الجيش من قبل يزيد، مسلم بن عقبة المرّي، قدم المدينة فنزل هذا الوادي، خرج إليه أهل المدينة يحاربونه فكسروهم و قتل من الموالى ثلاثة آلاف و خمسمائة رجل و من الأنصار ألفا و أربعمائة و من قريش ألفا و ثلاثمائة و دخل جنده المدينة فنهبوا الأموال و سبوا الذرّيّة. (ياقوت الحموي، معجم البلدان 287/2)

5- جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، مصر 1952 ص 309، الحافظ ابن كثير، البداية و النهاية دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1993 ج 8 ص 232.

6- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 351.

7- المصدر نفسه و المكان نفسه.

وشهدت الساحة الأموية في عهد المرwanيين صراعات بين أفراد الأسرة التي ترجع إلى طموحات الأمويين للوصول إلى السلطة. و أول خلاف جدّي هو صراع عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الذي خلع بيعته وتمرد عليه، وقد أدّى إلى إراقة دم عمرو وعلى يد عبد الملك بعد سلسلة من الأحداث(1). وفي الحقيقة «كانت تولية العهد لاثنين(2)، من الأسباب التي أدّت إلى انشقاق البيت الأموي و المنافسة بين أفراد تلك الأسرة و أورثتهم الأحقاد و البغضاء»(3).

و كان لهذه السياسة أثرها في ضعف الأمويين «و هذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموي، بل تعداهم إلى القوادم و العمال، حتى إذا ولي الثاني(4) الخلافة انتقم من أنصار الخليفة الذي قبله و أقصاهم عن مناصب الدولة»(5).

على سعيد آخر: «ارتكز الحكم الأموي منذ نشأته على العصبية القبلية، و غلب عليه الطابع العربي القومي الذي لازمه حتى زواله»(6).

و راح الأمويون يستعلون على الموالي(7)، و «لا يسوون بينهم و بين العرب في الحقوق، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب»(8)، و يحرمونهم الامتيازات الاقتصادية «و يبعدونهم بشكل عام من تولّي الوظائف الكبرى في الدولة»(9).

و كانت هذه المعاملة السيئة للموالي سببا في حقدهم على العرب أو بعبارة أدق على الدولة الأموية.

و تبدلت السياسة الأموية تجاه الموالي في خلافة عمر بن عبد العزيز، بسبب زهده «و قد نجحت في تسكين الفتن و الاضطرابات، ثم تغيرت هذه السياسة بعد وفاته، فعاد الأمويون يفرقون في المعاملة بين العرب و الموالي»(10).6.

ص: 53

- 1- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم و الملوك، دار سويدان، بيروت، ج 6 ص 145 و ما بعدها.
- 2- أول من سن هذه السنّة مروان بن الحكم فإنه ولى عهده ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز.
- 3- محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، بيروت 1996، ص 190.
- 4- أي الخليفة اللاحق.
- 5- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج 2 ص 7.
- 6- محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، مرجع سابق، ص 191.
- 7- الموالي هم الأرقاء من غير العرب الذين أعتقوا بعد إسلامهم، أو على العموم، الأجانب الذين أسلموا، إذ أطلق بنو أمية لقب الموالي على كل مسلم غير عربي، و سمّوهم «الحمراء» نسبة إلى الأعاجم من فرس و روم على الأخص (شهادة علي الناطور، دور الموالي في المجتمع الأموي، ص 2).
- 8- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص 74.
- 9- محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، مرجع سابق، ص 195.
- 10- المصدر نفسه، ص 196.

ومنذ وفاة هشام بن عبد الملك عام 125 هـ حتى سقوط الدولة الأموية عام 132 هـ أخذت الأفعال وردود الأفعال القبلية تتمادي و تزداد استشرافاً، و «امتدت تأثيراتها على كافة الأقاليم و إلى سائر مساحات الحياة الإدارية و السياسية و الاقتصادية، فكانت أحد العوامل في تدمير الوجود الأموي»(1).

إضافة إلى أسباب خطيرة أخرى كقيام حركات المعارضة من العلويين و الخوارج و الدعوة العباسية في نهاية الأمر. و «كان العصر الأموي من الناحية السياسية عصراً قلقاً، يتأرجح إلى الدنيا مرة، و إلى الدين الحق مرة أخرى، و فيه تأججت الثورات في كل مكان، و انتهت تلك الثورات بإضعاف الحكم الأموي»(2).

ثم نشطت الدعوة العباسيون، و على رأسهم أبو مسلم الخراساني، فاختار النقباء، و أرسلوا الدعوة إلى مختلف الأقاليم، و بخاصة خراسان، يدعون إلى الرضا من آل البيت، و اتخذوا السواد. (العلم الأسود و الثياب السود شعاراً لهم مخالفة لبني أمية الذين كانوا يلبسون البياض شعاراً لهم). فاجتمع الناس خلف تلك الدعوة و استطاعوا أن يزعموا الحكم و طويت صفحة الدولة الأموية بقتل مروان الجعدي (و هو مروان بن محمد بن مروان بن حكم)(3).

ثانياً: العصر العباسي:

قامت الدولة العباسية في سنة 132 هـ: و هم من نسل العباس عم الرسول صلى الله عليه و سلم، و استمرت قائمة أكثر من خمسة قرون. كان السلف أول خلفاء بني العباس «فقد عمل على تصفية بقايا الأمويين و مطاردتهم في كل مكان»(4)، و قد اتخذ الكوفة عاصمة له ثم هجرها لأنها كانت مركزاً للعلويين و أنصارهم و اتخذ الأنبار (على الفرات في شمالي العراق) عاصمة جديدة. و حكم أربع سنوات ثم توفي سنة 136 هـ فخلفه أخوه أبو جعفر المنصور، و هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية (136-158 هـ): «فبنى المنصور بغداد سنة 145 هـ و جعلها عاصمة الدولة العباسية بعيدة عن الشام»(5).

و تطور نظام الخلافة بقيام العباسيين، إذ قامت تلك الدولة على كواهل الفرس.

بينما «كان استخدام الموالي في العهد الأموي نادراً، و لكن صار هو المألوف في العصر العباسي»(6).

ص: 54

1- عماد الدين خليل، تحليل التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، قطر، 1990، ص 38.

2- عبد الغني عبود، دراسة مقارنة لتاريخ التربية، دار الفكر العربي - بيروت - 1978، ص 212.

3- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم و الرسل و الملوك، مرجع سابق، ج 6 ص 78.

4- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ج 2 ص 35.

5- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج 1 ص 66.

6- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، د. ت، ج 1، ص 40.

إن أبا جعفر المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال، وقدّمهم على العرب، بل روي «أن أكثر من تولّى الأعمال للمنصور كانوا من الموالي»⁽¹⁾.

حذا العباسيون حذو الأمويين في تولية العهد لأبنائهم، كما نرى «في سنة سبع وأربعين خلع المنصور عمّه عيسى بن موسى من ولاية العهد الذي كان السفاح عهد بها إليه من بعد المنصور، و عهد بها إلى ولده المهدي»⁽²⁾.

و من أبرز معالم سياسة المنصور القضاء على ثورات العلويين، و منها ثورة محمد بن عبد الله بن حسن المعروف بالنفس الزكية⁽³⁾ (سنة 145 هـ)، و ثورة إبراهيم بن محمد⁽⁴⁾ أخيه الذي أعلن ثورته الكبرى على الخليفة في البصرة⁽⁵⁾ و كذلك لم تكن بداية دولة بني العباس إلا مرحلة أخرى من الحروب و الاضطرابات و الثورات و العمليات العسكرية لما نقله على آخر ذيول الحكم الأموي و تثبيت المواقع السياسية الجديدة.

لذلك نستطيع أن نميز عصر الصادق بأنه كان عصر فتن و حروب طاحنة، و نزاع بين رجال الدولة و الحركات السياسية فضلا عن الاضطرابات التي كانت تنخر عظام دولة الخلافة من طولها إلى عرضها.

لقد شهد جعفر الصادق مخاض المعارك و المؤامرات السياسية، التي كانت تتوخى زعزعة الكيان الأموي، و عايش يوميات الأحداث التي انتهت بالانقلاب العباسي على الخلفاء الأمويين، و النزاع الكبير الذي جرى إثر ذلك بينهم و بين العلويين من أبناء الحسين و أبناء عمهم، و طوب الإمام أن يبايع بعض أبناء عمه، فأبى، فأتهم بالحقد و الحسد.ا.

ص: 55

-
- 1- الجهشياري، تاريخ الوزراء و الكتاب، ص 139 (بتصرف).
 - 2- جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص 261.
 - 3- محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (93-145 هـ) أبو عبد الله الملقب بالنفس الزكية ولد و نشأ بالمدينة، أحد الأمراء الأشراف من الطالبيين كان غزير العلم، فيه شجاعة و حزم و سخاء لمّا بدأ الانحلال في دولة بني أمية بالشام اتفق رجال من بني هاشم بالمدينة على بيعته سرا ثم تخلف عن الوفود على السفاح ثم على المنصور، فانتدب المنصور لقتاله ولي عهده عيسى بن موسى بأربعة آلاف فارس، فقاتله محمد، فقتله عيسى في المدينة و بعث برأسه إلى المنصور. (الزركلي، الأعلام 220/6).
 - 4- إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (97-145 هـ) أحد الأمراء الأشراف الشجعان، خرج بالبصرة على المنصور العباسي، فبايعه أربعة آلاف مقاتل فكانت بينه و بين جيوش المنصور وقائع هائلة إلى أن قتله حميد بن قحطبة. كان شاعرا عالما بأخبار العرب و أيامهم و أشعارهم. (الزركلي، الأعلام 48/1).
 - 5- الطبري، تاريخ الأمم و الرسل و الملوك، مرجع سابق، ج 6، ص 183 و ما بعدها.

وكان من بين الذين كانوا يعملون لمصلحة العلويين أحد القادة أبو سلمة الخلال(1)، ولما أحسّ أبو سلمة بنوايا العباسيين وعزمهم على الاستئثار بالسلطة كتب إلى ثلاثة من العلويين هم الإمام الصادق وعبد الله المحض(2) وعمر الأشرف(3)، وأرسل الكتب مع بعض أنصارهم وقال للرسول: إقصد أولاً جعفر بن محمد الصادق، فإن أجابك فلا تراجع غيره، ومزق الكتابين، وإن لم تجد منه جواباً، فاذهب إلى عبد الله المحض، وسلمه الكتاب، فإذا أجابك، فلا تراجع غيره، وإلا فاذهب إلى عمر الأشرف.

فذهب الرسول إلى الإمام جعفر بن محمد، ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمام: مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري؟ ثم قال لخادمه: أدن مني السراج.

فأدناه منه، فوضع الكتاب على النار، حتى احترق بكامله والرسول ينظر إليه، فقال له الإمام هذا جواب كتابه.

فمضى الرسول إلى عبد الله المحض، فدفع إليه الكتاب، فقبله وقرأه وركب من ساعته إلى الإمام الصادق وقال له: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة، وقد وصلني مع بعض شيعتنا من أهل خراسان. فقال له الصادق: «ومتى صار أهل خراسان شيعة لك؟ أنت وجهت إليها أبا مسلم؟ وهل تعرف أحداً من أهلها باسمه، فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم ولا يعرفونك؟ فرد عليه عبد الله بقوله: هذا الكلام منك لشيء.

فقال الصادق: لقد علم الله أنني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم فكيف أدره عنك، فلا تمنّي نفسك بالخلافة، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء - أي لبني العباس - وقد جاءني مثل هذا الكتاب الذي جاءك(4).5.

ص: 56

1- حفص بن سليمان بن همداني الخلال أبو سلمة (م 132 هـ) أول من لقب بالوزارة في الإسلام، كانت إقامته قبل ذلك في الكوفة وأنفق أموالاً كثيرة في سبيل دعوة العباسية ولما استقام الأمر للسفاح استوزره فكان أول وزير لأول خليفة عباسي لما كان عليه من علم بالسياسة والتدبير، واستمر أربعة أشهر و اغتاله أشخاص كمنوا له ليلاً و وثبوا عليه فقتلوه بأسيا ففهم، ويعرف بالخلال لسكناه بدير الخلالين بالكوفة (الزركلي، الأعلام، 263/2).

2- عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبو محمد (70 - 145 هـ) المعروف بالمحض تابعي، من أهل المدينة، كان ذا جاهة وهيبة ولسان ولما ظهر العباسيون قدم مع جماعة من الطالبين على السفاح وهو بالأنبار فأعطاه ألف درهم، وعاد إلى المدينة ثم حبسه المنصور عدة سنوات من أجل ابنه محمد وإبراهيم ونقله إلى الكوفة فمات سجينا فيها كما حققه الخطيب البغدادي. (المصدر نفسه 87/4).

3- عمر بن علي بن الحسين، أبو علي وقيل أبو حفص عمر الأشرف هو أخو زيد بن علي بن الحسين الشهيد وأسن منه فلقبه الأشرف فإنه كان فخم السيادة جليل القدر والمنزلة في الدولتين الأموية والعباسية وكان ذا علم وقد روي عنه الحديث (محسن الأمين، أعيان الشيعة 380/8).

4- أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2001 ج 1، ص 375.

الأخبار في جملتها تومئ إلى أن «الإمام الصادق ما كان يتجه إلى الانتفاض على الحكام، لأنه كان يعتقد أن هذا لا يفضي إلى إقامة الحق وإزهاق الباطل... و فوق ذلك فإنه قد لاحظ أن الخروج يؤدي إلى الفتن، و الفتن تضطرب فيها الأمور»⁽¹⁾. فما شارك في تلك الحوادث قط، لعلمه بعواقب الأمور، و أن الدعاة لهم أهداف و غايات، فاخطت لنفسه و لأهل بيته خطة الاعتزال عن تلك التيارات و الأعاصير السياسية، و لم يذكر اسمه في الأحداث التي وقعت في عصره، إلا إذا كانت ألما أو أسفا أو حزنا على الذين يقتلون من ذوي قرياه، و اتجه إلى الاحتفاظ بمركزه العلمي لأداء رسالة الإسلام على أكمل وجه، فابتعد عن المغامرة برغم إلحاح الكثيرين ممن ينظرون إلى الأمور نظرا سطحيا، و لا يعلمون بعواقبها، و لذلك كان ينهي أبناء عمّه عن القيام بأيّ نشاط ثوري، كما «نهى حمزة بن عبد الله عند ما خرج مع النفس الزكية، و قد استغل جعفر الصادق هذه المرحلة أحسن استغلال لإنعاش الساحة الثقافية و خلق واقع تعليمي و تربوي في المجتمع».

ص: 57

1- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق حياته و عصره آراؤه و فقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993، ص 31 (بتصرف).

تميز عصر الصادق بظهور المذاهب والفرق الإسلامية والدينية المختلفة، وقد أدى انتشار هذه المذاهب والفرق إلى زيادة اهتمام العلماء ببحث المسائل الدينية المختلفة ومنها مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار، وقدرة الإنسان إلى جانب قدرة الله تعالى، ومرتكب الكبيرة وخلق القرآن...

و من أهم هذه الفرق والمذاهب الإسلامية:

أ - الخوارج:

و هم الذين ظهروا في حرب صفين بعد التحكيم و هم يرون «أن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين لا فريق منهم، ويستمر خليفة ما دام قائما بالعدل مقيما للشرع، مبتعدا عن الخطأ والزيغ، فإن حاد وجب عزله أو قتله...»

ويرى الخوارج تكفير أهل الذنوب، ولم يفرقوا بين ذنب و ذنب، بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنبا، ولذلك كفّروا عليًا لرضاه بالتحكيم مع أنه لم يقدم عليه مختارا... و هم متمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها، و ظنوا هذه الظواهر ديننا مقدسا»⁽¹⁾.

و كما عادى الخوارج الإمام علي (كرم الله وجهه) و كرهوه، فقد كانوا أعداء لبني أمية، و لذلك نجد صراعهم يطول في عهد الدولة الأموية. «و تاريخهم في هذا العهد - بشكل عام - يمثل سلسلة من الثورات المسلحة و الحروب المتواصلة التي لا يختلف بعضها عن بعض، إلا باختلاف العناصر البشرية المتحاربة و تبدل مواقع القتال الجغرافية»⁽²⁾، حتى إنهم في بعض الأحيان كانوا «يظفرون و يكوّنون لأنفسهم سلطة و نفوذا»⁽³⁾.

و في النهاية ضعف أمرهم في العصر الأموي، و انكسرت شوكتهم، و لم يعودوا يشكّلون خطرا يذكر على كيان الدولة فيما بعد، و لكن يبدو أن نهايتهم كانت مقدمة

ص: 58

1- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، 1989، ج 1، ص 60 و 65 و 66.

2- نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، دار الطليعة، بيروت، 1994، ص 108.

3- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، رقم، الدولة الأموية و الحركات الفكرية و الثورية خلالها ج 2، النهضة المصرية، القاهرة 1996، ص 247.

لنهاية حكم الأمويين أيضا، حيث اقتصر نشاطهم بصورة عامة على الفترة الأولى من الخلافة العباسية، أيام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي واجههم في الجزء الأكبر من خلافته. «فظل نظرهم إلى الخلفاء في العهد العباسي كما كان في العهد الأموي بأن كلهم لا يصلحون للخلافة، ويجب الخروج عليهم، إلا أن قوة الخوارج في هذا العهد لم تكن كقوتهم في العهد الأموي»(1).

ب - المعتزلة:

نشأت هذه الفرقة في العصر الأموي، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحا طويلا من الزمن. وتعتبر هذه الفرقة من أهم الفرق الكلامية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، وقد نصب أتباعها أنفسهم للدفاع عن العقيدة وما يتصل بها.

قيل في سبب تسميتهم بالمعتزلة «أن أستاذهم الأول «واصل بن عطاء»(2) كان من يرتاد مجلس الحسن البصري(3) ولكن خرج عن أقوال الفرق قبله وجعل الفاسق من هذه الأمة في منزلة بين الكفر والإيمان فطرده الحسن البصري من مجلسه فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وقال الناس يومئذ فيه إنه قد اعتزل قول الأمة وسمي أتباعه من ذلك اليوم معتزلة»(4).

وتتكون عقيدتهم من خمسة أصول «هي: التوحيد، والعدل، المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(5).

وتتلخص عقيدة المعتزلة في «نفي صفات الله الأزلية والقول باستحالة

ص: 59

1- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج 3، ص 337 (بتصرف).

2- واصل بن عطاء الغزال (80-131 هـ) أبو حذيفة، من موالي بني ضبة أو بني مخزوم: رأس المعتزلة من أئمة البلغاء والمتكلمين. سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري. ومنهم طائفة تنسب إليه، الواصلية وهو الذي نشر مذهب الاعتزال.. ولم يكن غزالا، وإنما لقب به لترده على سوق الغزاليين بالبصرة. له تصانيف، منها «أصناف المرجئة» و«المنزلة بين المنزلتين» و«معاني القرآن» و«كفقات أهل العلم والجهل» و«السبل إلى معرفة الحق» و«التوبة». (الزركلي، الأعلام، 108/8).

3- الحسن بن يسار البصري (21-110 هـ)، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، و حبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، و سكن البصرة، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف، وقد سلم من أذاه. وأخباره كثيرة، وله كلمات سائرة. توفي بالبصرة. (الزركلي، الأعلام، 226/2).

4- عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، المكتبة العصرية، بيروت، 1990، ص 118 و الحميري، الحور العين، دار آزال، بيروت، 1985، ص 258، (بتصرف).

5- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص 126.

رؤية الله عزّ وجلّ بالأبصار، و اتفقوا على القول بحدوث كلام الله وأنّ الله غير خالق لأكساب الناس و الناس هم الذين يقدرّون على أكسابهم و القول بأنّ المسلم العاصي في منزلة بين المؤمن و الكافر و هو فاسق»(1)، و اتسعت حركتهم في عصر الصادق اتساعا كبيرا (و كانوا يكرهون الأمويين و يكرههم الأمويون..

و في بدء العصر العباسي نشطت دعوتهم، و بعثوا الدعاة إلى أقصى الأقطار ينشرون مبادئهم... و كان زعيمهم عمرو بن عبيد(2) مهادنا للمنصور لا يخرج عليه، و لكن لا يعاونه.»(3)

ج - الجهمية أو الجبرية:

ج - الجهمية(4) أو الجبرية:

خاض العلماء في حديث القدر و قدرة الإنسان بجوار قدرة الله سبحانه و تعالى في عهد بني أمية، و كان فريق منهم زعموا أن الإنسان لا يخلق أفعاله، و ليس له مما ينسب إليه من الأفعال شيء، و إنما هو مجبور فيها و لا قدرة و لا إرادة و لا اختيار له.

فقوام هذا المذهب «نفي الفعل حقيقة عن العبد و إضافته إلى الرب تعالى»(5) فإنّ الإنسان لا يقدر على شيء و لا يوصف بالاستطاعة. و «القول في الجبر شاع في أول العصر الأموي، و كثر حتى صار مذهبا في آخره»(6) له ناس يعتنقونه، و يدعون إليه، و يدرسونه، و يبيّنونه للآخرين.

و يقال: إن أول من دعا إلى هذه النحلة من المسلمين الجعد بن درهم(7)، ثم

ص: 60

1- البغدادي، الفرق بين الفرق، مرجع سابق، ص 114 (بتصرف).

2- عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء (80 أ 144 هـ)، أبو عثمان البصري شيخ المعتزلة في عصره و فقيها و أحد الزهاد المشهورين، اشتهر عمرو بعلمه و زهده و أخباره مع المنصور العباسي و غيره، له رسائل و خطب و كتب منها «التفسير» و «الرد على القدرية»، توفي بمروان قرب مكة، و رثاه المنصور، و لم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه. و في العلماء من يراه مبتدعا، قال يحيى بن معين: كان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع. (الزركلي، الأعلام 81/5)

3- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج 3 ص 90.

4- نسبة إلى الجهم بن صفوان.

5- الشهرستاني، الملل و النحل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1408، ج 1، ص 79.

6- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص 104.

7- الجعد بن درهم (نحو 118 هـ)، من الموالي: مبتدع، له أخبار في الزندقة. سكن الجزيرة الفراتية، أخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة، في أيام هشام بن عبد الملك فنسب إليه. أو كان الجعد مؤدبه في صغره. و من أراد ذم مروان لقبه بالجعدي نسبة إليه. و قال ابن الأثير: كان مروان يلقب بالجعدي، لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن و القدرة. (الزركلي، الأعلام 120/2).

تلقاه عنه الجهم بن صفوان(1) الذي نسبت إليه هذه الفرقة.

د - القدرية:

وهؤلاء مذهبهم على النقيض من مذهب الجهمية، إذ إنهم يقولون إنّ الإنسان يعمل أفعال نفسه و يكسبها. «فإن القدرية نفوا العلم الأزلي والتقدير الأزلي»(2).

وقد كان ظهور هذه النحلة بالبصرة و «أول من حمل لواء هذه الدعوة معبد الجهني(3) و سلك أهل البصرة مسلكه»(4)، ثم وسّع القول فيها غيلان الدمشقي(5).

هـ - المرجئة:

من الطوائف الإسلامية التي شاعت في عصر الصادق المرجئة، و هم الذين يخرجون العمل من دائرة الإيمان، و هم أصناف شتى، فمنهم من يزعم أنّ الإيمان هو المعرفة (أي معرفة القلب فقط) و «لم يكفروا أصحاب الكبائر و لم يحكموا بتخليد هم في النار خلافا للخوارج و القدرية»(6). و زعموا أنّ الإيمان إقرار و تصديق و منفصل عن العمل(7).

ص: 61

1- الجهم بن صفوان السمرقندي (128 هـ)، أبو محرز، من موالي بني راسب رأس الجهمية، قال الذهبي: الضال المبدع، هلك في زمان صغار التابعين و قد زرع شرا عظيما. كان يقضي في عسكر الحارث بن سريح، الخارج على أمراء خراسان، فقبض عليه نصر بن سيار، فطلب جهم استبقاءه، فقال نصر: لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت، و أمر بقتله، فقتل. (الزركلي، الأعلام 141/2).

2- أبو زهرة، الإمام الصادق حياته و عصره، آراؤه و فقهه، مرجع سابق، ج 1 ص 115.

3- معبد بن عبد الله بن عليم الجهني البصري (م 80 هـ)، أول من قال بالقدر في البصرة سمع الحديث من ابن عباس و عمران بن حصين و غيرهما، و حضر يوم التحكيم و انتقل من البصرة إلى المدينة، فنشر فيها مذهبه و عنه أخذ غيلان الدمشقي، كان صدوقا، ثقة في الحديث من التابعين و خرج على الحجاج بن يوسف، فقتله الحجاج بعد أن عذّب. و قيل: صلبه عبد الملك بن مروان في دمشق، على القول في القدر ثم قتله. (الزركلي، الأعلام 264/7).

4- المقرئزي، الخطط المقرئزية، إحياء العلوم، لبنان، د. ت، ج 2، ص 356 (بتصرف).

5- غيلان بن مسلم الدمشقي (بعد 105 هـ)، أبو مروان: كاتب، من البلغاء، تنسب إليه فرقة الغيلانية من القدرية. و هو ثاني من تكلم في القدر و دعا إليه، لم يسبقه سوى معبد الجهني. و له رسائل. قال ابن النديم: إنّها في نحو ألفي ورقة. و قيل: تاب عن القول بالقدر، على يد عمر بن عبد العزيز، فلما مات عمر جاهر بمذهبه، فطلبه هشام بن عبد الملك، و أحضر الأوزاعي لمناظرته، فأفتى الأوزاعي بقتله، فصلب على باب كيسان بدمشق. (الزركلي، الأعلام 124/5).

6- الشهرستاني، الملل و النحل، مرجع سابق، ج 1، ص 130.

7- يطلق اسم المرجئة - بمعنى التأخير - على الجماعة أي أنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية و العقد. و هذا المعنى ليس قصدنا في هذا المجال.

و«لا تضمرّ مع الإيمان المعصية، كما لا تنفع مع الكفر الطاعة»(1).

و - الغالية (من الشيعة):

«هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم عن حدود الخليقية و حكموا فيهم بأحكام الإلهية»(2).

ولهم أصناف مختلفة و منهم الخطابية، و هم أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي(3) الذي عزا نفسه إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد «و زعم أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، و قال بإلهية جعفر بن محمد و إلهية آبائه، فلمّا وقف الصادق على غلوّه بالباطل في حقه تبرّأ منه، و لعنه، و أمر أصحابه بالبراءة منه، و شدّد القول في ذلك»(4).

*** إلى جانب انتشار هذه الفرق الإسلامية نرى ظهور حركات خطيرة كحركات الزنادقة في هذا العصر. يرجع تاريخهم إلى أواخر العصر الأموي، لكنّها لم تقو على الظهور، إلاّ بعد قيام الدولة العباسية إذ انتشرت في الكوفة. «و نحن إذا قارنا بين انتشار هذه الكلمة في العصر الأموي و العصر العباسي، وجدنا استعمال الكلمة في العصر الأموي قليلا نادرا، و في العصر العباسي فاشيا شائعا»(5).

و للزندقة عدّة معان تختلف باختلاف العصور: «فقد كان العرب يطلقون لفظ زنديق على من ينفي وجود الله سبحانه و تعالى أو يقول: إنّ له شريكا.

وقيل: هو كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم، و يسرف في العبث و المجون»(6).

وقيل: هو «اتباع دين المجوس خاصّة دين ماني مع التظاهر بالإسلام أو غير تظاهر بالإسلام»(7).

و مهما كانت معانيها المختلفة، فمن المعلوم أنّ «غرض حركة الزندقة في هذا

ص: 62

1- الشهرستاني، الملل و النحل، ص 60.

2- المصدر نفسه، ص 154.

3- محمد بن أبي زينب مقلص، أبو الخطاب الأسدي، مولى، كوفي، كان يبيع الأبراد يكنى أبا إسماعيل و يكنى أيضا أبا الضبيان، كان في عصر جعفر بن محمد الصادق فهو غال، وردت أخبار كثيرة عن الصادق في ذمّه و لعنه. (الخوئي، معجم رجال الحديث، 244/14).

4- الشهرستاني، الملل و النحل، ص 159.

5- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج 2، ص 138.

6- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج 2، ص 115.

7- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج 2، ص 154 (بتصرف).

العصر كان تهديد الدين الإسلامي، فهي تدعو إلى آراء تخالف تعاليم الإسلام»(1). وقد قتل كثيرون من رؤوس الزنادقة في العصر العباسي «يتقدمهم ابن المقفع الذي قتل في عهد أبي جعفر المنصور»(2).

وفي وسط هذا الجو، تعددت الفئات الدينية في المجتمع الإسلامي؛ فكان منها أهل الذمة، وهم النصارى واليهود، وقد عاشوا بين المسلمين، بالأمن والحرية في شتى المجالات، و«كانوا يتمتعون بكثير من التسامح الديني، و يقيمون شعائرهم الدينية في أمن و دعة»(3).

فقد كانت نتيجة الانفتاح الثقافي والفكري على الملل والنحل انتشار الفلسفة اليونانية بموضوعاتها ومفاهيمها ومصطلحاتها الجديدة «وأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي»(4). و تغلغل معها الشك بين المسلمين فكثرت الشبهات. و طغت موجة الأفكار المنحرفة، فكان أرباب الديانات يتجادلون في أديانهم، و يقفون مواقف الهجوم والدفاع، و يدعون إلى دينهم بأدلة عقلية مؤسسة على منطق أرسطو و قد كانت الدعوة إلى الإسلام في العصر الأول أكثر ما تعتمد على الأسلوب الفطري و الانتباه إلى الكون و آثاره. أمّا في هذا العصر، «فتحولت الدعوة الدينية إلى علم الكلام، و تأثر تفسير القرآن و تفسير الحديث و التشريع بهذا الأثر الفلسفي و رأينا العلماء يجتهدون في شرح كل ما يعرض لهم من ذلك بعقل عقلية و عبارات منطقية»(5).

و كذلك نضج علم الكلام في العصر العباسي الأول، و انتشر الخلاف و كثر الجدل و كان النزاع يملأ حلقات العلم، و المناظرات تقع في مجالس الخلفاء في المساجد و في الشوارع.

و في وسط هذه الأفكار و الآراء نرى أنّ «الصادق كان ذا تفكير مستقل، و كان يوجّه و لا يتأثر بالآراء و كان غير مقيد بنحلة و فرقة بل كان فوق تنازع الفرق»(6) و كان يبيّن مقدار ما فيها من الحق و كان المصلح الذي تولّى تربية الجيل المسلم على منهج خاصّ «و منهاجه القويم الذي رسمه لنفسه هو الالتزام بالكتاب و السنّة»(7) و سنفصل الكلام عليه فيما بعد عند كلامنا على آرائه التربوية في البحوث التالية.9.

ص: 63

1- علي حسن الخربوطلي، المهدي العباسي، الدار المصرية، 1984، ص 147.

2- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، مرجع سابق، ص 81.

3- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج 3، ص 425.

4- السيد مير علي الهندي، مختصر تاريخ العرب و التمدن الإسلامي، القاهرة، 1938، ص 179.

5- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص 9.

6- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ج 1، ص 79 و ص 117.

7- المصدر نفسه، ص 79.

لم يحدث الانقلاب في البيئة العربية فجأة، بل بدأ التبدل فيها منذ خرجت جيوش الفتح إلى أقطار العالم في الشرق والغرب، و منذ أخذ الإسلام ينتشر في صفوف غير العرب، و منذ شرع البدو يتخلّون عن سكنى البادية، و ينزلون الحواضر، و منذ تزوّج الفاتحون العرب الفارسيات و التركيات و الروميات. إلا أن هذا التبدل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدولة العباسية مبلغاً لفت الأنظار.

العرب في الأصل - إلا - أقلهم - بدو رحل يحملون مبادئهم و قيمهم مع خيامهم و ينتقلون بها من مكان إلى آخر، لا يذكرون إلا صلة النسب أو ما هو بمعنى النسب من الولاء و الحلف. و شرعوا يتخلّون عن سكنى البادية، و ينزلون الحواضر في عهد بني أمية «فدعاهم النزول في الحضرة إلى الترف و اللهو و إلى ضياع كثير من محامدهم الأولى من الفطرة الخيرة و الشجاعة و النجدة، ثم انتشر بينهم كثير من مساوئ المدنية كالشراب و الانغماس في اللذات»⁽¹⁾.

من ناحية أخرى جعل الفتح الإسلامي العرب يحتكّون بأمم غير عربية. فتزوج العرب بغير العربيات، فنشأ بذلك جيل مولد بين العرب و غير العرب. هذا الجيل الجديد كان أكثر إمعاناً في اللّهُو من الجيل العربي الأول. ثم كثرت الجوارى أيضاً و شاعت المجالس التي يجتمع فيها الناس كلّهم، و حدث السّففور (بروز النساء في المجالس و مجارة الرجال في التّزه و الغناء). «وقد أخذ الأمويون كما أخذ العباسيون من بعدهم نظام مجالسهم عن الفرس»⁽²⁾.

و تطوّر الغناء تطوّراً بارزاً بسبب ما انتقل إليه من الفن الفارسيّ و أشياء قليلة من الفن الرومي. و كان حظ الحجاز من هذا التطور في الغناء عظيماً جدّاً، و كان أهل الحجاز صنّاع هذا التطور، «فقد امتلأت مكة و المدينة و ضواحيها بالمغنين و المغنيات و كان لمغنيّ مكة مذهب في الغناء و لمغنيّ المدينة مذهب، و كان بين الفريقين مفاخرة»⁽³⁾.

ص: 64

1- عمر فروخ، الأدب العربي، مرجع سابق، ج 2 ص 39.

2- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج 1، ص 532.

3- أحمد أمين، فجر الإسلام، مطبعة اعتماد، القاهرة، د. ت، ج 1 ص 176.

و لا مجال لإنكار انتشار الغناء و اللهو في الحجاز و أقاليم أخرى في الدولة الأموية كالعراق و الشام، فذلك ما تؤكدته كثير من الروايات، و تؤيده دواوين الشعراء و موروثات الأدباء، و برغم اختلاف الروايات في مدى ذلك الانتشار و تعبيره عن حقيقة الحياة في المجتمع الأموي في خطها العام، و مهما كان في هذه القصص من المبالغة، فالأساس صحيح.

هذا و قد أسهم عدد من خلفاء بني أمية و أبناء الخلفاء في نشر الموسيقى و الغناء و استعمال آلاتها، على أن آخرين منهم كعمر بن عبد العزيز كانوا يرفضون ذلك و يقاومونه(1).

أما العباسيون، فقد رفضوا في مطلع عهدهم التعاطي باللهو و الغناء، «كالمنصور الذي كان يعير آل الزبير بحبهم للطرب و الموسيقى»(2)، و لكن عددا من الخلفاء العباسيين اشتغل فيما بعد بصناعة الموسيقى و التلحين، حتى شاع اللهو في البلاد، و مال الناس إلى الغناء و الرقص و التفتن في الملبس، و كان من الترف و الفراغ أن شاع التسرّي، و تعاطي الناس المسكرات سرا و علنا، «و لقد كان هذا نتيجة حتمية للاختلاط بالأجناس الأجنبية، و الثقافات المغايرة، و أيضا لإطلاق الحريات في جميع الميادين»(3)، و قد أثر ذلك تأثيرا بالغيا في الحياة الاجتماعية.

لقد كان هذا الحال واضحا في العصر العباسي إلا أن هذا كان من شأن طائفة فقط، و لم يكن شأن الجميع، «فما كانوا كلهم أغنياء و لا كلهم هازلين، و ما كان ذلك لأمة من الأمم في أي عصر من العصور... إنما هو يمثل ناحية واحدة من نواحيها المتعددة و وجوها المختلفة»(4) كما نرى في هذا العصر، تيار الزهد و التقوى الذي غير الوضع قليلا كتكشف زهد سفيان الثوري(5)، و عبد الله بن المبارك(6)، فقلدهم الناس و ساروا في طريقهم.

ص: 65

- 1- علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب و معادن الجواهر، دار الفكر، بيروت، ط 5، 1993 ج 1، ص 321 و ج 5، ص 156 و 157.
- 2- محمد كاظم مكي، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، دار الزهراء، بيروت، 1990، ص 421.
- 3- محمد سعد القزاز، الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، دار الفكر العربي، مصر، 1995، ص 79.
- 4- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 1، ص 126.
- 5- سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (97-161 هـ) من بني ثور بن عبد مناة، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين و التقوى ولد و نشأ في الكوفة، و راوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى، و خرج من الكوفة، فسكن مكة و المدينة. له من الكتب «الجامع الكبير» و «الجامع الصغير» كلاهما في الحديث و «الفرائض» و كان آية في الحفظ. (الزركلي، الأعلام 105/3).
- 6- عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء (118-181 هـ) الحافظ، شيخ الإسلام، - المجاهد التاجر، صاحب التصانيف و الرحلات، أفنى عمره في الأسفار و جمع الحديث و الفقه و العربية و أيام الناس و الشجاعة و السخاء، كان من سكان خراسان. له كتاب في «الجهاد» و هو أول من صنف فيه. (المرجع نفسه 115/4).

وقد شهد العصر الأموي طائفة من التطورات الإدارية والاجتماعية.. فكان منها ما اتجه إلى تطوير الإدارة بابتكار بعض الدواوين، مثل ديوان البريد وديوان الخاتم.

والإتجاه إلى صهر الأمة الإسلامية مختلفة الأجناس في الإطار العربي، وذلك ببدء حركة التعريب سواء بتعريب أهم دواوين الدولة وهو ديوان الخراج، أم بتعريب العملة، حيث سك عبد الملك للعرب عملة خاصة بهم(1)، بعد أن كانوا يتعاملون بالعملة الرومية والعملة الفارسية (سنة 74 هـ)، ثم أمر بتعميمها في جميع النواحي (سنة 76).

«و لم يكتف بتعريب العملة بل وَّحد عيارها»(2)، فخفضت من مشكلات الجباية الناشئة عن اختلاف أوزان الدراهم من قبل، و أصبح نقدا دوليا في التعامل التجاري الدولي.

كما «أمر عبد الملك بنقل الدواوين (كتابة سجلات الدولة) إلى اللغة العربية»(3) بعد أن ظلت إلى أيامه تكتب في العراق بالفهلوية (الفارسية القديمة) وفي الشام بالرومية وفي مصر بالقبطية. «فقد سادت اللغة العربية هذه الممالك جميعها وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للبلاد»(4)، وهكذا أصبحت لغة دولة و«لم ينقض العصر الأموي حتى كانت اللغة العربية هي السائدة في كل أنواع المكاتب»(5). واضطر الساكنون في البلاد الإسلامية إلى تعلّم اللغة العربية، وجمعتهم ثقافة واحدة.

و من ناحية أخرى سن الأمويون نظاما دقيقا للإشراف على جباية الأموال، «وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، إذ لم يراع الخلفاء الأمويون القواعد التي قررها أسلافهم، بل تجاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها»(6)، كالرسوم على الصناعات والحرف(7) وفرض ضرائب على من يتزوج أو يكتب عرضا(8) وفرض الجزية على المسلمين الجدد في زمن عبد الملك بن مروان(9)،5.

ص: 66

- 1- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف 1387، ص 40.
- 2- أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، قم، 1404، ص 45 (بتصرف).
- 3- جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص 219.
- 4- أحمد أمين، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص 96.
- 5- مجدي فتحي السيد، تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الأموي، دار الصحابة بطنطا، 1998، ص 310.
- 6- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 2 ص 301.
- 7- بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع، بيروت، د. ت، ص 57.
- 8- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ج 5، ص 23.
- 9- الطبري، تاريخ الأمم والرسول، ج 8 ص 35.

ثم ألغى عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته الضرائب الإضافية، كهدايا النوروز و المهرجان و ضرائب الزواج و أجور البيوت.. فقرر إعفاء من يسلم من الجزية(1)، و لكن إصلاحاته انتهت بوفاته(2)... و لم تستمر إلا جزئيا بعده.

و قد اهتم العباسيون كذلك بالخراج اهتماما عظيما، «و كانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبي من الضرائب، و قد بلغت في أيام الرشيد ما يقرب من اثنين و أربعين مليون دينار»(3).

و قد أدت كثرة الأموال في العصر الأموي و العباسي إلى الترف، و انتقل المجتمع الإسلامي من طور البساطة و الزهد و التخفف من متاع الدنيا، إلى طور جديد فيه شيء من الترف و قدر من التنعم، و قد تركت هذه النقلة المدنية أثرها على مناحي الحياة المختلفة، «فعمّ التألق في المطعم و الملبس و المسكن ثم بنيت الدور و القصور، و أنشئت البساتين»(4).

فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، اعتمد الخلفاء عليهم. و أهملوا العرب الذين تقموا على الفرس، حتى إن الطابع الفارسي ظهر واضحا في العصر العباسي الأول، و اقتبس الخلفاء العباسيون كثيرا من نظم الفرس الحكومية. فعلى سبيل المثال، «طرائقهم في تنسيق دواوين الدولة و أساليب الحرب، و نظم الحكم»(5)، حتى لقد «أخذ العباسيون من الفرس فكرة الوزارة»(6).

و احتجب الخليفة عن رعيته و اتخذ الوزير و السيف، فأحيط شخصه بالقداسة و الرهبة.. «و إن ذلك المظهر الخارجي الذي أحاط بالخلفاء العباسيين ليختلف عن تلك البساطة الأولى التي امتاز بها الإسلام، و يعيد إلى الذاكرة مظاهر الأبهة التي تجلّت في البلاط الساساني»(7).

و هكذا انغمس العباسيون في الترف و البذخ بزيادة العمران و تدفق الثروة، و كانت قصور الخلفاء و الأمراء و كبار رجال الدولة مضرب المثل في حسن رونقها و بهائها، كما امتازت بفخامة بنائها و اتساعها»(8)، كقصر الذهب الذي بناه أبو جعفر المنصور في وسط بغداد و قصر الخلد الذي بناه على شاطئ دجلة الغربي(9).5.

ص: 67

1- المصدر نفسه، ج 8، ص 139.

2- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 29.

3- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج 2، ص 302.

4- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص 354.

5- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 3، ص 281.

6- محمد سعد القزاز، الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، مرجع سابق، ص 84.

7- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 2، ص 254 و 255.

8- المصدر نفسه، ص 402.

9- أحمد بن علي خطيب بغدادي، تاريخ بغداد، مرجع سابق، ج 1 ص 75.

و من الطبيعي أن يعمّ البؤس و الشقاء من جانب، بينما يعمّ النعيم و الترف من جانب آخر»⁽¹⁾، فقد كانت هناك طبقة تنعم بالحياة بلا حدّ، و طبقات فترّ عليها في الرزق، فهي تشقى كلّ الشقاء إذ، «لم تكن أموال الدولة موزّعة توزيعاً متقاربا، و لا كانت الفروق بين الطبقات فروقا طفيفة، و إنما كانت هناك هوّات سحيقة بين الطبقات»⁽²⁾.

و الجدير بالذكر أنّ عناية الخلفاء لم تقتصر في هذا العصر على عمارة القصور و البساتين فقط، بل اهتموا ببناء المدن الكبرى من ناحية (كمدينة قيروان و مدينة بغداد)، و بناء المساجد من ناحية أخرى، كما روي بناء مسجد الخيف بمنى على يد أبي جعفر المنصور و كذلك توسيع المسجد الحرام على يده، فقبل عند ما أراد أبو جعفر أن يوسّع المسجد الحرام «و امتنع الناس من بيع منازلهم، فذكر ذلك منصور لجعفر بن محمد، فقال الإمام: سلهم أهم نزلوا على البيت أم البيت نزل عليهم؟ فكتب منصور إليهم فقالوا: نزلنا عليه. فقال جعفر بن محمد: فإن البيت فناؤه. فكتب أبو جعفر إلى و اليه زياد بن عبيد الله بهدم المنازل التي تليه فهدمت المنازل و أدخلت عامّة دار الندوة فيه حتى زاد فيه ضعفه...»⁽³⁾.9.

ص: 68

1- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، مرجع سابق، ص 151.

2- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج 1 ص 103.

3- أحمد يعقوبي، تاريخ يعقوبي، دار صادر، بيروت، 1960، ج 2، ص 369.

لم يقتصر تطوّر البيئة العربية في عصر الصادق على جانب واحد من الحياة الاجتماعية، فقد تطوّرت في جوانب مختلفة، وكان للحركات الفكرية و الثقافية نصيب من ذلك التطوّر، فدخلت الأمة الإسلامية ذلك العصر مرحلة جديدة في حياتها العقلية و العلمية.

نلاحظ في أوائل العصر الأمويّ عناية العرب بمعارفهم العربية الخالصة من أخبار آبائهم في الجاهلية و أنسابهم و أشعارهم، فكثرت بينهم علماء النسب و أصحاب الأخبار، و إلى جانب المعارف العربية اندفع العرب نتيجة لتمازجهم مع الأمم الأعجمية يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية، فعرفوا تخطيط المدن و عمارة المباني، كما عرفوا جباية الخراج و ضبط الدواوين، و لم يقف تأثر العرب بالأعاجم عند المعارف التطبيقية و إنما تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها، «و لا شك أنهم استفادوا من المدارس التي وجدت في جند يسابور و الرها و نصيبين و أنطاكية و حرّان و الإسكندرية التي هي مزيج من الثقافة اليونانية و ثقافات شرقية مختلفة، دينية و غير دينية»⁽¹⁾.

بدأ العرب يهتمون بالترجمة منذ ذلك العصر، و «كان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عني بنقل علوم الطب و الكيمياء من الكتب اليونانية و القبطية إلى العربية»⁽²⁾، و في أخبار عمر بن عبد العزيز «أنه أمر ماسرجوية البصري أن يترجم من السريانية إلى العربية كتابا في الطب»⁽³⁾.

لكن أعمال الترجمة في العصر الأمويّ كانت مقصورة على أفراد، و تمثل اهتمامات فردية أو جهودا شخصية، خلافا لما نجده في العصر العباسي، حيث كانت الترجمة «تمثل مدرسة كاملة ترعاها الدولة و تباركها. كذلك اهتمت الترجمة في العصر الأمويّ بالعلوم مثل الطب و الكيمياء، و لم تتعدّها إلى العلوم العقلية في الرياضيات و المنطق و الفلسفة»⁽⁴⁾. إضافة إلى «أن الترجمة في هذا العصر كانت بدائية و ضعيفة

ص: 69

1- نجدة خمّاش، خلافة بني أمية في الميزان، ريع الدار السورية، 2001، ص 177.

2- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ج 1 ص 510.

3- محمد بن إسحاق، النديم، فهرست، د. ن، د. ت، ص 355.

4- محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها و تطورها، مرجع سابق، ص 184.

المستوى إذا ما قورنت بالترجمات الأخرى في الأدوار التالية»(1)، على كل حال لم يكن لترجمة الكتب العربية حظ كبير في عهد بني أمية ولقد عمل الخلفاء العباسيون جميعاً على تنشيط حركة الترجمة، مستخدمين في ذلك شتى السبل والأساليب المادية منها والمعنوية.

فإن الخليفة المنصور هو أول من ازدهرت في عهده هذه الحركة من خلفاء بني العباس، فعني بترجمة الكتب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية وتشجيع العلماء والباحثين على ذلك... حتى قيل: «إن المنصور كان يدفع ثمن المترجمات الجديدة ما يوازي وزنها ذهباً»(2) فترجمت له الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، فنشرها بين الناس، فكثرت في أيامه رواياتهم، و اتسعت علومهم. «و من المؤلفات التي ترجمت في أيام المنصور، كتاب كليلة ودمنة، و كتاب السند هند، و كتاب أرسطوطاليس من المنطقيات و سائر الكتب العجمية في النجوم، و الحساب و الطب و الفلسفة و غير ذلك... و يعتبر المنصور أول خليفة عمل بأحكام النجوم، و ترجمت في عهده أشهر كتب الفلك»(3).

و كذلك نرى أن العلم في العصر الأمويّ كانت نواته القرآن و الحديث، فكل مسائل العلم تقريبا تدور حول هذه النواة، منهما يستنبط الفقه، و لأجلهما يروى الشعر، و بسببهما تبحث مسائل النحو. و على الجملة «فالحركة العلمية كانت كلها دينية إلا القليل؛ و العلم كان رواية العلماء من حفظهم أو من صحف جمعت حيثما اتفق، فالصحيفة قد يكون فيها حديث و مسألة فقهية، و مسألة نحوية، و مسألة لغوية. و مجالس العلماء كذلك و لم نجد العلوم متميزة، فليس علم مستقل اسمه التفسير، و لا علم مستقل اسمه الفقه و هكذا، و لا العلماء كذلك.

أمّا في العصر العباسي، فنجد الدراسة حول الطب و الطبيعة و الكيمياء و الهيئة و غير ذلك من الدراسات الدنيوية إلى جانب الدراسات الدينية حول القرآن و الحديث، و لكل نوع مميزات خاصة و منهج في البحث خاص»(4). و نجد في الوقت نفسه أن كلاً منها قد أثر في الآخر و تأثر به.

و بدأت تتراءى في هذا العصر مسألة التخصص في العلوم، فامتازت مختلف العلوم).

ص: 70

1- رشيد حميد حسن الجميلي، حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث و الرابع للهجرة، دار الكتاب، طرابلس 1982، ص 27.

2- أحمد الحنفاوي، الحضارة الإسلامية في ظلّ الخلافة العباسية، ص 165.

3- رشيد حميد حسن الجميلي، حركة الترجمة في المشرق الإسلامي، مرجع سابق، ص 70 و 73 (بتصرف).

4- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص 11 إلى 13 (بتصرف).

عن بعضها البعض، وجمعت مسائل كل علم على حدتها، «وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم.

ويطلق على الأولى العلوم النقليّة أو الشرعيّة، وعلى الثانية العلوم العقليّة أو الحكميّة، ويطلق عليها أحيانا علوم العجم، أو العلوم القديمة»(1).

وتشمل العلوم النقليّة: التفسير، والقراءات، والحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان، والأدب.

وتشمل العلوم العقليّة: الفلسفة، والهندسة وعلم النجوم، والطب، والكيمياء.

وفي هذا العصر «بدأت المذاهب تتحدّد، وأصبح لكل إمام أصول وأسابيل يجري عليها في الاستنباط... فظهور المذاهب الفقهيّة وتكوّنها وشمولها لأبواب الفقه والتأليف فيها واستقلالها ونحو ذلك كله ظاهرة من ظواهر العصر العباسي»(2). ولذلك ذكر المؤرّخون أن التدوين والتأليف كانا من مميزات العصر العباسي في التشريع، «فقد ظهرت حركة التدوين في هذا العصر في كل فروع العلم ومنها الفقه؛ نعم كان في العصر الأمويّ نواة التدوين، ولكنها نمت واتسعت في العصر العباسي»(3).

ولم يكن للمكتبات شأن كبير في العصر الأموي، ولما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي، وتقدمت صناعة الورق، كثرت المكتبات التي كانت تزرخ بالكتب الدينيّة والعلميّة والأدبيّة، وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلاميّة.

وكذلك نرى للمساجد في هذا العصر دورا كبيرا في النهضة العلميّة؛ فلم تكن بيوتا للعبادة فحسب، بل كانت أيضا معاهد علميّة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة، والحافلة بكل أنواع المعرفة والتثقيف، يقدم إليها الراغبون في العلم، ويجتمعون في حلقات حول أستاذهم، وتكبر الحلقة وتصغر تبعا لمكانة الأستاذ.

ففي مسجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم «كان الإمام جعفر الصادق يجلس ليعلم الناس ويثقفهم ويفقههم في أمور دينهم»(4). وفي مسجد البصرة حلقات أخرى للدرس والشعر والأدب... وقد عملت هذه المجالس والحلقات على تنشيط الحركة العلميّة والفكريّة والثقافيّة الإسلاميّة.

وسوف أتحدث إن شاء الله عن إسهامات الإمام الصادق في تنشيط هذه الحركة في الفصول الآتية بالتفصيل، أسأل الله تبارك وتعالى أن يعينني في ذلك.9.

ص: 71

1- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 2، ص 323.

2- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص 173، (بتصرف).

3- المصدر نفسه ص 171.

4- محمد منير مرسي، التربية الإسلاميّة أصولها وتطورها في البلاد، مرجع سابق، ص 189.

المبحث الثاني المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق

- ولادته وتسميته:

- روافد علمه وفكره:

- لمحات من صفاته وأخلاقه:

- مكانته العلمية وآثاره:

- أقوال العلماء في شخصيته:

- رواته وكبار المتخرجين من تلاميذه:

ص: 73

المبحث الثاني المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق

ولادته و تسميته:

الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق، ابن محمّد الباقر، ابن علي زين العابدين، ابن الحسين سبط رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ابن علي بن أبي طالب.

ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة، عند طلوع الفجر 17 ربيع الأول سنة 80 هـ: (1).

اسمه الشريف جعفر، له ألقاب أشهرها الصادق ومنها الصابر والفاضل والطاهر والكافل ولقب بالصادق لصدق حديثه (2).

وكنّى الإمام الصادق بأبي عبد الله وأبي إسماعيل وأبي موسى (3).

والده:

هو الإمام محمد بن علي الباقر، من جلة علماء المدينة (4) وشهر أبو جعفر بالباقر من بقر العلم (أي شقّه) فعرف أصله وخفيه (5).

وكان رضي الله عنه مفسراً للقرآن، و مفسراً للفقهِ الإسلامي، مدركاً حكمة الأوامر والنواهي، فاهماً كل الفهم لمراميها، وكان راوية للأحاديث. ولهذا «كان مقصد العلماء من كل البلاد الإسلامية» (6).

رويت عنه آثار في الأخلاق الشخصية والاجتماعية ما لو جمع في كتاب لتكون منه مذهب خلقي سام، يعلو بمن يأخذ به إلى مدارج السمو الإنساني. وقد جمع بين العلم والعمل والسؤدد والشرف والشقة والرزانة (7).

ص: 75

1- الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 1، ص 157 / ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، د. ت ج 1، ص 327.

2- السمعاني، الأنساب، دار الجنان، بيروت، ج 3، ص 507.

3- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، منشورات العلمية، قم، ج 4، ص 281.

4- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996 ج 6، ص 255.

5- المصدر نفسه، ج 4، ص 402.

6- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 18.

7- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4، ص 402.

هذا أبو جعفر محمد الباقر، و من حاله نعرف إلى أي سلالة ينتمي جعفر، و نعرف أنه في ظل العلم النبوي نما و ترعرع، و قد كان له قدوة في طلبه للحقيقة و الحكمة، فكان ذا أثر بالغ في حياة ولده، و قد مات في سنة 115 (1).

والدته:

هي (أم فروة) بنت الفقيه القاسم بن محمد بن أبي بكر (2) اسمها قريبة أو فاطمة، و أمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر و هذا معنى قول الصادق إن أبا بكر ولدني مرتين (3).

و هي من سيدات النساء عفة و شرفا و فضلا، فقد تربت في بيت أبيها و هو من الفضلاء اللامعين في عصره، كما تلقت الفقه و المعارف الإسلامية من زوجها الإمام محمد الباقر و كانت على جانب كبير من الفضل، حتى أصبحت مرجعا للسيدات من نساء بلدها و غيره في مهمات أمورهن الدينية، و حسبها فخرا و شرفا أنها صارت أمًا لإمام من أئمة المسلمين، و كانت تعامل في بيتها بإجلال و احترام من قبل زوجها، و باقي أفراد الأسرة النبوية.

و قد قال الإمام الصادق فيها: إنَّها ممَّن آمنَت و اتَّقَت و أحسنت و اللّهُ يحب المحسنين (4).

- نشأته:

نشأ أبو عبد الله بالمدينة المنورة، و قد تولّى جدّه الإمام زين العابدين تربيته في عهد طفولته، و درج تحت كنفه و رعايته، و كان هو معلمه الأول.

قضى مع جده زين العابدين ما يقارب 14 سنة من عمره، و بعد وفاة جدّه سنة 94 هـ، تولّى أبوه الباقر تربيته، و استقل بتعليمه، و كان الإمام الصادق مقدما عند أبيه و ملازما له في حلّه و ترحاله، و دخل معه الشام و مكة المكرمة، و شاهد هناك ازدهام الفقهاء من مختلف الأقطار على أبيه الباقر لاستماع حديثه و سؤاله، و كانت حلقة درسه تعقد بالمسجد، فتكون هي الحلقة الوحيدة لطلاب العلم، و رجال الفكر، و رواة الحديث، فلا تعقد حلقة هناك إلاّ بعد انتهاء الإمام الباقر من إلقاء دروسه.

ص: 76

1- ابن كثير، البداية النهاية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1993، ج 9، ص 239.

2- القاسم بن محمد بن أبي بكر كان من الفقهاء الأجلاء، رواة الحديث، و قد روى حديثه أصحاب الصحاح الستة. و كان عمر بن عبد العزيز يجعله كثيرا و قد قال: لو كان لي من الأمر شيء لوليت القاسم بن محمد الخلافة، و قد عمر طويلا و ذهب بصره في آخر عمره. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، 59/4).

3- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 255.

4- أسد حيدر، الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج 2، ص 270.

وكان الإمام الصادق في طليعة تلامذة أبيه في مدرسته بالمدينة، وهي تضم عددا وافرا من أعلام عصره وهم يسألونه عن أهم المسائل و أعظم المشكلات. وهكذا بقي مع أبيه بعد جدّه زين العابدين تسع عشرة سنة.

وفي هذا النبع الصافي من علم آل محمد ترعرع ونما، وفي ظل ذلك البيت الكريم عاش، وقد اتجه منذ نعومة أظفاره إلى العلم، كشأن أهل البيت في ذلك الوقت.

ولذلك نرى أن حياة الصادق العلمية والفكرية والتربوية هي امتداد لحياة أبيه و جدّه وقد أغنى فيها الفكر بالعلم الغزير و مناهجه التربوية السديدة.

ص: 77

أولاً: جده علي بن الحسين زين العابدين:

ولقد قال ابن شهاب الزهري الذي تتلمذ لزين العابدين: «ما رأيت أفقه من علي بن الحسين... وكانت أكثر مجالستي له»⁽¹⁾.

فقد مات زين العابدين والصادق في الرابعة عشرة من عمره أو حولها، فلا بد أنه أخذ عنه، وخصوصاً أنه بقية السلف من أولاد الحسين.

وقيل: «روى عنه (زين العابدين) أولاده باقر وزيد كما روى عنه حفيده الصادق»⁽²⁾.

ثانياً: أبوه محمد الباقر:

فقد كان إماماً في عصره، تلقى عنه أبو حنيفة، وأخوه زيد وغيرهم، وقد كان بيته مقصد العلماء من كل فج عميق، وإنه كان على اتصال بكل علماء المدينة يجيئون إليه.

وقد قال فيه ابن كثير في تاريخه: وروى عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم فممن روى عنه ابنه جعفر الصادق، والحكم بن عتبة، والأعمش، وأبو إسحاق السبيعي، والأوزاعي، والأعرج، وهو أسن منه، وابن جريج، وعطاء، وعمرو بن دينار، والزهري⁽³⁾.

وقد لزم جعفر أباه معدن العلم وتوفي أبوه وهو في الرابعة والثلاثين. ولأنه استقى العلم من جده زين العابدين، ومن أبيه الإمام محمد الباقر فقد نشأ تلك النشأة الصالحة، ونال تلك الدرجة السامية، وعظم في أعين كبار الفقهاء، لما تحلى به من الخصال الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والإحاطة التامة بشتى العلوم، وظهرت عليه علائم الفضل، وشرف المحتد، وعزة النفس، وصدق اللهجة.

وجدير بالذكر بأن هناك أقوالاً مختلفة في شيوخ الإمام غير أبيه وجده⁽⁴⁾. وعند

ص: 78

1- أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ج 2، ص 142.

2- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص 122.

3- ابن كثير، البداية والنهاية، ج 9، ص 106.

4- منها قول الذهبي: جده القاسم بن محمد وعبيد الله بن أبي رافع وعروة بن الزبير وعطاء بن أبي رباح ونافع العمري (تذكرة الحفاظ

166/1).

دراسة مختلف الآراء - في هذا الصدد - نجد أن العلماء قد أجمعوا على ذكر أبيه الباقر و جده زين العابدين، و اختلفوا في سائر الأشخاص حتى إن الأستاذ أبا زهرة الذي قد حاول جاهدا العثور على شيوخ يربط من خلالهم بين الصادق وبين رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يذكر مثالا على ذلك سوى اسم القاسم بن محمد بن أبي بكر و يقول: «و لا بد أن يكون قد تلقى عن أبي أمه، و هو القاسم بن محمد، فقد توفي القاسم، و هو في الثامنة و العشرين». و قال في موضع آخر: «بلا ريب له شيوخ كثيرون و إن لم تذكرهم كتب المناقب بالإحصاء و العدد».

و أضاف قائلا: «و لم يكن له طريق إلا التلقي العلمي عن آباءه و أجداده»(1).

و برغم أن الذهبي ذكر عدة شيوخ للإمام قائلا: «و ليس هو بالمكثر إلا عن أبيه»(2) و لهذا بعيدا عن الدخول في مجالات الخلاف ذكرنا الأسماء التي أجمع العلماء عليها، و اتفقوا فيها، و هما أبو الباقر و جده كما أكد الإمام الصادق نفسه:

قيل لأبي بكر بن عيَّاش (3) لم تستمع الحديث من جعفر بن محمد مع أنك أدركته؟ قال: سألت جعفر بن محمد عن الأحاديث التي كان ينقلها: هل سمع شيئا منها - أي هل لها شيوخ حديث -؟ قال: لا، لكنّها رواية رويها عن آبائنا(4).7.

ص: 79

-
- 1- أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 1، ص 86 إلى 88.
 - 2- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 6، ص 255.
 - 3- أبو بكر بن عيَّاش بن سالم الأسدي الكوفي المقرئ مولى واصل الأحذب قال ابن حبان: اختلفوا في اسمه و الصحيح أن اسمه كنيته و كان من العباد الحفاظ المتقين و هو يروي عن أجلة الناس، مات سنة أربع و تسعين. (تهذيب التهذيب، ج 12، ص 37).
 - 4- أبو الحجاج يوسف المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ج 5، ص 77.

إشارة

لقد كان الإمام الصادق مثلاً أعلى للصفات الكاملة، و المزايا الحميدة، و الأخلاق الفاضلة، فهو الصادق في القول، و الناطق بالحق، و العالم العامل بعلمه، و الموجه للأمة بدعوته، «و ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم كما أجمعوا على فضله و علمه»(1).

و فيما يلي بعض أبرز صفاته و مميّزاته:

أ - الإخلاص:

اتصف الإمام الصادق التقي بنبل المقصد و سمو الغاية، و التجرد في طلب الحقيقة من كل هوى، أو عرض من أعراض الدنيا، فما طلب أمراً دنيوياً تتتابه الشهوات أو تحف به الشبهات، بل طلب الحقائق النيرة الواضحة، و طلب الحق لذات الحق لا يبغى به بديلاً.

قيل في شأنه: «إنه لم ير لأحد غير الله حساباً فما كان يخشى أحداً في سبيل الله، و لا يقيم وزناً للوم اللائمين.. و كان بهذا الإخلاص و تلك التقوى السيد حقاً و صدقاً»(2).

و قد تحدّث التاريخ بصدقاته في السرّ، كان يقوم في الليل يحمل الطعام و الدراهم على عاتقه لأهل الحاجة من فقراء المدينة، فيقسمه فيهم و لا يعرفونه.

و من صلواته السرية ما رواه إسماعيل بن جابر(3) قال: أعطاني أبو عبد الله خمسين ديناراً في صرّة، و قال لي: ادفعها إلى شخص من بني هاشم، و لا تعلمه أني أعطيتك شيئاً، فأتيته و دفعتها إليه، فقال لي: من أين هذه؟ فأخبرته أنها من شخص لا يقبل أن تعرفه، فقال العلوي: ما يزال هذا الرجل كل حين يبعث بمثل هذا المال، فنعيش بها إلى قابل، و لكن لا يصلني جعفر بدرهم مع كثرة ماله(4).

ص: 80

1- أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 1، ص 75.

2- المصدر نفسه، ص 62.

3- إسماعيل بن جابر الجعفي أو الخثعمي الكوفي من أصحاب الصادق، روى عن أبي جعفر و أبي عبد الله و هو الذي روى حديث الأذان، له كتاب ذكره محمد بن الحسن الوليد، ثقة ممدوح له أصول رواها عن صفوان بن يحيى. (محسن الأمين، أعيان الشيعة 3/314)

4- أبو الحسين ورام بن أبي الفوارس الأشتري، تنبيه الخواطر و نزهة النواظر (المعروف بمجموعة ورام)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، 1969 م، ج 2، ص 82.

ب - عبادته:

خشية الله وعبادته على قدر معرفة المرء بربه، وعلاقته به وحبه، وقد قال عز وجل: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (1)**.

والإقبال على عبادة الله تعالى وطاعته من أبرز صفات الإمام، فقد كان من أعبد الناس لله في عصره، قال الإمام مالك بن أنس: «جعفر بن محمد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على إحدى خصال ثلاث: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن» (2).

قال أحد أصحابه: رأيت أبا عبد الله ساجداً في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فجلست حتى أطلت، ثم قلت: لأسبحنَّ ما دام ساجداً، فقلت: «سبحان ربي وبحمده، أستغفر الله ربي وأتوب إليه» ثلاثمائة ونيفاً وستين مرة، فرفع رأسه (3).

وقيل: كان عليه السلام إذا أراد التوجه إلى الصلاة اصفرَّ لونه، وارتعدت فرائضه خوفاً من الله تعالى ورهبة وخشية منه، وقد أثرت عنه مجموعة من الأدعية في حال وضوئه، وتوجهه إلى الصلاة وفي قنوته، وبعد الفراغ من صلاته (4).

ج - سخاؤه:

إن السخاء بالمال يدل على مقدار قوة الإحساس الاجتماعي، وإن ستره يدل على ملاحظة جانب الله وحده، وليس ذلك بعجب ممن نشأ مثل نشأة الإمام الصادق.

سأله فقير فأعطاه أربعمئة درهم، فأخذها الفقير وذهب شاكرًا فقال لخدمته:

ارجعه، فقال الخادم: سئلت فأعطيت، فما ذا بعد العطاء؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«خير صدقة ما أبتت غني، وإنا لم نغن، فخذ هذا الخاتم فأعطه فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم، فإذا احتاج فليبعه بهذه القيمة» (5).

وقيل: كان جعفر بن محمد يعطي حتى لا يبقى لعياله شيئاً (6).

يقول أحد أصحابه: كان أبو عبد الله إذا أعتم وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودرهم، فحمله على عنقه ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة

ص: 81

1- سورة فاطر، جزء من الآية 28.

2- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، ج 2، ص 89.

3- محسن الأمين، أعيان الشيعة، دار المعارف للطبوعات، بيروت، 1406، ج 4، ص 138.

4- باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، دار الأضواء، بيروت، 1992، ج 1، ص 68.

5- المصدر نفسه، ص 63.

6- المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مرجع سابق، ج 5، ص 87.

فقسّمه فيهم و لا يعرفونه فلما مضى جعفر فقدوا ذلك، فعلموا أنه كان أبا عبد الله (1).

د - حلمه و سماحته:

إن الحلم و السماحة، خلق قادة الفكر و الدعاة إلى الحق. كما قال الله تعالى آمرا نبيه، و كل هاد بل كل مؤمن: خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (2).

و لقد كان الصادق سمحا كريما لا يقابل الإساءة بمثله، بل يقابلها بالتي هي أحسن، عملا بقوله تعالى: إِذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (3).

و قد ضرب المثل الأعلى في هذا الصدد، فقد روي أن رجلا من الحجاج نام في المدينة، فتوهم أنّ كيسه للنفقة قد سرق، فخرج فرأى جعفر الصادق مصليا، و لم يعرفه، فتعلّق به، و قال له: أنت أخذت همياني! قال: ما كان فيه؟ قال: ألف دينار.

فحمّله إلى داره، و وزن له ألف دينار، و عاد الرجل إلى منزله، فوجد هميانه، فعاد إلى جعفر معتذرا بالمال، فأبى قبوله، و قال: شيء خرج من يدي لا يعود إليّ.

فسأل الرجل عنه، فقيل: هذا جعفر الصادق.

قال: لا جرم هذا فعال مثله (4)!

و كان رقيقا مع كل من يعامله، من عشراء و خدم، و يروى في ذلك أنه بعث غلاما له في حاجة، فأبطأ، فخرج يبحث عنه، فوجده نائما، فجلس عند رأسه، و أخذ يروّح له حتى انتبه، فقال: «ما لك تنام الليل و النهار؟ لك الليل و لنا النهار» (5).

هـ: - إكرامه للضيوف:

مدح الله عزّ و جلّ نبيه إبراهيم عليه السلام بكرمه إذ قال في كتابه المبارك: فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِينٍ (6)، فأسرع إبراهيم عليه السلام بتقديم ضيافة عظيمة، لعلّ الضيوف جياع.

و يشعر هذا التصرف باستحباب الإسراع في تقديم القرى للضيف. فالضيف أسير مضيّفه، و تحت رعايته، فينبغي إكرامه بالابتسامه و البشاشة و الإطعام و...

ص: 82

1- محسن الأمين، أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج 4، ق 2، ص 140.

2- سورة الأعراف، جزء من الآية 199.

3- سورة فصلت، الآية 34.

4- عبد الكريم هوزان الشافعي النيشابوري، الرسائل القشيرية، القاهرة، ص 114.

5- الكليني، الأصول الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 3، 1388، كتاب الايمان والكفر، باب الحلم، ح 7.

6- سورة هود، جزء من الآية 69.

و من كرم الصادق و سخائه حبه للضيوف و إكرامه لهم، فكان - فيما يقول الرواة - يشرف على خدمة ضيوفه بنفسه، و كان يأتيهم بأشهى الطعام و أذنه، و أوفره، فعن أبي حمزة الشمالي(1) قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة فأتينا بطعام ما لنا عهد بمثله لذاذة و طيبا، و أتينا بتمر ننظر فيه إلى وجوهنا من صفائه و حسنه، فقال رجل: لتسألن عن هذا النعيم الذي نعمتم به عند ابن رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال أبو عبد الله: «الله أكرم و أجل من أن يطعمكم طعاما فيسوغكموه، ثم يسألكم عنه، و لكن يسألكم عما أنعم عليكم بمحمد و آل محمد(2). و يكرر عليهم القول وقت الأكل: «أشدكم حبا لنا أكثركم أكلا عندنا»(3).

فهو يحدثهم في أثناء الطعام ليطول جلوسهم على المائدة، و يرفعوا الحياء عند الأكل، و ليكونوا في حال شغل بالأكل و المضغ، و الإمام يحدث رويدا رويدا، فيبقى عندئذ على الطعام إلى آخر الضيوف.

و - تواضعه و مواساته للضعفاء:

و من مظاهر شخصيته العظيمة نكرانه للذات و حبه للتواضع، فقد جافى التكبر، و الاستعلاء على خلق الله، و كان يرى ذلك من أفحش الصفات، التي تهبط بالإنسان إلى قرار سحيق.

و كان من تواضعه أنه يجلس على الحصير(4)، و يرفض الجلوس على الفرش الفاخرة، و كان ينكر و يشجب المتكبرين و قد قال ذات مرة لرجل من إحدى القبائل: من سيد هذه القبيلة؟

فبادر الرجل قائلا: أنا، فأنكر الإمام ذلك، و قال له: «لو كنت سيدهم ما قلت: أنا»(5).

و روي أنه كان يقول لخادمه في أوقات حاجة الناس: «اشتر لنا شعيرا، و اخلط به طعامنا، فإني أكره أن نأكل جيدا، و يأكل الناس رديئا»(6).

ص: 83

- 1- ثابت بن دينار الشمالي الأزدي بالولاء، أبو حمزة (.. - 150 هـ) من رجال الحديث الثقات عند الإمامية. و روى عنه بعض أهل السنة. و هو من أهل الكوفة. قتل ثلاثة من أولاده مع زيد بن علي بن الحسين. و كان الرضا علي بن موسى يقول: هو لقمان زمانه. و كان أبوه مولى للمهلب بن أبي صفرة. له كتاب في تفسير القرآن و كتاب الزهد و كتاب النوادر. (الزركلي، الأعلام 97/2)
- 2- أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، المحاسن، دار الكتب الإسلامية، طهران، د. ت، ج 2، ص 400.
- 3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1983، ج 72، ص 450.
- 4- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الهيئة المصرية، القاهرة، د. ت، ج 5، ص 176.
- 5- ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت 1405، ج 1، ص 32.
- 6- هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر، دار القلم، بيروت 1981، ج 2، ص 297.

وهكذا يجب أن يكون القدوة، يعيش آلام الناس، ويشاركهم شظف العيش، ويواسيهم بنفسه، ويكره أن يتميز عنهم.

ز - حضور بديهته:

وكان الإمام الصادق حاضر البديهة تجيئه أرسال المعاني في وقت الحاجة إليها من غير حبسة في الفكر، ولا عقدة في اللسان، وإن مناظراته الكثيرة تكشف عن بديهة حاضرة، فيجيب عنها من غير تردد ولا تلوؤ مينا اختلاف الفقهاء فيها، وما يختار من أقوالهم، وما يخالفهم جميعا فيه.

وإن مناظراته التي كان يلتم بها الزنادقة وغيرهم الحجة، ما كانت ليستقيم فيها الحق لو لا بديهة تسعفه بالحق في الوقت المناسب.

قيل: إن ابن أبي العوجاء لما سمع بعض الحجج الدامغة من الصادق في العقيدة الإسلامية، كان يفتش عن دليل يتمسك به للرد على الإمام، فمرة جاء إلي جعفر بن محمد و جلس ساكنا لا ينطق بشيء، فقال له الإمام: كأنك جئت تعيد بعض ما كنا فيه؟

فأسرع ابن أبي العوجاء قائلا: أردت ذلك يا ابن رسول الله! فقال الإمام: «ما أعجبك هذا، تنكر لله و تشهد آتي ابن رسول الله!»⁽¹⁾

إن حضور البديهة من أزم اللوازم لقادة الأفكار، والأئمة المتبعين، فلا توجد قيادة فكرية لعيبي في البيان، ولا توجد قيادة فكرية لمن عنده حبسة في المعاني.

ح - هيئته:

أضفى الله تعالى على جعفر بن محمد الصادق، جلالا و نورا من نوره، و ذلك لكثرة عبادته، و صمته عن لغو القول، و انصرافه عما يرغب فيه الناس، و جلده للحوادث، كل هذا جعل له مهابة في القلوب، فوق ما يجري في عروقه من دم طاهر نبيل، و ما يحمل من تاريخ مجيد لأسرته، و ما آتاه الله من سمت حسن، و منظر مهيب، و علو عن الصغائر و اتجاه إلى المعالي.

وقد التقى مرة بابن العوجاء، فلما رأى الصادق و استرعى انتباهه ما عليه من سمت، و أخذ الصادق يتكلم فلم يحر جوابا، حتى تعجب الصادق و الحاضرون، فقال له: ما يمنعك من الكلام؟ و يقول الزنديق: «بدا جلال لك و مهابة، و ما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء، و ناظرت المتكلمين، فما داخلتي هيبة قط مثل ما داخلني من هيبتك»⁽²⁾.

ص: 84

1- باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج 1، ص 168

2- أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 1، ص 69.

و مع هذه الهيبة التي تفرض الإنصات إليه، مهما تكن لاجابة من يسمعه نرى من الصادق تواضعا لتلاميذه و المقبلين عليه.

و هكذا العظماء تفرض المهابة طاعتهم، و لكنهم موطنو الأكناف لعشرائهم، و خصوصا الضعفاء، ليدنوهم إليهم، و ليكونوا في حرية و رغبة و إرادة.

*** تلك بعض سجايا الصادق، و إنه ببعض هذه الصفات يعلو الرجال على أجيالهم، و يرتفعون إلى أعلى مراتب القيادة الفكرية، فكيف و قد تحلى بهذه الصفات و غيرها.

و لقد توه إلى تلك السمات العالية من كان في عصره و أشاد بالإمام حتى اعداؤه، عند ما يعترفون بفضائله الخلقية و العلمية في تعامله معهم.

هذا هو ابن أبي العوجاء حينما يسمع أحد تلاميذ الإمام بعض أباطيله، بحيث لم يمتلك نفسه غضبا فيخاطبه: يا عدو الله أحدث في دين الله و أنكرت البارئ جل قدسه... أجاب ابن أبي العوجاء: «إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا، و لا بمثل دليلك يجادلنا، و لقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا، و لا تعدّى في جوابنا، و إنّه للحليم الرزين(1) العاقل الرصين(2)، لا يعتريه خرق(3) و لا طيش(4) و لا نزق(5)، و يسمع كلامنا و يصغي إلينا، و يستعرف حجّتنا حتّى استفرغنا ما عندنا، و ظنّنا أنّا قد قطعناه، أدحض حجّتنا بكلام يسير، و خطاب قصير، يلزمننا به الحجّة، و يقطع العذر، و لا نستطيع لجوابه ردّا، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه»(6)!

ص: 85

1- أي: الوقور.

2- الحكم الثابت.

3- ضدّ الرفق.

4- الخفّة.

5- خفّة في كلّ أمر و عجلة.

6- المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 58.

إشارة

سنوات قليلة من حياة الإمام جعفر بن محمد الصادق ملأ فيها الدنيا من علمه، وازدهرت ألوف الكتب بأحاديثه و آرائه، ألقى فيها على طلابه مختلف العلوم، و علمهم صنوف المعارف.

وانتشر عنه من العلوم الجمة ما بهر به العقول، و لم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نقل عنه، و لا لقي أحدا منهم من أهل الآثار و نقله الأخبار، و لا نقلوا عنهم ما نقلوا عنه لقد شبهوا دار الإمام بالجامعة، جامعة كبيرة تموج بالحكماء و أهل العلم يجيب عن أسئلتهم، و يحل مشاكلهم، دون التفات إلى نحلهم و مذاهبهم أو مقاصدهم.

ولذلك: «ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم في أمر، كما أجمعوا على فضل الإمام الصادق و علمه، فأئمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه و أخذوا، أخذ عنه مالك رضي الله عنه، و أخذ عنه طبقة مالك، كسفيان بن عيينة و سفيان الثوري، و غيرهم كثير، و أخذ عنه أبو حنيفة... و قد تلقى عليه رواية الحديث طائفة كبيرة من التابعين، منهم يحيى بن سعيد الأنصاري، و أيوب السخيتاني و أبان بن تغلب، و أبو عمرو بن العلاء، و غيرهم من أئمة التابعين في الفقه و الحديث، و ذلك فوق الذين رووا عنه من تابعي التابعين و من جاء بعدهم و الأئمة المجتهدين(1). و لذا كان مجلسه بالمدينة مثابة أهل العلم، و طلاب الحديث و طلاب الفقه، يأخذون عنه، و يردون مورده العذب... «و كل من التقى به أجله و أجل علمه، و كانوا يقتبسون من علمه و خلقه و حكمه»(2).

و قد كان يقصده العلماء ليستمعوا إليه، و ليأخذوا عنه فكان يحضر درسه في أغلب الأوقات أربعة آلاف من الطلاب.

«فقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء و المقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل، ذكرهم الحافظ ابن عقدة الزيدي في كتاب رجاله، و ذكر مصنفاتهم فضلا عن غيرهم، و استدرك ابن الغضائري على ابن عقدة فزاد عليهم، و روى عنه راو واحد و هو أبان بن تغلب الرّبيعي، أبو سعد، ثلاثين ألف حديث(3).

ص: 86

1- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 53.

2- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص 701.

3- محسن الأمين، أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج 4، ق 2، ص 171.

ولا شك أن كثرة المتعلمين الذين كانوا يحضرون في حلقة درسه، أو الذين نقلوا عنه الأحاديث يظهر مدى عظمة شخصيته العلمية.

كان الحسن بن علي الوشاء⁽¹⁾ يقول: «رأيت في مسجد الكوفة تسعمائة شخص يقول كل منهم حدثني جعفر بن محمد»⁽²⁾.

ولذلك نطقت السنة العلماء جميعاً بفضلهم «و بذلك استحق الإمامة العلمية في عصره، كما استحقها أبوه و جده من قبله، فقد كانوا جميعاً أئمة الهدى يقتدى بهم، و يقتبس من أقوالهم، و قد عكفوا على علم الإسلام عكوف العابد على عبادته، فخلفوا علماً، و خلفوا رجالاتاً، و تناقل الناس علمهم و تحدّثوا به»⁽³⁾.

و لقد خاض الإمام في عدة علوم، و بلغ فيها الذروة، فهو نجم بين علماء الحديث، و كان ينادي: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي»⁽⁴⁾.

و ساد علماء عصره في الفقه حتى إنه كان يعلم اختلاف الفقهاء، و يروى في ذلك عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: «قال لي أبو جعفر المنصور يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهبيء له من المسائل الشداد، فهياً له أربعين مسألة، و التقى الإمامان بالحيرة في حضرة المنصور، و يقول الإمام أبو حنيفة في اللقاء: «أتيت فدخلت عليه و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر الصادق بن محمد ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه، و أوماً فجلست، ثم التفت إليه، و قال: هذا أبو حنيفة. فقال: نعم، ثم التفت إلي، و قال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك، فجعلت ألقى عليه، فيجيني، فيقول: أنتم تقولون كذا، و أهل المدينة يقولون كذا، و نحن نقول كذا، فربما تابعنا، و ربما تابعهم، و ربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: «إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»⁽⁵⁾.

و كان العلماء يتلقون عنه التخریجات الفقهية، و تفسير الآيات القرآنية المتعلقة⁰.

ص: 87

- 1- حسن بن علي بن زياد الوشاء الخزار البجلي الكوفي المعروف بابن بنت إلياس من أصحاب علي بن موسى الرضا و له كتب منها: «ثواب الحج» و «المناسك» و «النوادر» (محسن الأمين، أعيان الشيعة 195/5)
- 2- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مرجع سابق، ج 3، ص 263.
- 3- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 55.
- 4- المزي، تهذيب الكمال، مرجع سابق، ج 5، ص 79.
- 5- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 6، ص 258؛ المزي، تهذيب الكمال، مرجع سابق، ج 5، ص 79-80.

بالأحكام الفقهية. والأحاديث التي وصلت إلينا من الإمام الصادق لا تختص بالفقه فقط، بل وصلت إلينا منه أحاديث أيضا في مجال التفسير.

وقد عني بدراسة علوم القرآن، فكان على علم دقيق بتفسيره، وكان على علم بتأويله، يعلم الناسخ والمنسوخ.

وروي أن ابن أبي العوجاء - من الزنادقة - سأل هشام بن الحكم، فقال: أليس الله حكيما؟ قال: بلى هو أحكم الحاكمين. قال فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ:

فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً (1) أليس هذا فرض؟ قال:

بلى، قال: فأخبرني عن قوله عزّ وجلّ: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ (2)

أي حكيم يتكلم بهذا؟ فلم يكن عنده جواب فرحل إلى المدينة إلى أبي عبد الله فقال: يا هشام في غير وقت حج ولا عمرة.

قال: نعم جعلت فداك لأمر أهمني أن ابن أبي العوجاء سألتني عن مسألة لم يكن عندي فيها شيء قال: وما هي؟ فأخبرته بالقصة فقال أبو عبد الله: «أما قوله عزّ وجلّ: فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً يعني في النفقة وأما قوله: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ يعني في المودة، فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودة، فلما قدم عليه هشام بهذا الجواب، قال: والله ما هذا من عندك» (3).

ولقد اشتهرت مناظرات الإمام الصادق، حتى صار، ومرجعا للعلماء في كل ما تعضل عليهم الإجابة عنه من أسئلة الزنادقة وتوجيهاتهم، وقد كانوا يثيرون الشك في كل شيء ويستمسكون بأوهى العبارات، ليثيروا غبارا حول الحقائق الإسلامية.

وقد قال أبو شاعر الديصاني (من الزنادقة): إن في القرآن عبارة تدل على أن الإله ليس واحدا، فقد جاء فيه: «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله» فبلغ ذلك الصادق، فقال لمن بلغه، وقد عجز عن الرد: «هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك في الكوفة؟

فإنه يقول لك: فلان. فقل له: ما اسمك، بالبصرة؟ فإنه يقول لك: فلان، فقل له: كذلك ربنا في السماء إله وفي الأرض إله، وفي البحار إله، وفي القفار إله، وفي كل مكان إله» (4).9.

ص: 88

1- سورة النساء، جزء من الآية 3.

2- سورة النساء، جزء من الآية 129.

3- المجلسي، بحار الأنوار، مرجع سابق، ج 1، ص 202.

4- أبو زهرة، الإمام الصادق، ج 1، ص 79.

وإنَّ ردَّ الصادق واضح كل الوضوح، وهو تسهيل لبيان المراد، وإن ذلك الزنديق الذي يعلم العربية لا بد أن يعلم أن كلمة (إله) خبر عن مخبر عنه واحد، وتعدد الأخبار لتعدد المكان لا يدل على تعدد المبتدأ، كما تقول: الصادق هو العالم في العراق، والعالم في المدينة والعالم في مكة، فإن هذا وصف واحد تعدد في أخبار، باعتبار تعدد الأمكنة، وهو واحد، والحقيقة واحدة.

هذه المناظرات وغيرها كثير تدل على عناية الإمام الصادق بتصحيح العقائد، والوقوف في وجه أولئك الذين كانوا ينحرفون في اعتقادهم، أو يهاجمون الإسلام «وفوق هذه العلوم كان الإمام الصادق على علم بالأخلاق وما يؤدي إلى فسادها»(1).

ومن هؤلاء الذين كانوا يحرصون على سماع مواعظه وحكمه سفيان الثوري محدث الكوفة و فقيهاها والذي قال لقيت الصادق فقلت: يا ابن رسول الله أوصني، فقال لي: «يا سفيان ثق بالله تكن مؤمنا، وارض بما قسم الله تكن غنيا، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما، و لا تصحب الفاجر يعلمك فجوره، و شاور في أمرك الذين يخشون الله عزَّ و جلَّ»(2).

هذه نماذج من جوامع الكلم قد نطق بها ذلك الإمام الجليل عتره النبي صَلَّى الله عليه و سلم، ولقد أثر عنه كلام قيم في الأخلاق و تلقى النفوس لها، و كانت ذات أثر في الذين التقوا به، و من ذلك مجموعات ماثورة.

على صعيد آخر نرى بأنَّ الإمام الصادق لم يكتف بالدراسات الإسلامية و علوم القرآن و السنَّة و العقيدة و الأخلاق، بل اتجه إلى دراسة الكون و أسراره، و دراسة الإنسان إجابة لطلب الله تعالى من عباده أن ينظروا في السموات و الأرض و ما فيهما، فقد قال تعالى: قُلْ انظُرُوا مَا ذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النَّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (3).

فترى كثيرا من هذه الدراسات في رسالة التوحيد التي أملاها الإمام على تلميذه مفضل بن عمرو الكوفي.

و من الثابت أن الإمام الصادق كان على علم بخواص الأشياء منفردة و مركبة، و أنه درّس علم الكيمياء في مدرسته، و قد اشتهر من تلامذته في هذا العلم جابر بن حيان الذي دوّن تقارير الإمام في علمي الكيمياء و الطب(4).

و اعترف العلماء و منهم علماء الغرب بالدور البارز للإمام الصادق في علم النجوم.

ص: 89

1- المصدر نفسه، ص 53.

2- المصدر نفسه، ص 54.

3- سورة يونس، الآية 101.

4- ابن النديم، الفهرست، مرجع سابق، ص 42.

«وكتبوا عن آرائه ونظرياته في دوران الكرة الأرضية وحركاتها، وفي مقدار أشعة النجوم، و حركة الضوء، وأنه كان يلقي دروسه ونظرياته في هذا العلم على تلاميذه وطلاب العلم، و يناقش محترفي علم النجوم، و يصحح آراءهم، و يوضح لهم أخطاءهم»(1).

و كان من تأثير توجيهات الإمام و إرشاداته في علوم الهيئة و الفلك، أن اهتمّ تلامذته بهذه العلوم، و اشتغلوا بالأرصاد و التقاويم و التنجيم و الاختبارات و غير ذلك من فروع علم الفلك من أقدم الأزمنة، كان أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري (المتوفى عام 161) و هو من تلامذة الإمامين الصادق و موسى بن جعفر أول من عمل بالإصطلاب(2) في الإسلام، و أول من ألف فيه، و له في ذلك «كتاب العمل بالإصطلاب ذوات الحلق» و: «كتاب العمل بالإصطلاب المسطح»(3).

و كذلك نرى بأن الإمام أعطى فهما واسعاً لكلمة العلم، فقد كان من الواضح في الأذهان أن العالم هو الذي يدرس علم الحديث و التفسير و غيرهما مما له علاقة بالفقه.

أما الإمام فقد وسع هذا المعنى، ليشمل أكثر العلوم الكونية، كالجبر و الكيمياء و الفلك و غيرها من العلوم، و لهذا كان الإمام الصادق، «... أكثر أئمة المذهب معرفة، حيث كان له آراء في كل لون من ألوان المعرفة آنذاك، و لا تقف معرفته عند علوم الدين فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الكيمياء و الطب و غير ذلك من العلوم التي تبدو بعيدة الصلة عن الإمامة الدينية»(4).

و قد برهن الإمام أن الدين الإسلامي جاء للحياة ليحكمها لا ليصد عنها و يحكمها الشيطان. «و هدها هذا التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة... لأنها علوم تحقق مصالح الناس، تحرر الفكر و تهديه إلى الإيمان العميق الحق الراسخ»(5). و من المعلوم «أن الخاصّة التي اختص بها الإمام الصادق ليست هي أنّه عالم في الكيمياء أو الطبيعة أو الطب، و إنّما الظاهرة الكبرى فيه أنه كان أبرز أئمة عصره في علوم الإسلام، يؤخذ عنه، و تشد الرحال إليه في طلبها، و لذلك كانت عنايتنا متهجة إليها على أنها الأصل 0.

ص: 90

1- نخبة من علماء الغرب، الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، نقله إلى العربية آل علي، دار الذخائر للمطبوعات، قم، 1988، ص 112.

2- الإصطلاب لفظة يونانية مأخوذة من كلمة «الإصطلابون» و معناها مرآة النجوم، و قيل: إنّها لفظة فارسية أصلها «ستارة ياب» أي كاشف النجم.

3- نخبة من علماء الغرب، الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، مرجع سابق، ص 46.

4- أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، دار المعارف، مصر 1969، ص 362.

5- عبد الرحمن شرقاوي، شخصيات إسلامية، ص 40.

المقصود والغرض المنشود وعده على هامش الموضوع كما كانت هذه المعلومات على هامش تفكيره، فما كانت غايته...» (1).

مؤلفات الإمام جعفر بن محمد الصادق:

هذه المؤلفات هي (2):

- 1 - كتاب توحيد المفضل الذي أملاه الإمام الصادق على المفضل بن عمرو الكوفي من تلاميذه عند ما التقى المفضل بأحد الزنادقة، وناظره، وطلب من الإمام أن يملي عليه بما يقوى به على مناظرة الزنادقة، ويحتوي على دلائل التوحيد ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم من بيان هيئة العالم وتأليف أجزائه وكيف خلق الإنسان وتكوينه إلى غير ذلك.
 - 2 - رسالة إلى النجاشي والي الأهواز المعروفة برسالة عبد الله بن النجاشي، وفيها مهمات الحاكم والموظف الإداري.
 - 3 - رسالة إلى جماعة من أتباعه وتلاميذه فأمرهم بمدارستها والنظر فيها وتعاهدها والعمل بها، وكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم، فإذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها.
 - 4 - رسالته في الغنائم وجوب الخمس.
 - 5 - وصيته لعبد الله بن جندب.
 - 6 - وصيته لأبي جعفر محمد بن النعمان الأحول في علوم القرآن.
 - 7 - نشر الدرر كما سماه بعض الشيعة وكله حكم بالغة الأهمية.
 - 8 - رسالته في وجوه معاش العباد ووجوه إخراج الأموال جواباً لسؤال من سأله: كم جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات؟.
 - 9 - رسالة في احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق.
- وهاتان الرسالتان عملان أساسيان في الاقتصاد والاجتماع، يدلان على منهج الإمام في صلاح الدنيا بالعمل والعبادة معا.
- 10 - كلامه في خلق الإنسان وتركيبه وحكمه القصيرة (3).
 - 11 - كتاب الرد على القدرية، كتاب الرد على الخوارج؛ كتاب الرد على الغلاة من الروافض.

ص: 91

1- أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 192.
2- محسن الأمين، أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج 1، ص 668.
3- كل هذا من الرقم أربعة وإلى هذا الرقم ورد في تحف العقول للحرّاني.

و هناك كتب مروية عن الصادق، جمعها أصحابه مما روه عنه، فيصح بهذا الاعتبار نسبتها إليه؛ لأن الإماء أحد طرق التأليف.

12 - نسخة ذكرها النجاشي في ترجمة محمد بن ميمون الزعفراني فقال: عامي غير أنه روى عن أبي عبد الله نسخة.

13 - نسخة رواها الفضيل بن عياض عن الإمام قال النجاشي في ترجمة الفضيل:

بصري، ثقة عامي، روى عن أبي عبد الله نسخة.

14 - نسخة رواها عبد الله بن أبي أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي حليف بني تميم بن مرة أبو أويس عن الإمام. قال النجاشي: له نسخة عن جعفر بن محمد.

15 - نسخة يرويها إبراهيم بن رجاء الشيباني قال النجاشي: له عن جعفر نسخة.

16 - كتاب رسائل الإمام الصادق إلى جابر بن حيان الكوفي(1).

هذا ما عرف من الكتب التي دوّنت وحدها، وعرفت بأسماء مخصوصة، وإلا فالذي جمع مما رواه عنه العلماء في فنون شتى من فنون العلم في العقيدة وأصول الفقه والاحتجاج والحكم والمواعظ والآداب وغير ذلك لا يكاد يحيط به الحصر. 1.

ص: 92

1- ابن خلكان، وفيات الاعيان و أنباء أبناء الزمان، ج 1، ص 291.

1 - قال الإمام أبو حنيفة (م 150): «ما رأيت أحدا أفقه من جعفر بن محمد...»

السنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»(1).

2 - قال الإمام مالك بن أنس (م 179): «ما رأيت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علما وعبادة وورعا»(2).

وقال: «كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اخضرّ واصفرّ. ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إمّا مصليا، وإمّا صائما، وإمّا يقرأ القرآن. وما رأيت قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على الطهارة»(3).

3 - محمد بن إدريس الشافعي (م 204)، فقد قال إسحاق بن راهويه: قلت للشافعي:

كيف جعفر بن محمد عندك؟ فقال: ثقة. في مناظرة جرت بينهما(4).

4 - أبو حاتم الرازي (م 277) فقد روى ابن أبي حاتم عن أبيه: «جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله»(5).

5 - قال الجاحظ (م 250 أو 255): «جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه»(6).

6 - وقال ابن الواضح الكاتب العبّاسي المعروف باليعقوبي (م 292): «.. أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.. وكان أفضل الناس وأعلمهم بدين الله، وكان من أهل العلم الذين سمعوا منه، إذا روي عنه قالوا:

أخبرنا العالم»(7).

ص: 93

1- المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج 5، ص 79 و الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 1، ص 166 و تاريخ الإسلام (حوادث سنة 141-160)، ص 89 و سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 257.

2- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج 2، ص 156.

3- المصدر نفسه، ص 156.

4- عبد الرحمن بن إدريس بن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1952، ج 2، ص 487 و العسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج 2، ص 88.

5- الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج 1، ص 166.

6- حسن السندويي، رسائل الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر، د. ت، ص 106.

7- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، ج 2، ص 381.

- 7 - وقال ابن عدي (م 365): «ولجعفر أحاديث ونسخ، وهو من ثقات الناس، كما قال يحيى بن معين»⁽¹⁾.
- 8 - وعن الحاكم النيسابوري (م 405): «وأصح طريق يروى في الدنيا أسانيد أهل البيت جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ، إذا كان الراوي عن جعفر ثقة»⁽²⁾.
- 9 - وقال أبو نعيم الأصفهاني (م 430): «... الإمام الناطق، ذو الزمام السابق، أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، أقبل على العبادة والخضوع، و أثر العزلة والخشوع، ونهى عن الرئاسة والجموع... حدث عنه الأئمة والأعلام: مالك بن أنس وسفيان الثوري... وأخرج عنه مسلم بن الحجاج في صحيحه محتجا بحديثه»⁽³⁾.
- 10 - وقال ابن حجر العسقلاني (م 463): «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقيه صدوق»⁽⁴⁾.
- 11 - وقال الشهرستاني (م 548): «... جعفر بن محمد الصادق. هو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات»⁽⁵⁾.
- 12 - وقال ابن خلكان (م 681): جعفر الصادق: كان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر⁽⁶⁾.
- 13 - وقال الذهبي (م 748): «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الهاشمي أبو عبد الله، أحد الأئمة الأعلام، برّ، صادق، كبير الشأن»⁽⁷⁾.
- وقال أيضا: «جعفر بن محمد بن علي، ابن الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي، الإمام أبو عبد الله العلوي، المدني، الصادق، أحد السادة الأعلام»⁽⁸⁾.

ص: 94

- 1- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ج 2، ص 88.
- 2- السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1985، تحقيق الدكتور محمد عمر هاشم، ص 61.
- 3- أبو نعيم، حلية الأولياء، مرجع سابق، ج 1، ص 192.
- 4- أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج 1، ص 58 نقلا عن تقريب التهذيب، ص 68.
- 5- الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ج 1، ص 147.
- 6- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج 1، ص 128.
- 7- الذهبي، ميزان الاعتدال، دار الفكر، بيروت، د. ت، تحقيق علي محمد البجاوي، ج 1، ص 414، رقم 1519.
- 8- الذهبي، تذكرة الحفاظ، مرجع سابق، ج 1، ص 166.

14 - وقال ابن حجر الهيتمي (م 974): «جعفر الصادق... نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر»(1).

15 - وقال خير الدين الزركلي (م 1385): «كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط.»(2). 1.

ص: 95

1- ابن حجر الهيتمي المكي، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 201.

2- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1968 ج 2، ص 121.

إشارة

لم يشهد التاريخ الإسلامي مدرسة أعظم من مدرسة الإمام الصادق في كثرة طلابها، واختلاف العلوم التي كان يدرسها فيها و كانت امتدادا لمدرسة أبيه و جده. فهي لم تكن بأي حال من الأحوال مدرسة خاصة فيها لون خاص من المعارف و العلوم، وإنما كانت تبني عقولا و تنشئ أجيالا، و تؤسس صروحا من الثقافة، و دنيا من التوجيه، و تضع دستورا شاملا لإصلاح الحياة و تطويرها و تقدمها في جميع الميادين(1).

انتشر ذكر مدرسة الإمام الصادق في جميع الأقطار الإسلامية، فأصبحت جامعة إسلامية كبرى تقصدها وفود الأمصار. و عملت على تنوير الفكر البشري، و تطوير المجتمع الإنساني، و إبراز القيم الإسلامية، فأنتجت صفوة العلماء، و قادة المفكرين، و قد جهدوا بإخلاص على نشر العلم بجميع أنواعه.

و قد قيل في البعثات العلمية التي بادرت إلى الالتحاق بجامعة الإمام أن «الكوفة و البصرة، و واسط، و الحجاز أرسلت إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها من كل قبيلة، من بني أسد، و من غنى، و مخارق، و طي، و سليم، و غطفان، و غفار، و الأزدي، و خزاعة، و خثعم، و مخزوم، و بني ضبة، و من قريش، و لا سيما بني الحارث بن عبد المطلب، و بني الحسن بن علي(2).

فكان عددهم من أضخم ما ضمته المدارس العلمية في ذلك العهد و فيهم من كبار العلماء و المحدثين الذين أصبحوا فيما بعد أئمة و رؤساء المذاهب الإسلامية:

- كالإمام أبي حنيفة (المتوفى 150 هـ)، يقول الأستاذ أبو زهرة: «أبو حنيفة كان يروي عنه - جعفر بن محمد -، و اقرأ كتاب الآثار لأبي يوسف و الآثار لمحمد، فإنك واجد فيهما رواية عن أبي حنيفة عن جعفر بن محمد.. فكان الثقة الصدوق. و مع أنه في مثل سن أبي حنيفة لم يتأب أبو حنيفة عن الأخذ عنه»(3).

- و الإمام مالك بن أنس (المتوفى 179 هـ) و كانت له صلة تامة بالإمام الصادق

ص: 96

1- حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعية، دار المعارف للطبوعات، بيروت، 1981، ج 2، ص 76.

2- عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، دار الشرق الجديد، بيروت، 1954، ص 59.

3- أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص 701.

وروى الحديث عنه، «و اختلف إليه في مجلسه و انتفع من فقهه و روايته»⁽¹⁾. و غير هؤلاء من حملة الحديث و أعلام الأمة و لا يتسع المجال لذكرهم، و نكتفي بذكر جماعة منهم في عرض موجز و هم:

- يحيى بن سعيد الأنصاري أبو سعيد المدني (المتوفى 143) قاضي المدينة، قال البخاري عن علي بن المدني له نحو ثلاثمائة حديث و قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث حجة ثبنا، روى عن إسحاق بن عبد الله و أنس بن مالك و جعفر الصادق و غيرهم⁽²⁾.

- شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي (المتوفى سنة 160 هـ) خرّج له أصحاب الصحاح و السنن، و روى عنه خلق كثير. قال الشافعي: لو لا شعبة لما عرف الحديث بالعراق. و قال أحمد: شعبة أمة و حده⁽³⁾.

- سفيان الثوري (المتوفى سنة 161 هـ) و هو من حملة الحديث و أعلام الأئمة، و كان له اختصاص بالإمام الصادق، و قد روى عنه الحديث كما روى كثيرا من آدابه و أخلاقه و مواعظه⁽⁴⁾.

- زهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني (المتوفى سنة 162 هـ) أخذ عن الإمام الصادق و عنه أبو داود الطيالسي، و روح بن عبادة، و أبو عامر العقدي، و عبد الرحمن بن مهدي، و الوليد بن مسلم، و يحيى بن بكير، و أبو عاصم و غيرهم، و ثقة أحمد و يحيى و عثمان الدارمي، و هو من رجال الصحاح⁽⁵⁾.

- معاوية بن عمار الدهني البجلي الكوفي (المتوفى 175 هـ) روى عن أبيه عمار و أبي الزبير و احتج به مسلم و النسائي، و حديثه في الحج من صحيح مسلم عن الزبير، روى عنه عن مسلم يحيى بن يحيى و قتيبة و جماعة⁽⁶⁾.

- و حاتم بن إسماعيل (المتوفى سنة 180 هـ) كوفي الأصل خرّج له البخاري و مسلم و الترمذي و الجماعة و كان ثقة في الحديث، أخذ عن الصادق، و أخذ عنه خلق كثير منهم إسحاق و ابن معين⁽⁷⁾.

ص: 97

1- المصدر نفسه و المكان نفسه.

2- المزني، تهذيب الكمال، مرجع سابق، ج 31، ص 346.

3- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 4، ص 299 و ذكر أنه أخذه عن الصادق ص 297.

4- جاء فيه أنه أخذ عن الصادق: المزني، تهذيب الكمال، جزء 11، ص 154.

5- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 3، ص 301.

6- الذهبي، ميزان الاعتدال، مرجع سابق، ج 4، ص 137 ذكر أنه أخذه عن الصادق: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 256.

7- المزني، تهذيب الكمال، ج 5، ص 187.

- إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري (المتوفى سنة 180 هـ) روى عنه محمد بن جهضم و يحيى بن يحيى النيسابوري، وأبو الربيع الزهراني، وأبو معمر الهذلي وغيرهم، قال ابن سعد: ثقة وهو من أهل المدينة قدم بغداد، ولم يزل بها حتى مات، خرّج له البخاري و مسلم و الجماعة(1).

- و حفص بن غياث بن طلق بن معاوية بن مالك أبو عمرو الكوفي (المتوفى سنة 194 هـ) روى عن الصادق. و روى عنه أحمد، و إسحاق، و أبو نعيم، و يحيى بن معين، و علي بن المديني، و عفان بن مسلم، و عامة الكوفيين، ولي قضاء بغداد، ثم عزل، و ولي قضاء الكوفة، و كان كثير الحديث حافظا له ثبتا فيه مقدما عند المشايخ كتبوا عنه من حفظه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث، خرّج له الجماعة أجمع(2).

- سفيان بن عيينة (المتوفى سنة 198 هـ) كان في الكوفة و هو شاب على عهد الإمام أبي حنيفة و كان حسن الحديث يعدّ من حكماء أصحاب الحديث، و فيه قال الشافعي: لو لا مالك و سفيان لذهب علم الحجاز(3).

- يحيى بن سعيد بن فروخ القطان الحافظ البصري (المتوفى سنة 198 هـ) روى له رجال الصحاح، و حدث عنه ابن مهدي، و عفان و مسدد و أحمد و إسحاق و ابن معين(4).

- عثمان بن فرقد العطار أبو معاذ البصري، خرّج له البخاري في صحيحه و الترمذي، و روى عنه ابن المديني و ابن المثنى و زيد بن أحزم، قال ابن حبان: مستقيم الحديث(5).

و أمّا خواص أصحابه و حملة فقهه، الذين كانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الفكرية و الاجتماعية، فعدد كبير جدا على سبيل المثال: أبان بن تغلب و أبو بصير الأسدي، و محمد بن مسلم، و بريد بن معاوية العجلي في المجال الفقهي، و جابر بن يزيد جعفي، و أبو حمزة الثمالي في مجال الأخلاق، و مفضل بن عمرو في مجال أسرار الكون و حكمة الوجود، و جابر بن حيان الصوفي في مجال الكيمياء....

و لا بأس بالإشارة إلى بعض الوجوه البارزة ممّن كان لهم الأثر الكبير في الحركة دق

ص: 98

1- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مرجع سابق، ج 8، ص 188 و ذكر أنّه أخذه عن الصادق: أبو نعيم الأصفهاني، حلية الاولياء، ج 3، ص 199.

2- ذكر أنّه أخذه عن الصادق: ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 2، ص 358 و المزني، تهذيب الكمال، ج 7، ص 58.

3- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، جزء 4، ص 104 و جاء فيه أنّه أخذه عن الصادق.

4- جاء فيه أنّه أخذه عن الصادق. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 256.

5- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 7، ص 134 جاء فيه أنّه أخذه عن الصادق

العلمية والعقلية في ذلك العصر، وفضلنا الاقتصار على دراسة حياة أبان بن تغلب، و جابر بن حيان اللذين كانا من المتخصصين في مجالات مختلفة.

أبان بن تغلب:

أبان بن تغلب بن رباح الرّبيعي هو أبو سعد الكوفي البكري الجريري (المتوفى سنة 141 هـ) كان جليل القدر وعظيم المنزلة، فقد حضر عند الإمام زين العابدين، وبعده عند الإمام الباقر، ثم الإمام الصادق وأخذ عنهم علمي الفقه والتفسير و كان مقدما في الأدب واللغة والنحو.

قال ياقوت الحموي: كان قارئاً لغويًا فقيهاً نبيهاً ثبّتا(1)، وسمع من العرب وحكى عنهم وصنّف غريب القرآن وغيره(2).

وقال ابن سعد: كان ثقة(3)، وذكره ابن حبان في الثقات(4).

روى الحديث عنه كثير و منهم موسى بن عقبة الأسدي (المتوفى 141) فهو من رجال الصحاح الستة، و شعبة بن الحجاج، و سفيان بن عيينة وغيرهم.

وقيل: بأنّه روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث(5).

و ترجم له الذهبي في ميزان الاعتدال، فقال: «أبان بن تغلب (م. عو) الكوفي شيعي جلد، لكنه صدوق، فلنا صدقه، و عليه بدعته، و قد وثقه أحمد بن حنبل و يحيى بن معين و أبو حاتم. و لوردّ حديث هؤلاء، لذهب جملة من الآثار النبوية»(6).

و عدّه ممن احتج بهم مسلم و أصحاب السنن الأربعة، أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه حيث وضع على اسمه رموزهم(7). و هو ممّن أجمعوا على قبول روايته و صدقه.

و مما يدل على إحاطة أبان في الحديث أنه كان يجلس في مسجد النبي صلّى الله عليه و سلّم فيجيء إليه الناس و يسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال(8).

ص: 99

1- و الثبت بفتح الباء الحجة و الرجل الثقة في روايته.

2- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الفكر، بيروت، 1980، ج 1، ص 108.

3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج 5، ص 76.

4- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 1، ص 20.

5- تقي الدين بن داود الحلّي، رجال، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ص 10.

6- الذهبي، ميزان الاعتدال، مرجع سابق، ج 1، ص 5 و 6.

7- روى عنه في: صحيح مسلم، كتاب الأيمان باب تحريم الكبر و بيانه ج 1 ص 51 و سنن أبي داود، ج 4 ص 34 ح 3987 و سنن النسائي كتاب مناسك الحج باب كيفية التلبية ج 5 ص 161. و نحن إنما نخرج على مورد واحد فقط و إلا فقد يكون هناك عشرات الموارد.

8- أسد حيدر، الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج 1، ص 56.

و من مؤلفاته: غريب القرآن و هو أول تأليف في ذلك، فصار أساسا لعلم اللغة - و كتاب الفضائل - و كتاب معاني القرآن - كتاب القراءات - كتاب الأصول في الرواية على مذهب الشيعة(1).

جابر بن حيان:

هو أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الطرطوسي الكوفي، و هو كوفي نسبة إلى التي عاش فيها زمنا و اشتهر بعلم الكيمياء(2)، و هو أول من عرف به، و «بلغت مؤلفاته 3900 رسالة»(3).

و نسب أخذه و تعلمه لهذا العلم عن الإمام الصادق. لقد وجد الإمام في تلميذه استعدادا و لياقة، فأخذ يخصّه بوقت يدرّسه فيه الكيمياء و غيرها من العلوم، حتى كتب جابر من محاضرات الإمام مئات الرسائل، و قيل: إنّه قد ألف كتابا يشتمل على ألف ورقة، تتضمن رسائل جعفر الصادق، و هي خمسمائة رسالة(4).

و عبارات جابر بن حيان في رسائله تؤيد ما يقوله أكثر الباحثين بأنه أخذ ذلك عن الإمام الصادق، فقد كرر في عباراته ما يشعر بذلك، و يعبر عنه بقوله: حدثني سيدي عن آبائه واحدا بعد واحد، و قال لي... (5). فالإمام «كان يدارسه و يختصه بالانفراد في الدراسة، مما يدل على أنّ ما كانا يتدارسانه لا يطيقه كل الناس، لدقة حقائقه، و عمق ما يحتاج إليه من تفكير»(6).

و قد استغرب جورجي زيدان الباحث النصراني المعروف - قلة اهتمام المسلمين به، حيث قال: إنه - يعني جابر بن حيان - من تلامذة الصادق، و إنّ أعجب شيء عثر عليه في أمر الرجل أنّ الأوروبيين اهتمّوا بأمره أكثر من المسلمين و العرب، و كتبوا فيه و في مصنفاته تفاصيل، و قالوا: إنّه أول من وضع

ص: 100

- 1- ابن النديم، الفهرست، ص 276.
- 2- الكيمياء: هو علم يبحث فيه عن طبائع و خواص الأجسام الأرضية، و كيفية تحليلها و تركيبها، و المادة التي يتم بها تحوّل بعض المعادن إلى الذهب.
- 3- ابن النديم، الفهرست، ص 514.
- 4- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 1، ص 291 و الزركلي، الأعلام، ج 1، ص 186 و محمد فريد و جدي، دائرة المعارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، 1971، ج 3، ص 109.
- 5- أسد حيدر، الإمام الصادق، ص 27، نقلا عن رسائل جابر بن حيان التي نشرها المستشرق كراوس، ص 335 في كتاب السر المكنون.
- 6- أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 80.

أساس الكيمياء الجديد، وكتبه في مكاتبتهم كثيرة، وهو حجّة الشرقي على الغربي إلى أبد الدهر(1).

*** وهكذا خرّجت مدرسة الإمام الصادق كادرا علميا ناضجا وواعيا، ضرب المثل في الصمود والدفاع عن العلم والعقيدة، تفنّن الإمام في صنعه ونحته، فبقى خالدا تردّد إنجازاته ذاكرة التاريخ والزمن.5.

ص: 101

1- محمد أمين الأميني، الإمام الصادق رمز الحضارة الإسلامية، مطبعة أمين، قم 1423، ص 195.

المبحث الثالث إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق

- أساسيات التربية عند الإمام:

- اهتمامات الصادق التربوية بالبعدين الروحي والجسدي:

- العوامل المؤثرة في التربية عند الإمام:

- تربية الطفل ورعايته في فكر الصادق:

- طرائق التربية والتعليم في مدرسة الصادق:

ص: 103

إشارة

إن الفكر التربوي عند الإمام الصادق حصيلة تصور إسلامي شامل متكامل لله وللكون والإنسان؛ «لأن عملية التربية وأنشطتها المختلفة لا يمكن أن تتم، ولا يمكن حتى تصورها بمعزل عن هذه النواحي»⁽¹⁾.

فلا بد أن يحدد المربي موقفه من هذه المباحث الرئيسة الثلاثة ونوع العلاقة التي يجب أن تربط بين الإنسان وخالقه وسائر الكائنات. وإليك المبادئ والمعتقدات والمسلمات التي أقام عليها الإمام رسالته التربوية.

أ - الله:

إن الاعتقاد بالله تبارك وتعالى في كل أجزائه، ليس مجرد طرح فكري بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان وسلوكياته. وعلى هذا الأساس، «يجعل الصادق الإيمان بالله والمعرفة به منطلقاً أساسياً لسلوكيات المسلم، ومن هنا تأتي أهمية دراسة العقيدة عنده لما لها من أهمية في تحديد الأهداف التربوية عنده وبالتالي تحديد شخصية المسلم»⁽²⁾.

فهو يرى أنّ الدليل على وجود الخالق الحكيم دليل فطري علمي عقلائي، ويعتبر شك الكافرين بالله تعالى ناجم عن الجهل المطبق الذي استوعب آفاق نفوسهم، وتركهم يتخبطون في مجاهل هذه الحياة، فلم ينظروا في خلق أنفسهم، ولم يبصروا ما في الكون من عجائب مخلوقات الله تعالى المنتشرة في البر والبحر، فيقول: «إن الشكك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلق، وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب

ص: 105

1- عمر محمد التومي الشيباني، من أسس التربية الإسلامية، المنشأ للشعبية للنشر، طرابلس، 1979، ص 37.

2- أبو العينين، الاهتمامات التربوية في فكر الإمام جعفر الصادق، من أعلام التربية العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة، دول الخليج، 1998، ج 1، ص 96.

و الحكمة فيما ذرأ الباري، و برأ من صنوف خلقه في البر و البحر، و السهل و الوعر، فخرجوا بقصر عقولهم إلى الجحود، و بضعف بصائرهم إلى التكذيب و العنود، حتى أنكروا خلق الأشياء، و ادعوا أن تكونها بالإهمال، و لا صنعة فيها، و لا تقدير، و لا حكمة من مدبر، و لا صانع، تعالى الله عما يصفون»(1).

فالصادق يربط طريق المعرفة بالله «بالتعرّف على إبداعه و تمام صنعه و اتصال تدبيره، بافتقارنا إليه، بتغيير كل شيء و تسخير»(2).

و تبلور رؤيته في الله بأنه موصوف بصفات الكمال: «واحد، صمد، أزلي، غير محسوس، لا تدركه الأبصار، علا فقرب، دنا فبعد، عصي فغفر، و أطيع فشكر، لا تحويه أرضه و لا ثقله سماواته، لا ينسى و لا يلهو...»(3).

كما أنه ينزّهه تنزيها مطلقا عن النقص و التشبيه بقوله: «لم يلد أنّ الولد يشبه أباه و لم يولد فيشبهه من كان قبله و لم يكن له من خلقه كفوا أحد... لا يوصف بزمان و لا مكان و لا حركة و لا سكون بل خالق الزمان و المكان و الحركة و السكون...»(4).

و ينفي منه تعالى أي صفة من صفات المخلوق كقوله: «لا يدرك بالحواس و لا يقاس بالناس»(5)... و لو كان الله تعالى جسما لم يكن بين الخالق و المخلوق فرق»(6).

و إنّ تصور العقيدة كما يبدو عنده يوحي بأنّ على الإنسان أن يعرف ربّه معرفة حقيقية و هذا ما أوضحه إذ قال:

«ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله و يأكل من نعمه ثم لا يعرف الله حق معرفته»(7).

فهو يرسم الطريق الصحيح إلى معرفة الله بأنه الرجوع إلى القرآن و الاقتصار على ما وصفه الله به نفسه قائلا:4.

ص: 106

- 1- كاظم المظفر، توحيد المفضل، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط 2، 1404، ص 9.
- 2- عبد القادر محمود، رائد السنّة و الشيعة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون و الآداب، القاهرة، 1970، ص 50.
- 3- محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، المطبعة سيد الشهداء، قم، 1415، ج 4، ص 398.
- 4- الصدوق، التوحيد، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، 1387، ص 104 و 184.
- 5- أبو طالب المكي الحارثي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، القاهرة، ص 58 / دار صادر، بيروت، 1995.
- 6- محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 4، ص 279.
- 7- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 4، ص 54.

«إن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزّ وجلّ...»

ولا تعدوا القرآن فتصلوا بعد البيان»(1).

وقد اعتمد الإمام في نهجه التربوي على القرآن الكريم، الذي يعتبر المعلم الأخلص والمرشد الأبلغ، الذي رسخ جذور المعرفة بالله و عني بذكر صفاته التي لا مثيل لها، ولا سيما الاعتراف بتوحيد الله عزّ وجلّ، كما نرى في تعريفه الموجز للتوحيد.

وهو «أن لا تجوّز على ربك ما جاز عليك»(2). وفي رواية أخرى: «...»

التوحيد أن لا تتوهمه»(3).

وبما أنّ التوحيد والشرك مفهومان متضادان، فيساعد فهم أحدهما على فهم الآخر.

يلقي الإمام الضوء على المراتب الخفية من الشرك تحذيرا للناس من الوقوع فيها والتلبس بها.

فيعرّف الشرك في شرح الآية الشريفة: وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (4) «بأنه قول الرجل: لو لا فلان لهلكت و لو لا فلان لأصبت كذا و كذا و لو لا فلان لصاع عيالي، ألا ترى أنه قد جعل الله شريكا في ملكه يرزقه و يدفع عنه»(5).

وبهذه التعريفات الدقيقة يبرز الإمام الرؤية السليمة إلى الله الخالق و توحيده.

ب - الكون:

يرى الصادق أنّ الكون و ما فيه من المخلوقات، إنّما هو منتظم مبدع، خلقه الله عزّ وجلّ بعلمه و حكمته المطلقة، و تتبلور رؤيته لهذا الكون في قوله:

«كل ما كان إذا فُتّش وجد على غاية الصواب حتى لا يخطر بالبال شيء إلا وجد ما عليه الخلقة أصح و أصوب منه»(6).

فيستدل الإمام على هذه النظرية الإسلامية الأصلية في أدلته التي قد حشدها في رسالة التوحيد في مجالسها الأربعة على أنه «ليس في الإمكان أبدع مما كان حتى في

ص: 107

1- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب التوحيد، ص 100، ح 1.

2- المصدر نفسه و المكان نفسه.

3- محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 2، ص 419.

4- سورة يوسف، الآية 106.

5- فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1415، ج 5، ص 462.

6- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 143.

النملة التافهة... وإذا كان تمام التدبير و اتصاله و إعجاز الرعاية هكذا في أحقر الأشياء فما بالك في السماوات و الأرض و ملكوتها؟»(1).

فكل مظاهر الطبيعة بجمالها و روعتها مع ما فيها من النظم و السنن، أصدق شاهد على وجود بارئها و مكوناتها و منشئها، فقال:

«أول العبر و الأدلة على الباري - جل قدسه - تهيئة هذا العالم و تأليف أجزائه و نظمها على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك و ميزته بعقلك و جدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماوات مرفوعة كالسقف، و الأرض ممدودة كالسطح، و النجوم منضودة كالمصابيح، و الجواهر مخزونة كالذخائر، و كل شيء فيها لشأنه معد، و الإنسان كالمملك ذلك البيت، و المخول جميع ما فيه، و ضروب النبات مهيئة لمآربه، و صنوف الحيوان مصروفة في مصالحه و منفعه، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير و حكمة، و نظام و ملاءمة، و أن الخالق له واحد و هو الذي ألفه و نظمه بعضها إلى بعض»(2).

فالصادق يستقرئ في أحوال الخلق، من إنسان و فلك و حيوانات و نباتات و غير ذلك ليستدلّ من خلال تلك الأحوال على وجود الله.

و من المناسب ذكر بعض ما أفاده الإمام في هذا المقام، أنه يتناول من السماء و ما فيها من ضروب المنافع: «فكر في لون السماء و ما فيه من صواب التدبير فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر و تقوية... فانظر كيف جعل الله جل و تعالى أديم السماء بهذا اللون الأخضر إلى السواد ليمسك الأبصار المنقلبة عليه فلا ينكأ فيها بطول مباشرتها له، فصار هذا الذي أدركه الناس فالفكر و الروية و التجارب يوجد مفروغا منه في الخلقة حكمة بالغة ليعتبر بها المعتبرون»(3).

و منها قوله: «فكر في ضروب من التدبير في الشجر فإنك تراه يموت في كل سنة مودة، فتحبس الحرارة الغريزية في عوده و تتولد منه مواد الثمار، ثم تحيا و تنتشر فتأتيك بهذه الفواكه نوعا بعد نوع، كما تقدم إليك أنواع الأطبحة التي تعالج بالأيدي و أحدا بعد واحد. فترى الأغصان في الشجر تتلصق بثمارها حتى كأنها تناولت كما عن يد و ترى الرياحين تلقاك في أفنائها كأنها تحيئك بأنفسها، فلمن هذا التقدير إلا لمقدّر حكيم؟! و العجب من أناس جعلوا مكان الشكر على النعمة جحود المنعم بها»(4).

ص: 108

1- المصدر نفسه و المكان نفسه.

2- كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص 11.

3- المصدر نفسه، ص 78.

4- المصدر نفسه، ص 103.

و كذلك عكف الصادق على دراسة الكون، و ما اشتمل عليه، «فكل علم من العلوم الكونية، التي تبحث عن المادة و خصوصياتها و تكشف عن سننها و قوانينها، كعملة واحدة لها وجهان، فمن جانب يعرف المادة بخصوصياتها، و من جانب آخر يعرف موجدتها و صانعها»(1)، إذ لا بد لكل مخلوق من خالق، و لا بد لكل موجود من واجد، و قد تفهم الإمام حال الكون و كيفية خلقه، و «كان عنده من القوى العقلية و النفسية و الفراغ ما يجعله يتجه إلى طلب المعرفة من أي نوع كانت، و عندنا الكثير من الأدلة المقربة التي تدل على أنه كان له علم بالكونيات، و قد طلب ذلك، ليتخذ منه ذريعة لبيان وحدانية الله تعالى»(2).

فهو يعتبر أن الخوض في العلوم الكونية من الأمور اللازمة التي تؤدي إلى قوة الإيمان بالله سبحانه و تعالى و تربية الإنسان المسلم عليها، فقد دعا تلاميذه إلى الاشتغال بها لإثراء الثقافة الإسلامية و الفكر الإنساني على السواء.

و قد كان لنظرتة تلك أثرها التربوي في مدرسته العلمية، التي تمثلت في جابر بن حيان، الذي أخذ عنه أصول الاعتقاد و الإيمان، كما أخذ عنه طبائع الأشياء و خواص المعادن، و مزج الأشياء ببعضها.

ج - الإنسان:

إشارة

الإنسان هو محور التربية فالعملية التربوية بكل ما تشتمل عليه من أصول و نظريات، و مناهج، و مربين، كلها تعمل و تتفاعل من أجل تهيئة الجو المناسب للإنسان كي يرتقي إلى درجة الكمال التي هيأها الله له.

و لن يتحقق هذا الأمر إلا بمعرفة طبيعة الإنسانية و العلم بها كي يمكن المساهمة في إصلاحه و ارتقائه و عليه «و لا بد لكل فلسفة تربوية من أن تحدد مفهومها لطبيعة الإنسان إذ في ضوء هذا المفهوم تتعين الأهداف التربوية و تتحدد الوسائل المعينة لتحقيقها»(3).

فنظرة المربي إلى الطبيعة الإنسانية تفسح له المجال في معرفة الطريقة التي يعامل الإنسان بها، و يحدد مجال العمل معه حسب قدرة الإنسان و إمكاناته و مدى تقبله لها.

فأساس التربية أمران مهمان: أحدهما طبيعة الإنسان، المادة الخام التي يعالجها

ص: 109

1- جعفر سبحاني، الإلهيات على هدى الكتاب و السنة و العقل، الدار الإسلامية، بيروت 1989، ص 39.

2- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 121.

3- حسن إبراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية و الطبيعة الإنسانية، عالم الكتب، الرياض، 1405، ص 19.

علماء التربية، وفي ضوئها تتحدد المعالم الرئيسة لها، و الآخر حرية الإنسان في أفعاله وأعماله. وفيما يلي نذكر رأي الصادق في هذين الأمرين:

طبيعة الإنسان و فطرته:

الطبيعة الإنسانية في الإسلام تختلف في مفهومها، وفي مصدرها، وفي غايتها عن الطبيعة الإنسانية في الفلسفات و مدارس علم النفس المختلفة.

و «الطبيعة في المصطلح الغربي الذي قامت عليه مدارس علم النفس هناك، هي الأشياء المادية المحسوسة حولنا من جماد و حيوان و نبات، ففي الاصطلاح اليوناني:

(الفيزيقا) - هي الطبيعة و - (الميتافيزيقا) - ما وراء الطبيعة أي الأمور الغيبية و غير المحسوسة»(1). في حين لا- يختلف معنى الطبيعة الإنسانية في التصور الإسلامي عن معنى الفطرة.

و معنى أن الله فطر الخلق «هو إيجاده الشيء و إبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال»(2)، و مفهوم فطرة الإنسان هو الخلق أو الهيئة التي خلق الله الناس عليها.

لذلك «يقصد بالطبيعة الإنسانية من المنظور الإسلامي فطرة الإنسان التي فطره الله عليها»(3).

فإذا كانت الفطرة في الإسلام هي خلق الله الإنسان، فإن الطبع هو صياغة الله الإنسان بمزاج و سجية خاصة. و عند ما ننتبه إلى نظرة الصادق إلى الإنسان نرى أنه آمن بأن النفس الإنسانية في مبدأ الفطرة خالية من جميع العلوم كما وردت في القرآن الكريم:

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً (4).

و لكنها مستعدة لتلقيها استعداداً فطرياً، فالطفل يتدرج بمعارفه مكتسبا الخبرة الخارجية بحواسه، و ذلك عن طريق تكرار استعمال الحواس حتى تحصل له المعارف الأولية الناتجة عن الحس عن طريق البيئة التي يعيش فيها ثم يتدرج شيئا فشيئا حتى تحصل له المدارك العقلية.

ورد عن الإمام ما نصّه: «... فصار - أي الطفل - يخرج إلى الدنيا جاهلا غافلا عما فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف و معرفة ناقصة، ثم لا يزال يتزايد في

ص: 110

1- علي أحمد مدكور، منهج التربية في التصور الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1990، ص 130.

2- الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن، مادة فطر.

3- محمد منير مرسى، التربية الإسلامية أصولها و تطورها في البلاد، مرجع سابق، ص 107.

4- سورة النحل، جزء من الآية 78.

المعرفة قليلا قليلا و شيئا بعد شيء، و حالا بعد حال، حتى يألف الأشياء، و يتمرن، و يستمر عليها، فيخرج من حد التأمل لها و الحيرة فيها إلى التصرف و الاضطرار إلى المعاش بعقله و حيلته، و إلى الاعتبار و الطاعة و السهو و الغفلة و المعصية»(1).

و يعلل الإمام الصادق ذلك بوجوه مختلفة فيقول:

«لو كان المولود يولد فهما عاقلان لأنكر العالم عند ولادته، و لبقى حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، و ورد عليه ما لم ير مثله من اختلاف صور العالم من البهائم و الطير إلى غير ذلك مما يشاهد ساعة بعد ساعة...»

و لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولا مرضعا... لأنه لا يستغني عن هذا كله لرقه بدنه... ثم كان لا يوجد له من الحلاوة و الوقع من القلوب ما يوجد للطفل... فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، و ما قدر أن يكون للوالدين في الاشتغال بالولد من المصلحة، و ما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر و العطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم... ثم كان الأولاد لا يألون آباءهم و لا يألف الآباء أبناءهم، لأن الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء و حياطتهم فيتفرقون عنهم حيث يولدون...»(2).

و كذلك بين الإمام الصادق وجوها خمسة لبيان الحكمة في مجيء الطفل و عقله فارغا من العلوم و المعارف قابلا لها بحسب الاستعداد الفطري، فإنه لو كان يولد و له من المعارف لحصل:

أولاً: إنكار العالم عنده و حيرته مما يشاهد.

ثانياً: الشعور بالذلة و المنقصة في نفسه للحمل و الرضاع و غير ذلك.

ثالثاً: ذهاب حلاوة التربية من الأبوين للأولاد.

رابعاً: عدم حصول مصلحة للوالدين في تربية أولادهم و رعايتهم، و عدم الترابط و التراحم فيما بينهم.

خامساً: ذهاب مكافأة الولد لوالديه بالبر و الإحسان عند عجزهما و كبرهما.

ولهذا يرتقي الإمام الصادق في هذه النظرة التربوية التي سبقت و جهات النظر التربوية الحديثة منذ اثني عشر قرناً.

على صعيد آخر يعتبر الإمام الصادق معرفة الله أمراً فطرياً عند الإنسان و هذا ما4.

ص: 111

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 63.

2- المصدر نفسه، ص 64.

عبر عنه في قول الله تبارك و تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا (1).

«و أثبت الإقرار في صدورهم و لو لا- ذلك ما عرف أحد خالقه و لا رازقه»(2) فيرى الإمام بأن الآية واضحة الدلالة على أن الناس كافة مجبولون على معرفة الله.

فيسلك الأنبياء بين الناس بالنسبة إلى المعرفة الإلهية دور المذكر لا المعلم، فإنهم يقومون بإزاحة أستار الغفلة عن الفطرة الإنسانية و «جاءوا ليوصلوا المعرفة الفطرية الإجمالية إلى مرحلة الإيمان الاستدلالي العقلي التفصيلي»(3).

و من الإفاضات الإلهية الفطرية للبشر في رأي الصادق: الحس الأخلاقي - أي:

القوة المدركة الباطنية للخير و الشر - الذي يكون جزءا من البناء التام للإنسان و فطرته.

و «لو لا أودع الله في النفوس من إدراك المعلومات على اختلاف مراتبها، لما فهموا ما تدعوهم إليه الشرائع الإلهية»(4).

أشار الإمام إلى هذه القوة في النفس الإنسانية في تفسير قوله تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (5) «بين لها ما تأتي و ما تترك»(6).

يستفاد من استعمال كلمة الإلهام «حدوث علم في النفس بدون تعليم»(7). فهي جزء من خلقة الإنسان و هيكله، و الله تبارك و تعالى غرس في الإنسان هذه البصيرة الأخلاقية يستطيع بها أن يدرك الخير و الشر، بإرشاد الأنبياء و الرسل عليهم السلام.

حرية الإنسان وإرادته:

ذكرنا سابقا أن الإنسان موضوع اهتمام التربويين باعتباره موجودا يحمل في داخله قدرا كبيرا من الإمكانيات و الاستعدادات بل و من المتناقضات، و له أهداف معينة في هذه الحياة التي تتحقق بها إنسانيته و لا يصل إليها إلا بممارسة اختياره و قدرته و حريته.

و من هنا «تظهر أهمية الحرية بالنسبة للتربية، حيث إن الحرية أساسية في تحقيق الذات الحقيقية، أما إذا فقد الإنسان حريته فإن النتائج السيئة في تربية أكثر من أن تعد

ص: 112

1- سورة الأعراف، جزء من الآية 172.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 5، ص 223.

3- محمد تقي الفلسفي، الطفل بين الوراثة و التربية، ج 1، ص 303.

4- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير و التنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 2000، ج 30، ص 326.

5- سورة الشمس، الآية 7، 8.

6- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب البيان و التعريف، ص 163.

7- ابن عاشور، التحوير و التنوير، مرجع سابق، ج 30، ص 326.

و تحصي، فالإنسان الفاقد لحرية لا يمكن له القيام بالعملية التربوية على الوجه الأكمل»(1).

فالتربية المثمرة تعتمد على نظرة صحيحة و متكاملة إلى حرية الإنسان و اختياره.

بناء على هذا يقرر الصادق رأيه في هذا الصدد بعبارة موجزة و دقيقة و هي قوله:

«لا جبر و لا تفويض بل أمر بين الأمرين»(2). و لربما اعتبر أمر التخيير هو ما قد يحل محل الجبر أو التفويض، و ليس الأمر بين الأمرين تلفيقاً بين الجبر و التفويض بمعنى أنّ في سلوك الإنسان شيئاً من الجبر و شيئاً من التفويض بل بمعنى نفي الجبر و نفي الاستقلال في سلوك الإنسان.

و عند ما سأل رجل الإمام: و ما أمر بين الأمرين؟ قال: «مثل ذلك رجل رأيت على معصية، فنهيت فلم ينته، فتركته، ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته، كنت أنت الذي أمرته بالمعصية»(3).

فيرى الإمام أنّ الإنسان مسؤول عن أعماله، لأنّ في استطاعته أن يفعل أو لا يفعل، و لو لم يكن مسؤولاً عن أعماله، لما كلف و لما كان هناك معنى للشواب و العقاب، و لا جدوى للأنبياء و الرسالات و التي ما كانت إلا لإرشاد الناس و رعايتهم و تحذيرهم حتى تكون هناك مسؤولية.

و كذلك سأل رجل أبا عبد الله: أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال: «الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي، ثم يعذبهم عليها». فقال له: ففوض الله إلى العباد؟

قال: «لو فوض إليهم لم يحصرهم بالأمر و النهي. فقال له: فبينهما منزلة؟ قال:

نعم، أوسع مما بين السماء و الأرض»(4).

هذا الكلام بيّن لنا حقيقة هامة يجب أن نأخذها بالاعتبار و هي أنّ مساحة الأمر بين الأمرين هي كل مساحة حياة الإنسان و هو في كل شؤون و أعماله و حركاته يتعامل مع الله تعالى و لم ينفرد عن رعايته و تدييره، فسلطان إرادة الله في حياة الفرد إلى جانب حرية إرادة الإنسان هو مبدأ الأمر بين الأمرين و هذه المساحة الواسعة هي التي عبّر الصادق عنها بأوسع ممّا بين السماء و الأرض.1.

ص: 113

1- علاء الدين القزويني، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مكتبة الفقيه، الكويت، 1986، ص 134.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب الجبر و القدر، ح 13.

3- المصدر نفسه و المكان نفسه.

4- المصدر نفسه، ح 11.

إن الله تعالى خلق الإنسان ذا طبيعة مزدوجة و جعله مزيجاً من العالمين الروحي و المادي، يتميز به عن سائر المخلوقات. فهو سبحانه جعل هذين العنصرين، مترابطين في كيان كلي واحد و بسبب هذا الارتباط يؤثر الواحد منهما في الآخر.

فمثلما تؤثر الجهود الجسمانية تأثيراً عميقاً في روح الفرد كذلك فإن الروح و الجهد النفسي له أثره في البدن.

من هنا تعطي التربية الإسلامية جانب الروح حقه من الصفاء و العبادة و نقاء السريرة و حسن الخلق، كما تعطي الجسم حقه من إشباع الحاجات و الغرائز بالطرق التي شرعها الله، و هذا ما أشار إليه الحديث الشريف:

«إن لبدنك عليك حقاً و لنفسك عليك حقاً... فأعط كل ذي حق حقه»(1).

انطلاقاً من هذا المفهوم فقد أولى الصادق الجسد في تربيته اهتماماً بالغاً و وجه إلى العناية به، كما اهتم بالجانب المعنوي و الروحي بطريقة متوازنة و أعطى كلا حقه في تكامل و توازن.

فهو يرى أنّ الإنسان لا يمكن أن تتوفر فيه عناصر الحياة السليمة و الطاقات الحيويّة إلا إذا تهيّأت معالم التربية الصحية فيه «فالإنسان المريض، ضعيف الإرادة، واهي الأعضاء، مضطرب التفكير، عصبي المزاج، لا يستفيد منه المجتمع الإنساني كما يستفيد من الأصحاء الأقوياء»(2).

هذا ما أثر عن الصادق في هذا الصدد بقوله: «من لم يرغب السلامة ابتلي بالخذلان... فالعافية نعمة يعجز الشكر عنها»(3).

وقد عرض الإمام جعفر إلى بعض المناهج الصحية في وصاياه و نصائحه و منها أن يريح الإنسان جسمه و روحه، لأنّ الراحة تقي الإنسان من الإصابة بكثير من الأمراض، فقال:

ص: 114

1- أخرجه البخاري، كتاب الصوم، ح 1968.

2- عفيف عبد الفتاح طيارة، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، 1977، ص 430.

3- محمد الحسين المظفر، الإمام الصادق، مؤسسة النشر لجماعة المدرسين، قم ج 2، ص 93.

«النوم راحة الجسد، النطق راحة الروح و السكوت راحة العقل»(1).

فقد تضمن هذا الكلام بعض أصول المبادئ الصحية، فالنوم عنصر من عناصر الصحة للإنسان ولا يستقيم البدن بدونه. و النطق راحة للروح، فإن الله خلق البيان للإنسان ففيه راحة لروحه وقضاء لمهامه. و أما السكوت في المواضيع التي لا حاجة فيها إلى النطق ولا ضرورة تدعوله، فهو راحة الفكر.

فهو يرشد إلى طرق المحافظة على الجسد من خلال صيانتته من العبث ووقايتته من المرض والضرر و ذلك من خلال الاعتدال في الطعام فقال: «لو اقتصد الناس في المطعم لاستقامت أبدانهم»(2).

كما أنه ينهى عن كثرة النوم والأكل والشرب لأنها تسبب كثيرا من الأمراض الجسمية والنفسية كقوله:

«كثرة النوم تتوآد من كثرة الشراب، وكثرة الشراب يتوآد من كثرة الشبع، وهما يثقلان النفس عن الطاعة و يقسيان القلب عن التفكير و الخشوع»(3).

وفي هذا دلالة واضحة على تأثير الجسم على الروح و تأكيد الإمام على الصحة الجسمية للفرد و تكامل نموه لكي يعيش حياة سعيدة.

و من العناصر المهمة في تكوين الحياة الصحية وازدهارها، رعاية النظافة التي تجعل الفرد بمأمن من التلوث و الأمراض، و قد حض الإمام الصادق المسلمين على الاعتناء بهذا الجانب في حياتهم، و قد أثر عنه كثير من الوصايا في هذا الصدد منها قوله:

«من غسل يده قبل الطعام وبعده بورك له في أوله و آخره و عاش ما عاش في سعة و عوفي من بلوى في جسده»(4).

فغسل اليدين قبل الطعام تطهير و تعقيم لهما من الجراثيم المحتملة التي تتعلق بهما، و غسلهما بعد الطعام من النظافة التي هي الإيمان.

و مثل ذلك و جوب غسل الفاكهة قبل الأكل، قال الإمام: «إن لكل ثمرة سمًا فإذا أتيتم بها فأمسوها الماء و اغمسوها في الماء»(5).

ص: 115

1- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، جامعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، ط 2، 1404، ج 4، ص 402، ح 5865.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 59، ص 266.

3- المصدر نفسه، ج 73، ص 189.

4- الكليني، فروع الكافي، ج 6، باب الوضوء قبل الطعام، ح 1.

5- محمد بن الحسين الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 17، ص 115.

وبما أنّ «الجسم هو الوعاء الذي يحلّ فيه العقل والروح والنفس بقواها المختلفة وهو المجال الذي تظهر فيه أنشطة كل هذه القوى المعنوية»⁽¹⁾، فجاءت تربية الصادق بكثير من توجيهاته الوقائية للمحافظة على الجانب الجسمي وصحته و مما قاله:

«لا تدخل الحمام إلا وفي جوفك شيء يطفئ عنك وهج المعدة، وهو أقوى للبدن ولا تدخله وأنت ممتلئ من الطعام»⁽²⁾.

فتدخل في دائرة وصاياه الصحية بعض الآداب الجزئية التي تسهم في صحة البدن كقوله: «الخلال بعد الطعام يشدّ اللثام ويجلب الرزق و يطيب النكهة»⁽³⁾.

وقد كان للصادق رأي في ما قد يصيب البدن من تعب أو مرض، وفي طريقة علاجه وهو يدرك ما يحمله الدواء من تأثيرات جانبية سلبية، فيقول: «اجتنب الدواء ما احتل بدنك الداء»⁽⁴⁾.

فاجتناب الدواء إذا لم يكن ثمة ضرورة لاستعماله فإنه يعود على البدن بالصحة.

لأنّ كثيرا من الأمراض يدفعها الجسم إذا كانت فيه مناعة وقوة، ويجعله في مأمن من تأثيراته السلبية.

وأخيرا نشير إلى كلام جامع من الإمام يدلّ على اهتمامه البالغ بتربية الروح والجسد معا. إذ قال لرجل طلب منه أن يوصيه، فقال: «أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمن يريد الطريق إلى الله، والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها، ثلاثة منها في رياضة النفس، و ثلاثة منها في الحلم، و ثلاثة منها في العلم فاحفظها وإياك والتهاون بها.

أما اللواتي في الرياضة فإياك أن تأكل ما لا تشتهيّه فإنه يورث الحمق والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، فإذا أكلت فكل حلالا وسمّ الله تعالى واذكر حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم:

«ما ملأ آدمي وعاء أشدّ شرا من بطنه، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»⁽⁵⁾.

وأما اللواتي في الحلم فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرا، فقل له: إن قلت عشرا لم تسمع واحدة. ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقا فيما تقوله فأسأل الله 0.

ص: 116

1- علي خميس الغامدي، الإنسان الصالح و تربيته من منظور إسلامي، دار الطيبة، مكة المكرمة، 2003، ص 201.

2- الطبرس، مكارم الأخلاق، ص 53.

3- القرطبي، بهجة المجالس، دار الكتاب العربي، القاهرة، د. ت، ص 79.

4- الكليني، فروع الكافي، ج 6، باب كثرة شرب الماء، ح 2.

5- أخرجه الترمذي في سننه، ح 2380.

المغفرة، وإن كنت كاذبا، فأسأل الله أن يغفر لك. و من وعدك بالخيانة فعده بالنصيحة و الوفاء.

و أما اللواتي في العلم، فاسأل العلماء ما جهلت و إياك أن تسألهم تعنتا و تجربة، و إياك أن تعدل بذلك شيئا و خذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلا، و اهرب من الفتيا فرارك من الأسد و لا تجعل رقبتك للناس جسرا»(1).

و هكذا نرى أن الإمام قد عني في بنائه للإنسان و في تربية أتباعه، بكل ما يحفظ لهم الصحة النفسية و العقلية و البدنية ليجعل منهم أشخاصا متكاملين، سعداء، أقوياء فعالين و قادرين على تحمّل المسؤوليات في حياتهم.9.

ص: 117

1- زين الدين العاملي، منية المرید في آداب المفید و المستفید، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1405، ص 149.

كما ذكرنا سابقاً، أشار الإسلام إلى تحديد أثر كل من الوراثة و البيئة في تكوين شخصية الإنسان.

وتتعلق هذه العوامل في فكر الصادق من صميم الإسلام و توجيهاته فقد اهتم بأثر الوراثة و البيئة في حياة الإنسان و تربيته. و قد روي عنه في هذا الصدد: «و تجب على والده - أي الطفل - ثلاث خصال: اختيار لوالدته، و تحسينه اسمه، و المبالغة في تأديبه»(1).

و معنى اختيار والدته يقوم على مبدأ الوراثة و البيئة معا.

بمعنى أنّ صفات الصلاح و الشقاء يكون للطفل نصيب منها و هو في بطن أمّه.

كما أنّ شؤون الزوجة و أسرتها لها أثر عميق في تكوين الطفل و تربيته. «فالاختيار قد يكون على أساس الأصل الطيب من الناحية الوراثية، كما قد يكون أيضاً من الناحية الخلقية و الدينية حتى ينشأ الأطفال في رعاية أم حسنة الأخلاق و الدين، تحسن تربيتهم و تنشئتهم نشأة صالحة»(2).

لذلك عند ما يستشير رجل الصادق في زواجه يقول له: «انظر أين تضع نفسك، و من تشركه في مالك، و تطلعه على دينك و شرك، فإن كنت لا بد فبكر تنسب إلى الخير و إلى حسن الخلق»(3).

و كما أوصى الإمام باختيار الزوجة الصالحة المتدينة، فكذلك أوصى أيضاً باختيار الزوج الصالح ذي الدين و الخلق الطيب و نهى عن غيره لما له من التأثير الكبير في الأولاد بقوله: «من زوج كريمته من شارب الخمر فقد قطع رحمها»(4).

ص: 118

1- محمد الحسن الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، مؤسسة النشر لجماعة المدرسين، قم، 1404، ص 322.

2- محمد عثمان نجاتي، الحديث النبوي و علم النفس، دار الشروق، بيروت، ط 4، 2000، ص 262.

3- محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 4، 1406، ج 7، ص 401، ح 1601.

4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، مرجع سابق، ج 14، ص 14.

و هكذا يعالج الإمام تربية الأفراد بتكوين الأسرة الصالحة لكونها تقوم على أسس متينة وقواعد عملية صحيحة في اختيار شريك الحياة و التي من أهمها الاختيار على أساس الدين و أساس الأصل و الشرف ذلك أن السجايا الخلقية و الصفات الحميدة و الرذيلة في الوالدين تهيئ استعدادا في الأبناء، فالآباء و الأمهات الذين يمتازون بصفات الشجاعة و الكرم و التضحية و الخدمة ينجبون أبناء ذوي فضيلة و إباء و كرم على عكس غيرهم.

و هذا معنى كلام الصادق بدلالته على أهمية الوراثة: «و لا يطيب ثمر إلا بفرع و لا فرع إلا بأصل، و لا أصل إلا بمعدن طيب»⁽¹⁾.

و لا يحصر الإمام صفات الولد بما يرثه عن آبائه القريين فقط، بل قد يرث صفات أجداده البعيدين و حتى الإنسان القديم إذ قال: «إن الله تبارك و تعالى إذا أراد أن يخلق خلقا جمع كل صورة بينه و بين آدم، ثم خلقه على صورة إحداهن فلا يقولن أحد لولده هذا لا يشبهني و لا يشبه شيئا من آبائي»⁽²⁾.

على صعيد آخر يؤمن الإمام جعفر إيمانا راسخا بأن البيئة أقوى تأثيرا من الوراثة في بناء الإنسان و أن الصفات الموروثة و فضائل الأسرة لا تقاوم ضغط هذه البيئة. لذلك ينصح بزيارة الأخيار و تجنب الفجار قائلا:

«إذ زرت فزر الأخيار و لا تزر الفجار، فإنهم صخرة لا ينفجر ماؤها و شجرة لا يخضر ورقها و أرض لا يظهر عشبها»⁽³⁾.

فيكتسب الإنسان كثيرا من عاداته و أخلاقه و قيمه و اتجاهاته الفكرية من البيئة الاجتماعية و الثقافية التي ينشأ فيها، و إذ استقرت عادات الإنسان و أخلاقه نتيجة الممارسة المتكررة فإنه يصبح من الصعب بعد ذلك تغييرها إلا بمجهود شاق و إرادة قوية، و قد لا تتغير إذا ما استحكمت في المرء فصارت سجية فيه.

و قد أشار الإمام إلى هذه الحقيقة قائلا:

«لا تصاحب الفاجر فيعلمك من فجوره... و من يصاحب صاحب السوء لا يسلم»⁽⁴⁾.

و غير ذلك من توجيهات توضح اهتمام الإمام بالبيئة الاجتماعية و المخالطة مع الآخرين، إلى جانب الوراثة، فهما أصل السلوك عنده و لا يخفى أمرهما في عملية التربية.8.

ص: 119

1- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 6، ص 263.

2- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مرجع سابق، ج 3، ص 484، ح 4709.

3- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 263.

4- أبو سعد السمعاني، الأنساب، دار الجنان، بيروت، 1408، ج 3، ص 508.

إن تربية الطفل فرع من تربية الفرد الذي يسعى الإسلام إلى إعداده و تكوينه ليكون عضوا نافعا و إنسانا صالحا في الحياة.

وقد أمر الله تعالى الوالدين بتربية الأبناء، و حصّهم على ذلك، و حمّلهم مسؤوليتها بقوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (1)**.

«فوقاية النفس عن النار بترك المعاصي و فعل الطاعات، و وقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح و التأديب، فيجب على الرجل تعلّم ما يجب من الفرائض و تعليمه لهؤلاء» (2) و تعليم ما لا يستغنون عنه من الأدب.

انطلاقا من هذا التوجيه القرآني عني الإمام الصادق في منهجه التربوي بتربية الأطفال و الناشئين عناية خاصة، واضعا المسؤولية فيه على عاتق الآباء و الأمهات، فأرشدهم إلى أن يقوموا بأداء هذه المهمة بوجه صحيح، حتى يتيحوا لأولادهم فرصة كافية لإبراز المواهب التي أودعها الله فيهم لينشأوا نشأة سوية.

فالطفل يحتاج إلى توازن ميوله و طاقاته كما أنّه يفتقر إلى تربة صالحة ينشأ فيها و يتعرّع عليها.

فلا بدّ من بذل الجهد و العمل الدؤوب في تأديب الأطفال و تصحيح أخطائهم على الدوام و تعويدهم الخير.

وقد أخذ الصادق بالاعتبار أنّ بناء الشخصية السويّة تأخذ ثمراتها النهائية من الطفولة، و رغم أنّ الإمام يرى بأن عملية التربية تستمر إلى نهاية حياة الإنسان و أنّها لن تتوقف، إلا أن هذه المرحلة أخذت عنده طابعا مميزا في تعاليمه و إرشاداته لأن كل «إنسان مهما كان عمره متعلما، غير أنّ ذلك لا يعني أن دور الطفولة لا يمتاز بكونه المرحلة المهمة في عملية التربية أكثر من غيره و ذلك لإعداد الناشئ للحياة و تكيفه معها» (3).

ص: 120

1- سورة التحريم: الآية 6.

2- الألويسي، روح المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ج 9، ص 351.

3- علي محمد الحسين الأديب، منهج التربية عند الإمام علي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1399، ط 2، ص 35.

هذا ما أشار إليه أبو عبد الله حينما ينصح ابنه قائلا: «يا بني إن تأدبت صغيرا انتفعت كبيرا و من عني بالأدب اهتم به، و من اهتم به تكلف علمه، و من تكلف علمه اشتد في طلبه، و من اشتد في طلبه أدرك منفعته»(1).

فالإمام جعفر ينظّم أطوار نمو الأبناء و تربيتهم ضمن ثلاث مراحل، لكل مرحلة متطلباتها الخاصة و أساليبها التربوية المميزة و هذا ما قال فيه:

«دع ابنك يلعب سبع سنين، و يؤدب سبع سنين، و ألزمه نفسك سبع سنين فإن أفلح و إلا فلا خير فيه»(2).

في هذا التوجيه التربوي يسمّي الإمام السنوات السبع الأولى في حياة الطفل طابع اللعب. «و هذا التأكيد يعني بوضوح عدم تقبله للتدريب الجاد»(3). فالطفل يستحق في هذه المرحلة من والديه الرعاية و العناية و الاهتمام بالاستجابة لرغباته في الحدود التي لا تؤذيه و لا تضره.

أما المرحلة الثانية فيسميها الصادق طابع التأديب أو تنشئة القائمين على مجرد التدريب، ذلك لأنّ الطفل في هذه المرحلة ينتقل إلى مرحلة الفهم و الإدراك و يجب أن يخضع لمنهج تربوي دقيق على أساس مراقبة الوالدين و إرشاداتهما.

أما المرحلة الثالثة و التي تعتبر أكثر أهمية - فإنها تتسم بطابع الإلزام و فيها إشارة دقيقة إلى طبيعة هذه المرحلة و متطلباتها التربوية. فتبدأ في هذه الفترة - الطاقات و الغرائز الكامنة في الإنسان بالفتح و يتطلّع المراهقون إلى الاستقلال، فمن الضروري للآباء أن يلزموهم أنفسهم و يحترموا مشاعرهم و يأخذوا بآرائهم و يستشيروهم.

يبدو أن التفات الإمام في تربيته للأولاد بهذه المراحل الثلاث، مأخوذ من تقرير جدّه رسول الله صلّى الله عليه و سلّم كما يقول و ربّما يعتبر تفسيراً لحديثه الشريف: الولد سيد سبع سنين و عبد سبع سنين و وزير سبع سنين»(4).

فحينما يسير الآباء و الأمهات على هذا النهج في تأديب أبنائهم، يستطيعون أن يكونوا جيلا صالحا و مهينا للقيام بأعباء مسؤولياتهم و تكاليفهم في الحياة.

وقد حث الإمام الصادق على الاهتمام بعقيدة الطفل و تلقينه إياها منذ صغره لينشأ(8).

ص: 121

1- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ج 16، ص 224.

2- الكليني، فروع الكافي، ج 6، باب تأديب الولد، ح 1.

3- محمود البستاني، دراسات في علم النفس الإسلامي، دار البلاغة، بيروت، ط 3، 2000، ص 60.

4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 21، ص 427، ح 27628.

عليها، فالصبي في أول نشوئه يحفظه حفظاً «ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً، فابتدأه حفظ، ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيمان والتصديق به» (1).

هذا ما أشار إليه الإمام: «إذا بلغ الغلام ثلاث سنين يقال له سبع مرات قل: «لا إله إلا الله ثم يترك، حتى يتم له ثلاث سنين و سبعة أشهر و عشرون يوماً، فيقال له:

قل: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، و يترك حتى يتم له أربع سنين ثم يقال له سبع مرات: صلى الله على محمد و آله» (2).

و كذلك يوجه أبو عبد الله الآباء و الأمهات إلى بعض الخطوات التي تهدف إلى بناء الأساس العبادي في الأطفال بقوله: حينما «يتم له خمس سنين يقال له: أيهما يمينك و أيهما شمالك؛ فإذا عرف ذلك حوّل وجهه إلى القبلة و يقال له: اسجد، ثم يترك حتى يتم له ست سنين، فإذا تم له ست سنين: صلى و علّم الركوع و السجود حتى يتم له سبع سنين. فإذا تم له سبع سنين، قيل له: اغسل وجهك و كفئك فإذا غسلهما، قيل له: صلّ، حتى يتم له تسع، فإذا تمت علّم الوضوء» (3).

من البديهي أن «الطفولة ليست مرحلة التكليف و إنما هي مرحلة إعداد و تدريب و تعويد للوصول إلى مرحلة التكليف عند البلوغ، ليسهل عليه أداء الواجبات و الفرائض» (4)، و يتربى كذلك على طاعة الله و القيام بحقه.

فهذه الوثيقة التربوية تمثل مدى اهتمام الإمام بالتربية الإيمانية في الأولاد وفق برامج منظمة كما أنّ فرز هذه المراحل ينطوي على نتائج مثمرة من حيث عملية التعليم و التدريب عليه بنحو يتساوى مع النمو الإدراكي و الجسدي للطفل.

وقد لفت الإمام جعفر أنظار المرين إلى رعاية القدرة و الاستطاعة في الأطفال حين يشجعونهم على العبادات و ذلك لازدياد رغبة الناشئين إليها كقوله:

«إنّا نأمر الصبيان أن يجمعوا بين الصّلاتين: الأولى و العصر و بين المغرب و العشاء الآخرة، ما داموا على وضوء قبل أن يشتغلوا» (5).

و يؤكد المعنى ذاته في حديث آخر:

«الغلام يؤخذ بالصيام إذا بلغ تسع على قدر ما يطيقه فإن أطاق إلى الظهر أو 2.

ص: 122

1- الغزالي، إحياء علوم الدين، دار صادر، بيروت، 2000، ج 1، ص 94.

2- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 1، ح 863.

3- المصدر نفسه و المكان نفسه.

4- محمد نور الدين سويد، منهج التربية النبوية للطفل، دار ابن كثير، دمشق، ط 5، 2004، ص 252.

5- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 8، ح 382.

بعده صام إلى ذلك الوقت، فإذا غلب عليه الجوع و العطش أفطر»(1).

وهكذا فإن من أظهر المسؤوليات التي اهتم بها و حض عليها و وجّه الأنظار إليها مسؤولية الوالدين تجاه أولادهم و حقهم في التعليم و التوجيه و التربية، فهي في الحقيقة مسؤولية كبيرة و شاقة تتبلور على أساسها شخصيته، و تتوضّح بها مسيرته، و يتحدد من خلالها مصيره في هذه الحياة.

كذلك نرى بعض التوجيهات التربوية من الإمام إلى الدعاة و الذين يقومون في ساحة التبليغ للدين الإسلامي و نشر تعاليمه، بأنهم لا بدّ أن يهتموا بتربية المراهقين و الشباب أكثر من الآخرين.

فرجل من أصحابه حضر يوماً عنده، فسأله الإمام: «كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر و دخولهم فيه؟»، قال: و الله إنهم لقليل، فقال الصادق: «عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير»(2).

لقد صرح الإمام في حديثه هذا بشكل واضح إلى نقاء الباطن و حب الخير و الفضيلة في جيل الشباب و ذكر الفرد - و هو مبلغ للدين و المربي في المجتمع - بأنّ الشباب أكثر استعداداً للخيرات و اتصافهم بالخصال الإنسانية أسرع من غيرهم.6.

ص: 123

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 93، ص 319.

2- الكليني، الكافي، ج 8، كتاب الروضة، ص 93، ح 66.

إشارة

عني المربون المسلمون بطرائق التعليم و لكن لكلّ منهم أسلوبا خاصا يعتمده في تعليمه و نظرة خاصة يرى الأمور من خلالها.

هذه الطرق التي انتهجها المربون في التعليم ليست منفصلة عن ثقافة العصر و نظمه الاجتماعية؛ لأنّ التعليم نشاط اجتماعي ينعكس على كافة الجوانب الاجتماعية و ما فيها من قيم و معايير و نظم.

وقد استخدم الإمام الصادق بعض طرق التعليم، فسلكها لإيصال المعارف الإسلامية في كافة مجالات الحياة من العقائد و العلم و الأخلاق و الآداب إلى المتعلمين، ووظفها توظيفا فاعلا يتلاءم مع الأهداف التي خطت لتحقيقها في منهجه التربوي.

وفيما يلي طائفة من أهم الطرق التي اعتمدها الصادق في منهجه التربوي:

أ - طريقة الوعظ:

تعتمد التربية الإسلامية على الوعظ كطريقة تعليمية «تقوم على توضيح الأمور النافعة و الضارة للمتعلمين و تعظهم و ترشدهم إلى الخير و تحثهم على التحلي بمكارم الأخلاق»⁽¹⁾.

وقد أولى الصادق اهتماما بالغا بالمواعظ و وجه جميع جهوده لوعظ الناس و تهذيبهم و غرس النزعات الكريمة في نفوسهم. فقدّم تراثا غنيا لكل مسلم، من الحكم و المواعظ التي حاول من خلالها، التأثير على النفوس، و تنمي مداركها المعنوية و ترفع مستوى إيمانها و عملها، و تأكيده على هذا الأسلوب يرجع إلى اهتمامه بتعميق مسؤولية الإنسان في دنياه و ربطه بالدار الآخرة من حيث تجسيدها لنتائج المسؤولية.

فنرى في كثير من مواعظه تذكير الناس بالدار الآخرة و تحذيرهم من عذاب الله و عقابه كقوله:

«مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر، لأمنهما جميعا و لو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر، لسعد في الدارين»⁽²⁾.

ص: 124

1- محمد عطية الإبراشي، التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 112.

2- ورام بن أبي فراس، مجموعة ورام، مرجع سابق، ج 2، ص 112.

لقد انطلقت تلك الجمل الوعظية في صيغ لغوية هادفة، لها دلالتها اللفظية و أبعادها الحركية في الواقع النفسي والاجتماعي.

وقد يطرد الإمام بمواعظه القلق والاضطراب من النفس الإنسانية، كقوله:

«إذا بلغك عن أخيك ما يسوؤك فلا- تغتم، فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة عَجَلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها»(1).

ربما يضيق صدر الإنسان من كلام الآخرين في حقه، فيشعر بالحزن والاضطراب. فالإمام يرشد الفكر إلى التفكير في حقائق الأمور و يبين له بأن كلام الناس في حقه لا يخلو من أمرين: إما أن يكون حقيقياً وإما غير حقيقي.

فإذا كان كلامهم صحيحاً والخطأ فيه، فهي عقوبة عاجلة له، أما إذا كان غير صحيح وليس كما يقولون، فهو افتراء عليه و تكتب له حسنة بها.

ولم تكن عظات الإمام لفئة خاصة أو طائفة معينة، بل شملت كل الناس، وقد تنفع أي شخص حتى المقتدرين وأصحاب المناصب، فكل وعظ منه كان يتناسب مع ظروف كل فرد و ثقافته كما قال أبو جعفر المنصور الخليفة للإمام: حدثني عن نفسك بحديث أتعظ به و يكون لي زاجر صدق عن الموبقات فقال الإمام:

«إملك نفسك عند أسباب القدرة، فإنك إن تفعل ما تقدر عليه كنت كمن شفى غيظاً و تداوى حقداً أو يحب أن يذكر بالصولة. و اعلم بأنك إن عاقبت مستحقاً لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل و الحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر. قال أبو جعفر: وعظت فأحسنت و قلت فأوجزت»(2).

ب - طريقة الرسائل:

تعتبر الرسائل إحدى طرق التعليم، فالطالب يرسل مسأله إلى أستاذه و يتلقى منه الأجوبة عنها مكتوبة.

وقد كان يطلق على هذه الرسائل اسم كتب «المسائل» «التي فيها أجوبة لمسائل أرسلها أو وجهها مباشرة لطلبة الأئمة أو المشاهير الشيوخ»(3).

وقد كانت لأبي عبد الله مراسلات إلى مختلف الأقطار تتضمن مجمل نصائحه

ص: 125

1- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 264.

2- الصدوق، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم، 1387، ص 711.

3- عبد الله الفيض، تاريخ التربية عند الإمامية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط 2، 1983، ص 233. و ليس أدل على ذلك مما نجده في كثير من التراجم في كتب الرجال، حيث تتكرر العبارة التالية: له مسائل عن أبي عبد الله (ع).

التي يدعو فيها تلاميذه إلى سبيل ربه، و كانت تهبط عليه أسئلة من المسلمين في البلدان النائية يسألونه إيضاح ما أشكل عليهم من أمور دينهم و دنياهم، «و منها كتاب المسائل للحلبي عن الإمام الصادق»(1).

و أحيانا بادر الإمام بنفسه بكتابة رسائل فيما يحتاج إليه تلاميذه سواء في ذلك ما يتعلق بأمورهم الدينية أم حياتهم الدنيوية. و منها على سبيل المثال: رسالة طويلة بليغة إلى أتباعه «أمرهم بمدارسها و النظر فيها، و تعاهدها و العمل بها، فكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم، فإذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها»(2).

و هذه مقتطفات منها:

«أما بعد فاسألوا الله ربكم العافية، و عليكم بالدعة و الوفاق و السكينة، و عليكم بالحياء و التنزه عما تنزه عنه الصالحون قبلكم...»

فاتقوا الله و كفوا ألسنتكم إلا من خير، و إياكم أن تذلقوا ألسنتكم بقول الزور و البهتان، و الإثم و العدوان، فإنكم إن كففت ألسنتكم عما يكرهه الله مما نهاكم عنه، كان خيرا لكم عند ربكم. و عليكم بالصمت إلا فيما ينفعكم الله به، من أمر آخرتكم و يأجركم عليه...

و عليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم و تكبر عليهم، فقد زلّ عن دين الله، و اعلموا أن من حقر أحدا من المسلمين ألقى الله عليه المقت، فاتقوا الله في إخوانكم فإن لهم عليكم حقا أن تحبوهم فإن الله أمر نبيه بحبهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله و رسوله، و من عصى الله و رسوله و مات على ذلك مات من الغاوين...

إياكم أن يبغى بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه، و صارت نصرة الله لمن بغى عليه، و من نصره الله غلب و أصاب الظفر من الله.

إياكم أن يحسد بعضكم بعضا، فإن الكفر أصله الحسد.

إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم يدعو الله عليكم و يستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إن دعوة المظلوم مستجابة».

إياكم أن تشره نفوسكم إلى شيء مما حرّم الله عليكم، فإن من انتهك ما حرّم الله عليه حال الله بينه و بين الجنة»(3).4.

ص: 126

1- آغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط 3، 1983، ج 5، ص 221.

2- الكليني، روضة الكافي، ص 5-14.

3- الكليني، روضة الكافي، ص 5-14.

فهذه الرسالة للإمام بمثابة رسالة الحقوق التي ذكرت فيها حق الله وحق الناس.

وكان الإمام أراد أن يجسد الإسلام وبما فيه من الآداب والأخلاق من خلال رسائله لطلابه.

ج - طريقة المناظرة والحوار:

لقد كانت المناظرة والحوار من مميزات طرق التربية الإسلامية و«تقوم هذه الطريقة على أساس النقاش الذي يعتمد على طرح الأسئلة و تلقي الأجوبة للوصول إلى حقيقة من الحقائق لا تحتمل الشك والنقد ولا الجدل»⁽¹⁾.

فقد سلك القرآن الكريم الطريقة الحوارية مع المسلمين وغير المسلمين بشكل يؤثر على العقل والوجدان وبأسلوب يعتمد على الإقناع بالمناقشة التي تكشف عن الحق. لذلك كانت المناظرة والحوار إحدى الطرق التعليمية في الإسلام. ولأن الإسلام دعوة للتفكير و تحرير العقل اهتم علماء المسلمين عناية كبرى بالمناظرة والحوار في طرق تعليمهم «لما لها من الأثر الكبير في شحذ الذهن و تقوية الحججة، و التمرن على سرعة التعبير، و ترتيب الأفكار، و تجديد نشاطها كما تساعد التلاميذ على تنمية قدراتهم العقلية»⁽²⁾.

و كذلك كانت المناظرة من أبرز طرائق التعليم عند الإمام الصادق، حيث كان إماما في الحوار و لقد أكد في قوله و عمله أن العالم المرئي لا بد أن يفتح عقله و قلبه و علمه لكل إنسان يطرح مشكلة أو يثير شبهة و إن اختلف معه في الأسس و المبادئ الفكرية.

فكان يجلس في بيت الله الحرام و يحاور كبار الملاحدة و الزنادقة و ذوي الملل و النحل، بعقل منفتح و صدر واسع.

و قد يبدأ الإمام بالكلام و طرح السؤال حتى يسوق ذهنية الفرد إلى الحقيقة التي أراد أن يشبثها، كما روي أنه:

جاء أحد الزنادقة إلى الإمام و هو في بيت الله الحرام و لما فرغ من طوافه و صلاته، قال أبو عبد الله له: «أتعلم أن للأرض فوقا و تحتا؟» قال: نعم. قال الإمام:

«فهل دخلت تحتها؟» قال: لا. قال الإمام: «ما يدريك ما تحتها؟» قال: لا أدري إلا أنني أظن أن ليس تحتها شيء. قال أبو عبد الله: «فالظن عجز، فلم لا تستيقن؟» ثم أردف الإمام يقول: «أفصعدت إلى السماء؟» قال: لا، قال: «أفتدري ما فيها؟» قال:

لا. قال الإمام: «عجبا لك لم تبلغ المشرق، و لم تبلغ المغرب، و لم تصعد إلى

ص: 127

1- محمد منير سعد الدين، تاريخ التربية عند المسلمين، مرجع سابق، ص 267.

2- عبد الله الدائم، التربية عبر التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، 1973، ص 178.

السماء، ولم تجز هناك، فلم تعرف ما خلقهنّ وأنت مع ذلك جاحد بما فيهنّ؟»

«أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل، إفهم عتاً فإننا لا نشك في الله أبداً»(1).

وهكذا فإن الإمام بقوله: «ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم»، ضمن دفاع عن دينه ومعتقده، يعلم قواعد و منهجية للفكر الإسلامي من الناحية العقديّة من خلال الحوار.

ويجيز الإمام لتلاميذه المناظرة، إذا كانوا مهيين لها مع العلم وقوة الاحتجاج، لأنّ المناظر لا بدّ «أن يكون عالماً مطلقاً ذا قوة و ملكة على رد الفروع إلى الأصول، و عارفاً بقواعد و أدلة الأحكام»(2). فالإمام يرّبي تلاميذه على الحوار، ويمدّهم بالحجج و البراهين و أساليب الدفاع حتى كان يحيل المخالفين إليهم رغم إصرارهم على المناظرة معه شخصياً.

و من أمثلة ذلك، المناظرة التي وقعت بين تلاميذ الإمام و رجل من أهل الشام الذي دخل على الإمام و «قال: بلغني أنك عالم بكل ما تسأل عنه فصرت إليك لأناظرك، فقال الإمام: في ما ذا؟ قال: في القرآن. فقال الصادق: «يا حمران(3) دونك الرجل».

فقال الرجل: إنما أريدك أنت لا حمران فقال أبو عبد الله: «إن غلبت حمران فقد غلبتني» فأقبل الشاميّ يسأل حمران حتى ضجر و ملّ و عرض و حمران يجيبه، فقال أبو عبد الله: «كيف رأيت يا شاميّ؟!» قال: رأيت حاذقاً ما سألته عن شيء إلا أجابني فيه، ثم أراد الشاميّ أن يناظر في العربية و الفقه و الكلام فيناظر مع التلاميذ الآخرين للإمام الصادق و الإمام كان حاضراً. و في الأخير قال الشاميّ للإمام: كأنك أردت أن تخبرني أن في أصحابك مثل هؤلاء الرجال. قال: «هو كذلك»(4).

د - طريقة الإملاء:

تقوم هذه الطريقة التعليمية بدور هام في مجال التدريس و «عند ما تطورت الحركة

ص: 128

1- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب حدوث العالم، ح 1.

2- عبد الصاحب الحسيني العاملي، الأخلاق عند الرسول و أصحابه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1969، ص 312.

3- حمران بن أعين الشيباني مولا هم يكني أبا الحسن كوفي تابعي من رجال محمد الباقر و جعفر الصادق فكان منه حملة القرآن و عالماً بالنحو و اللغة أخذ النحو و القراءة عن أبي الأسود الدؤلي و هو من عائلته مشهورة في الكوفة و لهم منزلة (محسن الأمين، أعيان الشيعة (234/6

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 47، ص 407.

العلمية و استخدم الورق، أصبح الإملاء من أعلى مراتب التعليم»(1) و سميت بعض الكتب في ذلك - الأمالي - «فيملي الأستاذ ما يريد تعليمه، و يكتب الطلاب خلف المدرّس، و بعد الانتهاء يعرج على الشرح و الإيضاح و التفسير للفقرات الغامضة، و يدون الطالب هذه الشروح على هامش الأوراق التي كتب عليها الأصول»(2).

فقد استخدم الإمام جعفر هذه الطريقة في تعليمه و أملى على تلاميذه في مختلف العلوم، و له كتاب يسمّى - أمالي الصادق - و منها إملاء الإمام على تلميذه مفضل بن عمرو في أربعة مجالس سميت بتوحيد المفضل.

ه - طريقة الوصايا:

إنّ الوصية طريقة تعليمية مستوحاة من القرآن الكريم و قد استفاد أبو عبد الله من هذه الطريقة كثيرا عند ما قام بوصايا متعددة لتلاميذه تتناول كافة الجوانب المتعلقة بشخصية الإنسان المسلم.

و منها وصيته لولده موسى الكاظم: «يا بني اقبل وصيتي، و احفظ مقالتي، فإنك إن حفظتها تعش سعيدا، و تمت حميدا.

يا بني: إنه من رضي بما قسم له استغنى، و من مد عينه إلى ما في يد غيره مات فقيرا، و من لم يرض بما قسم الله عزّ و جلّ اتهم الله في قضائه، و من استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، و من استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه... قل الحق لك أو عليك تستشار من بين أقرانك»(3).

و ليس من الغريب أن نرى كثيرا من علماء الأمة يهتمون فرصة الاتصال بالإمام و يطلبون منه أن يزودهم بوصاياه؛ لأنّهم يجدون فيها توجيهها للخير و السعادة، فهذا سفيان الثوري و هو من علماء الأمة يتردد على الإمام و يطلب منه أن يوصيه ما ينفعه.

فقال الإمام: «يا سفيان لا مروءة لكذوب، و لا راحة لحسود، و لا سوؤد لسيئ الخلق و لا خلّة لبخيل و لا إخاء لملول»، قال: زدني، فأضاف الإمام قائلا: «كفّ عن محارم الله تكن عابدا، و ارض بما قسم الله تكن غنيا و شاور في أمورك الذين يخشون الله تعالى»، ثم قال: زدني فقال الإمام: «يا سفيان من أراد عزّا بلا عشيرة و هيبة بلا سلطان، فليخرج من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة...»(4).

ص: 129

1- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لجنة التأليف و الترجمة، القاهرة، 1957، ج 1، ص 316.

2- أحمد شلبي، التربية الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، 1978، ص 374.

3- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 263.

4- أبو سعد السمعاني، الأنساب، ج 3، مرجع سابق، ص 507.

من الطرق التي سلكها الإمام جعفر في التربية والتعليم الأدعية التي اعتمدها قبله جدّه الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين في تربية الأمة. وقد كان لها بالغ الأثر وعظيم المنفعة في حياة المسلمين. فعبر التوجه المستمر و الانقطاع الكامل إلى الله تصيح النفس الإنسانية أكثر قدرة على تذويب السلبات وعلى تقبّل الفضائل والخصال الحسنة.

وها هي أدعية الإمام الصادق مدرسة قائمة بنفسها يتخرّج منها الداعي وقد ملئ علما وورعا، وعند ما يتأمل ما ورد عنه من مناجاة يكتشف فيها المعاني الفكرية والتربوية التي تشدّ الإنسان إلى اكتساب الفضائل وتجعله قريبا من ذاته قادرا على إرغامها باتجاه معاكس للهوى والشهوات، وفيما يلي نشير إلى أهم هذه المفاهيم:

- تعريف العقيدة وعرض مفاهيمها وتركيز مبادئها في النفوس كتعريف الله تعالى بصفاته وعظمته وشدّ المسلم بكل وجوده وجوارحه إلى الله سبحانه كما ورد في دعائه:

«يا من يرحم من لا يرحمه العباد ويا من يقبل من لا تقبله البلاد، ويا من لا يحتقر أهل الحاجة إليه، ويا من لا يخيب الملحين عليه فلك العلو الأعلى فوق كل عال والجلال الأمجد فوق كل جلال»(1).

- توجيه الناس إلى حبّ الله تعالى بتوكيد النظر في نعم الله وآلائه وتوكيد حمده وشكره له. وقد تمثل هذا في أحد أدعيته:

«... يا رب كم من نعمة بها عليّ، قلّ عندها شكري،... فيا من قلّ عند نعمته شكري فلم يحرمني... يا ذا المعروف الذي لا ينقضي معرفته أبداً، ويا ذا النعماء التي لا تحصى عدداً... يا سيدي ما اهتديت إلا بك، ولا علمت إلا بك، ولا أقصد ولا أرجو غيرك...»(2).

- تنمية الإحساس بالخطأ والاعتراف بالذنب مع توفير جوّ يشعر بالراحة والتخلّص من التبعات بالاستغفار إلى الله، كدعائه قائلاً:

«سائل ببابك، مضت أيامه، وبقيت آثامه، وانقضت شهوته وبقيت تبعته، فارض عنه وإن لم ترض عنه فاعف عنه، فقد يعفو السيد عن عبده وهو غير راض عنه»(3).

ص: 130

1- محمد باقر شريف القرشي، الصحيفة الصادقية، دار الأضواء، 1993، ص 97.

2- المصدر نفسه، ص 248 و 267.

3- المصدر نفسه، ص 266.

- تربية الأخلاق و تقويم السلوك و تنمية مشاعر الخير في النفس الإنسانية كما يدعو ربه بقوله:

«اللهم إني أعوذ بك من الكسل و الهمّ و الجبن و البخل و القسوة... اللهم ارزقني مواساة من قترت عليه رزقه بما وسّعت عليّ من فضلك»(1).

- بعث السكينة و الاطمئنان و الثقة في نفس الإنسان بأنّ الله تعالى يستمع إليه إذا شكّا، و يمدّه إذا ضعف، و يعينه إذا احتاج، فيدعوه:

«كم من كرب يضعف عنه الفؤاد و تقلّ فيه الحيلة و يشمت به العدو و تعيني فيه الأمور أنزلته بك و شكوته إليك، راغباً فيه عمن سواك ففرجته و كشفته...»(2).

و هكذا استخدم الإمام هذه الطريقة لكي تصفي جواً مناسباً على عملية التوجيه توصل في الإنسان معاني الخير و الصلاح، و التي لم تتوفر في النظريات التربوية المعاصرة التي استنتجها علماء النفس.9.

ص: 131

1- أبو نعيم، حلية الأولياء، ج 2، ص 79.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 2، ص 579.

الفصل الثاني التربية العقدية و العبادية في مدرسة الإمام الصادق

إشارة

المبحث الأول: البناء العقدي

المبحث الثاني: البناء العبادي

ص: 133

حينما نتحدث عن الفكر التربوي الإسلامي لا بد أن نركّز على العقيدة الإسلامية والعمل بها.

فأهمية الأساس العقدي في التربية تأتي من ارتباط هذا الأساس القوي بكل شؤون الحياة، لما لها من سلطان على النفس والفكر والإرادة الإنسانية.

كما أن الأساس العبادي في التربية يعمل على تقوية صلة العبد باللّٰه و من خلال الشعائر و العبادات، فالعقيدة تمثل الجانب النظري من الدين وقد اضطلعت بمهمة ضبط المسار الفكري للإنسان، أما العبادة فهي تمثل الجانب التطبيقي وهي تعنى بالمسار العملي في الحياة.

فهما متلازمان، بحيث لا تفصل الأولى عن الثانية.

فبقدر ما يكون هذان الأساسان متينين تكون الأمة قوية متماسكة ملتزمة بالسلوك الإسلامي، وهذا المفهوم السليم يتجلى في تربية الإمام الصادق، فهي تشمل الإيمان والعمل، و تربط كلاّ منهما بالآخر ارتباطاً عضوياً مؤكداً أنّ العمل ليس إلا تجسيدا للإيمان و انعكاساً له.

وقد استهدف أبو عبد الله في منهجه التربوي، ربط الإنسان برّبّه الإله الواحد، عقلاً وقلبا؛ لأنّه يرى أن رسوخ العقيدة باللّٰه في النفوس، تسرع بها إلى العمل بأوامره و الابتعاد عن نواهيه.

من هنا فقد أولى التربية العقديّة اهتماماً كبيراً في مدرسته، و بجهدّه المتواصل كان يراقب الناس في أفكارهم و عقائدهم ليصونهم تجاه التيارات المنحرفة و الخاطئة، ثم يسعى إلى تسليح المجتمع عبادياً و روحياً من خلال تنشئة أفرادهم على أداء الفرائض و الشعائر و الذكر و الدعاء...

و بكل هذا يرمي إلى بناء القواعد المؤمنة الواعية المتزوّدة بالعقيدة الصحيحة و صفاء الروح و العمل الصالح.

وفيما يلي نشير إلى أهم جهود الإمام في هذا الصدد.

- العقيدة وأهميتها

- موقع العقيدة الإسلامية في فكر الإمام التربوي

- تكوين العقيدة الصحيحة في منهج الإمام التربوي

- تحصين الأمة من التيارات المنحرفة والخاطئة

ص: 137

أصل العقيدة في اللغة من «عقد: نقيض الحلّ، نقول: عقد الحبل أي شدّه، وعقد البيع إذا أمضاه وثقه، وعقدة اللسان ما غلظ منه، وعقدة كل شيء إبرامه وعقد قلبه على شيء: لزمه وتعقد الإخاء: استحكم»⁽¹⁾.

وفي الاصطلاح هي «ما انعقدت قلوبنا وعقولنا على معرفته معرفة غير قابلة للتشكيك، وما انعقدت عواطفنا عليه انعقادا يصرف أفعالنا و حركاتنا، وحبنا و بغضنا، بطريقة شعورية أو بطريقة لا شعورية، فمتى بلغ شعورنا بالشيء إلى حد أصبح يحرك عواطفنا ويوجه سلوكنا حمل اسم عقيدة»⁽²⁾.

وفي تعريف آخر: «هي الأمور التي يصدق بها قلبك، و تطمئن إليها نفسك، و تكون يقينا عندك، لا يمازجه ريب و لا يخالطه شك»⁽³⁾.

فإنّ العقيدة تكون الأساس المطلق للإرادة و الرغبات الإنسانية على اختلافها و ترتبط ارتباطا وثيقا بالسلوك «فسلوك الإنسان و تصرفاته في الحياة مظهر من مظاهر عقيدته فإذا صلحت العقيدة صلح السلوك و استقام و إذا فسدت فسدت و اعوج»⁽⁴⁾.

و لا ضمان لصلاح العقيدة إلا بعقد الصلة و تقويتها بين الإنسان و خالقه عزّ و جلّ.

إنّ العقيدة الصحيحة هي الموجهة لرسالة الإنسان في هذه الحياة، فالإيمان ثمرة من ثمرات البناء العقدي و ناتج مرغوب للجهود التربوية التي قام بها أنبياء الله و رسله عبر تاريخ الإنسانية الطويل.

ص: 139

1- ابن منظور، لسان العرب، ج 3، مادة عقد، ص 309.

2- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، 1988، ص 32.

3- عثمان جمعة ضميرية، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، 1996، ص 330.

4- سيد سابق، العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي، مصر، 1968، ص 309.

وإذا تأملنا آيات القرآن نجد أنّ الرسل والأنبياء يعنون عناية كبيرة بسلامة عقيدة أبنائهم، فمن ذلك: وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (1).

وهذا الإيمان هو الركن الأساس الذي بدأ الإسلام به في تكوين شخصية المسلم، والإنسان الذي يسلك في هذه الحياة ولديه المعتقد الديني الصحيح، يكون إنساناً سويّاً يتمتع بوعي وبصيرة وسعة في الأفق وطمأنينة في القلب.2.

ص: 140

1- سورة البقرة، الآية 132.

يبدأ الإمام الصادق رسالته التربوية من تكوين العقيدة السليمة ووجوب تعليمها، فهو يرى أن غرس مفاهيم الإيمان بالله وعقيدة التوحيد في النفوس هو أمثل طريقة لإيجاد عناصر صالحة تستطيع أن تقوم بدورها كاملاً في الحياة.

و ممّا حفظ عنه من ضرورة تعلّم الإنسان في مجال العقيدة قوله: «وجدت علم الناس كلهم في أربعة: أولها: أن تعرف ربك والثاني: أن تعرف ما صنع بك والثالث:

أن تعرف ما أراد منك والرابع: أن تعرف ما يخرجك عن دينك»(1).

هذه أقسام تحيط بالمفروض من المعارف: لأنه «أول ما يجب على العبد معرفة ربه جل جلاله فإذا علم أن له إلهاً وجب أن يعرف صنيعه إليه، فإذا عرف صنيعه إليه، عرف به نعمته، فإذا عرف نعمته وجب عليه شكره، فإذا أراد تأدية شكره وجب عليه معرفة مراده ليطيعه بفعله، وإذا وجبت عليه طاعته وجبت عليه معرفة ما يخرج عن دينه ليجتنبه، فيخلص به طاعة ربه وشكر إنعامه»(2).

فترى الإمام يبين أن الإيمان بالله والتعرف إليه ليس مجرد كلام، بل هو سلوك وتقوى، وتجنب الذنوب والتمسك بما يحب الله تعالى، و شكره واستغفاره.

فإذا «عرف الإنسان ربه، وقوى صلته به، فإن هذه المعرفة، بفاطر السموات والأرض ستثمر ثماراً طيبة، وستترك في النفس آثاراً طيبة، و بالتالي ستوجه السلوك نحو الخير والحق، وهو ما يحبه الله عزّ وجلّ ويرضاه»(3).

و من هنا دعا الصادق تلاميذه إلى معرفة الله كأساس البناء العقدي للفرد المسلم وكشف لهم عن جليل آثارها فقال: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عزّ وجلّ ما

ص: 141

1- الطوسي، الأمالي، ص 651، ح 1351.

2- محمد بن نعمان المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، دار مفيد، طهران ج 2 ص 203.

3- محمد تيسير سليمان العلي، الصلة بالله و أثرها في تربية النفس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997، ص 45.

مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة هذه الحياة الدنيا و نعيمها، و كانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤونه بأرجلهم، و لنعموا بمعرفة الله عزّ و جلّ و تلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله، إنّ معرفة الله أنس من كل وحشة، و صاحب من كل وحدة، و نور من كل ظلمة، و قوة من كل ضعف، و شفاء من كل سقم»(1).

و إذا تأملنا تعاليم مدرسة الإمام التي تتناول موضوع العقيدة نجد أنّ الإمام يركّز تربيته العقديّة على أساس إيجاد الوعي و البصيرة في الأمة اعتماداً على كتاب الله.

فالعقيدة عند ما تستند إلى العلم و الإدراك و الاستدلال و القناعة التامة تتأصل في النفوس و لا تزول من القلوب فقال الإمام: «من عرف دينه من كتاب الله زالت الجبال قبل أن يزول و من دخل في أمر بجهل خرج منه بجهل»(2).

على هذا الأساس يبني الإمام تربيته على محورين:

الأول: تكوين العقيدة الصحيحة.

الثاني: تحصين الأمة عن التيارات المنحرفة و الخاطئة.3.

ص: 142

1- الكليني، فروع الكافي، ج 8، ص 247، ح 347.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 23، ص 103.

احتل الجانب التربوي العقديّ مساحة كبيرة من اهتمامات الإمام الصادق، فهي بالنسبة له، الوسيلة الفاعلة التي تدفع الإنسان لحمل رسالته على الأرض، ذلك لأن «تهذيب سلوك الأفراد عن طريق غرس العقيدة الدينية هو أسلوب من أعظم الأساليب التربوية»⁽¹⁾.

وهذا الأساس يقوم على مرتكزات ودعائم، سماها العلماء أركان الإيمان أي ما عليها يقوم كيان المسلم الإيمان، وهذه الأركان جاءت صريحة في حديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و تؤمن بالقدر خيره و شره»⁽²⁾.

و عند التأمل في النصوص الواردة عن الإمام يظهر لنا أنّه بذل جهداً واسعاً في ترسيخ هذه الأركان التي تتمثل في الأمور التالية:

- المعرفة بالله عزّ و جلّ و بأسمائه الحسنى، و صفاته العليا، و المعرفة بدلائل وجوده، و مظاهر عظمته في الكون.

- المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة، و ما فيه من قوى الخير التي تتمثل في الملائكة.

- المعرفة بكتب الله تعالى التي أنزلها لتحديد معالم الحق و الباطل.

- المعرفة بأنبياء الله تعالى و رسله عليهم الصلاة و السّلام، الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى و قادة الخلق إلى الحق.

- المعرفة باليوم الآخر، و ما فيه من بعث و جزاء، و ثواب و عقاب، و جنة و نار.

- المعرفة بالقدر الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق و التدبير.

فإن «كلّ ركن من هذه الأركان ذو صلة وثيقة بسائرهما بحيث تكون في النهاية كلاً متكاملًا، يؤثر بمجموعة المترابط في حياة الإنسان»⁽³⁾.

ص: 143

1- سيد سابق، العقائد الإسلامية، مرجع سابق، ص 10.

2- أخرجه مسلم في صحيحه، ج 7.

3- محمد قطب، ركائز الإيمان، دار الشروق، بيروت، 2001، ص 429.

فيستَمي الفرد مؤمنا حين يؤمن بهذه الأمور كلها إيمانا راسخا خالصا، وفيما يلي نستعرض الاتجاهات الرئيسة في فكر الإمام جعفر لتكوين هذه العقيدة الصحيحة و تأصيلها في نفوس الناس.

أ - معرفة الله و توحيدة:

إشارة

لقد استهدف الإمام جعفر غرس الإيمان بالله و توحيدة في نفوس تلاميذه، ذلك لأن «معرفة الله هي أساس البناء التربوي الأصيل و مرتكز غذاء الروح و صفاء الفطرة الإنسانية»⁽¹⁾.

فيرى الإمام أن أشرف أنواع العلوم بل أفضل الفرائض هو المعرفة بالله و صفاته و الإقرار بها فيقول: «إن أفضل الفرائض و أوجبها على الإنسان معرفة الرب و الإقرار له بالربوبية»⁽²⁾.

و عند ما سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «توحيدك لربك»⁽³⁾.

فقام أبو عبد الله بتعميق الوازع الديني في نفوس المتعلمين عن طريق تبين هذه المعرفة الشريفة و ترسيخها، باستخدام الأدلة الفطرية و الحسية و العقلية، و تعريف الله بصفاته و أسمائه - حسب مستويات الناس - حتى يستطيع الفرد المسلم أن يظل صامدا أمام الغشاوات التي تتعرض لها مرآة النفس من ظلمات الشهوات و الغرائز المنحرفة، و كذلك تجاه الشبهات و التيارات التي تواجهه في الحياة.

و إليكم أهم هذه البراهين و هي كما يلي:

دلالة فطرية:

إن الفطرة الإنسانية هي «الخلقة التي خلق الله عليها الإنسان أول ميلاده قبل أن يتغير صفوها بفعل شياطين الإنس و الجن»⁽⁴⁾.

وقد فطر الله تبارك و تعالى الإنسان على معرفته و الإيمان به و أصبح هذا الإيمان جزءا من ماهيته لا يستطيع الانفكاك منه، و هذا المعنى أكده الله تعالى بقوله:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (5).

ص: 144

1- علي خميس الغامدي، الإنسان الصالح و تربيته من منظور إسلامي، مرجع سابق، ص 61.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 4، ص 55.

3- الطوسي، الأمالي، ص 687، ح 1458.

4- نبيل عبد اللطيف، الإنسان كما فطره الله، الهيئة المصرية للكتاب، 2000، ص 18.

و عند ما سئل الإمام الصادق عن معنى هذه الآية الشريفة قال: «فطرهم جميعاً على التوحيد»(1).

وفي هذا الكلام تأكيد على أنّ الفطرة ليست غرساً من غراس البشر يغرسه المربون في نفوس وقلوب الأجيال وإتّما هو غرس ربّاني جبلي يملكه كل إنسان من غير تربية و من غير تعليم، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(2).

أي إن الإقرار بوجود الله مركوز في جبلّة الإنسان و كيانه، فيكون دور المربين هو تعهد الفطرة و المحافظة على سلامتها و خيريتها.

و من هذا المنطلق، اهتم الإمام الصادق بإحياء بذور الفطرة في الناس و لفت الأنظار إلى أن هناك معرفة فطرية عامة لا يفقدها أحد، سواء فيها العالم و الجاهل، و المؤمن و الكافر، فوصف الله بأنّه تعالى «معروف عند كل جاهل»(3).

و مما يدل على هذه المعرفة الفطرية بوجوده سبحانه أن الإنسان عند مواجهته للحوادث المهيبة، و يأسه من الأسباب المعروفة عنده، يوقن أن هناك خالقاً عظيماً يقدر على نجاته لو شاء، فاستشهد به الإمام حين سأله رجل: ما الدليل على الله؟ و لا تذكر لي العالم و العرض و الجوهر؟ فقال له: هل ركبت البحر؟

قال: نعم. قال: هل عصفت بكم الرياح حتى خفتم الغرق؟ قال: نعم.

قال: فهل انقطع رجاؤك من المركب و الملاحين؟ قال: نعم.

قال: فهل تتبعت نفسك أن تم من ينجيك؟ قال: نعم.

قال: فإن ذلك هو الله. قال الله تعالى: ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ(4).

فقد ذكّر الصادق السائل بالميثاق المعهود بين فطرة البشر و خالق البشر الذي يظهر في حالة الشدّة في صورة الالتجاء إلى الله تعالى.

و يشير بأنّ الإنسان في مثل هذا المأزق الحرج يجد نفسه تتعلّق بقوة غيبية عليا، يؤمن بأنّها أقوى قوة في الوجود و بأنّها قادرة على أن تخلّصه من هذه الشدة، فيلجأ إليها و يطلب منها النجاة، و «هذا الاندفاع الفطري للتعلّق بالله تعالى و الإيمان بقدرته3.

ص: 145

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب فطرة الخلق، ح 3.

2- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، ح 2658.

3- الصدوق، التوحيد، ص 58.

4- سورة النحل، الآية 53، الزمخشري، ربيع الأبرار و نصوص الأخبار، مطبعة العاني، بغداد، ج 1، ص 663.

على النجاة من الشدائد هو دليل على وجود الله و هو ما يسمى بفطرة التدين»(1).

وعلى الرغم من أن الإنسان مفطور على الإيمان بالله، لم تكن هذه الفطرة جبرا لازما، إذ مكّنه الله من حرية الاختيار ما بين الكفر و الإيمان و هذا جلّي في قول الإمام عند ما سئل:

«من خلقه الله كافرا أ يستطيع الإيمان، و له عليه بتركه الإيمان حجة؟»

قال: «إن الله خلق خلقه جميعا مسلمين، أمرهم و نهاهم، و الكفر اسم يلحق الفعل حين يفعله العبد... فعرض عليه الحق فجدده فيإنكاره الحق صار كافرا»(2).

فقد صرّح الإمام بأن الله تعالى خلق عباده على فطرة التوحيد، و أمرهم بما يقربهم إليه زلفى، و قد اختارت شرائع من الخلق الكفر و الإلحاد و جحدوا الحق، و ذلك بإرادتهم و اختيارهم.

و هكذا عقيدة التوحيد في مدرسة الصادق أمر مركز في طبيعة الإنسان و فطرته، و قد تحجبها الغفلة و البيئة و التقليد أحيانا، و لكنّ الإمام يرى بأن جذور هذه المعرفة عميقة في النفس، فلذا يحاول أن يردّ كل فرد إلى فطرته السليمة حتى يعرف ربّه من تلقاء نفسه.

دلالة حسية:

أعمق المعرفة بالله تعالى هي الحاصلة من النظر في الآفاق و الأنفس، و هو ما حصّ عليه القرآن الكريم و منه قوله سبحانه: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (3).

و «كان بالإمكان لهذا الاتجاه الحسي في البحث عن نظام الكون أن يقدم دعما باهرا للإيمان بالله سبحانه و تعالى بسبب ما يكشفه من ألوان الاتساق و دلائل الحكمة التي تشير إلى الصانع الحكيم»(4).

و لم يغفل الإمام المربّي عن الملاحظة و النظر في هذه الآيات الدالّة على القدرة الإلهية فقال: «و من صلاح دينه - الإنسان - معرفة الخالق بالدلائل و الشواهد القائمة في الخلق»(5).

و قد ينقل المتعلمين من عالم الآفاق إلى عالم الإنسان الذي يرى في صنعه

ص: 146

1- عبد الهادي الفضلي، التربية الدينية، دار المعارف للمطبوعات، بيروت، د. ت، ص 12

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ج 5، ص 19.

3- سورة فصلت، جزء من الآية 53.

4- محمد باقر الصدر، موجز في أصول الدين، مطبعة شريعة، 2001، ص 125.

5- كاظم مظفر، توحيد المفضل، ص 40.

عجائب، فقال: «و العجب من مخلوق يزعم أن الله يخفى على عباده و هو يرى أثر الصنع في نفسه»(1).

و هو يبيّن الطريق الموصلة إلى معرفة الله سبحانه بدلالات حسية تقود إلى الإيمان به وحده فيستدلّ باستقامة النظام الكوني و وحدته على وجود الله و توحيده قائلًا:

«و لعمرى لو تفكروا في هذه الأمور العظام لعينوا من أمر التركيب البين و لطف التدبير الظاهر و وجود الأشياء مخلوقة بعد أن لم تكن، ثم تحولها من طبيعة إلى طبيعة و صنعة بعد صنعة ما يدلهم على الصانع، فإنه لا يخلو شيء منها من أثر تدبير و تركيب يدل على أن له خالقًا مدبرًا و تأليف بتدبير يهدي إلى واحد حكيم»(2).

فالصادق يعتمد في كلامه على عنصري الملاحظة و التفكير، و هذه الطريقة من المحسوس إلى المعقول هي طريقة القرآن الكريم في الوصول إلى الحقيقة.

و بما أن الإيمان يزيد برؤية آيات الله في إبداع مخلوقاته و جميل صنعه، ينبّه الإمام الأفراد إلى الدقّة و التأمل فيما حولهم من ظواهر و مخلوقات و يشرح لهم عجائب الصنع الإلهي و لطائف التدبير فيها، ليضع منظارًا إيمانًا أمام أعين المتعلمين بحيث يستطيعون رؤية الله و عظمتهم في كل شيء، كما روي أن رجلا جاء إلى الإمام فقال: يا جعفر بن محمد دلني على معبودي. فقال له أبو عبد الله: اجلس. و إذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها.

فقال له أبو عبد الله: «ناولني يا غلام البيضة. فناوله إياها، فقال له أبو عبد الله: هذا حصن مكنون له جلد غليظ و تحت الجلد الغليظ جلد رقيق، و تحت الجلد الرقيق ذهب مائعة، و فضة ذائبة، فلا الذهب المائعة تختلط بالفضة الذائبة، و لا الفضة الذائبة تختلط بالذهب المائعة، فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها، و لا دخل فيها مفسد، فيخبر عن فسادها، لا يدري للذكر خلقت أم للأُنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس أ ترى لها مدبرًا؟»(3)

و هكذا يوجّه الإمام نظر من يريد تربيتهم إلى جمال الإبداع الإلهي، و يفتح بصائرهم على القدرة المعجزة و الخلائق العجيبة من الصانع الحكيم، و ذلك حسب مراحل نموهم و مداركهم و مستوى ثقافتهم و تعليمهم.

فما يملك القلب إزاء ذلك إلا أن يخشع و يهتّر لعظمة الله، و ما تملك النفس تجاه هذا إلا روح الخشوع و العبودية لربّ العالمين.4.

ص: 147

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 152.

2- المصدر نفسه و المكان نفسه

3- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب التوحيد، ح 4.

لئن كان وجود الخالق من الأمور البديهية المركوزة في فطرة الإنسان منذ نشأته الأولى، إلا أن الصادق يرى أن يستخدم بعض البراهين النظرية العقلية كوسيلة للتعرف على صدق هذا الإحساس الفطري، لإزالة ما يمكن أن يعرض للنفس من الشكوك والشبهات.

فحرص على تأصيل معرفة الله وتوحيده، على أساس العلم والبصيرة والوعي، فسلك في تعاليمه مسلك القرآن العقلي واستدل بالأدلة الحاسمة ردًا لكل أنواع الإنكار أو الشك أو الظن.

ذلك لأن «العقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولم يكن الشعاع ما لم يكن بصر»⁽¹⁾ واليقين بالمعرفة الناتجة عن العقل وأدواته أول نصير للعقيدة الإسلامية.

وهذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «فبالعقل عرف العباد خالقهم وأنهم مخلوقون، وأنه المدبر لهم وأنهم المدبرون، وأنه الباقي وهم الفانون»⁽²⁾.

فقد اعتبر الصادق العقل أداة من أدوات المعرفة وأنه مكلف بالتعرف على خالقه.

وعند ما سئل ما الدليل على أن لك صانعا؟ يخاطب عقل السائل ويوجهه إلى معرفة الصانع عبر سبر الحالات الممكنة العقلية. وهذا ما نصه:

قال: «وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إما أكون صنعتها أنا، أو صنعتها غيري. فإن كنت صنعتها، فلا أخلو من أحد معنيين، إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة فقد استغنت بوجودها عن صنعتها، وإن كانت معدومة، فإنك تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئا، فقد ثبت المعنى الثالث أن لي صانعا وهو رب العالمين»⁽³⁾.

فقد زحرت تعاليم الصادق بكثير من هذه الأدلة القائمة على العقل والتفكير الموضوعي، لإقامة الحجة على الناس.

وقد يشير إلى التغيير المستمر في هذا الكون الفسيح، وبما أن «التغير لا ينفك عقلا عن معنى الحدوث»⁽⁴⁾، يستدل الإمام به على وجود الخالق العظيم فيقول ما نصه:

ص: 148

1- محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، دار السلام، القاهرة، 1998، ص 28 نقلا عن الراغب الأصفهاني.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب العقل والجهل، ح 34.

3- عبد القادر محمود، رائد السنة والشريعة، مرجع سابق، ص 47.

4- الحبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ص 139.

«إن الأشياء تدل على حدوثها، من دوران الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاك، وتحرك الأرض و من عليها، وانقلاب الأزمنة، واختلاف الوقت، و الحوادث التي تحدث في العالم: من زيادة، و نقصان، و موت، بأن لها صنعا و مدبرا، ألا ترى الحلو يصير حامضا، و العذب مرًا، و الجديد باليا، و كل إلى تغير و فناء»(1).

هذا الكلام يبيّن أن كلّ هذه التغييرات الكونية لا بدّ لها قطعاً من سبب حقيقي كامل القدرة، ينتهي إليه معنى الخلق و الإبداع.

و قد يحتجّ الإمام بدليل التسخير و الاضطراب، فيرى بأنّ كل مضطر مخلوق و لا بدّ له من مدبّر فقال: «أما ترى الشمس و القمر و الليل و النهار يلجان فلا يشتبهان، و يرجعان، قد اضطرا، ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعان؟ و إن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً، أو النهار ليلاً؟! اضطرا إلى دوامهما، و الذي اضطرها أحكم منهما و أكبر.

إن الذي تذهبون إليه، و تظنون أنه الدهر، إن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم، و إن كان يردهم لم لا يذهب بهم؟ لم السماء مرفوعة و الأرض موضوعة؟

لم لا تسقط السماء، على الأرض، لم لا تنحدر الأرض فوق أطرافها، و لا يتماسكان و لا يتماسك من عليها؟»(2)

كما يستدل الصادق على وجود صانع الكون و مدبره بسمات الافتقار و الحاجة في الموجودات. فكون الإنسان و غيره من الأشياء فقيراً و محتاجاً ذاتياً دليل واضح على أنه معلول و مخلوق.

و قد نراه يأتي بأوجز بيان في البرهان مع الوفاء بالقصد، و ذلك حين يسأل عن الدليل على الواحد فيقول: «ما بالخلق من حاجة»(3).

فإننا نجد الناس في حاجة مستمرة في كل شأن من شؤون الحياة، و هذه الحاجة تدل على وجود مآل لهم في حوائجهم إلى غني عنهم بذاته.

و بما أن التوحيد هو الأصل الأصيل الذي تقوم عليه المعرفة الدينية فقد بذل الإمام جهده طوال حياته في تثبيت أركان هذا المعتقد العقلي و الديني و منها ما احتجّ على الزنديق الذي ادّعى اثنين فقال:

«لا يخلو قولك: إنهما اثنان، من أن يكونا قديمين قويين، أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قوياً و الآخر ضعيفاً، فإن كانا قويين لم لا يدفع كل واحد منهما7.

ص: 149

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 10، ص 166.

2- الصدوق، التوحيد، ص 295.

3- الحراني، تحف العقول، ص 377.

صاحبه و يتفرد بالتدبير؟ وإن زعمت أن أحدهما قوي و الآخر ضعيف، ثبت أنه واحد كما نقول، للعجز في الثاني»(1).

و ليست هذه الأدلة كلها إلا لتزويد الناس بالبراهين المقنعة التي تقوي جانب العقيدة و تؤدّي إلى الإيمان الراسخ و الثابت لهم، و صحيح أن الصادق لم يعرض أدلته بالأسلوب المعقّد الذي نجده في الكتب الفلسفية و الكلامية و هذا يزيد من قيمة طريقته التي اتخذها من المنهج القرآني، فهو يستخدم الأدلة القائمة على التفكير الفطريّ الذي لا يعتريه ريب و لا يداخله شك، و يراعي مستوى عقل السائل و ثقافته ثم يختار له الإجابة الواضحة و السهلة و التي تكون أكثر ملائمة لفكرة المخاطب.

تعريف الله بأسمائه و صفاته:

إن أسماء الله الحسنی هي الوسيلة التي تعرّف الله بها إلى خلقه، و هي النوافذ التي تفتح أمام الإنسان آفاقا فسيحة تشهد فيها أنوار الله و جلاله. و المنهج المعرفي الذي سلكه الإمام الصادق في التعرف على الله لا يقتصر على التدليل لوجود الخالق فحسب، بل يتعداه إلى تبين أسماء الله و صفاته العليا للناس.

ذلك لأنّ الإنسان يقيم علاقاته مع الله من خلال هذه الصفات، و يدعوه و يتضرّع إليه في إطار معرفته له.

و على ضوء هذا التصور نرى أن الإمام جعفرًا يستغلّ أيّ فرصة - و لو بلسان الدعاء - لتعليم صفات الباري لتلاميذه و رفع مستواهم في معرفة الله.

كما جاء في دعائه المنثور: «يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله و من لم يعرفه تحننا منه و رحمة»(2).

نستشف مما ورد في هذا الدعاء مدى سعة رحمة الله بعباده و محبته لهم، و مدى مغفرته لذنوبهم و عفوه عن معصياتهم، حتى عن أولئك الذين لا يعبدونه حق عبادته، و لا يسألونه عطاء و لا يعترفون بحميلة، و هذا ما يدعو إلى مزيد تعلق بالخالق المنان، و إلى مزيد من المحبة و الامتنان لعطاياه.

إنّ العقيدة الإسلامية تتميز بالحيويّة «فهي تصفي على الخالق صفات تجعله قريبا من الإنسان أو معه بحيث يراه في كلّ لحظة يراقب تصرفاته و يحاسبه عليها و يكافئه»(3).

ص: 150

1- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب التوحيد، ح 5.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 47، ص 36.

3- محفوظ علي عزام، الأساس العقائدي للتربية، المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية، جمعيات الشبان، القاهرة، 1987، ص

هذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «كيف يكون غائبا من هو مع خلقه شاهد و هو أقرب إليهم من حبل الوريد يسمع كلامهم و يعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان و لا يشغل به مكان، و لا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان، تشهد بذلك آثاره و تدل عليه أفعاله»(1).

فتأكيد الإمام على تعريف الباري تعالى بصفاته و أسمائه نابع من آثارها التربوية في الإنسان، فكلما ازدادت معرفة الفرد بهذه الصفات ازداد حبا لله و ذكرا و خشوعا له، من هنا نجد كثيرا من المواقف التي يلفت الإمام أنظار الناس إلى معرفة حقيقية لله تعالى و منها كلامه: «يا من يشكر اليسير و يعفو عن كثير و هو الغفور الرحيم»(2).

هذه الصفة الإلهية التي يريد الإمام تعميقها في النفوس، توحى بأن الله تبارك و تعالى يتقبل القليل من الطاعة و يعطي الكثير من الثواب، فهذه المعرفة تعدّ دافعا قويا للتوجه إلى العمل الصالح و الإحسان.

و كذلك لم يغفل الإمام عن الصفات التي تترك انعكاساتها المباشرة على سلوك الفرد و منهجية حياته و منها وصف الباري بالسميع و البصير الذي ورد في كثير من الآيات القرآنية فقال الصادق: «من علم أن الله يراه و يسمع ما يقول و يعلم ما يعمل من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى»(3).

فهاتان الصفتان - السميع و البصير - تلقيان في قلوب المؤمنين السكينة من حيث كون يد العناية و الحماية الإلهية معهم في كل حال، و من جهة أخرى فإنهما تنطويان على تحذير خفي للمؤمنين ليراقبوا أقوالهم و أعمالهم؛ لأن الله محيط بها علما.

و هكذا يرى الإمام لأسماء الله الحسنى و صفاته طابعا عقديا، فيرى بها تكميل المعارف الإلهية عند أبناء المجتمع، إلى جانب أثرها التربوي في تكامل النفوس الإنسانية من روح مراقبة الله و حبه.

فهو لم يكتف بإيجاد القناعة الإيمانية في العقل فحسب، بل يغذيها برعاية العواطف و مشاعر الحبّ و الخوف و الإجلال عن طريق تعريف الله بصفاته و أسمائه، ذلك لأنّ الإيمان بالله لا يستقرّ و يثبت لدى الإنسان إلاّ بقوة من دعامتي العقل و العاطفة معا.3.

ص: 151

- 1- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ح 2325.
- 2- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الدعوات، ح 28.
- 3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 11، ص 172، ح 3.

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بالملائكة، قال الله تعالى في صفة عقيدة المؤمنين:

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ (1).

إنَّ «عالم الملائكة عالم كبير واسع من الغيب الذي حجب الله عنا علمهم، وليس لنا سبيل إلى هذا العالم الواسع والعجيب إلا من خلال الوحي، وهو من الغيب الذي أمرنا الله تعالى أن نؤمن به» (2).

قال الله تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (3).

فالصادق يلقي الضوء على هذه الآية الشريفة مثبتا ضلال من يكفر بالملائكة، ويصرِّح بأن قوله تعالى «يدلُّ على وجوب الإيمان بالملائكة والرسول وأن عداوتهما كفر» (4) ذلك لأنهم يقومون بدور الوساطة والسفارة بين الله وأنبيائه، ويوحون لهم شريعة الله للناس ولهم عمل في عالم الأرواح، وعمل في عالم الطبيعة، ولهم صلة خاصة بالإنسان.

وقد أشار أبو عبد الله إلى أمر تسييح الله تعالى وتقديسه للملائكة، وقد رمى بذلك إلى زيادة معرفة الناس بحقيقتهم حتى يدركوا من الكون ما لم يدركه الغافلون وهو ما عبّر عنه بقوله:

«ما في السموات موضع قدم إلا فيها ملك يسبحه - الله - ويقدسه ولا في الأرض من شجر ولا مدر إلا وفيها ملك موكل بها يأتي الله كل يوم بعملها» (5).

وقد اقتضت حكمة الله أن يسخر الملائكة لكثير من الوظائف يقومون بها في الناس، كمراقبة أعمال البشر، ما يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (6) والمحافظة على الناس: إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (7) وقبض أرواحهم: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ (8).

وقد تحدّث الإمام عن أعمال الملائكة وعلاقتهم بالإنسان تثبتا للاعتقاد بوجودهم

ص: 152

- 1- سورة البقرة، جزء من الآية 285.
- 2- محمد مهدي الآصفي، الكلمة الطيبة في القرآن، المشرق، طهران، 2004، ص 68.
- 3- سورة البقرة، الآية 98.
- 4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 64، ص 20.
- 5- المصدر نفسه، ج 3، ص 339، ح 5.
- 6- سورة ق، الآية 18.
- 7- سورة الطارق، الآية 4.
- 8- سورة النساء، جزء من الآية 97.

و مكائنتهم، فقال: «وكلّ الله عزّ و جلّ ملائكة بالدعاء للصائمين و لم يأمرهم بالدعاء لأحد إلا استجاب لهم فيه»(1).

ج - الإيمان بالكتب السماوية:

إشارة

إنّ الإيمان بالله يقتضي الإيمان بما أنزل الله على رسله من الكتب السماوية.

ذلك لأنّ «الرسالات هي الكتب السماوية التي تضمنت رسم الله للعقائد و العبادات و أصول الحلال و الحرام، و من هنا طلب الإسلام الإيمان بالكتب سواء ما أنزل على محمد و ما أنزل على إخوانه السابقين»(2).

فيقول تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِن قَبْلُ (3).

لقد اشتركت الكتب السماوية كلّها في بيان أصول الدين كما نرى كثيرا مما أنزله الله في الكتب الأولى قد جاء في القرآن بالتصريح أو من غير تصريح.

وقد أشار الصادق إلى هذا الأمر بقوله: «إنّ الله تبارك و تعالى أعطى محمدا شرائع نوح و إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السّلام: التوحيد و الإخلاص، و خلع الأنداد و الفطرة الحنيفية السمحة...»(4).

و القرآن آخر الكتب السماوية أنزله الله على خاتم أنبيائه و رسله و اقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشامل الكامل ما سبقه من الكتب جميعا و يهيمن عليها. و قد تكفل الله بحفظه من أي تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقص. «فوجود الكتاب الرباني في الأمة من بعد الرسول بمثابة استمرار الرسول نفسه فيهم، من حيث التعرف على أصول الدين و أحكام الشريعة، و سائر مواعظها و آدابها»(5).

فقد وجّه أبو عبد الله الأمة الإسلامية إلى دور القرآن و حقيقته و أهميته، فقال ما نصّه: «لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه، و لكنّهم لم يبصروه»(6).

وقوله: «القرآن عهد الله إلى خلقه، فينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده»(7).

فحصّ في كثير من تعاليمه على التمسك بالكتاب العزيز؛ لأنه هو المصدر الأول

ص: 153

1- الكليني، أصول الكافي، ج 4، كتاب الصيام، ح 10.

2- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة و شريعة، دار الشروق، بيروت، 1980، ص 40.

3- سورة النساء، جزء من الآية 136.

4- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الشرائع، ح 1.

5- الحنبكة الميداني، العقيدة الإسلامية و أسسها، مرجع سابق، ص 540.

6- الزمخشري، ربيع الأبرار، مرجع سابق، ج 2، ص 92.

7- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب قراءة القرآن، ح 1.

لتحصيل المعرفة الدينية، فهو مدرسة حيّة تنظم حياة المسلم في الدنيا كما تبين سعادته في الآخرة، وإيكم بعض تعاليمه في هذا الصدد:

التربية على التمسك بالقرآن الكريم:

إنّ القرآن هو صراط الله الذي رسمه لعباده وهو السبيل الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى الله تعالى و يتطابق بشكل دقيق مع فطرة الإنسان، فالإيمان بأنّ القرآن من عند الله هو الذي يجعله مقوماً لحياة الفرد و المجتمع.

إنّ هذا القرآن يَهْدِي لِتِي هِيَ أَقْوَمُ (1).

فعلى هذا يرى الصادق أن معرفة القرآن، هي أصل الحركة و التكامل للإنسان و أن الكمال الذي يحصل للفرد بالتفاعل مع القرآن لا يحصل له بغيره. و بالقرآن يتسنى للإنسان أن يعرف موقعه في الوجود و عوالمه و ما كان المقصود من خلقه، فيقول:

«من لم يعرف الحق من القرآن لم يتنكب الفتن» (2).

و القرآن تبيان لكل شيء يحتاجه الإنسان إليه في حياته، فشريعته «صالحة لكل زمان و مكان لما اتصفت به من مرونة و شمول، فهي تحدد الأسس و المبادئ فيما يتغير بتوالي العصور و فيما يختلف بين الشعوب» (3).

فقد أشار الإمام إلى هذه الخصوصية التي تؤدي إلى ضرورة تفاعل الناس مع القرآن في كل العصور، فعند ما سئل: ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرس إلا غضاضة؟ فقال: «لأنّ الله تبارك و تعالى لم يجعله لزمان دون زمان و لا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، و عند كل قوم غصّ إلى يوم القيامة» (4).

هذا التوجيه التربوي إضافة إلى بيان صفة الخلود للقرآن يضمن تأثيره الهائل و المتصل في النفوس. فكلمة التقى الإنسان القرآن و جلس إليه، ترك القرآن في نفسه انطبعا و أثرا جديدا غير الذي تركه في نفسه من قبل، و قام عن القرآن بفائدة جديدة، و زاده هدى على هدى كما سلب منه شكاً أو ريباً.

و في ضوء هذا يعرف الصادق كتاب الله بأنه ضابط لتمييز الحق من الباطل من الأقوال و الآراء، فيقول: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله عزّ و جلّ و لكن لا تبلغه عقول الرجال» (5).

ص: 154

1- سورة الإسراء، 9.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 242.

3- عمر أحمد عمر، فلسفة التربية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص 262.

4- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 6، مرجع سابق، ص 115.

5- الكليني، الأصول الكافي، ج 1، باب الرد إلى الكتاب و السنّة، ح 1.

فيربي تلاميذه على هذه القاعدة، ليعرفوا الصواب والخطأ من الأحاديث المنسوبة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيؤكد على أن: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»⁽¹⁾.

و الصادق يزن الحديث بالقرآن، فالصحيح ما وافقه، وغيره ما خالفه. فكان السابق إلى منهج يعد اليوم «أهم المناهج الفكرية المعاصرة ألا وهو منهج التناص أو مقارنة النص بالنص - مقارنة نص الحديث بنص القرآن - واكتشاف مدى قيمته العلمية من خلال استنطاقه في عملية التناص المذكورة»⁽²⁾. وهذا من أبرز قواعد التربية للبناء العقدي، وكان هدفه تربية عقل إسلامي يعتمد القرآن الكريم.

و لم يكتف الصادق في تعاليمه بوصف القرآن و الدعوة إلى التدبر فيه بل يؤكد على التمسك العملي به، ذلك لأنه كتاب التربية، و كل كلمة فيه هي توجيه تربوي لإنشاء الإنسان الصالح، فحَصَّ تلاميذه على الاعتبار والعمل به بقوله: «عليكم بالقرآن، فما وجدتم آية نجا بها من كان قبلكم، فاعملوا به، و ما وجدتموه هلك من كان قبلكم فاجتنبوه»⁽³⁾.

و عند ما لبي الصادق نداء جده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الصدد⁽⁴⁾، فإنه كان يدرك خطورة النصوص المخالفة للقرآن الكريم، تلك التي أقبل إليها المسلمون المنفتحون على الثقافات الجديدة كما هو حالنا اليوم من خلال الانفتاح المحموم الذي نعيشه على الثقافات العالمية المعاصرة التي تتعارض بمجملها مع القرآن الكريم.

د - معرفة أنبياء الله و رسله:

إشارة

إن النبوة ظاهرة ربانية تنير حياة الإنسان و تكملها، و النبي هو حامل رسالة الله إلى عباده، و هي وحدها القادرة على إنقاذهم من مهاوي الضلالة لو أخذوا بها. «و لو ترك الله سبحانه و تعالى بني آدم دون رسل يهدونهم إلى سبل الخير و الفضيلة لعاشوا حياة الغاب تتحكم فيهم شهواتهم و غرائزهم، لا يعرفون للفضائل أو الأخلاق الحميدة أو المسؤولية الاستخلافية، سبيلا»⁽⁵⁾.

من أجل ذلك أرسل إليهم الأنبياء و الرسل لهدايتهم إليه - سبحانه - و الأخذ

ص: 155

- 1- المصدر نفسه، باب الأخذ بالسنة، ح 1.
- 2- عمر بن عبد العزيز، الفكر السياسي للإمام جعفر الصادق، دار المحجة، بيروت، 1997، ص 95.
- 3- محمد بن مسعود، تفسير العياشي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1991، ج 1، ص 16، ح 6.
- 4- قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن» (المتقي الهندي، كنز العمال، ج 2، ص 289، ح 4027).
- 5- عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، مرجع سابق، ص 333.

بأيديهم إلى الطريق المستقيم. من ثم يرى الصادق أن أفضل الفرائض وأوجبها على الإنسان بعد معرفة الرب معرفة الرسل والشهادة لهم بالنبوة، فيقول: «بعث الله أنبياءه ورسله ونبه محمداً صلى الله عليه وسلم فأفضل الدين معرفة الرسل ولا يتهم» (1).

وقد اعتبر الإمام أن الاعتقاد بأنبياء الله ورسله ناتج عن الإيمان بالله ومعرفة صفاته، فعند ما يسئل من أين أثبت الأنبياء؟

قال: «إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً، لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه، فيباشروهم ويباشروه ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم و منافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم. فثبت الأمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعز وهم الأنبياء و صفوته من خلقه» (2).

لقد أمرنا الله أن نؤمن بجميع الرسل؛ لأن كل الرسالات الإلهية تتبع من مصدر واحد و تتفق في توحيد الله والأمر بعبادته وفي أسس الدين ومبادئه، قال تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا (3).

انطلاقاً من تعاليم القرآن، ينه أبو عبد الله إلى أن الإيمان بواحد من الرسل لا ينفك عن الإيمان بجميع الأنبياء الصادقين، فوجب الإيمان بهم جميعاً، ولا يصح إيمان من أنكر نبوة واحد من الرسل قائلاً: «إعلموا أنه لو أنكر رجل عيسى بن مريم وأقر لمن سواه من الرسل لم يؤمن» (4).

وقد «اقتضت حكمة الله أن يجعل الأنبياء أكمل البشر خلقاً وأفضلهم علماً وأشرفهم نسباً وأعظمهم أمانة حتى يكونوا أسوة كاملة للبشر» (5) فلذا لم يكتف أبو عبد الله بترسيخ العقيدة بالأنبياء فحسب، بل يصفهم بالخصائص التي تجعلهم أهلاً لحمل الرسالة، وذلك لغرس حبهم في النفوس والسير على نهجهم كقوله: «إن الصبر والصدق والحلم وحسن الخلق من أخلاق الأنبياء عليهم السلام» (6).

ص: 156

1- محمد كاظم قزويني، موسوعة الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 12، ص 163.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب الحجّة، ح 1.

3- سورة الشورى، الآية 13.

4- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب خصال المؤمن، ح 3.

5- محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، د. ن، مكة المكرمة، ص 40.

6- محمد حسين الطباطبائي، سنن النبي، المكتبة الإسلامية، قم، 1396، ص 59.

و كقوله: «و لا يفرض الله عزّ و جلّ على عباده طاعة من يعلم أنه يغويهم و يضلهم، و لا يختار لرسالته و لا يصطفي من عباده من يعلم أنه يكفر به، و يعبد الشيطان دونه، و لا يتخذ على خلقه حجة إلا معصوما»(1).

و بما أنّ محمدا صلّى الله عليه و سلّم خاتم الرسل و الأنبياء و امتازت رسالته بأنها أكمل الرسالات و أكثرها شمولاً فقد تركّزت جهود الإمام في تربيته الإيمانية على ضرورة اتخاذ الرسول صلّى الله عليه و سلّم قدوة و اتباع سنته، فنذكر مقتطفات منها فيما يلي:

التربية على اتخاذ الرسول صلّى الله عليه و سلّم قدوة و اتباع سنته:

إشارة

إنّ النفس البشرية عامة تحاول أن تتشبه بأقوى شخصية حولها، و ذلك لتقتدي بها و تسير على هداها، و تقلدها في كل حركاتها. و التربية الإسلامية طلبت أن يشدّ المسلم إلى شخص الرسول صلّى الله عليه و سلّم إذ هو القدوة السامية، و هو أكمل البشر على الإطلاق، و هو أفضل رسل الله أجمعين.

و على هذا الأساس دعا الإمام الصادق جميع المسلمين إلى اتباع سنة الرسول صلّى الله عليه و سلّم و اتخاذ قدوة، بقوله: «و اتبعوا آثار رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و سنته فخذوا بها، و لا تتبعوا أهواءكم و آراءكم فتضلوا، فإن أضل الناس عند الله من أتبع هواه و رأيه بغير هدى من الله»(2).

فكان يربي تلاميذه على هذا النهج، و يسعى لتوعية كل من غفل عن هذه الأسوة الحسنة، فقام بإحياء سنة جدّه في منهجه التربوي بثلاث طرق:

أولاً: بيان سيرة النبي صلّى الله عليه و سلّم و الدعوة إلى التأسّي و الاقتداء بها:

يقتضي الإيمان برسول الله صلّى الله عليه و سلّم، اتخاذ قدوة و اتباع سنته صلّى الله عليه و سلّم، «و حقا كان رسول الله صلّى الله عليه و سلّم بشخصه و شمائله و سلوكه و تعامله مع الناس ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرآن و تعاليمه و آدابه و تشريعاته»(3). فهو القدوة الرائعة لجميع الناس.

و لقد سئلت أم المؤمنين عائشة عن خلق رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فقالت: «كان خلقه القرآن»(4).

فالإمام يرسم سلوك النبي صلّى الله عليه و سلّم و آدابه لتلاميذه فيقول: «كان رسول الله صلّى الله عليه و سلّم أكثر

ص: 157

1- الصدوق، التوحيد، ص 407.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 38، ح 33152.

3- عبد الرحمن النحلوي، أصول التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 255.

4- الطبري، جامع البيان، دار الفكر، بيروت، ج 29، ص 24 - ح 26783.

ما يجلس تجاه القبلة(1)... لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه(2)... و كان يداعب الرجل، يريد به أن يسره ولا يقول إلا حقاً(3).

و كان يقسم لحظاته بين أصحابه فينظر إلى ذا، و ينظر إلى ذا بالسوية(4)... و إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس إليه حين يدخل(5)...

و عند ما كان يأمر تلاميذه بشيء، أو ينهاهم عن شيء يستشهد بسيرة رسول الله صلى الله عليه و سلم كما يقول: «أدوا الأمانة فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يؤدي الخيط و المخيط»(6).

و يدعو نفسه و الآخرين إلى التأسي برسول الله صلى الله عليه و سلم قائلاً: «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا جاء شهر رمضان زاد في الصلاة و أنا أزيد، فزيدوا»(7).

كما أنه يعود تلاميذه على أن يجعلوا سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم معياراً في حياتهم، كقوله: «إياك أن تطمح نفسك إلى من فوقك، فإن خفت شيئاً من ذلك فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه و سلم فقد كان قوته الشعير و حلواه التمر و وقوده السعف إذا وجدته.

و إذا أصبت بمصيبة فاذكر مصابك برسول الله صلى الله عليه و سلم فإن الخلق لم يصابوا بمثله أبداً»(8).

و من طبيعة الإنسان، حينما تقع عليه مصيبة، أن يتصور أنها أكبر فاجعة حلت به و أنه لم يقع في مثلها أحد، فيعسر عليه حلها. أما إذا ما نظر إلى شخص مصاب بهذا البلاء نفسه أو أعظم منه، خاصة عند ما يكون هذا الشخص ذا درجة رفيعة فيهنون الأمر عليه.

و الإمام الصادق كمرّب للنفوس يرشد الناس إلى تذكّر المصائب و الشدائد في حياة النبي صلى الله عليه و سلم حتى يستشعروا السكينة في نفوسهم و ترتفع معنوياتهم و مستوى استقامتهم.

ثانياً: القيام بنشر أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم و التحديث عن آباءه عن جده:

ص: 158

1- محمد حسين الطباطبائي، سنن النبي، مرجع سابق، ص 50.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 16، ص 271.

3- محمد حسين الطباطبائي، سنن النبي، ص 49.

4- المصدر نفسه، ص 47.

5- المصدر نفسه، ص 55.

6- المصدر نفسه، ص 65.

7- محمد بن الحسن الطوسي، الاستبصار، دار الكتب الإسلامية، قم، ط 4، 1406، ج 1، ص 331، ح 1793.

8- الكليني، فروع الكافي، ج 8، ص 168، ح 189.

اهتم الإمام برواية الأحاديث النبوية التي أخذها عن آبائه، ونادى «ما من معنى إلا وفيه كتاب أو سنة»⁽¹⁾.

فنهلت الأمة من مناهل علمه، ورأت موقفه موقف المربي الذي بذل جهدا كبيرا في نشر أحاديث جده رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بين تلاميذه خاصة و المسلمين عامة، حتى يأخذوا حقيقة الإسلام من مصدره الرئيس: الكتاب و السنة.

قال أبان بن تغلب في جعفر بن محمد: ما سألته عن شيء إلا قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم⁽²⁾. و يؤيد هذا الأمر كثير من مروياته، منها:

قال جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر⁽³⁾ قال: سمعت رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم. يقول:

«إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي»⁽⁴⁾.

وفي رواية أخرى قال جعفر بن محمد عن محمد بن علي بن الحسين بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم: «من زهد في الدنيا علمه الله تعالى بلا تعلم، و هداه بلا هداية و جعله بصيرا، و كشف عنه العمى»⁽⁵⁾.

ثالثا: اعتبار السنة ضابطا لتمييز الحق و الباطل من الأقوال:

جعل الصادق السنة القاعدة الثانية إلى جانب القرآن لتمحيص الروايات، فقد سئل عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به و منهم من لا نثق به، قال: «إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهدا من كتاب الله أو من قول رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم، و إلا فالذي جاءكم به أولى به»⁽⁶⁾.

وفي رواية أخرى قال: «فاتقوا الله فلا تقولوا علينا ما خالف قول ربنا و سنة نبينا صَلَّى الله عليه و سلم»⁽⁷⁾.

في ضوء هذه الأحاديث، نقف على القاعدة الفكرية للحكم على الأحاديث المشتملة على بعض المفاهيم التي تتنافى مع روح القرآن و السنة النبوية.

فقد أوصى الصادق تلاميذه بأن لا يقبلوا كل ما يرويه الرواة عنهم و وضع لهم

ص: 159

1- المصدر نفسه، ج 1، ص 59، ح 4.

2- عبد الحلیم الجندی، الإمام الصادق، مؤسسة أنصاريان، قم، 1415، ص 210.

3- جابر بن عبد الله الخزرجي الأنصاري السلمي (16-78)، صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي صَلَّى الله عليه و سلم، غزا تسع عشرة غزوه و كانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم، روى له البخاري و مسلم و غيرهما 1540 حديثا (الزركلي، أعلام، 104/2).

4- ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، ج 2، ص 1441، ح 4310.

5- أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، مرجع سابق، ج 1، ص 72.

6- الكليني، الأصول الكافي، ج 1، باب الأخذ بالسنة و شواهد الكتاب، ح 2.

قاعدة يرجعون إليها ليتأكدوا من صحة ما ينسب إليهم. وهذا هو الخط الذي يحمي عقائد المسلمين من الانحراف بما يضعه الوضعون من الأحاديث الموضوعية.

ه - المعرفة باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله تعالى، ولا يكاد يذكر الإيمان بالله في القرآن حتى يقرب به الإيمان باليوم الآخر، كما في قوله تعالى:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (1).

ذلك «أن الإيمان بالله يحقق المعرفة بالمصدر الأول الذي صدر عنه الكون، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه الوجود، وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن الإنسان أن يحدّد هدفه ويرسم غايته» (2).

ومن ثم فقد عني الإمام الصادق في تربيته العقديّة بهذا الأساس، ورأى أن الإيمان باليوم الآخر من مقتضيات الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء، ولو لم يتلق المرء تبعات سعيه لكانت حياته عبثاً، كما قال: «ولو لا المعاد لذهبت مظالم العباد وتساوى أهل الصلاح والفساد، ولتساوى الأشرار مع الأنبياء والشهداء، ثم إن لطف الله يستحيل عليه الانتضاء؛ لأن الموجب للابتداء هو المانع عن الانتهاء» (3).

ولترسيخ هذه العقيدة أشار إلى شواهد قرآنية تدل على إحياء جمهرة من الذين أماتهم الله كقوله: «وقد رجع إلى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم أصحاب الكهف أماتهم الله ثلاثمائة عام وتسعة، ثم بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث، ليقطع حجّتهم، وليريهم قدرته، وليعلموا أن البعث حق» (4).

ومما لا شك فيه «أن الإيمان بيوم الحساب وبمبدأ الثواب والعقاب الإلهي يغيّر من نمط تفكير الفرد ونظرته إلى الكون، ويحدث تغييرات جذرية في أعماق الإنسان» (5). حيث يوقظ الشعور بالمسؤولية في الفرد، فيعصمه عن المعاصي وهو الضابط الذي يصون الأخلاق ويضمن تنفيذ الشريعة في الحياة.

فالصادق يحاول أن يبذل هذا الإيمان إلى العقيدة الحيّة في أعماق النفوس، فيذكر طلابه في مواقف متعددة بها، ويستخدمها لتربيتهم على الصعيدين النفسي والخلقي.

ص: 160

- 1- سورة البقرة، جزء من الآية 177.
- 2- سيد سابق، العقائد الإسلامية، مرجع سابق، ص 259.
- 3- عبد القادر محمود، الإمام الصادق رائد السنّة والشيعية، مرجع سابق، ص 189.
- 4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 10، ص 256، ح 61.
- 5- محمد تقي الفلسفي، المعاد بين الروح والجسد، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1993، ص 42.

وقد شكّا إليه رجل الوسواس، فقال له: «أذكر تقطّع أوصالك في قبرك ورجوع أحبابك عنك إذا دفنوك في حفرتك و أكل الدود لحملك، فإن ذلك يسلي عنك ما أنت فيه»(1).

قال الرجل: فو الله ما ذكرته إلا سلّي عني ما أنا فيه من همّ الدنيا.

هكذا يعالج الإمام همّ الدنيا بذكر هموم الآخرة و ما فيها.

و بما أنّ الموت بداية الحياة الآخرة الذي لا بدّ منه، فالمؤمن يذكر الموت دائما فيكثر من الخير ابتغاء ثوابه و يتعد عن الشر خوف عذابه.

وقد يشير الإمام إلى الآثار العقديّة و النفسية و الخلقية لذكر الموت بأنّه «يميت الشهوات في النفس و يقلع منابت الغفلة، و يقوي القلب بمواعد الله و يرقّ الطبع و يكسر أعلام الهوى و يطوي نار الحرص و يحقر الدنيا»(2).

إن الاعتقاد باليوم الآخر يشمل الاعتقاد بمجموعة من الحقائق التي وردت في الكتاب و السنّة كفتنة القبر و عذابه و نعمه و البعث و الحشر و الحساب و الجنة و النار...

و الصادق يلفت الأنظار إلى بعض هذه المراحل، لتحقيق الإيمان التام البصير بالمرجع الذي تنتهي إليه حياة الإنسان؛ و منها كلامه في توصيف لحظة خروج الروح من الجسد بأنها «للمؤمن كأطيب ريح يشمه، فينعس لطيبه، و ينقطع التعب و الألم كله عنه، و للكافر كلسع الأفاعي و لدغ العقارب و أشد»(3).

فترى في تعاليم الإمام كثيرا من هذه الحقائق و تفاصيلها التي ذكرها مستندا إلى ما جاء في الكتاب و السنّة، مبتدئا ببيان أمر ملك الموت و أعوانه، و سكرات الموت و مقدماته، و ما يراه المؤمن و الكافر عند الموت، و ما يجري على الميت في القبر، و سؤاله و ضغطه، و البرزخ، و ما يلحق الرجل بعد موته من الأجر، و أحوال يوم القيامة و موافقها، و كيفية الحشر و الحساب، و الصراط و أوصاف الجنة و النار(4). بهذا كله يقوي الإمام الوازع الديني و النفسي الذي يرغب في الخير و يصد عن الشر.

و - المعرفة و الإيمان بالقدر:

إنّ الإيمان بالقدر خيره و شره جزء من الإيمان بالله و يتفرع عنه، و المقصود

ص: 161

1- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 2، ص 435، ح 2570.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 6، ص 133، ح 32.

3- محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 11، ص 23.

4- وقد ورد تفصيلها في موسوعة الإمام الصادق لمحمد كاظم القزويني، و اختص مجلد كامل (11) بهذا البحث.

بالقدر «هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة، والسنن التي ربط الله بها الأسباب بمسبباتها»(1).

فلا- يكون شيء في الكون كله إلا ما قدر الله. «ولا يخرج عن ذلك شيء لا أفعال الإنسان ولا غيرها، كما لا يخرج عن ذلك ما يصيب الإنسان وما يقع في الكون من الأحداث وبهذا كله يتحقق الإيمان المطلوب بالقضاء والقدر الذي أمر به القرآن وجاءت به السمة النبوية المطهرة»(2).

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بهذا الوعي والإيمان بقوله:

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (3).

فالإمام الصادق في تربيته العقديّة اهتم بهذه الركيزة الإيمانية، فهو يسعى في تعاليمه إلى إثبات هذه العقيدة في نفوس أبناء المجتمع، وذلك بالتأكيد على شموليتها لكل الأحداث قائلا: «ما من قبض ولا بسط إلا والله فيه مشيئة وقضاء وابتلاء»(4).

بهذا الكلام يوضح الإمام الحضور الدائم المتصل لله في كل مساحة الكون ودائرة القضاء والقدر، لا يغيب عنه شيء وله قيومة ورعاية دائمة، وهو الحي القيوم.

وهذا الإيمان يجعل صاحبه في حياته بين مرتبتي الصبر على المكاره والشكر على المحامد، إلا أن للإيمان بالقدر مراتب، أدناها الإقرار بالقضاء الإلهي، فهو شرط للإيمان، ولكن «هناك درجة التسليم والرضى بقدر الله وهي مرتبة الإحسان التي يصل إليها الإنسان حين يتعمق إيمانه ويرسخ، فيعرف أن لكل قدر حكمة وأن قدر الله كله خير للمؤمن المستقيم على الطريق»(5).

فلفت الإمام أنظار تلاميذه إلى هذه المرتبة الشريفة بقوله: «الرضا بمكروه القضاء أعلى درجات اليقين»(6).

فهو يرسم لهم طريق الوصول إليها من خلال التعرف على صفات الله العظيمة كعدله وحكمته، فيقول: «إن الله تبارك وتعالى لا يفعل لعباده إلا الأصلاح لهم ولا يظلم الناس شيئا»(7) وهكذا يكون المؤمن مستقر النفس وهو موقن تمام اليقين أن تدبيره.

ص: 162

1- سيد سابق، العقائد الإسلامية، مرجع سابق، ص 95.

2- عبد الكريم زيدان، الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في سلوك الإنسان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988، ص 13.

3- سورة التوبة، الآية 51.

4- الصدوق، التوحيد، ص 254.

5- محمد قطب، ركائز الإيمان، مرجع سابق، ص 419.

6- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 71، ص 152.

7- المصدر نفسه، ج 65، ص 341، ح 12.

اللّٰه له أفضل من تدييره لنفسه ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أي شخص به.

و هذا ما ركّز عليه الإمام مرة بالموعظة و الإرشاد و مرة بالقُدوة، فقد روي عنه:

«حين توفي ابن له فخشي عليه الجزع، فخرج هادئاً سالماً فقال له قائل: و خشينا عليك، فقال الإمام: «إنا ندعوا الله فيما نحبّ فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما يحبّ»(1).

و الأمر الذي يجب إمعان النظر فيه هو أنّ اهتمام الإمام بترسيخ الإيمان الصحيح بالقضاء و القدر لا يتعارض مع رأيه في حرية الإنسان و اختياره، ذلك لأنّ الله تعالى مكّن الإنسان أن يمارس اختياره في وسط نظام محكم و متقن من القضاء و القدر في الحياة الاجتماعية و في الكون. فلا يضرب الاختيار بحتمية القضاء و القدر، و لا يمس القضاء و القدر من حرية الإنسان في الاختيار على الإطلاق.

فالإمام جمع بين الرضاء بالقضاء و التسليم بالقدر، و تحمل الإنسان مسؤولية عمله و الحساب عليه محذراً تلاميذه من الوقوع في شبهة القعود عن تغيير الواقع و التواكل و تصور الجبر فقال لتلميذه زرارة بن أعين: «يا زرارة أعطيك جملة في القضاء و القدر ثم قال: إنّه إذا كان يوم القيامة و جمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم و لم يسألهم عما قضى عليهم»(2).

هذا الكلام يلقي الضوء على أن الله تبارك و تعالى لا يؤاخذ الإنسان فيما يجري من أمور خارجة عن حدود إرادته، فلا يحاسبه على ما نزل فيه بمحض القضاء إنما يؤاخذ فيما يفعله من أعمال بإرادته، فالمسلم عند ما يتم له التصور الصحيح لمفهوم القضاء و القدر لا يخلط بينه و بين مواقع المسؤولية الإنسانية.

فما يجري بمحض القضاء و القدر فإنه يستقبله بالتسليم و الرضاء، و يعلم أنّه عين الحكمة، و أمّا ما يقع في دائرة المسؤولية الإنسانية فإنه يباشر فيه الأسباب وفق ما أمر الله، و يحاسب نفسه و يحاسب الآخرين. 1.

ص: 163

1- ابن خلكان، وفيات الأعيان، مرجع سابق، ج 1، ص 435.

2- عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص 101.

إشارة

وقفنا على جهود الصادق لبناء الشخصية الإسلامية على العقيدة الصحيحة بأسلوب نافذ إلى العقول و القلوب معا. فهو أكد على أهمية الإيمان بالأركان الستة و التبصر بها، على الوجه الذي دلّ عليه كتاب الله و سنة الرسول صلى الله عليه و سلم و اتجه بكل إمكاناته إلى تربية طلابه على الفهم العميق لمبادئ الدين الإسلامي. فلم تقتصر جهوده في بناء شخصية المسلم على تبيين العقيدة الصحيحة فحسب، بل قام بصيانة الناس من التيارات المنحرفة و إيضاح الأخطاء الفكرية، «فكان [يحق] مرجع عصره في ردّ الشبهات»⁽¹⁾.

و لظالما عمل الإمام على إزالة اللبس و إيضاح الصورة أمام الفرد المسلم ليتمكن من فهم العقيدة، و يتمكن بالتالي من تطبيق تعاليمها؛ لأنّ نقاء الحركة الإنسانية و نضوج فعلها يعتمد على مدى وضوح الرؤية العقديّة في فكر الفرد و عمق وعيه بذلك.

و من هنا سعى المغرضون إلى تشويه المفهوم العقديّ و زعزعة الروح الإيمانية، من خلال تشكيكها، إمّا بأفكار و مفاهيم مختلفة أو محرّفة أو خاطئة.

و لم تلبث الحياة الإسلامية أن شهدت هذه الفتن بين جماعات المسلمين و لم تكن مدرسة الصادق غائبة عن هذه المعركة، و لم يكن لها أن تكون على الحياد، فيتوجه الإمام إلى الناس مريبا مرتقيا بهم من البلبلة الفكرية إلى صفاء العقيدة الإسلامية. فقام بتفنيد الأفكار الباطلة و إزالة الشبه و كشف القناع عن الحقائق و توضيح الأمر للجاهل و المضلل حتى يشكل صمام الأمان لعقيدة الأمة.

فنرى جهوده لمواجهة هذه التيارات الفكرية في ثلاثة ميادين:

أ - مواجهة الإلحاد و الزندقة.

ب - تحذير الأمة من الأفكار المنحرفة.

ج - صيانة الناس من التصورات الخاطئة.

أ - مواجهة الإلحاد و الزندقة:

كما ذكرنا سابقا، من المظاهر التي سادت في عصر الإمام الصادق انتشار

ص: 164

1- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 79.

الزندقة(1)، حيث ظهرت طوائف من المغرقيين بالكفر والإلحاد قاموا بإثارة الشبهات لإفساد المسلمين و تضليلهم فأخذوا يهاجمون العقيدة و الأخلاق مهاجمة صريحة، و يقعدون للمسلمين كلّ مرصد، و يجدّون لهدم تعاليم الدين الحنيف بكلّ الوسائل المتاحة.

و إزاء الحملات المسعورة التي كان يشنها هؤلاء الزنادقة على الإسلام و المسلمين، فإن الإمام الصادق لم يكن ليقف مكتوف الأيدي، فدخل في تلك المعارك الفكرية و جاء بخطّة متينة للكشف عن زيف مناقشاتهم. و لقد ناظر رؤساءهم بمناظرات عديدة في مجال العقيدة بأسلوب هادئ، رصين، مدعوم بالحجج و البراهين التي لم تدع لهم مخرجا، و سجّلت بعض مصادر الحديث و التاريخ نماذج من تلك المناظرات التي تبين للناس ما ينير طريقهم و يزيل الشك عنهم.

و ها نحن نعرض أمثلة منها فنروي ما حصل حين حضر عبد الكريم بن أبي العوجاء مجلس الإمام الصادق فابتدأه الإمام بالقول: «أ مصنع أنت أو غير مصنع؟ فقال ابن أبي العوجاء: بل أنا غير مصنع.

فقال الإمام: فصف لي لو كنت مصنوعا كيف كنت تكون؟

فبقي عبد الكريم مليّا لا يحير جوابا، و ولع بخشبة كانت بين يديه و هو يقول:

طويل، عريض، عميق، قصير، متحرك، ساكن، كل ذلك صفة خلقه.

فقال له الإمام: فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها، فاجعل نفسك مصنوعا لما تجد في نفسك ممّا يحدث من هذه الأمور»(2).

كان ابن أبي العوجاء واقفا على أنّ الاعتراف بالمصنوعية يلزمه الإذعان بوجود الصانع تعالى فأنكر كونه مصنوعا، و لكنّ الإمام ألزمه بالاعتراف بذلك بما سأله عنه، و هو أنه لو كان مصنوعا، فما هي صفاته؟

فتوقف عن الجواب، إذ رأى أن له جميع آثار المصنوعية.

و لعل في الرواية التالية التي سنسوقها أبلغ دليل على مدى حجة الإمام الصادق في إفحام الدهريين و الرد عليهم لإبعاد الناس عن شبهاتهم فقد بلغه أنّ الجعد بن درهم(3) جعل في قارورة ترابا و ماء، فاستحال دودا و هوامًا، فقال: أنا خلقت هذا؛ لأنني سبب تكوينه).

ص: 165

1- شرحنا حول هذه الطائفة في الفصل السابق.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب التوحيد، ح 2.

3- الجعد بن درهم... نحو 118، من الموالي، مبتدع سكن الجزيرة الفراتية و أخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة، قيل: كان زنديقا شهد عليه ميمون بن مهران، فطلبه هشام بن عبد الملك، فظفر به و سيره إلى خالد القسريّ في العراق فقتله. (الزركلي، الأعلام، ج 2، ص 120).

فقال الإمام: «ليقل كم هو الذكران والإناث إن خلقه وليأمر الذي سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره»(1).

فإن هذه الحركة «شغلت حيزاً رئيساً في الفكر الديني... وكان لها أثرها العميق في المجتمع بما أصدرته من صراع فكري أثر في معتقدات الناس وبالتالي في قيمهم و حضارتهم»(2).

حتى كان لهم الظهور والاعتراض جهاراً على الإسلام في المسجد الحرام، وإذا لم يكن للصادق يومئذ القوة التي تمكنه من دفع الزنادقة عن دخول ذلك الحرم الشريف، فكان لديه قوة العلم التي دفع بها شبهاتهم كما روي أن أحد رؤسائهم قال للإمام:

«إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوزون بهذا الحجر وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أساسه ونظامه.

فأجابه أبو عبد الله: «إن من أضله الله وأعمى قلبه استوخم الحق ولم يستعذبه وصار الشيطان وليه وربّه يورده مناهل الهلكة ولا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلة للمصلين له فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال...»(3).

وهكذا نرى أنّ الزنادقة كانوا يستهزئون بشعائر المسلمين علناً لكي يشككوا في مبادئ الإسلام، ويؤثروا في أصحاب النفوس الضعيفة، الذين يهتزّون وتلتوي أعناقهم أمام أول هبوب للريح، وقد يرجع السبب إلى هشاشة بنيانهم النفسي والديني، لذا فقد سعى الإمام دوماً إلى تقوية هذا البنيان وتدعيمه، وحماية أصحابه من الوقوع في الشبهات، فنراه أحياناً يجتمع مع هؤلاء الزنادقة ويسمح لهم بالكلام، ويستمع إلى أباطيلهم وترهاتهم، ثم يزيّف عقائدهم، ويفنّد أفكارهم ومزاعمهم.

فرغم أن الإمام يعلم أغراضهم الفاسدة ويشير في بداية كلامه إلى قلوبهم العمياء، 5.

ص: 166

1- ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1986، ط 3، ج 2، ص 105.

2- جرجس داود، الزندقة والزنادقة في الأدب العربي من الجاهلية وحتى القرن الثالث، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 2004، ص 71.

3- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ح 2325.

وولاية الشيطان عليهم، إلا أنه يوضح مكانة الكعبة و حكممة مناسكها لدفع تأثيراتهم المخربة على الآخرين.

ويمكن القول بأن الإمام يرمي إلى تبصير الناس و تحصينهم عن طريق إبطال حجج الملحدين. لذلك نراه يحارب في هذا الميدان على أكثر من جبهة وأكثر من صعيد.

وعلى خط مواز عمل الصادق على تمكين تلاميذه من المشاركة في مثل هذه النقاشات و الحوارات التي تساعد على إغناء ثقافتهم و تقوية حججهم ليتوصلوا إلى إقناع الطرف الآخر بوجهات نظرهم المستمدة من الإسلام و تعاليمه، إنما كان كل ذلك يتم تحت إشرافه شخصيًا و متابعته البناءة، فعند ما ذكر تلميذه مفضل بن عمرو أن قوما يزعمون أن هذا العالم من فعل الطبيعة، علّمه الإمام قائلا: «سلهم عن الطبيعة، أهي شيء له علم و قدرة على مثل هذه الأفعال، أم ليست كذلك؟

فإن أوجبوا لها العلم و القدرة، فما يمنعمهم من إثبات الخالق. فإن هذه صنعته.

وإن زعموا أنّها تفعل هذا الأفعال بغير علم و لا- عمد و كان في أفعالها ما قد تراه من الصواب و الحكمة، علم أنّ هذا الفعل للخالق الحكيم، و أن الذي سمّوه طبيعة هو سنّة في خلقه الجارية على ما أجزاها عليه»⁽¹⁾.

فيحاول الإمام أن يفتح بصائر تلاميذه و ينمي عقولهم لإقناعهم بالعقيدة السليمة، حتى يكونوا قادرين على الدفاع عن دينهم دفاعاً قوياً و يشعروا بالاعتزاز بإيمانهم الثابت بالإسلام.

ب - تحذير الأمة من الأفكار المنحرفة:

لا يكفي تزويد الأمة بعقيدتها النقية بل لا بد من توفر الوعي بالأفكار المنحرفة و الهدامة التي تدخل في الوسط الإسلامي، للتشويه و التحريف في المفاهيم الدينية.

و الإمام الصادق كمفكر مرتّب يرى حاجة المسلم إلى وقاية تربوية تحصّنه من الانحرافات العقديّة التي يصادفها في حياته.

فهو يراقب عن كثب علاقة تلاميذه بمبادئ الإسلام سلبيًا أو إيجابًا، و يرصد المظاهر المنحرفة التي لا تمثل حقيقة الإسلام. فيتصدّى لها من خلال العلم و توعية أفراد الأمة بخطورتها و من أهمها فكرة الغلوّ في عصره «التي تنشأ ضمن إطار التشيع و هي منحرفة عنه بل إن بعضها مروق عن الدين كلّ»⁽²⁾ فنجمت عنها آثار خطيرة في عقيدة المسلمين.

ص: 167

1- كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص 19.

2- محمد باقر الصدر، دور الأئمة في الحياة الإسلامية، تعليق محمد يعقوبي، دار المحجة البيضاء، بيروت، 2005، ص 230.

فهم نسبوا بعض صفات الله إلى بعض البشر وبثوا الأحاديث الموضوعة وأسندوها إلى حملة العلم.

وكان للإمام دور فعال في التصدي لهم ودعم العقيدة الإسلامية وبما أن الناس متفاوتون في تأثرهم بالأفكار الفاسدة - حسب مستوياتهم - نرى أساليب مختلفة اتبعها الإمام لحماية الأمة من الانغماس في خبث عقائدهم، ومن الانخداع بما يظهر منه من حسن النوايا وما يخفونه من مكر ودهاء، لذا فقد كان الإمام تارة يعلن براءته منهم بكل وجوده فيقول:

«سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء برئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ودين آبائي، والله لا يجمعني وياهم يوماً إلا وهو عليهم ساخط»(1).

وعند ما سمع أن أبناء هذه الطائفة يقدرسون الإمام نفسه ويضفون عليه صفات إلهية عارضهم بشدة ولعنهم قائلاً:

«لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبیده نواصينا»(2).

وطوراً يأمر بقطع أواصر العلاقة بينهم وبين أتباعه كي لا يكون مجال لترك أي أثر لأفكارهم الهدامة في عقول المسلمين ونفوسهم، فقال:

«لا تقاعدوهم، ولا تواكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تصافحوهم»(3).

والغلو خطر يتدرج بدخوله في العقيدة خطوة خطوة «فالتعظيم الزائد عن الحد آفة من آفات القلب البشري حين يتوجه بالحب إلى شخص معين، أو شيء معين، فينقلب التعظيم إلى تقديس، وينقلب الحب إلى عبادة»(4).

من ثم اهتم الإمام الصادق بالترقية الوقائية للشباب في هذا الصدد فنبه الآباء إلى مسؤولياتهم الخطيرة ومهامهم في تحصين الأجيال بأخذ الاحتياطات والتدابير اللازمة حتى لا يقعوا في فخ هذه الأفكار الباطلة، فقال:

«احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم، الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباده»(5).

وهذا كله نموذج من خطاب عقدي، إصلاحي، يتوخى الإمام به صيانة المسلمين من الإفراط في تعظيم وتقديس الصالحين.0.

ص: 168

1- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب كراهية القول في الأئمة بالنبوة، ح 6.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ج 25، ص 297.

3- حسين الشاكري، نشوء المذاهب والفرق، ص 144.

4- محمد قطب، لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، دار الشروق، القاهرة، 1995، ص 56.

5- الطوسي، الأمالي، ص 650.

و حقا لم نر هجوما قط من الإمام جعفر على طائفة أو مذهب، كهجومه على فكرة الغلاة، وإذا لم يأخذ الملحدين بالشدة فتحا لأبواب الهداية لهم، فهو صارم في صدد المغالين في الإمام علي (كرم الله وجهه) أو في نفسه، وأسلوبه في مواجهتهم، من أهم الجهود التربوية التي بذلها للحفاظ على الأمة بعامه و الناشئة منها خاصة و وقايتهم من الانحراف.

ج - صيانة الناس عن التصورات الخاطئة:

كان العالم الإسلامي في عصر الصادق شاهدا لظهور التصورات الخاطئة التي تمس العقيدة الإسلامية، و منها فكرة إخراج العمل عن دائرة الإيمان، بأن الإيمان اعتقاد بالقلب و لا تضرّ معه معصية(1).

فهذه الفكرة ذهبت إلى تعطيل الفرائض و تجاوز كل القيم في المجتمع، لذلك قام الإمام برفض هذه الادعاءات، و من احتجاجاته على هذه الطائفة ما ذكره لأحد تلاميذه عند ما سأل عن قولهم في الكفر و الإيمان فقال: إنهم يحتجون علينا و يقولون: كما أنّ الكافر عندنا هو الكافر عند الله، فكذلك نجد المؤمن إذا أقرّ بإيمانه أنّه عند الله مؤمن، فأجاب الإمام:

«سبحان الله، و كيف يستوي هذان و الكفر إقرار من العبد، فلا يكلف بعد إقراره ببينة فإذا اتفقنا فالعبد عند الله مؤمن و الكفر موجود بكل جهة من هذه الجهات الثلاث من نيّة أو قول أو عمل، و الأحكام تجري على القول و العمل في أكثر من يشهد له المؤمنون بالإيمان و يجري عليه أحكام المؤمنين و هو عند الله كافر، و قد أصاب من أجرى عليه أحكام المؤمنين بظاهر قوله و عمله»(2).

في هذا التوجيه التربوي أبرز الإمام جعفر عدة أمور منها:

- أن الكفر إقرار من العبد و بعد إقراره لا يحتاج إلى بيّنة.

- أن الإيمان هو دعوى من العبد كسائر الدعاوي، فيحتاج في قبولها و إثباتها إلى بيّنة، و بيّنة الإيمان هي النيّة و العمل و القول فتكون دعوى الإيمان هذه مقبولة من العبد بالقصد و النية و عمل الجوارح و تجري عليه أحكام الإسلام بظاهر القول و العمل.

- قد يكون العبد كافرا عند الله و لا صحة لدعواه الإيمان بسبب نفاقه، على الرغم من جواز إجراء أحكام المؤمنين عليه لظاهر قوله و عمله.

فراح الإمام يعزّي زيف هذه التفسيرات الباطلة للناس و التي استندت على فهم مقلوب من الدين.

ص: 169

1- شرحنا حول هذه الفكرة التي سميت بالمرجئة في الفصل السابق.

2- محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 12، ص 111.

و كذلك برزت التصورات الخاطئة التي تدور حول مسؤولية الإنسان عن أفعاله الإرادية وقد تمثلت باتجاهين(1):

فالطائفة الأولى اتجهت إلى نفي إرادة الإنسان و حريته في سلوكه و أنكرت أن يكون للفرد دور في أفعاله أو أن يكون له قدرة تؤثر في مقدورها، بل الفاعل على الحقيقة لأفعال العباد و المرید لها هو الله الذي لا مشيئة إلا مشيئته و قدرته.

أما الطائفة الأخرى فهم أصحاب الإرادة الحرة الذين رأوا أن الإنسان موجد لأفعاله على الحقيقة و هو مستقل في هذا الإيجاد و الله تعالى فوّض إليه اختيار ما يعمل.

أدرك الإمام خطورة الاتجاهين على العقلية الإسلامية و على فهمها للقرآن و السنة، و أنهما يسيئان إلى الخالق عزّ و جلّ. ذلك أن تصوّر الجبر في حياة الإنسان يمسّ عدل الله تعالى و يسمح بعقوبة الإنسان من جانب الله على ما لا قدرة له عليه، كما أنّ تصور التفويض و استقلال الفرد يمسّ توحيد الله و يقطع علاقة الإنسان بالله في حياته اليومية و عمله و تحركه. كما ذكر الإمام: «القدرية أرادوا أن يصفوا الله عزّ و جلّ بعدله فأخرجوه من قدرته و سلطانه»(2)!

فالإمام عرض نقاط الضعف و الخلل في تلك النظريات المستوردة، و قام من موقع الدفاع عن التوحيد و العدل و تصحيح تصورات الناس، فقال:

«رجل يزعم أن الله عزّ و جلّ أجبر الناس على المعاصي، فهذا قد ظلم الله في حكمه فهو كافر. و رجل يزعم أن الأمر مفوض إليهم، فهذا قد وهن الله في سلطانه فهو كافر. و رجل يقول: إن الله عزّ و جلّ كلف العباد ما يطيقون، و لم يكلفهم ما لا يطيقون و إذا أحسن حمد الله، و إذا أساء استغفر الله، فهذا مسلم بالغ و الله موفق»(3).

يقف الإمام من هذه القضية موقفا حاسما واضحا لتعلّقها بأمر العقيدة تعلقا جوهرياّ و لتأثيرها على صحة إيمان العبد أو عدمه و ذلك حتى لا يبقى لأحد حجة أو شبهة بعد هذا البيان. 1.

ص: 170

1- و قد برزت النظرية الجديدة بعد عصر الصادق مع تفسير الشيخ أبي الحسن الأشعري (المتوفى 330) في هذا الصدد و هم القائلون بالكسب الذين يرون أنّ الله يخلق الفعل و يقدره، بينما يكتسب العبد هذا الفعل المخلوق له بقدرته الحادثة و الضابط لعمليتي الخلق و الكسب هو إرادة العبد أو اختياره.

2- الصدوق، التوحيد، ص 382.

3- الحراني، تحف العقول، ص 371.

وفي هذه المسيرة يهتم الإمام بتنزيه الله تعالى عن نسبة العمل القبيح إليه ويؤكد على حرية الاختيار للإنسان بين الطريقتين المتمثلين بالخير والشر في هذه الحياة.

وعند ما سأله رجل عنه فقال: العمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشر من العبد هو فعله؟ أجاب الإمام: «العمل الصالح من العبد بفعله، والله به أمره، والعمل الشر من العبد بفعله، والله عنه نهاه. ثم سأل: أليس فعله بالآلة التي ركبها فيها؟ قال:

نعم. ولكن بالآلة التي عمل بها الخير، قدر على الشر الذي نهاه عنه...»⁽¹⁾.

إن الإنسان الذي يعمل الخير هو في الوقت نفسه قادر على عمل الشر، وهذا أمر واضح، وبهذا الاعتبار استحق الثواب، كما أنه لو فعل المحرم استحق عليه العقاب.

فرغم الاهتمام الكبير من الصادق في رفض هذه التصورات الخاطئة، إلا أنه ومن أجل وقاية الأمة من الوقوع في الشبهات العقديّة والفكرية، فقد نهى عن الخوض في هذه المسائل لغموضها ومحدودية إدراك الإنسان لها.

فقال ما نصّه: «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً، وأراد منا شيئاً، فما أراد بنا طواه عنا، وما أراد منا أظهره لنا، فما بالنّا نشتغل بما أراد بنا عما أراد منا»⁽²⁾.

فالإمام يوجّه الأنظار بأننا لسنا مسؤولين عمّا يجري الله بنا؛ لأنه فوق استطاعتنا ولكننا مكلفين في جانب الطاعة والمعصية لله والذي عرض لنا في أوامره ونواهيه الواضحة، والخوض في غيره ممّا خفي عنّا، فإنّه من متاهات العقول.0.

ص: 171

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 5، ص 19.

2- الشهرستاني، الملل والنحل، مرجع سابق، ج 1، ص 220.

المبحث الثاني البناء العبادي

- مفهوم العبادة وأهميتها في مدرسة الصادق

- الالتزام بالنظرية و التطبيق في فكر الإمام

- تعليم فقه العبادات في مدرسة الصادق

- تربية الروح بمظاهر العبادة عنده

- التركيز على الاعتدال في العبادة في مدرسته

ص: 173

[لا ينفصل البناء العقدي في التربية الإسلامية عن البناء العبادي]

لا ينفصل البناء العقدي في التربية الإسلامية عن البناء العبادي؛ لأن «الدين الإسلامي دين عملي واقعي لا يكتفي بإعطاء الإنسان القواعد النظرية الكلية في الحياة فحسب، بل إنه يربي الإنسان تربيّة عملية. فما الفرائض - أي الصلاة و الصوم و الحج و الزكاة - إلا وسائل عملية لتربية الإنسان تربية إنسانية كاملة»⁽¹⁾.

ولذلك بنى الإسلام عليها، كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بنى الإسلام على خمس:

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»⁽²⁾.

فالإنسان حين يتصل بخالقه و تقوى عبوديته لله من خلال تأديته الفرائض و النوافل و الشعائر، فإنّ الروح تسمو و تتزكى و يظهر صفاءها الفطري و يتحقق لها غذاؤها الكامل، و لحاجة الإنسان المستمرة إلى الطاقة الروحية تنوعت العبادات المأمور بها من الله، فالصلاة عبادة مستمرة طوال الحياة، شعيرة تغذي روح مؤدّيها، و الصوم و الزكاة و الحج و الذكر كلها عبادات فالشعائر يحتاجها الإنسان لتكسبه التوازن الروحي و الاستعلاء على الشهوات، و تمدّه بالطاقة الروحية التي تجعله فاعلا في أداء رسالته في الحياة باقتدار.

و من ثم كانت العبادة ركنا أساسيا في بناء الشخصية المتكاملة التي يريدّها الله عزّ و جلّ، و بناؤها في التربية يعدّ مكملا لبناء العقيدة، و «لا بد لكي يظل غرس العقيدة قويّا في النفس، من أن يسقى بماء العبادة، بمختلف صورها و أشكالها، فبذلك تنمو العقيدة في الفؤاد و ترعرع و تثبت أمام عواصف الحياة و زعازعها»⁽³⁾.

و الإمام الصادق في منهجه التربوي لم يكتف ببناء العقيدة الإسلامية في المتعلمين فحسب، بل اهتم بالحث على العبادة إلى جانبها؛ و فيما يلي نستعرض بعض جهوده في هذا الصدد.

ص: 175

1- محمد فاضل الجمالي، نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 56.

2- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ح 21.

3- محمد سعيد رمضان البوطي، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث، مكتبة الفارابي، دمشق، 1410، ص 40.

العبادة في اللغة: هي «التذلل، والخضوع، والانتقاد، والطاعة، والتعبد:

التنسك»(1).

وفي الاصطلاح: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»(2)، فهي طاعة الله تعالى و خضوع له، و التزام بكل ما شرع ظاهرا و باطنا، سرا و علانية، في الحركات و السكنات، في الليل و النهار.

فالعبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذلّ و الخضوع، و قد أضاف البعض إليهما عنصرا ثالثا بأن العبادة في الشرع «عبارة عما يجمع كمال المحبة و الخضوع و الخوف»(3).

فمن عرف ربه و امتلأ قلبه بمحبته و الشوق إليه و خشيته، فإنه يلتزم بما شرعه الله، أمرا و نهيا.

إذن العبادة ليست قاصرة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة و صيام و زكاة..

و مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع و أشمل من مجرد إقامة الشعائر. «فالإسلام يوسع معنى العبادة حتى تشمل الحياة كلها.. فأى عمل يتوجه الإنسان به إلى الله فهو عبادة.. و كل عمل يتركه تقربا لله و احتسابا، فهو عبادة..»(4).

و عليه فالإمام جعفر يعتبر أنّ حقيقة العبادة هي التذكير الدائم بالله بقوله:

«أفضل الوصايا و ألزمها أن لا تنسى ربك و أن تذكره دائما و لا تعصيه، و تعبده قاعدا و قائما»(5).

و بما أنّ التذكير بالله يعمر القلب بعظمته، و يوجه قوى النفس إلى البر و الخير و يمنعها من الإثم و الشر، فالإمام يذكر أنّ طاعة الله علامة الذكر و معصيته علامة الغفلة، فمن أطاع الله و أدى ما طلبه منه فهو لا بد ذاكرا لخالقه، و من يتخلف عن تأدية أوامر الله و ارتكب المعاصي و الذنوب فلا بد أن يكون غافلا و جاحدا لنعم الله.

و قد أثر عن الصادق: «من أشد ما فرض على خلقه ذكر الله كثيرا، و لا أعني سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر، و إن كان منه، و لكن ذكر الله عند ما أحلّ و حرّم، فإن كان طاعة عمل بها، و إن كان معصية تركها»(6).

ص: 176

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة عبد، ص 275، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 322.

2- ابن تيمية، الفتاوى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1398، ج 10، ص 249.

3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، 1412، ج 1، ص 22.

4- محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 67.

5- الطباطبائي، تفسير الميزان، مرجع سابق، ج 15، ص 328.

6- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب اجتناب المحارم، ح 4.

فالعبادة هي خضوع لله على وجه التعظيم، فمن أطاع الله و توجه إليه بالعبادة و شغل سمعه و بصره و لسانه و قلبه بما أمر الله، فهو الذي يعمل على تربية روحه و تطهيرها مما يعلق بها أحيانا من أدران.

و بهذا المعنى الشامل تصبح العبادة هي الصلة الدائمة بين المسلم و ربه. و من مظاهرها أداء الفرائض و الشعائر التعبدية التي تعتبر وسيلة لتربية الإنسان و توجيهه نحو الأهداف القرآنية.

و الإمام الصادق كعالم تربوي اعتمد على هذه الوسيلة في مدرسته بتعليم الفرائض و النوافل و آدابها، و قد حث تلاميذه على تلاوة الأدعية و الأذكار و شدّد عليها عبر تبين أسرارها النفسية و الخلقية و الاجتماعية فقال:

«الصلاة قربان كل تقيّ، و الحج جهاد كل ضعيف، و زكاة البدن الصيام، و الداعي بلا عمل كالزّامي بلا وتر، و استنزلوا الرزق بالصدقة، و حصّنوا أموالكم بالزكاة»⁽¹⁾.

كما أنّ الإمام ذاته كان معروفا بكثرة عبادته و شدة تعلّقه بالله سبحانه، و هذا البعد الروحي و العبادي لشخصية الإمام، لم يكن لتربية نفسه فحسب، بل يقصد به تركيز المعنى للاتصال الدائم بالله في ذهنية الأمة، من خلال ترغيب الفرد في الإلمام بهذا الجانب و الانخراط فيه.²

ص: 177

1- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 262.

إن التربية في مدرسة الإمام الصادق فكر وعمل، ويشترط أن يكون العمل فيها قريناً للعقيدة، ذلك لأنها منبثقة من القرآن الكريم الذي يعبر عن العقيدة بالإيمان، وعن الشريعة بالعمل الصالح من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة (1).

إن الإيمان والعمل يشكّلان وحدة مترابطة في التربية القرآنية، «فإن العملية التربوية لا يمكن لها أن تقوم إلا في ظل الالتحام بين الفكر والعمل، أو بين النظرية والتطبيق» (2) وهذا غاية ما يدعو إليه الإمام الصادق.

فاهتمامه بتربية المتعلمين على الشعائر والعبادات تنبع عن هذا المبدأ العام في تربيته كما قال: «الإيمان لا يكون إلا بعمل والعمل منه ولا يثبت الإيمان إلا بعمل» (3).

فقد عبّر أبو عبد الله عن العمل كوسيلة لتثبيت العقيدة التي لا بد أن يؤدي إلى الممارسة العملية أو التطبيق.

والنفاق أصلاً يرتكز على جذور الفصل بين القول والفعل، وبين الاعتقاد والسلوك. ومن ثم ينبغي ترجمة الإيمان في واقع الحال، إلى أفعال تلمسها الحواس، وهي «المقياس الذي تقاس به تربية الإنسان، يقاس به إيمانه، تقاس به أخلاقه، يقاس به علمه» (4).

من هنا اعتبر الإمام العمل مقياساً للقرب من الله والبعد عنه بقوله: «إنما تفاضل القوم بالأعمال» (5).

ص: 178

1- سورة النحل، الآية 97.

2- سعيد اسماعيل علي، مكانة العمل في الفكر التربوي، دار الثقافة، القاهرة، 1979، ص 20.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 168، ح 20220.

4- محمد فاضل الجمالي، تربية الإنسان الجديد، الدار التونسية، تونس، 1967، ص 123.

5- الطبرسي، مجمع البيان، مرجع سابق، ج 9، ص 351.

وكم من أشخاص وفئات كانوا أولي أفكار وأنظار يحملونها في أدمغتهم غير أنهم لم يسعوا لإخراجها إلى عالم الوجود، فلم يترتب عليها أثر، ولم ينتفع بها أحد فبقوا بعيدين عن الفضل.

وعند ما سئل الصادق: من أكرم الخلق على الله؟ قال: «أكثرهم ذكرا لله، وأعملهم بطاعة الله»⁽¹⁾.

ومن المعلوم أن كل عمل وعبادة إنما يعدّ ثمرا ومنتجا إذا كان دائما غير منقطع، لذلك جعل الشارع كثيرا من الفرائض مستمرة، لأن العمل الذي يؤتى به حيناً آخر لا يثمر للعامل ولا يزيده إلا ضعفاً.

فالبداء بالعمل سهل ميسور والاستمرار فيه قد يكون صعباً في كثير من الأوقات، والنتيجة الكاملة إنما تتوقف على الاستمرار كما ورد في الحديث الشريف: «أحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»⁽²⁾.

فأوصى أبو عبد الله طلابه قائلاً:

«إياك أن تفرّض على نفسك فريضة فتفارقها اثني عشر هلالاً»⁽³⁾.

يشدّد الإمام بهذا القول على مداومة الأعمال العبادية حتى تصبح عادة متأصلة في نفس الإنسان، ولكي تتمكن روح العبودية والخضوع لله من السيطرة على حياته.6.

ص: 179

1- الحراني، تحف العقول، ص 364.

2- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين، ح 783.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب استواء العمل، ح 6.

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام جعفر الصادق كان من أبرز فقهاء عصره و هو مؤسس لمدرسة فكرية تربوية، و من فروعها مدرسة فقهية متكاملة في تاريخ الأمة الإسلامية، و التي عرفت باسم المذهب الجعفري.

فينتهي فقه الإمامية إليه لما انتشر عنه من العلم و حفظ عبره من الحديث، حتى إنّ «أكثر ما ورد في كتبهم الحديثية مروى عنه»⁽¹⁾.

وقد ضبط أصول الاستنباط، كما تكلم في أصول الفقه بعد أبيه الباقر و أملاها على تلاميذه، فرواة فقهه كانوا ملازمين له يتدارسون الأحاديث و القرآن و ما يستنبط منهما و ما يتفرع من الأحكام عليها، و الأصول الأربعمئة⁽²⁾ التي دوّنها تلاميذه تتضمن أصول المذهب الجعفري و فقهه «الذي يعتمد على المصادر القطعية من القرآن و الأخبار»⁽³⁾.

هذا كله له دلالة واضحة على أنّ من أهم جهود الإمام التربية في مدرسته كان تعليم الفقه و أحكام التشريع و منها فقه العبادات و الفرائض، و عند ما تتأمل النصوص الواردة عنه نرى كثيراً من المسائل التي طرحها الإمام في المجتمع آنذاك، و التي تختص بتعليم الشعائر العبادية و كيفية أدائها من الصلاة و الصيام و الحج و غير ذلك كما اهتمت مدرسته بالتربية و الإعداد العلمي و العملي في هذا الصدد، و لعلّه من المفيد أن نذكر بعضاً من تلك المسائل التي تدل على اهتمام الإمام بهذا الأمر.

ص: 180

1- محمد حسين المظفر، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 1، ص 190.

2- و هي الأحاديث المروية عن الإمام الصادق و التي دوّنها عنه أربعمئة تلميذ في أربعمئة مؤلف، و منها ظهرت الكتب الأربعة التي تعتبر كتب الحديث الرئيسة عند الإمامية، و هي: «الكافي» للمحدّث أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي (ت 328 هـ) و «من لا يحضره الفقيه» للمحدّث أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت 381 هـ) و كتابي «الاستبصار» و «التهذيب» لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (385 هـ).

3- سعد رستم، الفرق و المذاهب الإسلامية منذ البدايات، الأوائل للنشر، دمشق، 2004، ص 261.

سئل الصادق عن رجل نسي أن يركع في الصلاة؟ قال: «عليه الإعادة»، ثم يقول: «لا تعاد الصلاة إلا من خمسة: الطهور، الوقت، القبلة، الركوع والسجود»⁽¹⁾.

وفي مجال آخر: سئل الإمام عن رجل أكل وشرب بعد ما طلع الفجر في شهر رمضان؟ قال: «إن كان قد قام، فنظر، فلم ير الفجر، فأكل، ثم عاد فرأى الفجر فليتم صومه، ولا إعادة عليه، وإن قام فأكل وشرب ثم نظر إلى الفجر فرأى أنه قد طلع، فليتم صومه ويقضي يوماً آخر؛ لأنه بدأ بالأكل قبل النظر، فعليه القضاء»⁽²⁾.

ومنها كلامه في كيفية الإحرام في الحج بأن: «الإحرام من المواقيت التي وقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لحاج ولا معتمر أن يحرم قبلها ولا بعدها».

وعند ما سئل عن رجل مرّ على الميقات فنسي أو جهل، ولم يحرم حتى أتى مكة، فخاف إن رجع إلى المواقيت أن يفوقه الحج؟ قال: «يخرج من الحرم ويحرم ويجزئه ذلك»⁽³⁾.

وقد ورد في الكتب الفقهية كثير من مثل هذه الأسئلة وإجابة الإمام عنها، «حتى يتعدّر» إحصاء مسائل جعفر في الفقه لأنه مذهب بكامله⁽⁴⁾، فهو كان مرجع الناس في هذه المشكلات الفقهية ممّا يعرفنا مدى اهتمام الإمام بتعليم الناس أداء العبادات والفرائض على أساس ما ورد في القرآن والسنة النبوية؛ لأنه يرى أن الحج والصلاة والصيام وغير ذلك... قدرة على رفع الإنسان إلى مراتب عالية من الصفاء والسموّ والاتصال بالله، طالما التزم بالطريق التي أمر الله بها.8.

ص: 181

1- محمد جواد مغنية، فقه الإمام جعفر الصادق، ج 1، نشر قدس قم، د. ت، ص 179.

2- المصدر نفسه، ج 2، ص 36.

3- المصدر نفسه، ص 170.

4- عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص 68.

إنّ الجانب العملي لتربية الروح يتمثل في ممارسات وأعمال وخبرات وتجارب تمرّ بها الروح عملياً، لتتزكى وتزداد صفاءً، فتقرب من الله تعالى، فلذلك «تعتبر العبادات تربية عملية للروح يتم من خلالها تطبيق وتنفيذ الجانب النظري من تربيتها»⁽¹⁾.

فقد طرح الإسلام منظومة تشريعية تطلّ باهتمامها كل تصرفات وممارسات الإنسان كما طرح منظومة عقديّة مستوعبة ووسيلة.

وفي التزام الإنسان بأحكام الشريعة يتجلّى تحقيق معنى العبودية التي جعلها الله تعالى شأنه غاية لخلق الإنسان. ومن هنا جاءت الشريعة، ووزعت العبادات على مختلف حقول الحياة وحثت على الممارسة العبادية.

ذلك أن «السالك إلى الله وإن كانت جميع أعماله عبادة وبأهداف إلهية، ولكنّه بحاجة ماسّة يوميّاً إلى أن يفرّغ شيئاً من وقته للمناجاة مع الله والتكلم معه، والتوجه الحضوري إليه، وليس كالتوجه العام الثابت في كل الأعمال»⁽²⁾.

فالتربية بممارسة الأعمال أو أداء الفرائض تعود المرء على النظام في الحياة وعلى ضبط النفس وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية وعلى التضحية في سبيل الجموع كلها، وهي تتطلب مراعاة وممارسة يومية تلازم حياة الإنسان.

وفيما يلي نستعرض بعض اهتمامات الصادق في هذا المجال وما أشار إليها من الأغراض التربوية التي تمكن في العبادات باعتبارها وسائل فعالة في بناء شخصية المسلم.

أ - تقوية الصلة بالله عن طريق الصلاة:

إن الصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي تصقل الروح وتربّيها على محبة الاتصال بالله والوقوف بين يديه. وهي أعظم العبادات أجراً وأهم ما أكدّه الأنبياء في رسالاتهم،

ص: 182

1- عبد الله الزهراني، الوسطية في التربية الإسلامية، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، 2003، ص 115.

2- كاظم الحسيني الحائري، تزكية النفس، دار الحوراء، بيروت، 2005، ص 89.

فجاء توجيه الصادق إلى هذا الأمر بقوله: «أحب الأعمال إلى الله عزّ وجلّ الصلاة، وهي آخر وصايا الأنبياء»⁽¹⁾.

وأداء الصلاة أرقى مراتب العبادة، وأجلى مظاهر الشكر وأصدق تعبير عن مشاعر الوفاء والإخلاص، وأخص مراسم إعلان العبودية و الارتباط بالله، فالدروس الروحية والأخلاقية والاجتماعية التي يحصل عليها الإنسان من الصلاة هي وسائل تربوية فعالة في الحياة.

على هذا يقول الصادق:

«ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة. ألا ترى أن العبد الصالح عيسى بن مريم قال: وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (2)»⁽³⁾. «فالصلاة في الإسلام بما تحتويه من مراقبة لله وقيام وسجود له، وما تشتمل عليه من معاني القربى له، تربط المصلي بخالقه و تشعره بعلو مكانته في نظر نفسه حتى يرى من آثار الكرامة ما يستقندر معه الإتيان بالقبايح»⁽⁴⁾.

والله سبحانه يصف الصلاة بقوله جل شأنه:

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (5)

فإذا أدت هذه الفريضة بإخلاص تمنع صاحبها أن يمارس أي قول أو عمل قبيح فاحش، وقد نبّه الصادق أحد تلاميذه على هذا الأمر العظيم بقوله: «اعلم أنّ الصلاة حجة الله في الأرض، فمن أحبّ أن يعلم ما أدرك من نفع صلاته فليُنظر، فإن كانت حجزته عن الفواحش و المنكر، فإنّما أدرك من نفعها بقدر ما احتجز»⁽⁶⁾.

وكذلك أولى الإمام جعفر في تربيته العبادية بأداء الصلاة في أول وقتها؛ لأنّ ممارستها في أوقات معينة مرتبة ببناء الإرادة و تعود النفس على أداء عمل معين في وقت معين وقد ورد عنه: «فضل الوقت الأول على الآخر كفضل الآخرة على الدنيا»⁽⁷⁾.

ولا بد في الصلاة من حضور القلب وهو «مصطلح في تربية الروح يعني طرد الخواطر التي تشغل الإنسان عن عبادة ربّه»⁽⁸⁾ لأن الصلاة لا تؤدّي أغراضها إذا كان 7.

ص: 183

1- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 1، ص 210، ح 638.

2- سورة مريم، جزء من الآية 31.

3- الحويزي، تفسير نور الثقلين، ج 3، مؤسسة اسماعيليان، قم، 1412، ص 335.

4- عفيف عبد الفتاح طيارة، روح الصلاة في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1985، ص 32.

5- سورة العنكبوت، جزء من الآية 45.

6- الصدوق، معاني الأخبار، مؤسسة النشر الإسلامي، قم 1361، ج 1 ص 237.

7- الكليني، فروع الكافي، ج 3، باب مواقيت الصلاة، ح 6.

8- عبد الحلیم محمود، التربية الروحية، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 1997، ص 127.

المصلّي حاضرا بجسده و هيكله في موضع الصلاة، وغائبا بروحه و وعيه عمن يناجيه و يعبده فلماذا قال أبو عبد الله: «إني لأحبّ للرجل منكم المؤمن إذا قام في صلاة فريضة أن يقبل بقلبه إلى الله و لا يشغل قلبه بأمر الدنيا، فليس من مؤمن يقبل بقلبه في صلاته إلى الله إلا أقبل الله إليه بوجهه»(1).

فينصح الصادق تلاميذه نصائح غاية في الأهمية في تحصيل إقبال القلب في الصلاة فيقول: «إذا صلّيت صلاة فريضة فصلّها لوقتها صلاة مودع يخاف أن لا يعود إليها أبدا، ثم اصرف ببصرك إلى موضع سجودك فلا تعلم من يمينك و شمالك لأحسنت صلاتك و اعلم أنك بين يدي من يراك و لا تراه»(2).

أمّا صلاة الجماعة فإنها من أوثق الأسباب لترابط المسلمين و تألفهم و اجتماعهم على صعيد المحبة و الألفة، من هنا فقد أولاها الصادق المزيد من اهتمامه بها متأشيا برسول الله صلى الله عليه و سلّم لتكسب المسلمين وحدة و قوة و منعة، و يتميز بها الصالح من الطالح و المطيع من العاصي.

قال الإمام: «إنما جعل الجماعة و الاجتماع إلى الصلاة، لكي يعرف من يصلي ممن لا يصلي، و من يحفظ مواقيت الصلاة ممن يضيع. و لو لا ذلك لم يتمكن أحد أن يشهد على أحد بصلاح لأن من لم يصلّ في جماعة فلا صلاة له بين المسلمين؛ لأن رسول الله صلى الله عليه و سلّم قال: «لا صلاة لمن لم يصلّ في المسجد مع المسلمين إلا من علة»(3).

فالصلاة بصورة جماعية تكون مظها من مظاهر التعبد الجماعي، ذلك أنّ المسلمين يتوجهون بقلب واحد و شعور واحد نحو قبلة واحدة و رب واحد ليستشعروا جميعا وحدة التوجه البشري إلى الله إضافة إلى أنّ الخطب و التوجيهات في الجماعة تنمي ثقافة الجماعة الدينية، و لمثل هذه الأسباب ورد عن الإمام الصادق: «إنّ على الإمام أن يخرج المحبوسين في السجن يوم الجمعة إلى الجمعة و يوم العيد إلى العيد، و يرسل معهم من يحفظهم، فإذا قضاوا الصلاة و العيد ردهم إلى السجن»(4).

على صعيد آخر حرص الصادق تلاميذه على النوافل عامّة و صلاة الليل خاصّة، فقال: «لا تدع قيام الليل، فإنّ المغبون من حرم قيام الليل»(5).

هكذا يعتبر الصادق الصلاة مدرسة إصلاحية للتربية و يريد بكل توجيهاته أن يجعل 2.

ص: 184

1- المفيد، الأمالي، جماعة المدرسين، قم، د. ت. ص 150، ح 7.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 81، ص 233.

3- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 39، ح 3280.

4- المصدر نفسه، ص 31، ح 3265.

5- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 2، ص 122، ح 462.

طلابه في هذه المدرسة التي تقوّي إرادة الإنسان، و تعودّه ضبط النفس و المحافظة على المواعيد، و لا يقف أثرها و دورها الإصلاحية في حدود الدائرة الفردية بل يتعداها إلى مجالات المجتمع المختلفة، فتصنع من المصلّي إنسانا صالحا يعيش في ساحة الحياة فيملأها بأنشطة الخير و الإحسان.

ب - تطهير النفس و المال بالزكاة:

الزكاة أحد أركان الإسلام و فريضة من فرائضه التي جعلها الله سبحانه و تعالى في كثير من الآيات مقرونة بالصلاة قال سبحانه:

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اذْكُرُوا مَعَ الرَّاِكِعِينَ (1).

«و إذا كانت الصلاة عماد الدين، فالزكاة قنطريته و حصنه المتين و عصب المادة في بنية الأمة»(2).

فقال الصادق في مكاتبتها: «ما فرض الله على هذه الأمة شيئا أشدّ عليهم من الزكاة و ما تهلك عامتهم إلاّ فيها»(3).

هذا لأنّ «الإنسان محبّ للمال عادة و حريص على جمعه، و يصعب عليه إنفاقه، و بخاصة إذا كان في سبيل الله و لا يلمس عوضا ماديا آخر يقابله»(4).

و للزكاة خاصة و الصدقات و الإنفاق عامة آثار كبيرة من الناحية النفسية و الاجتماعية. أما النفسية، فهي تطهير لنفس الإنسان من الشحّ و الأدران و سموّها في مدارج الكمال الإنساني قال تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ (5).

و من الناحية الاجتماعية فهي الرباط الإسلامي بين الأغنياء و الفقراء و التي يتحقّق بها الإخاء ابتغاء مرضاة الله.

فيرى الصادق أنّ الزكاة هي تربية عملية من جانب الله تعالى تستأصل مرض الأنانية من نفس الغني، و الحسد و الطمع من نفس الفقير. فقال: «إنما وضعت الزكاة اختبارا للأغنياء و معونة للفقراء»(6).

كما أنها أهم وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي و علاج ناجح لفساد المجتمع من الناحية الاقتصادية يقرب المسافة بين الغني و الفقير، و يطهر المجتمع من الحقد

ص: 185

1- سورة البقرة، الآية 43.

2- كامل موسى، أحكام العبادات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 4، ص 280.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 3، باب فرض الزكاة، ح 3.

4- وهبة الزحيلي، أخلاق المسلم علاقته بالخالق، دار الفكر، دمشق، 1423، ص 362.

5- سورة التوبة، جزء من الآية 103.

6- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 9، ص 12، ح 11392.

و الكراهية، و يجعله متآلفا متعاوننا يشعر أفراده بالطمأنينة و الاستقرار.

وقد وضح الصادق غاية تشريع هذه العبادة المالية و دورها في تنشيط الحياة الاقتصادية و الاجتماعية، و إقرار العدل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي بقوله: «و لو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيرا محتاجا و لاستغنى بما فرض الله عزّ و جلّ له و إن الناس ما افتقروا، و لا احتاجوا و لا جاعوا و لا عروا الا بذنوب الأغنياء»(1).

و هكذا يربّي الصادق تلاميذه على الاهتمام بدفع الزكاة، و ينبّههم على أنّها تكشف عن صدق الإيمان و الإخلاص لله في الاستجابة لأمره، و تنمي روح الفضيلة و تحفظ أمن المجتمع و استقراره.

ج - كمال الانقياد و العبودية بالحج:

إنّ الحج مدرسة لتربية الروح من أول عمل يقوم به الحاج حتى آخره، تجتمع فيه العبادات كلّها من صلاة و صدقة و ذكر و صبر على طاعة الله و غير ذلك.

فإن الله تبارك و تعالى فرض على الناس في الحج أعمالا لا تأنس بها النفوس و لا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار و حلق الرأس، و غير ذلك... ليظهر كمال الرقّ و العبودية منهم.

ذلك لأنّ «كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما فيكون ذلك الميل معينا للأمر و باعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرقّ و الانقياد»(2).

في الحج يطأ الحاج أرضا طيبة طاهرة سارت عليها أقدام الأنبياء الكرام، فتتجدد في نفسه أحداث التاريخ، و خواطر الأولياء، «فيدفعه هذا الإحساس المتدفق، و الشعور المنبعث في نفسه إلى أن يسلك الطريق، و يتبع المنهج نفسه، و يتحلّى بالسيرة نفسها»(3).

فيقول الصادق: «إن الله تعالى جعل الحج... لتعرف آثار رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و تعرف أخباره و يذكر و لا ينسى»(4).

و الحج يرمز إلى الوحدة بين المسلمين، إذ تمحي فيه الفوارق التي بينهم و يتساوى الغني و الفقير و الأمير و الحقير، يطوفون حول الكعبة باتجاه واحد، و يتجهون إليها في صلاتهم فيعلمون أنهم أبناء أمة واحدة.

ص: 186

1- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 7، ح 1579.

2- الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج 1، ص 355.

3- عبد العال سالم مكرم، أثر العقيدة في بناء الفرد و المجتمع، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998 ص 84.

4- الصدوق، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف، 1966، ج 2، ص 405.

و لقد ألمح الإمام الصادق إلى بعض المصالح التي تترتب على هذه الفريضة التي تعود بالخير العميم على المسلمين، فقال:

«إن الله تعالى خلق الخلق... وأمرهم ونهاهم ما يكون من أمر الطاعة في الدين ومصالحتهم من أمر دنياهم، فجعل في الحج الاجتماع من المشرق والمغرب، ليتعارفوا وليربح كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكاري والجمال»(1).

وتحدث الإمام في بعض الأحيان عن حكمة مناسك الحج لتوعية الناس وتبصيرهم بأسرارها الكامنة، فعند ما سأله سفيان الثوري أن: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم جعل الموقف من وراء الحرم؟ ولم يصير في المشعر الحرام؟

فقال: «الكعبة بيت الله، والحرم حجابها، والموقف بابه. فلما قصدوا الوافدون أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم في الدخول، أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة.

فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهادهم رحمهم، فلما رحمهم، أمرهم بتقريب قربانهم، فلما قربوا قربانهم، وقضوا تقضهم وتطهروا من الذنوب التي كانت حجابا بينه وبينهم، أمرهم بزيارة بيته على طهارة.

قال له: فلم كره الصوم أيام التشريق؟ قال: «لأنهم في ضيافة الله ولا يحب للضيف أن يصوم»(2).

د - ضبط الأهواء والشهوات بالصيام:

إن الصيام من بين العبادات، خاصة عملية تدريب للإنسان على مقاومة شهواته والسيطرة عليها، ففيها يمتنع الإنسان باختياره عن كثير من اللذائذ المباحة تعويدا على المجاهدة في طاعة الله ومران على المشاق في طريق العبودية. و «استمرار هذا التدريب مدة شهر كل عام بلا شك سيؤدي إلى تعليم الإنسان قوة الإرادة وصلابة العزيمة، لا- في التحكم بشهواته فقط، إنما في سلوكه العام في الحياة وفي القيام بمسؤولياته وأداء واجباته ومراعاة الله تعالى في كل ما يقوم به من أعمال»(3).

فالإمام جعفر يلفت الأنظار إلى هذا الغرض التربوي الكامن في حقيقة الصوم فيوسّع رؤية الناس بأن ثمرته لا بد أن تنعكس التزاما بالتقوى في كل الجوارح قائلا:

«إذا أصبحت صائما فليصم سمعك وبصرك من الحرام، و جارحتك وجميع

ص: 187

1- المصدر نفسه، و المكان نفسه.

2- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 264.

3- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ط 7، 2001، ص 294.

أعضائك من القبيح ودع عنك الهذي وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصيام، والزم ما استطعت من الصمت والسلوك، إلا عن ذكر الله ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك...»(1).

ويشرح الإمام تعبيره عن وقار الصيام في توجيهاته الأخرى كقوله: «إذا صام أحدكم، فلا يجادلن أحدا ولا يجهل ولا يسرع إلى الحلف والإيمان بالله، وإن يجهل عليه أحد فليتحمل»(2).

تبدو صلة الصوم بالأخلاق صلة وثيقة لا تخفى على أحد، «فالصوم انضباط وكف للبطن والفرج عن شهواتهما، كما أنه انضباط للجوارح وكف لها عن الآثام، والأخلاق في تفسيرها الصحيح ليست إلا انضباطا في السلوك وضبطا وتهديبا للشهوات»(3).

وقد أشار الصادق إلى الفوائد النفسية والاجتماعية لفريضة الصوم عند ما تحدث الحكمة من تشريع الصوم بقوله: «أما العلة في الصيام ليستوي به الغني والفقير وذلك لأن الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير لأن الغني كلما أراد شيئا قدر عليه، فأراد الله عزّ وجلّ أن يسوي بين خلقه وأن يذيق الغنيّ مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع»(4).

فالشعور بالألم يدع الشخصية متحسّسة بشدائد الآخرين ويدفعه إلى التفكير بمدّ يد المساعدة إليهم، وكذلك عند ما يشعر الغني بالجوع والعطش في الصيام فإن مجرد هذا الإحساس كاف بالتنازل عن الذات والتوجه نحو الآخرين فيبعث في نفسه مشاعر الرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين ممّا يقوي في المجتمع روح التعاون والتضامن الاجتماعي.

ه - التعليم الذاتي بتلاوة القرآن الكريم:

لقد حرص الإمام جعفر على ربط تلاميذه بالقرآن الكريم وجعله جزءا من حياتهم، ومنهجيا كاملا يستضيئون بنوره ويهتدون بتعاليمه. فحضر على تعلّم القرآن وتعليمه. كقوله:

«ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلّم القرآن أو يكون في تعليمه»(5).

ذلك لأنّ ما يزيد المسلم من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، استمرار الاتصال بكلام الله ربّ العالمين ف «إنّ في القلب حاجة لا يسدها إلا ذكر الله والتلذذ بكريم

ص: 188

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 93، ص 292.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 4، باب أدب الصائم، ح 4.

3- علي عبد الحليم محمود، تربية الناشئ المسلم، دار الوفاء، المنصورة، 1992، ص 229.

4- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 73، ح 1766.

5- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 189.

خطابه، وإنّ فيه وحشة لا يزيلها إلاّ الأُنس بكتابه، وإنّ فيه قلقاً و خوفاً لا يؤمنه إلاّ السكون إلى ما بشر الله به عباده، وإنّ فيه فاقة لا يغيثها إلاّ التزود من حكم القرآن وأحكامه»(1).

فقال أبو عبد الله: «من قرأ القرآن فهو غني ولا فقر بعده»(2).

و من هذا المنطلق فقد كان يشجّع طلابه أن يلتزموا بقراءة خمسين آية في كل يوم(3) وأن لا يمنعهم أي شغل أو عمل من قراءة القرآن، فقال: «ما يمنع التاجر منكم المشغول في سوقه إذا رجع إلى منزله أن لا ينام حتى يقرأ سورة من القرآن»(4).

و يعلمهم في الوقت نفسه آداب القراءة ومنها: أن يدعوا الله ساعة يأخذون الكتاب العزيز للتلاوة هكذا: «اللهم فاجعل نظري فيه عبادة و قراءتي فيه فكراً، وفكري فيه اعتباراً واجعلني ممّن اتّعظ ببيان مواعظك فيه، واجتنب معاصيك... ولا تجعل نظري فيه غفلة ولا قراءتي هذراً...»(5).

فإنّ القصد الأهم من التلاوة هو التدبر في كلام الله والتعلّم منه، و الذي يعتبر التعليم الذاتي، و هو التعلّم المستمر الذي يلازم الإنسان طيلة حياته. فاتصال الفرد بالقرآن و معانيه و ما فيه من الحكم البالغة، دعوة إلى هذا النوع من التعليم في كل زمان و مكان.

على هذا ينبّه الصادق تلاميذه أن لا تكون قراءتهم قراءة سطحية فلا بدّ أن يشغل القارئ قلبه بمعاني ما يلفظ من القرآن ويفكر، و يتأمل فيه حتى تكون قراءته قراءة واعية و عميقة. و عند ما سأله رجل من كلابه أقرأ القرآن في ليلة؟ قال: «لا، إنّ القرآن لا يقرأ هذرمة(6) و لكن يرتل ترتيلاً، فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها و سل الله عزّ و جلّ الجنة، و إذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها و تعوذ بالله من النار»(7).

يوجه الإمام بهذا أن لا تغفلوا عن معاني الآيات الكريمة و أهدافها السامية و أمرها و نواهيها و وعظها و زجرها و لا يجب أن يكون هدفكم ختم القرآن في أيام معدودة أو الإسراع في قراءة السورة و البلوغ إلى آخرها، كأن آيات الجنّة و نعيمها و آيات جهنم و عذابها لا تعنيكم!!

ص: 189

1- سلمان بن عمر السندي، تدبر القرآن، البيان، الرياض، 1423، ص 18.

2- الصدوق، معاني الأخبار، مؤسسة النشر الإسلامية، إيران، 1403، ص 279.

3- المصدر نفسه و المكان نفسه.

4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 2، ص 851.

5- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 207.

6- السرعة في القراءة.

7- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب كم يقرأ القرآن، ح 2.

و - إظهار الافتقار إلى الله بالدعاء:

الدعاء تعبير حي عن معنى العبودية والخضوع والخشوع الذي يتمثل في العبادة، فهو يهزّ أعماق الإنسان بالشعور بوجود الله و حضوره في كل ملتقى للإنسان في ما يهمه من أمور الحياة وفي ما يثيره من شؤون الآخرة. و حقيقة الدعاء «استدعاء العبد ربه العناية و استمداده إياه المعونة و حقيقة إظهار الافتقار إليه و هو سمة العبودية و إظهار الدّلة»(1).

و بما أنّ النصوص الإسلامية مليئة، بترويج الناس إلى هذه العبادة، فإن الإمام جعفر كمرّب للأمة أشاد بفضل الدعاء، و أهاب بتلاميذه أن لا يتركوه في جميع أمورهم، فقال: «عليكم بالدعاء فإنكم لا تقربون بمثله، و لا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها أن صاحب الصغار هو صاحب الكبار»(2).

و لأن الدعاء ضمان للنفس من الغفلة و الطغيان فقد كان الإمام يحض طلابه على ملازمته في كل حال بقوله: «ادع و لا تقل: إن الأمر قد فرغ منه، إن عند الله عزّ و جلّ منزلة لا تنال إلا بمسألة»(3).

و للدعاء عند الصادق سجل خاص منطلق من القرآن و السنّة يحوي فنونه و آدابه و الأساليب التي ينبغي للمؤمن أن يلتزم بها حال الدعاء، و القواعد التي عليه أن يراعيها عند المناجاة بين يدي رب العزّة و جبار السموات و الأرض. و منها قوله: «لا يستجيب الدعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فاقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة»(4).

فبكل هذه التوجيهات التربوية يريد أبو عبد الله أن يكون الدعاء عند طلابه أصلاً إيمانياً متيناً، بعيداً عن العادات و التقاليد الموروثة حتى تصبح عبادة واعية لله تعالى.

و تحريضه على الدعاء كمظهر من مظاهر العبادة، لا ليتجمد الفرد، بل لكي يتحوّل إلى طاقة مبدعة في الواقع العملي، فينشط و يندمج بالحياة الإنسانية بكل قوة و وعي و ثبات و عزم إيماني.

و كذلك عاش الإمام مهتماً بالعبادات كلّها من الفرائض و النوافل، فهي عنده عمل تربوي غائي و منهج تنقيفي فاعل يستطيع رفع المستوى الروحي للإنسان المؤمن إلى أعلى درجات اليقين و الإيمان، و لذلك دعا تلاميذه إلى ممارستها، و حضّهم على

ص: 190

1- فخر الدين الخطيب الرازي، شرح أسماء الله الحسنى، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، 1976، ص 83.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 2، كتاب الدعاء، ح 6.

3- المصدر نفسه و المكان نفسه، ح 3.

4- فضل بن حسن الطبرسي، مكارم الأخلاق، منشورات شريف الرضي، ط 6، 1972، ص 270.

الالتزام بآدابها - الظاهرية و الباطنية - وركّز على ضرورة القيام بها، فهي وسيلة يعبر بها الإنسان عن فقره و حاجته إلى الخالق العظيم.

التركيز على الاعتدال في العبادة:

رغم اهتمام الإمام الصادق بتربية الروح بالفرائض و العبادات و تشجيع تلاميذه على المداومة و التدريب عليها، إلا أنه لم يغفل عن مبدأ الوسطية في تربية هذا الجانب المهم من جوانب الشخصية المسلمة.

ذلك لأن «العدل في العبادات من أكبر مقاصد الشرع»⁽¹⁾.

و لقد امتاز الإسلام ببسر تكاليفه و سماحة أحكامه و دفع الحرج أو المشقة عن الناس في أمورهم كلها كما في قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ⁽²⁾.

وقد «سمي هذا الدين الحنيفيَّة السمحة لما فيها من التسهيل و التيسير»⁽³⁾ حيث نهى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عن الزيادة في العبادة بما يحتمل النفس فوق طاقتها، حيث جاء في الأثر: «خذوا من العمل ما تطيقون فإنَّ الله لا يملّ حتى تملّوا»⁽⁴⁾.

من هذا المنطلق يريد أبو عبد الله أن يجعل هذا الأساس منهجا للحياة و لذلك يرشد أتباعه بالاعتدال في أداء العبادة تحذيرا عن الإفراط و التفريط فيقول: «اجتهدت في العبادة و أنا شاب، فقال لي أبي: يا بنيّ دون ما أراك تصنع فإن الله عزّ و جلّ إذا أحبّ عبدا رضي عنه باليسير»⁽⁵⁾.

يؤكد الإمام بهذا القول على كراهة إجهاد النفس في العبادة و يحض على الاعتدال و عدم التشدّد فيها، لأن «تحميل النفس من التكاليف ما يشق عليها، يجعلها تبغض ذلك العمل، و يؤدي بها إلى الانقطاع عن أدائه»⁽⁶⁾.

لذلك يوصي تلاميذه بأن: «لا تكثرها إلى أنفسكم العبادة»⁽⁷⁾ أي استعينوا على طاعة الله عزّ و جلّ بالأعمال في وقت نشاطكم و فراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة و هذا مظهر من مظاهر النهي عن الإفراط في مدرسة الإمام.

ص: 191

1- ابن تيمية، حقيقة الصوم، دار اعتصام، د. ت.، ص 42.

2- سورة البقرة، جزء من الآية 185.

3- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، 2000، ج 1، ص 521.

4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، ح 1969.

5- المجلسي، بحار الأنوار، ج 68، ص 213.

6- عبد الله الزهراني، الوسطية في التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 115.

7- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الاقتصاد في العبادة، ح 2.

و كذلك نرى تحذير الصادق عن التفریط في العبادة الذي يمثل في تعاليمه كالنهى عن تأخير الصلاة عن وقتها أو تخفيفها، فعند ما قيل له: الرجل تكون له حاجة يخاف فوتها، أ يخفف الصلاة؟ قال: «أولا يعلم أنّ حاجته إلى الذي يصلّي إليه؟» (1).

و بكل هذا يسعى أن يلزم أتباع مدرسته بالتجنّب عن الإفراط و التفریط، و الذي يؤدّي إلى بناء الشخصية السوية.9.

ص: 192

1- الزمخشري، ربيع الأبرار، مرجع سابق، ج 2، ص 149.

الفصل الثالث التربية العلمية و العقلية في مدرسة الإمام الصادق

إشارة

المبحث الأول: البناء العلمي

المبحث الثاني: البناء العقلي

ص: 193

تحرص التربية الإسلامية، أشدّ الحرص، على تربية المسلم تربية علمية، وحرصاً على بناء شخصيته وسلوكه بناءً علمياً إسلامياً وتؤكد عدم الفصل بين الدين والعلم، بل وتوثق الصلة بينهما، وتوظفهما معاً لصالح الإنسان في دنياه وأخراه.

جاء في الحديث: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»⁽¹⁾.

ولقد اهتم الإمام الصادق بتربية تلاميذه على هذا المنهج، واعتنى الإمام الصادق كأشد ما يكون الاعتناء بنشر العلم والثقافة وبلورة الفكر الإسلامي بشتى أنواع العلوم، فأشاد بفضل العلم وأثنى على رواده وحث على طلبه ووضع المناهج لآداب المتعلمين، كما عني بصورة خاصة بالتفقه في الدين ومعرفة أحكام الشريعة الإسلامية، التي يسمو بمعرفتها الإنسان المسلم وتزدهر بها شخصيته. وإن جهوده في نقل التراث الفكري العلمي إلى الأجيال من بعده فائقة الأثر، بالغة القيمة. وكان من خير نتائج هذه الجهود أنه ترك وراءه مدرسة فكرية خاصة، يقتدي بها الناس من بعده. ترك تعاليم من عنده لطلابه، ومنهجاً محدداً للباحثين على طريقته، وحلولاً لكل مسألة عرضت له، للمهتمين بتراثه.

فلا جرم أنه كان كثير العلم واسع الاطلاع، ولم يقتصر علمه على حقل واحد كالفقه أو العقيدة مثلاً، ليكون سبباً لمخاطبة وجذب فئة محدودة من الناس، بل كانت الروايات المستفيضة من تعليمه ومناظراته ورسائله في مختلف المجالات ولذا «تناولت مدرسته العلمية مجموعة العلوم الدينية وغيرها من العلوم الطبيعية، وتربى فيها كبار العلماء في مختلف فروع المعرفة الإسلامية والبشرية؛ بحيث نجد الحضارة الإسلامية أصبحت مدينة لعلوم الإمام ومعارفه ومنهجه التعليمي والمعرفي»⁽²⁾.

لقد أعطى الإمام الصادق العقل المنزلة الأولى، وتحدث عن اقتترانه بالعلم والدين في العديد من مروياته، وكشف عن أبعاد هذه العلاقة المستحكمة بين العقل والعلم والدين، وكان يعتمد في دروسه وأبحاثه وحواراته على الأدلة العلمية ونادى بتحكيم

ص: 195

1- أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب 10، ح 1.

2- عبد الرحيم الموسوي، المنهج الإصلاحى عند الإمام الصادق، دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الصادق، المجمع العالمي لأهل البيت، إيران، 1423، ص 175.

العقل وحرية البحث العلمي. فكان كمرب و معلم كبير قد اهتم بتنمية كامل الشخصية الإنسانية، وركز على الجانب الفكري، انسجاماً مع النهج القرآني الذي يدعو للقراءة، و يحض على طلب العلم، و يؤكد على التفكير و التأمل، و يرفض الجهل و التقليد، و يرفع من شأن العلماء و قدرهم.

و قد عرفنا في ما سبق جهود الصادق في البناء العقدي و العبادي للشخصية الإسلامية و سنتحدث في هذا الفصل عن الجانب الآخر من المجال المعرفي في البناء العلمي و العقلي التي تتجسد في الشخصية الصادقية (بعون الله تعالى).

ص: 196

المبحث الأول البناء العلمي

- أهمية العلم وحث الإمام الصادق عليه

- مدرسته العلمية وخصائصها

- الإفادات التربوية حول العالم والمتعلم

- الأساليب التعليمية عند الإمام جعفر بن محمد

ص: 197

يؤكد الدين الإسلامي على المعرفة و العلم كقيمة أساسية في الحياة تجذب الإنسان إليها و تحمّله المسؤولية، و الإسلام في طليعة الأديان التي تحث على التعلّم و التعليم، و يضع فرقا عظيما بين العالم و الجاهل، كما قال تعالى:

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (1).

وقد اشتهر عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(2).

ولأنّه لا يمكن للإنسان أن يصل إلى أهدافه السليمة في بناء مجتمعه إلا على أساس من الوعي العلمي القائم على الفهم، و التعقل لحقائق الأمور و من ثمّ فقد جعل الإسلام التسلح بالعلم ضرورة فردية و اجتماعية.

فالعلم يثير في الإنسان الوعي و الرؤية الواضحة، فيحرسه من الانحراف، و يحصنه من الضلال، و يوفر عليه ما يحمي حياته من الأخطار، و يؤمن لمجتمعه رفاهية و سلاما. و لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع»(3).

فمن مبادئ التربية الإسلامية تعظيم العلم و المعرفة، و كان للإمام الصادق اهتمام خاص بقيمة العلم و فضله و أثره في حياة الناس تمشيا مع الدين الإسلامي فقال: «العلم أصل كل حال سني و منتهى كل منزلة رفيعة»(4).

فالعلم في نظر الإمام حاكم، يمنح الإنسان الوعي لكل حالة من أحواله، فيعرف الخطأ من الصواب، و الباطل من الحق، فيسيطر على انفعالاته و نزواته، فقال: «العلم حياة القلوب، و مصابيح الأبصار، توصل به الأرحام، و يعرف به الحلال و الحرام،

ص: 199

1- سورة الزمر، جزء من الآية 9.

2- أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب السنّة، ح 224.

3- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، ح 3641.

4- المجلسي، بحار الأنوار، مرجع سابق، ج 2 ص 31.

يعطيه الله السعداء ويحرمه الأشقياء...»(1).

وقد ذكر الصادق مكانة العلم و من تحلّى به بيان فضل العالم على العابد كقوله:

«عالم أفضل من ألف عابد و ألف زاهد»(2).

وقد قام بدور إيجابي في بعث الحركة العلمية و تطويرها ابتغاء تحرير المسلمين من رواسب الجهل و الجمود، و لذلك حث المسلمين على طلب العلم، بقوله: «لو علم الناس ما في طلب العلم، لطلبوه و لو بسفك المهج و خوض اللجج»(3).

و في دعوته لطلب العلم ركّز على مرحلة الشباب، فقال مخاطباً تلاميذه: «لست أحب أن أرى الشاب منكم إلا غاديا في حالين: إما عالما أو متعلما، فإن لم يفعل فرط، و إن فرط ضيّع، و إن ضيّع أثم...»(4).

و لا شك أن قيمة العلم بقيمة فائدته، فكلما كانت فائدة العلم أعلى و أهم كان ذلك العلم أشرف و أعظم، و من الواضح أن أوجب الأشياء في حياة الإنسان هي معرفة الدين، فهو أهمّ العلوم و أشرفها.

ورد عن النبي صلّى الله عليه و سلّم: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»(5).

وقد عني الإمام الصادق بهذا الأمر فكان يحث أصحابه و مريديه على التفقه في الدين في مثل قوله: «عليكم بالتفقه في دين الله و لا تكونوا أعرابا»(6)، فإنّه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة و لم يرك له عملا»(7).

و عند ما سئل عن معنى الحكمة في قوله تعالى: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»(8).

فقال: «إن الحكمة هي المعرفة و التفقه في الدين، فمن تفقه منكم، فهو حكيم، و ما من أحد يموت من المؤمنين أحب إلى إبليس من فقيه»(9).

ص: 200

1- أبي فراس، مجموعة ورام، مرجع سابق، ج 2، ص 245.

2- الحراني، تحف العقول، مرجع سابق، ص 364.

3- القزويني، محمد كاظم، موسوعة الإمام الصادق، ج 4، ص 33.

4- الطوسي، الأمالي، ص 303 ح 604.

5- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم ح 71.

6- أي لا تكونوا كالأعراب جاهلين بالدين غافلين عن أحكامه معرضين عن تعلمها.

7- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب فرض العلم ح 7.

8- سورة البقرة، جزء من الآية 269.

9- محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 4، ص 49.

فليس للإنسان البصير أن يعيش غير مسؤول ولا يعذر الجاهل بجهله، وقد نبه الصادق تلاميذه على هذا الأمر بقوله: «أحسنوا النظر في ما لا يسعكم جهله، وانصحوا لأنفسكم وجاهدوها في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله، فإنّ لدين الله أركاناً لا ينفع من جهلها شدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته»(1).7.

ص: 201

1- محمد بن نعمان المفيد، الإرشاد، مرجع سابق، ج 2، ص 197.

إشارة

كان من أبرز الفعاليات التي بذلها الإمام في نشر العلم وإشاعته بين الناس تأسيسه مدرسة علمية لبث الوعي في الأمة وإصلاح شؤونها. وكان كبار العلماء وطلاب العلوم على اختلافها يترددون على مدرسته، ولم يختص بعلم دون آخر، ولم يقتصر على منهج واحد، فكان كل وارد يجد عنده ما يطلبه، و كل سائل يأخذ عنه أحسن الجواب.

وقد كان لمدرسته طابع خاص انفردت به عن بقية المؤسسات، وهو الاستقلال الذاتي المتميز بعدم الارتباط بأي جهاز رسمي، فقد كانت تتمتع بالحرية الواسعة في مناهجها التعليمية أو في مجالاتها الفكرية، ولم تتلق من السلطة الحاكمة أي دعم اقتصادي أو مادي، وإنما كانت منفصلة عنها، و مبتعدة في سلوكها عن جميع المؤثرات الخارجية، فهي تسير بالروح الإسلامية المشرقة و هدفها خدمة الأمة، لذلك أصبحت الوفود تنهال على هذه المدرسة من جميع الأقطار، لأنهم وجدوا في شخصية الإمام الصادق العلم و المصادقية و التفاني في خدمة العلم.

لقد عملت مدرسة الإمام على الانطلاق الفكري، و نشر الوعي العلمي، و جتّدت جمهرة كبيرة من العلماء للقيام بتثقيف المسلمين، و تهذيبهم، و تقديمهم في مختلف الميادين العلمية، فقد تميزت هذه المدرسة بمنهجها العلمي السليم، و عمقها الفكري و اتجاهها العقديّ التربوي و الإصلاحية، «و لم تكف أطروحتها في الإعداد العلمي الاعتماد على حشو الذهن بالمعلومات فقط، وإنما خرّجت هذه المدرسة شخصيات كبرى و نماذج مثلى عرفت بالعطاء السخيّ للأمة بحيث أصبح الانتماء إلى مدرسة الإمام و جامعته يعدّ من المفخرة»⁽¹⁾.

فلذا كان تلامذة الإمام الصادق يفتخرون بانتمائهم إلى تلك المدرسة العظيمة، و يرون ما اقتبسوا من علومها اعتزازا به و نشرا له.

وفيما يلي عرض موجز لشؤون هذه المدرسة في عهد الإمام الصادق.

ص: 202

1- عبد الرحيم الموسوي، المنهج الإصلاحية عند الإمام جعفر الصادق، مرجع سابق، ص 176.

مركزها:

لقد اختار الصادق المدينة مهبط الوحي فجعل فيها مدرسته، «وقد ازدهرت المدينة بها، واستعادت نشاطها في توجيه الركب الإسلامي نحو الخير والسعادة»⁽¹⁾.

أما مكان التدريس، فكان الجامع النبوي الذي كان مزدهرا بمحاضرات الإمام و دروسه التي شملت جميع أنواع العلوم، «ففيه كان حملة الحديث ورواد العلم يزدحمون لاستماع دروس الإمام و تسجيل أبحاثه»⁽²⁾.

وفي بعض الأحيان كان الصادق يلقي دروسه في بيته، «فيحكي لنا المفضل بن عمر الجعفي⁽³⁾ أن الإمام كان يلقي دروسه على تلامذته في جميع الفنون الإسلامية في داره»⁽⁴⁾ و ذات مرة روى أحد تلامذة الإمام الصادق أنه زار إمامه في منزله، فقال له الإمام: «أ معك شيء تكتب؟ قال: نعم، قال: أكتب...»⁽⁵⁾.

و حينما انتقل الإمام الصادق إلى الكوفة أيام أبي العباس، و استمر بقاء الإمام فيها سنتين، اشتغل فيها بالعلم و التعليم، و كان المسجد مكانه الذي يلقي فيه دروسه على تلاميذه و مريديه. و «شاهد الإمام في مسجد الكوفة بين جمع كبير من أتباعه يعظهم»⁽⁶⁾.

طلابها:

لما فتح الإمام مدرسته لجميع المسلمين التحق بها جمع غفير من رواد العلوم على اختلاف نزعاتهم و ميولهم.

و كان الإمام الصادق، يلقي دروسه يوميًا على أكثر من أربعة آلاف طالب، أتوا من أطراف البلاد الإسلامية، من اليمن و مكة المكرمة و البصرة و الكوفة و من مصر و إيران... و من الأقطار الأخرى. فكان مجلسه يكتظ بمختلف الطبقات من رواد العلم و حملة الحديث، و كان هؤلاء ينشرون في أوساط الأمة الإسلامية ما تعلموه منه، و أخذوه عنه.

ص: 203

1- سليمان بن إبراهيم القندوزي، ينابيع المودة، مرجع سابق، ج 3، ص 76.

2- المصدر نفسه و المكان نفسه.

3- المفضل بن عمر أبو عبد الله المفضل الجعفي الكوفي من خاصة أصحاب الإمام جعفر بن محمد و من وكلائه، له كتاب يوم و ليلة و كتاب الفكر المعروف بتوحيد المفضل الذي أملاه الإمام عليه (الخوئي: معجم الرجال الحديث، ص 303).

4- محمد الخليل، أمالي الصادق، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1985، ج 1، ص 28.

5- عبد الله فياض، تاريخ التربية عند الإمامية، مرجع سابق، ص 75.

6- المصدر نفسه، ص 66.

وقد فتح الإمام الصادق أبواب مدرسته على مصراعيها أمام الجميع ولم يقتصر دوره العلمي على تلامذته من أتباع مذهبه، وإنما كان همه إيصال الفكر الرسالي إلى الأمة جمعاء. ولذلك كانت مدرسته تستوعب مختلف الاتجاهات.

فعند ما نقرأ أسماء الرواة الذين رووا عنه أو الذين تعلموا عنده نجدهم لا ينطلقون من لون واحد، بل كانوا يتحركون في ألوان متعددة، تلتقي عند الإنسان الذي يستطيع أن يجمع الألوان عند لون الحقيقة الذي يستطيع أن يفتح على الجميع.

أنواع علومها:

وقد حصّ الإسلام على الخوض والاختصاص بجميع أنواع العلوم والمعارف خصوصا التي تتطور بها الحياة الفكرية والاجتماعية. و«الدين الإسلامي لا يخص دعوته لتعلم العلوم الدينية فحسب، وإنما يخص فرض العين بها، ويرغب في تعلم كل علم فيه إسعاد الحياة، و لا تفترق علوم الدين عن غيرها مما يحتاج إليه النوع من إسعاد الحياة ويضطر إليه، إلا في رجحان العلوم الدينية على غيرها، وعينية الوجود فيها على كل أحد و كفايته في غيرها»⁽¹⁾.

فإنّ العلم الذي حث الإسلام على طلبه لا يتقيد بنوع خاص، وإنما يشمل جميع أنواع العلوم والفنون، هذا لأنّ «غرض التربية عند المسلمين يتمثل في إعداد المرء للحياة الدنيا والآخرة»⁽²⁾ و من ثم يرى الإمام الصادق بأن لا شيء بعد التفقه في الدين و تطبيق أحكامه أفضل من معرفة العلوم والآداب الطبيعية وقوانينها، لذلك كان من الطبيعي أن يؤكد وحدة الدين والعلم. فقال: «لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاثة يفرغ إليهم في أمور دنياهم وآخرتهم، فإن عدموا ذلك كانوا همجا: فقيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة»⁽³⁾.

واللافت للنظر حقا هو صيغة التكامل والشمول التي تميز بها الصادق في تناول العلوم الدينية و العلوم الدنيوية، و عدم الفصل بينهما، حتى إنه يجعل الأمير و الفقيه و الطبيب على سواء، و يستخدم نتائج العلوم الطبيعية للاستدلال على عظمة الإله و قدرته، و في التدليل على صدق التبليغ عنه.

و من ثم أطلقت «عين جعفر على حقائق العلم فرآها في علوم الدنيا و علوم الدين، فلم يدع واحدا منهما ليلقي نفسه على الآخر، وإنما قدم ما حقه التقديم، و لم ينس

ص: 204

- 1- أمير محمد القزويني، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مرجع سابق ص 200.
- 2- عبد الرحمن عثمان الحجازي، المذهب التربوي عند ابن سحنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986، ص 55.
- 3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج 1، ص 32.

نصيبه من الدنيا، وأخذ يسبق إلى مسائل العلم المادي لأنه رآها معينة على علوم الدين ولا غنى للدنيا عنها، وكثير من مسائل العلم يشترك فيه الدين والدنيا فلا ينفصلان، وقد صار له في كل ناحية منها خبرة تدل على أنه قد غاص إلى قرارها أو كاد»(1).

وعلى هذا تناولت محاضرات الصادق ودروسه جميع الفنون العلمية التي لها الأثر التام في التقدم الاجتماعي، حتى قال بعض علماء الغرب: «يصح لنا القول بأن الصادق إن لم يكن هو الرائد المجدد في جميع العلوم، فهو دون أدنى شك في طليعة أولئك المجددين»(2).

والعلوم التي تناولتها مدرسة الإمام بالبحث والتدريس هي علوم الفلك، والطب، والحيوان، والنبات، والكيمياء، والفيزياء، فضلا عن العقيدة والفقه والأصول وعلوم القرآن وتفسيره وعلم الحديث.

ولم يقتصر الإمام في أبحاثه على الناحية العلمية، بل توسع في محاضراته، فشملت أصول الآداب والقيم الاجتماعية، من مكارم الأخلاق، والإصلاح الشامل في جميع المجالات.

وهذا التعدد في العلوم يدل على مدى عظمة مدرسة الإمام واتساع نطاقها العلمي، حتى شملت هذه العلوم.

مراعاة التخصص في العلوم:

اعتنى الإمام بالتخصص العلمي في مدرسته؛ لأن للاختصاص دورا كبيرا في إنماء الفكر الإسلامي وتطويره يمكنه من استيعاب الطاقات الكثيرة الوافدة على مدرسة الإمام من سائر أنحاء العالم الإسلامي، وبالتخصص تتنوع العطاءات، ويكون الإبداع وعمق الإنتاج، ولذا وجه الإمام أنظار تلاميذه إلى التخصص العلمي، وتصدى للإشراف على كل تلك التخصصات.

فحاول إعطاء كل مجموعة من تلامذته علما معينًا يختص به ولأن الإمام الصادق علم استعداد كل منهم، ورعى مواهبهم، فوجهها إلى ما يجلو فيها القدرة ويصقل الإمكانية، وتنج من ذلك مجموعة كبار العلماء.

فكلف أبان بن تغلب(3) بالفقه، وأمره أن يجلس في المسجد، فيفتي الناس، وكان فقيها يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه.

ص: 205

1- عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص 45.

2- مجموعة من الباحثين، الإمام الصادق في نظر علماء الغرب، مرجع سابق، ص 157.

3- انظر إلى ترجمته في ص 81.

و وكل حمران بن أعين(1) بالأجوبة عن مسائل علوم القرآن، وقد كان أحد حملة القرآن الذين يحتج بهم في القراءات، و كان عالما بالنحو و اللغة.

و سمح لزرارة بن أعين(2) بالمناظرة في الفقه و هشام بن الحكم(3) و صاحب الطاق(4) بالمناظرة في العقائد و الكلام.

و تخصص في حكمة الوجود و أسرار الخليقة المفضل بن عمر(5) الذي أملى عليه الإمام الصادق كتابه الشهير المعروف بتوحيد المفضل.

و تخصص في علم الكيمياء جابر بن حيان الكوفي(6) فنشط كل منهم حسب اختصاصه في التأليف و المناظرة، و بمرور الأيام تبوأ رجال المدرسة مواقعهم بكفاية عالية و تمكن باهر.

و لذلك سبقت مدرسة الإمام الصادق على المدارس الأخرى في تأسيس الاختصاص بالدراسات العلمية.

التأليف و التدوين:

كان من أهم إنجازات الإمام الصادق هو التأليف و التدوين الذي حرص عليهما طلابه، فاستجابوا إلى هذه الدعوة التي تحمل في أعماقها إنارة الفكر الإنساني و إشاعة العلم و بسطه بين الناس، و قد أقبل أصحابه على التأليف و تدوين علومه حتى بلغ عدد أهم ما ألفوه أربعمئة كتاب التي سميت بالأصول.

ص: 206

1- انظر إلى ترجمته في ص 108.

2- زرارة بن أعين و اسمه عبد ربّه أخو حمران بن أعين و كان نحوياً، من أصحاب أبي جعفر محمد بن علي و الصادق أكبر رجال الشيعة فقها و حديثا و معرفة بالكلام و التشيع (ابن النديم، الفهرست، ص 276)

3- هشام بن الحكم الشيباني بالولاء، الكوفي، أبو محمد، (نحو 190 هـ) متكلم مناظر، كان [إمام] الإمامية في وقته. ولد بالكوفة؛ و نشأ بواسط، و سكن بغداد، و انقطع إلي يحيى بن خالد البرمكي، فكان القيم بمجالس كلامه و نظره. و صنف كتبا منها: الإمامة و القدر و الردّ علي الزنادقة و... لما حدثت نكبة البرامكة استتر. و توفي على أثرها بالكوفة. و يقال: عاش إلي خلافة المأمون المؤيد الأموي (الزركلي، الأعلام 85/8).

4- أبو جعفر الأ-حول اسمه محمد بن نعمان، من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق و كان متكلماً حاذقاً و له من الكتب الإمامة و كتاب المعرفة. (ابن النديم، الفهرست، ص 224) طائفة من المسلمين تسميه «المؤمن الطاق» نسبة إلى «طاق المحامل» حيث كان متجره و طائفة أخرى تسميه «شيطان الطاق» فأما الإمام الصادق فيناديه بعبارة بارعة ترضي الجميع «يا طاق» أو يقول «صاحب الطاق».

5- انظر إلى ترجمته ص 172.

6- انظر إلى ترجمته ص 82.

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست جملة منها عند حديثه عن مصنفى الشيعة و علمائهم، منها كتب القراءات لأبان بن تغلب(1). و كتاب المعرفة لصاحب الطاق(2).

وقد ذكر سبعة عشر مؤلفا لهشام بن الحكم في مختلف العلوم و الفنون(3).

إضافة إلى هذا كان الإمام يصحح ما يكتبه الكبار من تلاميذه من الكتب العلمية، فقد روى «أن لعبيد الله(4) كتابا عرضه على الإمام الصادق و صححه، و استحسنته عند قراءته»(5).

وقد عهد الإمام لبعض تلاميذه بدراسة بعض الكتب خصوصا ما يتعلق بالفقه فقد روى زرارة بن أعين أن الصادق أمره بدراسة - صحيفة الفرائض - و هو من الكتب الفقهية التي عنيت ببيان سهام الفرائض من الموارث(6).5.

ص: 207

-
- 1- ابن النديم، الفهرست، ص 308.
 - 2- المصدر نفسه، ص 224.
 - 3- المصدر نفسه، ص 264.
 - 4- عبيد الله بن أبي شعبة الحلبي، أبو علي كوفي. كان يتجر هو و أبوه و إخوته إلى حلب، فغلب عليهم النسبة إلى حلب، و آل أبي شعبة بالكوفة، و كان جميعهم الثقات مرجوعا إلى ما يقولون و كان عبيد الله كبيرهم و وجههم و صنّف الكتاب المنسوب إليه و هو أول من صنّف من أصحاب أبي عبد الله. (النجاشي، رجال، 37/2).
 - 5- المصدر نفسه و المكان نفسه.
 - 6- باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 1، ص 125.

إشارة

نستخلص من أقوال الصادق مجموعة من الإفادات التربوية حول العالم و المتعلم و ذلك من خلال تحديد العلاقات المثالية التي نشد قيامها بين المعلم و المتعلم.

و قد تكلم الإمام عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل من المعلم و المتعلم.

فإن للعالم المعلم آداباً في نفسه و مع تلاميذه كما أنّ للمتعلم آداباً مع معلمه، و فيما يلي نشير إلى مجمل آراء الصادق في هذا المجال.

أ - شخصية العالم المعلم في فكر الصادق:

إشارة

المعلم هو العنصر الأساسي في العملية التعليمية، و لا يمكن أن يصلح حال التعليم إلا إذا صلح حال المعلم دينا و خلقاً و علماً.

و المعلم الصالح يستطيع أن يتلافى كثيراً من النواقص التي تعترى التعليم في المنهج و الوسائل التعليمية و غيرها، و الذي يرجع إلى تراثنا الإسلامي الذي يستمد أصوله من الكتاب و السنّة يجد ما يؤكد بوضوح مبدأ الإيمان بأهمية المعلم، و ينبه إلى الدور الخطير الذي يقوم به في بناء الفرد، و إصلاح أحوال المجتمع، و حمل رسالة الدين و فهمها و تفهيمها للناس، و يرفع من شأن العلم و العلماء، و يجعل العلماء ورثة الأنبياء و يعتبر عملهم من أجل تعليم الناس و إفادتهم من خير الأعمال الصالحة.

فشخصية المعلم في الإسلام لها أثر عظيم في عقول التلاميذ و نفوسهم، و قد يكون التلاميذ انعكاساً لشخصية المعلم. فهم يتأثرون بفعله و انفعاله. و «كان أسلافنا من علماء المسلمين يتلقون عن أساتذتهم ليس العلم فحسب و إنما الخلق و الدين و الأدب و السلوك»⁽¹⁾.

من هنا كان المعلم عند الإمام الصادق مرآة الصلاح و معيار الخير لمن يترسمون خطواته، فيوصيه بإصلاح نفسه حتى لا يروا منه إلا الحسن و الصلاح، فيروي عن جدّه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «... و اعلم أن المتلبس بالعلم منظور إليه و متأسياً بفعله و قوله و هيئته، فإذا أحسن سمته و صلحت أحواله، و تواضعت نفسه،

ص: 208

1- عجيل جاسم النشمي، الانقسام بين النظرية و التطبيق و دور الفكر الغربي، لجنة الاستشارية العليا، كويت، 1995، ص 21.

وأخلص لله تعالى عمله، انتقلت أوصافه إلى غيره من الرعية، ونشأ الخير فيهم، وانتظمت أحوالهم...»(1)

ولأن التلميذ لا يذكر إلا واسم شيخه مقرونا به فإن كان سيئا فسيلحق السوء بشيخه.

كما خاطب الإمام الصادق تلاميذه: «فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل هذا جعفري، ويسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وإن كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر»(2).

وقد حدّد الإمام مجموعة خصائص ينبغي أن يتصف بها العالم المعلم من مقومات الشخصية والمهنية كما يلي:

المقومات الشخصية للعالم المعلم:

إشارة

وهي السمات التي يجب أن يتحلّى بها المعلم في نفسه التي تجعله قدوة عليا في السلوك ومنها:

1 - الإخلاص:

لا شك أن الإخلاص، المقوم المهم من مقومات شخصية المعلم بسببه تصلح وتزكو عبادة المعلم التعليمية، وبفقدته تذهب بركة علمه وفائدته، فالمخلص في تعليمه يصبح متحررا من كافة القيود البشرية ينعم بحرية الإيمان بالله فلا يخشى إلا الله.

قال الإمام الصادق: «إذا رأيتم العالم محبا لديناه، فاتهموه على دينكم، فإن كل محب لشيء يحوط ما أحب»(3). «فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخسستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها»(4) ولذلك قال الصادق: «من تعلم لله عزّ وجلّ وعمل لله، وعلم لله، دعي في ملكوت السماوات عظيما»(5).

أي إنّ على العالم أن يخلص في تعليمه، ويجعله خالصا لوجه الله تعالى حبا له سبحانه ورغبة فيما عنده من عظيم الأجر والثواب الذي لا يتأتى إلا بتطهير النفس

ص: 209

1- زين الدين الشامي، منية المرید في آداب المفيد والمستفيد، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1405، ص 162.

2- عبد الحليم الجندي، الإمام جعفر الصادق، مرجع سابق، ص 327.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب المستأكل بعلمه، ح 4.

4- الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج 1 ص 88.

5- الطوسي، الأمالي، مرجع سابق، ص 47.

و تنوير القلب و الدعوة إلى الحق بصدق السريرة و استقامة السيرة، لأن «مدار الأعمال على النيّات، و بسببها يكون العمل تارة خزفة لا قيمة لها، و تارة جوهرة تعلم قيمتها لعظم قدرها»(1).

2 - العمل بمقتضى العلم:

قال الإمام الصادق: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه، زلّت موعظته من القلوب كما يزل المطر عن الصفا»(2) و من صفات العالم الناجي أن يعمل بعلمه، و لا- يخالف فعله قوله، فروح العلم هو العمل الصالح و» أن المنزلة التي احتلها العلماء في الإسلام لم يحتلوها لمجرد علمهم، بل لما يترتب على هذا العلم من آثار حيث يكون العالم أقدر على القيام بمهام الاستخلاف من الجاهل»(3).

و من جعل نفسه للناس معلما و مرشدا، فليبدأ بتعليم نفسه و إرشادها قبل تعليم غيره و إرشادهم. أثر عن الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بقوله: «من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه، قبل تعليم غيره... فإن معلم نفسه و مؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس و مؤدبهم»(4) و لذا أكّد الصادق على العالم ضرورة العمل بما يعلم، ليحتفظ بتأثيره في النفوس و ينال ما يستحقّه من الثواب عليه في الدنيا و الآخرة. كما في قوله: «لن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به لأنّ العلماء همتهم الرعاية و السفهاء همتهم الرواية»(5).

3 - نشر العلم:

العلم الذي يختزنه العالم في نفسه، ليس ملكا له، بل هو لكلّ من يطلبون الهدى، فليس من حقه أن يقبّع في زاوية ليحجب علمه عن الناس، فهو مسؤول عنه أمام الله تعالى الذي يقول في كتابه الكريم:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (6).

و قد روى الصادق عن الإمام علي كرم الله وجهه: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا»(7).

ص: 210

1- زين الدين الشامي، منية المريد، مرجع سابق، ص 37.

2- الكليني، أصول الكافي، باب استعمال العلم، ح 3.

3- عبد الغني عبود، الفكر التربوي عند الغزالي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982، ص 74.

4- الشريف الرضي، نهج البلاغة، دار المعرفة، بيروت، د. ت، الحكمة 73.

5- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 2 ص 37.

6- سورة البقرة، الآية 159.

7- المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 67.

فلا يمكن للعالم أن يكون حياديًا إزاء الجهل، بل لا بدّ له أن يبذل العلم عند وجود المستحق، فقال الصادق: «إن لكل شيء زكاة، وزكاة العلم أن يعلمه أهله»⁽¹⁾.

وفي كلام آخر أشار إلى ثواب التعليم بقوله: «من علّم خيرا فله مثل أجر من عمل به، قيل: فإن علّمه غيره يجري ذلك له؟ قال: إن علّمه الناس كلهم، جرى له، قيل: وإن مات؟ قال: وإن مات»⁽²⁾.

من هنا يحذّر الإمام صاحب العلم من التقاعس عن نشر العلم بقوله: «إنّ من العلماء من يحبّ أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأول من النار»⁽³⁾، لأن انتفاع الناس بالعلم لا يكون إلا بنشره، وما فائدة السراج إذا أطبق عليه.

فالإمام يؤكد مسؤولية العالم في التعليم فالعلم ملك للناس جميعا وأداة لتطوير حياتهم.

4 - ترك الفتوى من غير علم:

ومما اعتبره الصادق منافيا لروح المعرفة العلمية هو القول بغير علم، إذ ما يستدعيه التزام الإنسان بالمعرفة العلمية أن لا يتجاوز حدود علمه فيما يؤمن به من فكرة أو يتعبد به من عقيدة، و التزم الإنسان بهذا المبدأ يكشف عن إخلاصه للعلم واحترامه لعقله، وفي الوقت نفسه يكشف عن رغبة الإنسان في الالتزام بالحق الذي يفرض عليه أن لا يتكلم خارج إطار ما يعرف ويعلم، وفي هذا الشأن يقول: «حق الله على خلقه أن يقولوا ما يعلمون، ويكفّوا عما لا يعلمون، فإذا فعلوا ذلك فقد أدّوا إلى الله حقه»⁽⁴⁾.

فهذا المبدأ له أهميته ومكانته في حياة المعلم والمربي لقد رسم الصادق للعالم طريق النجاة والكرامة بقوله: «للعالم إذا سئل عن شيء و هو لا يعلمه أن يقول: الله أعلم»⁽⁵⁾.

فجواب من لا يعلم بأنّ الله أعلم تسليم لله تعالى بالعلم، وذود للنفس عمّا يشينها من الباطل، فهو قيمة دينية و خلقية رفيعة تريح باله، و تزيده ثقة بنفسه واحتراما في عين الناس.

وهذا ما أراده الصادق الذي انتقل من التذكير إلى التحذير، فقال: «واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسرا»⁽⁶⁾.

ص: 211

1- الحرّاني، تحف العقول، ص 564.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب ثواب العالم والمتعلم، ح 3.

3- الصدوق، الخصال، مرجع سابق، ص 352، ح 33.

4- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب فضل العلم، ح 12.

5- المصدر نفسه باب النهي عن القول بغير العلم، ح 5.

6- المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 226.

وفي هذا التحذير أمر بالفرار من الإفتاء بغير علم، ونهى عن خسران الدنيا والآخرة بالتعلم، لأن «قول العالم: لا أدري لا يضع منزلته، بل يزيدها رفعة، ويزيده في قلوب الناس عظمة وتفصّلا من الله تعالى عليه، و تعويضا له بالتزامه الحق، و هو دليل واضح على عظمة محلّه و تقواه و كمال معرفته»(1).

و الفتوى بغير علم ليست منقصة في حق العلماء فحسب، وإنما هو من المهلكات، يقول الإمام الصادق ما نصّه: «إياك و خصلتين مهلكتين: أن تفتي الناس برأيك، و أن تقول ما لا تعلم»(2).

و هكذا كان الصادق يخشى على المسلمين الانزلاق إلى الهوى و الانغماس في حب النفس الذي يخرج بها عن الصراط المستقيم، و يهوي بها في ظلمات النقص و البوار.

5 - عدم التباهي و التفاخر بالعلم:

إنّ العلم لا ينفع صاحبه و لا طالبه ما دام يقترن بالكبر في نفس العالم، فالمتكبر تعافه النفس، و تنفر منه، و يذهب ما عنده من العلم أو الرغبة فيه سدى.

من هنا فقد أهاب الصادق بالعلماء ألا يباهوا و لا يفخروا بالعلم نأيا بهم عن الخسران المبين، فقال: «من تعلم علما ليماري به السفهاء أو يباهي به العلماء أو ليقبل بوجوه الناس إليه فهو في النار»(3).

و حذر العلماء مما يسوؤهم و يعرضهم للخسران المبين، فقال: «آفات العلماء ثمانية أشياء: الطمع، و البخل، و الرّياء، و العصبية و حب المدح، و الخوض فيما لم يصلوا إلى حقيقته، و التكلف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ، و قلة الحياء من الله و الافتخار، و ترك العمل بما علموا»(4).

و لو اجتنب العلماء هذه المساوئ، لبلغوا المنزلة الرفيعة و نالوا الكرامة في الدنيا و السعادة في الآخرة.

المقومات المهنية للعالم المعلم:

إشارة

المقصود بالمقومات المهنية الأعمال التي يقوم بها المعلم خلال مزاولته للتعليم بهيئة و كيفية خاصتين تزيدان من تأثير حضوره و من استيعاب الطالب. فعند ما يهذب المعلم روحه و نفسه و يؤدبها يترك آثارا أكثر لدى المستمع من النواحي المعنوية و التعليمية و التربوية. و من جملة تلك الآداب:

ص: 212

1- زين الدين الشامي، منية المريد في آداب المفيد و المستفيد، مرجع سابق، ص 105.

2- محمد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 4، ص 174.

3- الصدوق، معاني الأخبار، ص 180 ح 1.

1 - البدء بالبسملة:

من أهم المقومات المهنية للمعلم بدء تعليمه بالبسملة والاستعانة بالله؛ لأن الدين الإسلامي هو دين التوحيد، وكل شيء فيه يدور حول محور التوحيد، لذلك فإن الاستعانة بالله واللجوء إليه أمر ضروري للقيام بأي عمل، ذلك لأن إرادته تعالى إذا لم تشأ أمراً فلن يكون، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (1)

كما أن أي عمل يتم دون ذكر اسم الله، فسيكون الشيطان شريكاً فيه بشكل من الأشكال، ويؤدي ذلك إلى بطلانه وخرابه.

روي عن الإمام الصادق قوله: إذا توضأ أحدكم أو شرب أو أكل أو لبس وكل شيء يصنعه له أن يسمي، فإن لم يفعل؛ كان للشيطان فيه الشرك (2).

بدء العمل باسم الله يعد نوعاً من التقدير والشكر لله على نعمه، كما إنه طلب منه تعالى أن يعين على أداء العمل وإتمامه. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله فهو أبت» (3).

وروي عن الإمام الصادق قوله: «وربما ترك في افتتاح أمر بعض أتباعنا بسم الله الرحمن الرحيم؛ فيمتحنه الله بمكروه وينبئه على شكر الله تعالى والثناء عليه، ويمحو فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه باسم الله» (4).

وكان الإمام بنفسه يلتزم بالبسملة دوماً عند بدء درسه أو خطبه أو رسائله وما يمليه. كما يقول: «لا تدع بسم الله الرحمن الرحيم وإن كان بعده شعر» (5).

2 - الوضوء والطهارة:

لقد حصّ الإسلام دوماً على الوضوء والطهارة، إلى درجة أنه من المستحب أن ينام الإنسان وهو على طهارة وتزداد أهمية هذا الأمر في مجال التربية والتعليم. نرى الصادق كان ينصح تلاميذه حين يريدون الإقبال على التجربة وتحصيل العلم بالوضوء والطهارة بقوله: «من ذهب في حاجة على غير وضوء فلم تقض حاجته، فلا يلومن إلا نفسه» (6).

ص: 213

1- سورة الكهف، الآية 23-24.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 1، ص 426 ح 1115.

3- أخرجه أحمد في مسنده، ج 2، ص 60.

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 73، ص 305.

5- الكليني، أصول الكافي، ص 672، ح 1.

6- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3 ص 157، ح 3578.

فإنّ الوضوء و الطهارة بحدّ ذاتهما هما نوع من التزكية، و من أجدر بهما من المعلم. وقد ذكر الإمام مالك بن أنس أن الإمام الصادق كان إذا ذكر حديثاً لرسول الله صلّى الله عليه و سلّم كان يلتزم على الطهارة.(1)

3 - التواضع و احترام الدرس:

و من جملة الآداب التعليمية مراعاة حرمة العلم و طالبه. فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قوله: «وَقَرُّوا مِنْ تَعَلُّمُونَهُ الْعِلْمَ»(2).

و قرّر الإمام الصادق بهذا بقوله: «تواضعوا لمن تعلّمونه العلم، و لا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطلكم بحقكم»(3).

و هذه دعوة حازمة لازمة للعالم أن يلين لتلاميذه و المتعلّمين على يديه، و يلفظ بهم، و يعطف عليهم، «لأنّ التواضع من السنن الأكيدة، و إن كان لازماً لكل من الناس خصوصاً للمؤمنين لكن للمتعلّمين أوجب، لأنهم بمنزلة الأولاد مع ما هم عليه من ملازمة العالم و اعتمادهم عليه في طلب العلوم النافعة»(4).

و قد روي أن سفيان الثوري(5) سأل الإمام الصادق عن خطبة النبي صلّى الله عليه و سلّم في مسجد الخيف، و كان الإمام يستقل مركباً ليتوجه إلى مكان ما، فوعده الإمام بإجابته بعد عودته من شأنه، لكن سفيان أصرّ على ذلك، عندئذّ ترجل الإمام عن مركبه و قال: «اكتب باسم الله...»(6) و تصرّف الإمام هذا يدل على مدى احترامه للعلم و التعليم، مما جعله يترجل عن مركبه و يذكر له خطبة النبي صلّى الله عليه و سلّم.

4 - المحبة و عدم العنف:

المحبة هي المبدأ التربوي الذي لا يستقيم تعليم و لا تربية من دونه، فالطلاب بحاجة إلى المحبة و اللطف و الرعاية، كي يطمئنوا إلى معلمهم فيحبوه و يثقوا به و يقدرّوا مكانته، و متى نمت هذه العلاقة استطاع المعلم أن يفعل الشيء الكثير في ميدان التعليم.

و ليس من أخلاق المعلم المسلم العنف و الخشونة في تعليمه، لأنّها تؤدي إلى ابتعاد التلاميذ عنه و عدم التفاتهم إليه إذا كان فظاً غليظ القلب.

ص: 214

1- أمين الخولي، مالك بن أنس، هيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص 77.

2- جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، 1401، ج 2، ص 716، ح 9628.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب صفة العلماء، ح 1.

4- أمير علاء الدين القزويني، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مرجع سابق، ص 235.

5- انظر إلى ترجمته ص 50.

6- علي حسيني زاده، النظرة إلى التعليم الديني، مركز البحث في الحوزة و الجامعة، قم 2000، ص 190.

أشار الإمام الصادق إلى هذا الأدب بقوله:

«على العالم إذا علّم ألا يعنف، وإذا علّم أن لا يأنف»⁽¹⁾.

فينبغي أن يحسّن العالم خلقه لمن يعلمهم، ويتلطف بهم إذا لقيهم و يظهر لهم البشر و المودّة. و وصف الإمام مالك الصادق نفسه في مجلس درسه فقال: «لقد كنت أرى جعفر بن محمد و كان كثير التبسّم...»⁽²⁾.

و كانت العلاقة بين الإمام و تلاميذه حميمة جدا، حتى إنه إذا دخل عليه أبان بن تغلب - مثلا - ثنى له الوسادة، و صافحه مستقبلا و مودّعا، و قال في وفاته: «أما و الله لقد أوجع قلبي موت أبان»⁽³⁾. و كذا يقول لأبي حمزة الثمالي: «إني لأستريح إذا رأيتك»⁽⁴⁾.

و شمل لطفه حتى معارضيه و المنحرفين عنه رحمة لهم و شفقة عليهم و رغبة فيهم، فكان يخاطبهم برقيق القول من قبيل: يا أخا مصر يا أخا الشام.

5 - العدل بين الطلاب:

من الآداب الأخرى التي ينبغي مراعاتها في التعليم، و لها آثار تربوية و تعليمية كبيرة. أن يراعي المعلم العدل بين تلاميذه في الجوانب كلها، العدل في النظرات نحوهم، و في السؤال و الجواب و التشجيع و الجزاء و غير ذلك. و كان النبي صلّى الله عليه و سلّم يراعي العدل حتى في النظر إلى أصحابه عند الحديث معهم.

و المعلم الذي لا يراعي العدالة بين تلامذته، يفقد مكانته عندهم، و إذا انعدم احترام الطلاب لمعلمهم فلن يصغوا إلى كلامه و دروسه، مما سيقلل من استيعابهم.

من هنا فقد عني الإمام الصادق بهذا الأدب، و عند ما سئل عن هذه الآية:

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ (5) قال: ليكن الناس عندك في العلم سواء⁽⁶⁾.

و في كلام آخر إلى المعلم الذي سأله عن التعليم قال: «... أن يكون الصبيان عندك سواء في التعليم و لا تفضّل بعضهم على بعض»⁽⁷⁾.

ص: 215

1- الزمخشري، ربيع الأبرار، مرجع سابق، ج 3، ص 293.

2- تقي الدين أحمد بن تيمية، قاعدة جلييلة في التوسل و الوسيلة، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت، ص 52.

3- عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص 163.

4- محمد المظفر، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 2، ص 135.

5- سورة لقمان، جزء من الآية 18.

6- زين الدين العاملي، منية المرید، ص 185.

7- الطوسي، الاستبصار، ج 3، ص 65 ح 214.

فيرشد الصادق المعلم إلى أمر تربوي عظيم تبتني عليه صيانة قدر الإنسان وكرامته و يشترط لجواز شغله أن يكون التلاميذ عنده سواء و أن لا ينظر إلى الفواصل المالية و الفروق المعيشية و المظاهر الترفيهية فيهم، فيحذره عن عواقبه كما ينصه:

«من العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة و الشرف، و لا يرى له في المساكين وضعاً، فذاك في الدرك الثالث من النار»(1).

6 - مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين:

الفروق الفردية «هي تلك الخصائص و الصفات التي يتميز بها كل إنسان عن غيره من بني البشر سواء كانت هذه الخصائص تتعلق بالنواحي الجسمية أم العقلية أم الاجتماعية أم الأخلاقية»(2).

و لا شك في وجود هذه الفروق بين الأفراد، و لا يتشابه اثنان تشابهاً تاماً، «فقد اقتضت حكمة الله عزّ و جلّ وجود فوارق فردية بين البشر لكونها من أهم الوسائل الدافعة للإنسان نحو الرقي و التطور المستمر»(3) و في كتاب الله عزّ و جلّ الذي هو هداية و منهج للحياة إشارات عديدة للفروق الفردية و ضرورة العناية بها، قال تعالى:

وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ (4)

و هناك في القرآن دعوة صريحة إلى ضرورة تحمل كل نفس ما تستطيع حمله و عدم تكليفها فوق ذلك: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (5)

و عملاً بالقاعدة نفسها ورد في الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم و نكلّمهم على قدر عقولهم»(6).

و في هذا الحديث مبدأ تربوي مبني على الاعتراف بما بين الناس من فروق في العقول. «و لما كان لكل متعلم قدرات و استعدادات خاصة به. لذا نرتب على المعلم أن يسير معه بقدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله»(7).

ص: 216

1- الصدوق، الخصال، ص 352.

2- فاروق عبد السلام، مدخل إلى القياس التربوي و النفسي، دار البشائر، بيروت 1991، ص 112.

3- عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، مرجع سابق، ص 147.

4- سورة الروم، الآية 22.

5- سورة البقرة، جزء من آية 286.

6- ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1986 ج 6، ص 274.

7- محمد منير سعد الدين، تاريخ التربية عند المسلمين، مرجع سابق، ص 117.

فلم يغفل الإمام الصادق عن مراعاة الفروق الفردية في التربية العملية عند المتعلمين إذ أمر بعض تلامذته بالمناظرة، ونهى بعضهم عنها، فقد رأى أحد تلامذته صاحب الطاق وهو يناظر المخالفين في المدينة فنّبّه على أن الإمام ينهى تلاميذه عن الكلام فالتفت صاحب الطاق إليه وقال:

أو أمرك أن تقول لي؟

قال: لا، ولكنه أمرني ألا أكلم أحدا.

قال: اذهب فأطعه فيما أمرك.

وسمع الصادق بالواقعة من التلميذ فتبسّم، وقال له: «إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير، أما أنت إن قصوك لن تطير»⁽¹⁾.

وعاش الصادق يمنع كلاً من تلاميذه عن الخوض في علم ما إذا شعر أنّه لا يفلح فيه، ويسمح به للمقتدر عليه انطلاقاً من معرفته ما يمتاز به بعض الناس من بعض في هذا المضمار أو ذلك.

ومما يؤكد هذا المنهج ما رواه أبو زهره أنّ الإمام كان يخلو بجابر «أنّه كان يدارسه، ويختصه بالانفراد به في الدراسة مما يدلّ على أنّ ما كانا يتدارسانه لا يطيقه كل الناس لدقة حقائقه وعمق ما يحتاج إليه من تفكير»⁽²⁾.

ب - شخصية المتعلم في فكر الصادق:

إشارة

حدّد الإمام الصادق خصائص أو سمات المتعلّم فيما يخص من الناحية الشخصية والسلوكية التي تجسّد من العلاقة المثالية بين العالم والمتعلم، وتعاليمه كان على رأسها التوجيه المعنوي الذي يعتبر اليوم أساساً أولياً لكل روح علمية خالصة، فهو لا ينسى أن ينبّه على موضوع بالغ الأهمية وهو تركية النفس قبل التعلم، لأنّ العلم نور لا يقذفه الله تعالى في القلب المنجس بالكدورات النفسية والأخلاق الذميمة، فيقول الصادق:

«ليس العلم بكثرة التعلم، وإنّما هو نور يقذفه الله تعالى في قلب من يريد الله أن يهديه»⁽³⁾.

والمقصود بالعلم في كلام الإمام هو المعرفة، والعلم غير المعرفة. العلم طائفة من المعلومات تشغل الذاكرة وليس لها علاقة بالسلوك أما المعرفة فلها علاقة مباشرة بسلوك الإنسان وأخلاقه. وفي الآية الكريمة: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**⁽⁴⁾

ص: 217

1- الحراني، تحف العقول، ص 308.

2- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 80.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 225.

نجد العلاقة بين المعرفة والسلوك والأخلاق بشكل واضح، والمقصود بالعلماء في هذه الآية أصحاب المعرفة، «فإن العلم لا يتم تحصيله إلا بالتعلم ولكن قول جعفر الصادق لا يراد به ظاهره إنما يراد به حسن الانتفاع وصدق العمل»(1).

و بهذا يعلم» أن العلم ليس هو مجرد استحضار المعلومات الخاصة وإن كانت هي العلم في العرف العامي وإنما هو النور المذكور الناشئ من ذلك العلم الموجب للبصيرة والخشية لله تعالى»(2).

ولذلك اهتم الصادق بهذا الأمر بالغ الأهمية بقوله:

«فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك»(3).

فهو لا- يكتفي بالحث على تحصيل العلم بل يأمر إلى جانب ذلك بالتخلُّق بالأخلاق الفاضلة، فالتقوى والأخلاق أولاً ثم العلم، فلا أثر لعلم بغير تقوى ولا ثمر لدين بغير علم.

إذن فلا بد لكل «متعلم أن يطهر نفسه أولاً من رذائل الأخلاق، والأوصاف بأسرها وإذا لم يجد لوح نفسه عن النقوش الروية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة»(4).

فقد ورد عن الصادق توصيات عامة، يوصي بها المتعلمين وما ينبغي أن يتصفوا به تجاه المعلمين، منها ما رواه عن جدّه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مخاطباً لطلبة العلم: «يا طالب العلم، إن العلم ذو فضائل كثيرة، فأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النيّة، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء. و همته السلامة، وحكمته الورع، ومستقرّه النجاة. وعافيته العافية، وجيشه محاوراة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه المودعة، ودليله الهدى، ورفيقه محبة الأخيار»(5).

ويبدو واضحاً من خلال هذا النص معظم الصفات التي يجب أن يتصف بها المتعلم.2.

ص: 218

1- محمد غزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار القلم، دمشق، 1988، ص 170.

2- زين الدين العاملي الشامي، منية المرید في آداب المفيد والمستفيد، مرجع سابق، ص 69.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 226.

4- محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، ج 1، دار التفسير، قم، 1423، ص 92.

5- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب فضل العلم، ح 2.

وفيما يلي جملة من هذه الصفات التي أوردها الإمام، والتي ينبغي لطالب العلم التحلي بها كي ينجح في دراسته وحياته العلمية:

1 - الإخلاص:

وينبغي للمتعلم أن يخلص لله تعالى في طلبه للعلم، وأن يتوخى في ذلك مرضاة الله تعالى، وأن يتجرد من الهوى ومن حظوظ النفس، و قد أعلن ذلك الإمام الصادق بقوله: «من أراد الحديث لمنفعة الدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب، و من أراد به خير الآخرة أعطاه الله خيري الدنيا والآخرة»(1).

وقد كان يحث تلاميذه واللائذين به و الطائفين حول رحابه على الإخلاص و أن لا يكون في طلبهم للعلم شيء من المرء و المباحة و المفاخرة. و الوصول إلى جاه أو مال أو لمجرد التفوق على الأقران، بل لنشر العلم و الفضيلة، فكان يقول:

«لا تطلب العلم لثلاث: لتراخي به، و لا لتباهي به، و لا لتماري به»(2).

و أهاب الإمام بطلاب العلوم ألا يتباهوا و لا يفخروا على غيرهم بما عندهم من طاقات علمية ذلك لأن «الذين مقصودهم من وراء الدراسة أمور نفسية نستطيع أن نقول أن غاية مطلوبهم الجهل»(3)، و قد بين الصادق بوضوح أصناف طلاب العلوم، مصورا لدوافعهم النفسية، فقال: «طلبة العلم ثلاثة: فاعرفهم بأعينهم و صفاتهم - و هم:

- صنف يطلبه للجهل و المرء.

- صنف يطلبه للاستطالة و الختل.

- و صنف يطلبه للفقه و العقل.

فصاحب الجهل و المرء: مؤذ ممار، متعرض للمقال في أندية الرجال، بتذاكر العلم، و صفة الحلم، قد تسربل بالخشوع، و تخلى عن الورع، فدق الله من هذا خيشومه(4)، و قطع منه حيزومه(5).

و صاحب الاستطالة و الختل: ذو خب(6) و ملق(7)، يستطيل على مثله من أشباهه،

ص: 219

1- عبد علي الحويزي، تفسير نور الثقلين، مؤسسة اسماعيليان، قم، 1411، ج 4 ص 569.

2- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 123.

3- روح الله الخميني، الأربعون حديثا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط 6، 1419، ص 421.

4- خيشوم أقصى الأنف، و دق الخيشوم الكناية عن الذلّ و الهوان، (ابن منظور، لسان العرب، مادة خشم).

5- وسط الصدر، (المصدر نفسه، مادة حزم).

6- الخداع و الخبث، (المصدر نفسه، مادة خب).

7- رجل ملق: يعطي بلسانه ما ليس في قلبه، (المصدر نفسه، مادة ملق).

و يتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوانهم هاضم، ولدينه حاطم، فأعمى الله على هذا خبره، وقطع من آثار العلماء أثره.

وصاحب الفقه والعقل: ذو كآبة، وحزن وسهر، وقد قام الليل في حنّده (1) يعمل ويخشى، و جلا داعيا، مشفقا، مقبلا على شأنه، عارفا بأهل زمانه، مستوحشا من أوثق إخوانه، فشدّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه» (2).

وسلّط الإمام الضوء على نفسيّات طلاب العلوم، وأن من يطلب العلم منهم لغير الله فهو في ضلال مبين، وأما من يطلب العلم لوجه الله، فهو على هدى، وأعطاه الله يوم القيامة أمانه.

2 - الحلم:

ومن آداب المتعلم متابعة العالم وملازمته في طلب العلم والصبر على ما لم يحط علمه به من ذلك، فقد أوصى الصادق تلاميذه بالتحلي بالحلم في كثير من وصاياه لهم فقال: «عليك بالحلم فإنّه ركن العلم» (3).

فقد أثر عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «ما جمع شيء أفضل من حلم إلى علم» (4).

لذلك أدب الصادق تلاميذه بهذا الأدب تصديقا لما ورد في حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم بقوله:

«أطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار» (5).

ففرى شخصية المتعلم في فكر الصادق بأنّه يملك العلم ولكن مع سعة الصدر عند ما يواجه التحديات.

3 - التواضع:

ينبغي على طالب العلم التواضع للعالم المعلم لأنّ التواضع هو دليل على شرف النفس و سمو الذات، «فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع» (6) وقد أكّد الصادق على ضرورة التحلي به للإنسان المسلم بصورة عامة ولطالب العلم خاصة بقوله:

«و تواضعوا لمن طلبتم منه العلم» (7).

ص: 220

1- الحنّس: الظلمة، (المصدر نفسه، مادة حنّ).

2- زين الدين الشامي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مرجع سابق، ص 44.

3- الصدوق، الأمالي، ص 711.

4- سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، دار الحرمين، د. ت، ج 5، ص 120.

5- الصدوق، الأمالي، ص 440 ح 585.

6- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 1، ص 76.

و أوصى الصادق تلاميذه بقوله: «اطلبوا العلم بوجوهه، فانبرى إليه بعض أصحابه، فقال: ما وجوهه؟ فأجابه: بمناهجه و وجوهه قائلًا: «التواضع للعالم، و القبول منه، و الصمت أمامه، و الاستماع إليه، و حفظ العلم، و العمل به...»(1).

4 - تعظيم العالم:

يجب على المتعلم تعظيم العالم و توقيره «و أن يحافظ على شرائط الخضوع و الأدب للمعلم و لا يردّ عليه شيئًا بالمواجهة و يكون محبا له بقلبه و لا ينسى حقوقه»(2).

و لذلك ما حصّ الإمام الصادق على طلب العلم إلّا و حصّ على العناية بشأن العلماء و العطف عليهم فقال:

«من أكرم فقيها مسلما لقي الله يوم القيامة و هو عنه راض، و من أهان فقيها مسلما لقي الله يوم القيامة و هو عليه غضبان»(3).

و قال: «إني لأرحم ثلاثة، و حقّ لهم أن يرحموا: عزيز أصابته مذلة بعد العزّ، و غنيّ أصابته حاجة بعد الغنى، و عالم يستخفّ به أهله و الجهلة»(4).

و قال: «ثلاثة يشكون إلى الله عزّ و جل: مسجد خراب لا يصلّي به أهله، و عالم بين جهّال، و مصحف معلق قد وقع عليه غبار لا يقرأ فيه»(5).

5 - طلب العلم بالجد و الاجتهاد و السؤال:

ينبغي على طالب العلم أن يجتهد في تحصيل العلوم، فعليه المبادرة إلى التفهم و السؤال. و كان الإمام الصادق يحض تلاميذه على المبادرة إلى السؤال عمّا جهلوه، و يوجههم لأهمية السؤال و آدابه ممّا يعود نفعه علميّا و تربويّا على نفس التلميذ و أوصى بقوله: «إذا كنت لا تعلم، عليك أن تسأل و لا تتجمّد عند جهلك، لأنّ جهلك ليس عذرا لك أمام الله، ما دمت تستطيع أن تحوّل جهلك إلى علم. و دواء العي السؤال»(6).

و قال: «إنما يهلك الناس لأنهم لا يسألون...»(7). أي يهلكون لأنّهم جهلوا تكاليفهم و عقيدتهم، فأنحرفوا من موقع جهلهم، و كانوا القادرين على أن يسألوا العلماء

ص: 221

1- باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 2، ص 308.

2- محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، مرجع سابق، ج 1، ص 144.

3- كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 4، ص 62.

4- الصدوق، الخصال، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د. ت، ص 87.

5- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب قراءة القرآن في المصحف، ح 3.

6- كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 4، ص 58.

7- المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 198.

وأهل المعرفة، ولكنهم أحجموا عن ذلك ولم يتحسّسوا أهمية الأمر.

وقال أيضا: «إن هذا العلم عليه قفل وفتاحه المسألة»⁽¹⁾.

وأوصى المتعلمين بترك الحياء في طلب العلم؛ لأنه يؤدي إلى الجهل فقال ما نصه: «لا تدع طلب العلم لثلاث: رغبة في الجهل، وزهادة في العلم، واستحياء من الناس»⁽²⁾.

وكان الإمام يستقبل من يسأله بالترحيب والتودد وانبساط الوجه والخلق العالي وقد يحسنهم على بعض الأسئلة تشجيعا لهم على طلب العلم.

ولكن يلزم الإمام طالب العلم بأن يكون سؤاله طلبا للمعرفة وإزاحة الجهل وليس له أن يسأل تعنتا وحباً لظهور الأمر الذي يتنافى مع واقع العلم. فقال: «فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة، وإياك أن تعدل بذلك شيئا، وخذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلا...»⁽³⁾.

دخلت على الإمام امرأة، فسألته عن مسائل في الحرام والحلال، فتعجّب تلاميذ الإمام من حسن تلك المسائل، فقال لهم الإمام: «أرأيتم مسائل أحسن من مسألها؟»⁽⁴⁾.

6 - كتابة الدروس و المحافظة على الكتب:

من آداب المتعلم اهتمامه بكتابة الدروس وقد ورد عليها كثير من الآثار فمنه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»⁽⁵⁾، فينبغي لطالب العلم أن يحمل معه أدوات الكتابة، فقد روي أنه جاء رجل إلى أبي عبد الله و معه أناس من أصحابه فسأله حديثا فأخبره به «فكتب القوم الحضور عنه ذلك الحديث»⁽⁶⁾.

وروي أنّ الإمام نظر إلى فتى على ثيابه أثر المداد وهو يستره لئلا يراه الإمام، فقال له الصادق: «يا هذا إنّ المداد على الثياب من المروءة»⁽⁷⁾.

وكان الإمام يحث تلاميذه على كتابة العلم؛ لأنه مفتاح للتأليف وسبب لتطور

ص: 222

1- الكاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 4 ص 59.

2- محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، مرجع سابق، ص 123.

3- زين الدين العاملي، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، ص 150.

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 47، ص 121.

5- نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، ص 196.

6- عبد الله فياض، تاريخ التربية عند الإمامية، مرجع سابق، ص 193.

7- باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج 1، ص 124.

الفكر و تقدم للطالب في ميادين العلم وقد أكد دعوته الملححة على هذه الجهة في غير موطن كقوله: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»(1)، وقال: «إنَّ القلب يتكل على الكتابة»(2).

و حث تلاميذه على تدوين دروسه و محاضراته و ذلك خوفاً عليها من الضياع و الاضطراب. فقال للمفضل بن عمرو: «اكتب و بثَّ علمك في إخوانك، فإنَّ مَثَّ فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمن هرج لا يأسون فيه إلا بكتبهم»(3).

كما أوصى تلاميذه بالمحافظة على الكتب بقوله: «احتفظوا بكتبكم، فإنكم سوف تحتاجون إليه»(4).

و لأن الكتاب يعتبر من أعظم الوسائل التربوية و أحسن وسيلة لنقل العلوم و الحقائق أو الآراء و الأفكار من جيل إلى جيل، فهي مادة أساسية للمعرفة و بمنزلة الكنوز التي يتركها السلف للخلف. فقد اهتم الإمام الصادق بهذا الأمر و رسم لنا منذ اثني عشر قرناً ما للكتب من قيمة علمية و أدبية بقوله:

«... و كذلك الكتابة التي تقيّد أخبار الماضين للباقيين، و أخبار الباقيين للآتين، و بها تخلد الكتب في العلوم و الآداب و غيرها، و بها يحفظ الإنسان ذكر ما يجري بينه و بين غيره من المعاملات و الحساب، و لولاه لانقطع أخبار بعض الأزمنة عن بعض، و أخبار الغائبين عن أوطانهم، و درست العلوم، و ضاعت الآداب، و عظم ما يدخل على الناس من الخلل في أمورهم و معاملاتهم، و ما يحتاجون إلى النظر فيه من أمر دينهم، و ما روي لهم ممّا لا يسعهم جهله...»(5).9.

ص: 223

- 1- الكليني، أصول الكافي، ج 1، باب رواية كتب الحديث، ح 9.
- 2- المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 152.
- 3- زين الدين العاملي، منية المرید، ص 241.
- 4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ح 33262.
- 5- كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص 39.

كان الإمام الصادق يستخدم بعض الأساليب في تعليم تلاميذه، ومنها:

أ - استخدام الوسائل التعليمية:

للوسائل التعليمية دور مهم في شرح العملية التعليمية و لمزيد من الفهم عند الطالب، فأهم وسائل المعرفة عند الإنسان وأكثرها شيوعاً هي الحواس الظاهرية، وخاصة لدى المبتدئين. والحواس الظاهرية لا تدرك إلا المحسوسات، أما غير المحسوسات فإنها تدرك عن طريق العقل والذهن، والعقل والذهن يدركان عبر مقدمات حسية. وعليه فكلما ازدادت المقدمات الحسية و كانت أكثر وضوحاً كلما كان الإدراك العقلي والذهني أفضل وأسرع. من هنا ينبغي أن يقدم المحتوى المضمون التعليمي العقلي أو الذهني بأساليب مختلفة منها استخدام وسائل التوضيح التعليمية المحسوسة والملموسة.

فترى الإمام الصادق يستخدم بعض هذه الوسائل المحسوسة، فعند ما سئل: متى وقت الصلاة؟ فأقبل يلتفت يمينا و شمالا كأنه يطلب شيئا فأخذ عودا فنصبه بحيال الشمس ثم قال: «إنَّ الشمس إذا طلعت كان الفيء طويلا ثم لا يزال ينقص حتى تزول، فإذا زالت، زادت، فإذا استتبت فيه الزيادة فصلَّ الظهر ثم تمهّل قدر ذراع وصلَّ العصر»⁽¹⁾.

في هذه الرواية نجد أن الإمام الصادق استخدم عودا من الخشب منصوبا ليعلم الرجل كيفية تحديد وقت الصلاة.

و تؤدي وسائل التوضيح التعليمية أدوارا متعددة في رفع المستوى التعليمي والفهم، و من جملة ذلك: تؤمن للفكر أساسا يمكن لمسه، و يخفف على الطلاب استخدام المفاهيم المجردة، و تزيد من رغبة التلاميذ في التعلم، و تسترعي انتباههم أكثر، و تنقل و توصل المعاني و المفاهيم بشكل أسرع و أوضح.

إضافة إلى أن الوسائل التعليمية ليست بالضرورة أن تكون متطورة، بل يمكن استخدام وسائل تعليم بسيطة كما رأينا ذلك في سيرة الإمام.

و منه ما روي أن أبا عبد الله تلا هذه الآية:

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (1)

فأخذ قبضة من حصي فقبضها بيده فقال: «هذا الإقتار الذي ذكره الله في كتابه ثم أخذ قبضة أخرى وأرخى كفها ثم قال: هذا الإسراف، ثم أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها وقال: هذا القوام» (2).

كما رأينا فإن الإمام استخدم ببساطة الوسائل التعليمية المتوافرة، وعلم تلامذته ما يريد بأسلوب عيني.

ب - تشجيع الطالب و التناء عليه:

من الأساليب التعليمية الأخرى عند الإمام تشجيع طلابه على فهمهم، الذي يشكل عاملا مؤثرا في رفع مستوى تلقينهم.

فقد روي عن الإمام الصادق أنه قال لبعض تلامذته: أي شيء تعلمت مني؟ قال له: يا مولاي ثمان مسائل، قال له: قصها علي لأعرفها قال: الأولى رأيت كل محبوب يفارق عند الموت حبيبه فصرفت همّتي إلى ما لا يفارقني بل يؤنسني في وحدتي وهو فعل الخير، فقال الإمام: أحسنت والله. الثانية، قال: رأيت قوما يفخرون بالحسب وآخرين بالمال والولد وأن ذلك لا فخر ورأيت الفخر العظيم في قوله تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (3) فاجتهدت أن أكون عنده كريما قال: أحسنت والله. الثالثة، قال... وفي كل مرة، قال الإمام: أحسنت والله، و أثنى عليه قائلا: «والله إن التوراة والإنجيل والفرقان وسائر الكتب السماوية ترجع إلى هذه الثمان المسائل» (4).

من هنا فقد كان الإمام يستخدم التشجيع الكلامي مع تلامذته على علم تلقوه منه أو اقتبسوه عنه، إلى درجة يمكننا القول معها أن التشجيع الكلامي عند الإمام كان ملازما لسيرته.

وقد أشاد الإمام كثيرا بكبار تلامذته تقديرا لخدماتهم في طريق الإسلام كقوله في زرارة بن أعين (5): «لو لا زرارة لظننت أن أحاديث أبي سنده» (6). وقال في حق هشام بن الحكم: «هذا ناصرنا بيده ولسانه وقلبه» (7).

ص: 225

1- سورة الفرقان، الآية 67.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 21، ص 560، ح 27871.

3- سورة الحجرات، الآية 13.

4- أبي فراس ورام، تنبيه الخواطر، ج 1، ص 311.

5- انظر إلى ترجمته ص 175.

6- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 27، ص 142، ح 33431.

7- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 296.

ج - التضاد أو المقارنة:

إن أسلوب التضاد أو المقارنة من جملة الأساليب المؤثرة في التعليم، و تساعد على بقاء المطلب في ذهن المتلقي. فبشكل عام عند ما يكون هناك ارتباط منطقي بين عنصرين، فإذا عرفنا أحدهما أو تصورناه، فإننا سنعرف الثاني بسهولة. و الارتباط المنطقي بين الشئين إما أن يكون عن تشابه أو تعارض يمكن أن يساعد الطالب على التعلم و الفهم.

نجد نماذج لهذا الأسلوب في سيرة الإمام الصادق كقوله: «لا صغيرة مع الإصرار، و لا كبيرة مع الاستغفار»(1).

الصغيرة و الكبيرة من الذنوب في هذه الرواية متضادان، و قد أدرجهما الإمام في جملة واحدة ليبيّن حكمهما. كما إنه قد استخدم علاقة التشابه أيضا، ذلك لأن حكم الموضوعين متشابه، أي أن الأصلين هنا ينتفيان، فالإصرار على الصغيرة ينفي صغر الذنب حتى يصبح كبيرة، و الاستغفار من الكبيرة ينفي أصل الذنب الكبير ليغفر.

و عليه فإن الإمام قد استخدم في جملته هذه علاقتي التشابه و التضاد معا و نتيجة ذلك أن يبقى المطلب في الأذهان بسهولة.

د - التمثيل و التشبيه:

للمثيل و التشبيه دور مهم و أساس في التعليم، و خاصة في التعليم العام، فالقرآن الكريم استخدم التمثيل كثيرا في مجال تربية الإنسان، و يذكر القرآن بنفسه الهدف من ذكر الأمثلة، ألا و هو تذكير البشر، فيقول: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»(2)

ذلك لأن التمثيل و التشبيه يقرب الأمور المعقولة و الذهنية و المجردة من الأمور العينية، و علاوة على ذلك فإن هذا الأسلوب يشكل نوعا من التعلّم ذي المعنى، فهو يقدم للطلاب محتوى تعليميًا جديدا يضاف لما لديهم و يرسخه، كما إنه يمثل طريقة تعلّم أفضل و أسهل.

شكا رجل للإمام الصادق الفقير، فقال له: «اصبر فإن الله سيجعل لك فرجا، ثم سكت ساعة ثم أقبل على الرجل فقال: أخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟ فقال:

أصلحك الله، ضيق منتن و أهله بأسأ حال، قال: فإنما أنت في السجن فتريد أن تكون فيه سعة أما علمت أن الدنيا سجن المؤمن»(3).

ص: 226

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الإصرار على الذنب، ح 1.

2- سورة الزمر، الآية 27.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب المؤمن صنفان، ح 6.

فنرى أن الإمام قد شبه الدنيا بالسجن، وبيّن له أن المواطن الحقيقي للمؤمن هو الجنة، وأن الجنة قياساً مع الدنيا كالدنيا قياساً بالسجن، بل أفضل من ذلك.

كما شبه الحدود الإلهية في الحلال والحرام بحدود البيت قائلا: «إنّ للدين حدوداً كحدود بيتي هذا، وأوماً بيده إلى جدار فيه»⁽¹⁾.

وفي مجال آخر قال: «مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشا حتى يقتله»⁽²⁾.

ه - تنظيم المعلومات و تقسيمها:

من الأساليب التي نجدها في التربية العلمية للإمام الصادق تنظيمه للنصوص التعليمية و تقسيمها إلى بنود أبجدية ذات تأثير كبير على فهم الطالب و حفظه لتلك النصوص، و نجد أن الإمام لم يغفل عن هذا الأسلوب، خاصة عند ما يكون الدرس كبيرا و مفصلا.

و يعتقد المعلمون اليوم «أن مثل هذا التنظيم و التقسيم له آثار تعليمية كسهولة التعلّم و الحفظ، و لا يتعب الطالب. كما إن له آثارا تربوية أخرى منها: أنه يصوغ ذهن الطالب على النظام و الانضباط المنطقي، حتى يصبح ذهنه منطقيًا و منظما بشكل غير مباشر و دون عناء منه»⁽³⁾.

و يبدو من كلام الإمام الصادق الآتي اهتمامه بهذا الأمر في إعداده لتلاميذه قبل إثني عشر قرنا. عند ما سأله سائل فقال: كم جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب و التعامل بينهم و وجوه النفقات؟

فقال: «جميع المعاش كلّها من وجوه المعاملات فيما بينهم ممّا يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات من المعاملات... فأول هذه الجهات الأربع: الولاية و تولية بعضهم على بعض... ثم التجارة في جميع البيع و الشراء بعضهم من بعض، ثم الصناعات في جميع صنوفها، ثم الإجازات في كل ما يحتاج إليه من الإجازات. و كل هذه الصنوف تكون حلالا من جهة، و حراما من جهة، و الفرض من الله على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال منها و العمل بذلك الحلال و اجتناب جهات الحرام منها»⁽⁴⁾.

نجد أن الإمام قدم في البداية إطارا أساسيًا يضم الجواب الكامل على سؤال السائل، ثم بدأ بشرح كل وجه من الوجوه الأربعة، و جهات الحلال و الحرام فيها.

ص: 227

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 170.

2- الحراني، تحف العقول، ص 296.

3- علي حسيني زاده، النظرة إلى التعليم الديني، مرجع سابق، ص 147.

4- الحراني، تحف العقول، ص 530.

و من الأساليب التعليمية التي استخدمها الإمام الصادق تبين الدروس في أطر عديدة ثنائية و ثلاثية و رباعية و... و هو أسلوب خاص لا يمكن أن يصاغ كل نص به، بل تصاغ به النصوص المتناسبة مع هذا الإطار.

و استفاد الإمام الصادق من هذا الفن في سيرته التربوية و التعليمية لتلامذته كثيرا، ليزيد به من تأثير كلامه و نفوذه في أذهان الأفراد. فنجده يعرض المواعظ في أطر ثلاثية العدد كقوله: «من تعلق قلبه بالدنيا، تعلق منها بثلاث خصال: هم لا يفنى، و أمل لا يدرك، و رجاء لا ينال»(1).

و أحيانا في مواعظ عديدة رباعية كقوله: «من أعطي أربعاً لم يحرم أربعاً: من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة، و من أعطي الاستغفار لم يحرم التوبة، و من أعطي الشكر لم يحرم الزيادة، و من أعطي الصبر لم يحرم الأجر»(2).

و أحيانا أخرى في أطر خماسية و سداسية أو أكثر منها كقوله: «خمس من لم تكن فيه خصلة منها، فليس فيه كثير مستمتع: الدين و العقل و الأدب و الحرية و حسن الخلق»(3).

ز - أسلوب الاستجواب:

يعتبر الاستجواب من الوسائل المساعدة على التعلّم و تنمية الملكات و القدرات العقلية، فهي وسيلة ناجحة في تحريك العقول و الأفهام و تهيئتها للتلقّي و التعلّم و مشاركتها الذاتية الفعّالة فيها. فلذلك من الأساليب التي كان لها مكائنها الخاصة في التربية العلمية للإمام الصادق أسلوب السؤال و الجواب، حيث كان الإمام يطرح ابتداء السؤال، و يطلب من تلاميذه التفكير فيه و الإجابة عنه، فقد يجيب التلميذ بجواب صائب فيؤكّده الإمام و يؤيّدّه، و قد تكون إجابته ناقصة فيكملها الإمام. و أحيانا يكون الجواب غير صائب، فيصححه الإمام. و أحيانا كان التلميذ يسكت معترفاً بجهله الإجابة، فيبادر الإمام إلى الإجابة بنفسه.

و الهدف من استخدام هذا الأسلوب هو تحفيز الطالب على المعرفة، و دفع الطالب ليكون فعّالاً في تلقّي المعلومات، و لفت انتباهه نحو الأستاذ، و ليتعلّم بشكل أفضل و أعمق.

ص: 228

1- الصدوق، الخصال، ص 88.

2- الصدوق، معاني الأخبار، ص 224.

3- عبد الحميد بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار الجيل، بيروت، 1987، ج 18، ص 185.

قال الإمام الصادق لتلميذه يوما: «أ تدري من الشحيح؟ قال: هو البخيل، فقال:

الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما في يده، و الشحيح يشح على ما في أيدي الناس و على ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئا إلا تمنى أن يكون له بالحلّ و الحرام لا يشبع و لا ينتفع بما رزقه الله»(1).

و في موضع آخر يسأل الإمام تلامذته: «أ تدرون من الفتى؟ قالوا: الفتى عندنا الشباب، قال لهم: أما علمتم أنّ أصحاب الكهف كانوا كلّهم كهولا فسّمّاهم الله فتية بإيمانهم، من آمن بالله و اتقى فهو الفتى»(2).

ف نجد الإمام كيف يستعرض نصوصه التعليمية من خلال السؤال ليلتفت الطالب إلى جهله بالمسألة أولا، ثم يرفع من حوافزه للتعلم و الاطلاع حتى يركّز جميع حواسه على تلقي المعلومات ثانيا، و ليشارك الطالب بنفسه في تلقي العلوم بفعالية ثالثا، و ليتم تناول و توضيح زوايا أكثر من الموضوع و المسألة، و ليكون التعليم أعمق و أرسخ.

و أحيانا نجد أن الإمام يسعى لتحقيق أهدافه التعليمية هذه من خلال طرح عبارات مبهمّة و غير مستأنسة، ليدفع الطالب إلى المشاركة في الأسئلة و البحث.

و من ذلك قوله لتلامذته يوما: «اتقوا الحالقة فإنها تميت الرجال، قالوا: ما الحالقة؟ قال: قطيعة الرحم»(3).

و كان بإمكانه أن يقول لهم مباشرة اتقوا قطع الرحم، لكنه لم يفعل ذلك ابتداء، بل طرح فكرته تلك بكلام مبهم، ليوجد السؤال في ذهن المخاطب ليكون التعلم أفضل و يكون تأثيره أرسخ و أبقى.

ح - التعليم العملي:

يطلق اسم التعليم العملي على التعليم الذي يقوم خلاله الأستاذ بأداء ما يريد إفهامه للطالب ليراه و يتعلمه، أو أن يطلب الأستاذ من التلميذ القيام بذلك بنفسه ليتعلمه من خلال التجربة.

و يسمّى النوع الأول التعليم بالمشاهدة أيضا، بينما يسمّى النوع الثاني التعليم العملي أو التعليم من خلال التطبيق و قد سمّينا كلا الأسلوبين في هذه الدراسة التعليم العملي.

و بما أن هذا النوع من التعليم يرتبط بحواس الإنسان، لذلك يكون أكثر عمقا

ص: 229

1- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 63، ح 1715.

2- الطباطبائي، تفسير الميزان، مرجع سابق، ج 13، ص 283.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 210 ح 4.

ورسوخا. من هنا فإن المعلومات التي تدرّس بشكل نظري ويمكن شرحها بشكل عملي سيكون تعلمها بشكل أفضل و تبقى راسخة في الأذهان أكثر.

ولقد استعمل الإمام الصادق أسلوب التعليم العملي من بين أساليبه التربوية مع تلامذته، ذات يوم فقال لأحد أصحابه: «تحسن أن تصلي؟» قال له: يا سيدي أنا أحفظ كتاب الحرز(1) في الصلاة. قال الإمام: «لا عليك قم صلّ» فقام بين يديه متوجها إلى القبلة، فاستفتح الصلاة وركع وسجد. فقال الإمام: «لا تحسن أن تصلي، ما أقبح بالرجل أن يأتي عليه ستون أو سبعون سنة فما يقيم صلاة واحدة بحدودها تامة» فقال: فعلمي الصلاة. فقام أبو عبد الله مستقبل القبلة منتصبا، فأرسل يديه جميعا على فخديه... فقال: «هكذا صلّ»(2).

كان الإمام يستطيع أن يعلمه فيقول له صلّ هكذا دون أن يريه ذلك عملياً، لكنه لم يفعل ذلك، بل صلّى أمامه عملياً، ثم قال له: «هكذا صلّ» لأن مثل هذا التعليم نادرا ما ينسى.

كما إن بعض الأمور لا يمكن تعليمها للغير بشكل شفهي ونظري، بل لا بد أن يمارسها الطالب عملياً ويجريها.

ورد عن الصادق أن رجلا- أتاه فقال: يا ابن رسول الله؟ أخبرني عن أعظم أسماء الله تعالى، وكان بين يديه حوض وكان يوماً باردا فقال الإمام للرجل: «أدخل في هذا الحوض و اغتسل حتى أخبرك به، فدخل الرجل في الحوض و اغتسل فبقي فيه ساعة، فلما أراد الخروج أمر الإمام غلمانه أن يمنعه من الخروج، فبقي فيه ساعة، فتألم من البرد فقال: رب اغثنني! فقال الإمام: هذا ما سألت عنه فإن العبد إذا اضطر يدعو الله بهذا الاسم فيغيثه الله تعالى»(3).

ط - التدريب و التقييم:

تربية الإمام الصادق تعتمد على الممارسات العملية و التقييم التي تعرف بواسطتها استعداد التلاميذ و مبلغ تحصيلهم من العلم.

و كثيرا ما يدع الصادق تلاميذه يخوضون في النقاش و التباحث في مواضيع علمية

ص: 230

1- حرز بن عبد الله السجستاني، أبو محمد الأزدي، من أصحاب الإمام الصادق من أهل الكوفة، أكثر السفر و التجارة إلى سجستان فعرف بها، له كتب و منها كتاب الصلاة و الزكاة تعد كلّها في الأصول. (الخوئي، معجم الرجال، 4/249-250).

2- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 2، ص 81، ح 301.

3- علي حسني زاده، النظرة إلى التعليم الديني، مرجع سابق، ص 142.

شئى و يقبل عليهم و يصغي إليهم، وربما تدخل فيما بينهم، أو تبهم إلى مواطن الصحة و السقم في البحث العلمي، و كان يصنعهم بعينه.

فنى الإمام الصادق يوجه أصحابه إلى مجادلة أحد المخالفين الذين يفدون على المدينة من الشام، فبعد المناقشة قام الإمام بتقييم تلاميذه فيعلق على طريقتهم أو قدرتهم كما يلي:

التفت أبو عبد الله إلى حمران بن أعين(1) فقال: «تجري الكلام على الأثر فتصيب»، و التفت إلى هشام بن سالم(2) فقال: «تريد الأثر و لا تعرفه»، ثم التفت إلى الأ-حول(3)، فقال: «قياس رواج، تكسر باطلا باطل، إلا أن باطلك أظهر»، ثم التفت إلى قيس الماصر(4)، فقال: «تتكلم و أقرب ما تكون من الخبر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أبعد ما تكون منه، تمزج الحق مع الباطل و قليل الحق يكفي عن كثير الباطل، أنت و الأحوال قفازان حاذقان»(5).

فالصادق يبين لهم جوانب النقص و الكمال في نقاشهم و يشجعهم على إكمالها و هذه النقطة في غاية الأهمية في عملية التعليم و هي الوسيلة الهامة أيضا لتنمية العلم و تقدمه.

فكان الإمام يخاطب الذي يحاول أن يستفيد من الباطل لكي يتغلب على الخصم، ما الفرق بينك و بينه؟ إنه جحد حقًا و جحدت مثله، فهو جحد الحق في النتائج، و أنت جحدت الحق في الوسيلة.

و يؤكد أن الدعوة إلى الحق ينبغي أن تعتبر الحق هو العنصر الأساسي في الوسيلة و العنصر الأساسي في النتيجة، لأنك عند ما تأخذ من الباطل حجة على حقا، فإن معنى ذلك أنك توحى بضعف الحق عن مواجهة التحديات التي توجه إليك، و لذلك تلجأ للاستعانة بالباطل في مقام تأكيد صوابية رأيك.

و هكذا، فإن الإمام يريد أن يوحى لنا بأن على الإنسان ألا يظلم الآخر عند ما يستعين في الحوار معه بأمر غير حقيقية في سبيل تركيز الفكرة، لأن القضية الأساسية هي أن نعطي الإنسان الحق كله، لينطلق الحق بكلمة في عقله و وجدانه.8.

ص: 231

- 1- انظر إلى ترجمته في ص 108.
- 2- هشام بن سالم الجواليقي، مولى بشر بن مروان، أبو الحكم، كان من سبي الجوزجان، كوفي، روى عن أبي عبد الله، له كتاب يرويه جماعة، ثقة ثقة (الخوئي، معجم الرجال 324/20)
- 3- انظر إلى ترجمته في ص 176.
- 4- قيس بن ماصر من المتكلمين، تعلم من علي بن الحسين و صحب الإمام الصادق (المصدر نفسه 102/15).
- 5- عبد الحلیم الجندی، الإمام جعفر الصادق، مرجع سابق، ص 218.

ولقد يلاحظ المرء من ذلك تعدد طرقهم، و تفاوت علمهم، و نفاذ بصيرة الإمام إلى خصائصهم، و دوره في تصويب و تدريب كل منهم، و هو لا- يتركهم دون تشجيع، و أحيانا كان الإمام يثني على بعض تلاميذه و يكبر جهادهم في تفنيد شبهات الخصم كما يقول لأبان بن تغلب: «يا أبان ناظر أهل المدينة فإني أحب أن يكون مثلك من رواتي و رجالي»(1).

فجلوس الإمام فيما بين أصحابه عند المناظرة، و إحالة الكلام و المناظرة من أحدهم إلى الآخر كما يأمرهم ثم تقويم مناظرة كل منهم و مدى قدرته على محاكاة الخصم و دحض مزاعمه، ليعطي إشارة واضحة منه أنهم في دورة تدريجية، و لا بد من إكمال نقص قدراتهم، و اتخاذ أساليب أخرى، أو إقراره لهم بحسن المناظرة كما مرّ.

على صعيد آخر نلاحظ أن الإمام الصادق في تربيته العلمية يطالب من تلاميذه أن يعرضوا عليه معلوماتهم و مناقشاتهم حتى يقوم مستوى ما تعلموا منه فيقول لأحد تلاميذه: «أي شيء تعلمت مني؟ قصّها عليّ لأعرفها»(2)، أو يقول لهشام بن الحكم بعد مناظرته مع عمرو بن عبيد(3): «ألا تخبرني كيف صنعت بعمر و؟ و كيف سألته؟ و عند ما قال هشام: إني أجلك و أستحييك و لا يعمل لساني بين يديك قال الإمام: إذا أمرتكم بشيء فافعلوه...»(4)7.

ص: 232

-
- 1- تقي الدين داود الحلبي، كتاب رجال، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، د.ت، ص 21.
 - 2- أبي فراس ورام، تنبيه الخواطر، مرجع سابق، ج 1، ص 311.
 - 3- عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء، (80-144 هـ) أبو عثمان البصري، شيخ المعتزلة في عصره و مفتيها و أحد الزهاد المشهورين. له رسائل و خطب و كتب منها «التفسير» و «الرد على القدرية» توفي بمران قرب مكة و رثاه المنصور العباسي (الزركلي، أعلام 81/5).
 - 4- باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق ج 2، ص 147.

المبحث الثاني البناء العقلي

- مكانة العقل في مدرسة الصادق

- العلاقة بين العقل والدين

- العلاقة بين العقل والسلوك الأخلاقي

- سبل تنمية العقل عند الإمام الصادق

ص: 233

العقل آية من آيات الله العظام، و لطف من أروع أطافه التي منحها الإنسان، فهو أساس المعرفة البشرية، و وعائها و وسيلة إدراكها و توظيفها، و بدونها لا يمكن أن تحصل المعرفة و لا أن يقوم العلم، و لا أن تتم عملية التعلم و التعليم.

وقد كرم الله عزّ و جلّ الإنسان بالعقل، و ميزه به عن سائر المخلوقات، و فرض عليه أن يفكّر، حتى ينمو، و يستمر في الرقيّ و التقدّم، بدلا من أن ينحدر و يهبط إلى مستوى الحيوانات، و نجد في القرآن الكريم يسقط عن المعطلين لعقولهم صفة الإنسانية؛ لأن الميزة التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان هي العقل كما يقول تعالى:

* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (1).

وقد تحدّث الإمام الصادق عن هذه الميزة بقوله:

«فأما من عدم العقل، فإنه يلحق بمنزلة البهائم، بل يجهل كثيرا مما تهتدي إليه البهائم، أفلا ترى كيف صارت الجوارح و العقل و سائر الخلال التي بها صلاح الإنسان، و التي لو فقد منها شيئا، لعظم ما يناله في ذلك من الخلل، يوافي خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئا منها، فلم كان كذلك؟ إلا أنه خلق بعلم و تقدير» (2).

و في الحقيقة «الإسلام دين يحترم العقل، و يجعله مناط التكليف، و محور الثواب و العقاب» (3). و التنمية العقلية و إذكاء العقل هو الهدف الأسمى فيه، و هذا يعني احترام الإنسان و تقديره؛ لأن أهم ما في الإنسان عقله، «و هو القوة الدافعة التي تجعل الإنسان يتعلم و يفكر و تجعله يميّز الحق و الباطل و الخير و الشر و الصواب و الخطأ و الهدى و الضلال و الحسن و القبيح و النافع و الضار» (4) و لذلك فإنّ التربية الإسلامية قد أولت التربية العقلية درجة كبيرة من الاهتمام.

ص: 235

1- سورة الأنفال - الآية 22.

2- محمد الخليلي، أمالي الصادق، مرجع سابق، ص 155.

3- يوسف القرضاوي، التربية الإسلامية و مدرسة حسن البناء، بيروت، دار القرآن الكريم 1400، ص 24.

4- سيد سابق و آخر، التربية العقلية في الإسلام، جامعة الدول العربية، ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، مكة المكرمة، 1400 ص 7.

والمقصود «بالتربية العقلية والاهتمام بالنمو العقلي، الكشف عن القدرات العقلية وإثرائها، سواء في ذلك القدرة على التفكير أم التذكر أم التخيل، أم اتباع التعليمات، أم القدرة على التفكير الابتكاري... فوظيفة التربية في هذا الجانب، إنماء القدرات العقلية إلى أقصى حد ممكن... (1) حتى يستطيع الإنسان أن يحكم على الأشياء حكما قوامه الصدق والعدل، ويمكن أن يفهم البيئة التي تحيط به.

وفي ضوء هذا التصور عن التربية العقلية نجد أن مدرسة الصادق قد تبنت هذه الحقيقة وجعلتها منهجا تربويا تربي عليه الناس، ولعل أولى الجوانب التي تؤكد النزعة العقلية في تربية الصادق، تلك المكانة الرفيعة التي يحتلها العقل في مدرسته، وكثرة دعوته إلى التفكير والتدبر وإنكار التقليد وجمود الفكر.6.

ص: 236

1- إبراهيم مطاوع، أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص 66.

إنّ للعقل في مدرسة الصادق مكانة سامية؛ فهو حجة إلهية على العباد في باطن نفوسهم، و به تستكمل الحجج على العباد، كما أنّ الأنبياء و الهداة حجج الله في الظاهر فقال:

«إن لله حجتين: حجة ظاهرة و حجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل، و أما الباطنة فالعقل»(1).

بيّن الإمام أنّ العقل هو متمم الحجّة على الإنسان لأنّه هو الذي يحركه لاتباع الدستور الإلهي الذي جاء به الأنبياء عليهم السّلام و هو الذي يدفع الإنسان لقطف ثمار حركة الأنبياء عبر سلوك فعّال و بناء و منتج. «فإذا كان العقل هو وسيلة الإنسان للإدراك و حمل المسؤولية، فإن الوحي المنزل على الأنبياء و الرسل من لدن الخالق العظيم، مقصود به هداية الإنسان و تكميل إدراكاته و تحديد مسؤولياته من هذه الحياة و ترشيد توجهاته فيها... و لذلك الوحي و العقل ضروريان و متكاملان لتحقيق الحياة الصحيحة في الأرض»(2).

فالعقل المسلم يستمد قوته و توازنه و ثبات خطواته و استقامته بما لديه من علم الوحي، فهو عقل مؤمن راشد مطمئن غير مكابد و لا جاحد و لا مستكبر و لا متروك اليقين إلى الظن و لا يترك الهداية إلى الضلالة، «فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيدا عن الوحي، فإنه يتعرض حينئذ للضلال و الانحراف و سوء الرؤية و نقص الرؤية و سوء التقدير و سوء التدبير»(3).

و أدلى الإمام بحديث ممتع عن أهمية العقل و تدبيره في شؤون الإنسان، و إيصاله إلى المراتب العالية فقال ما نصّه:

«دعامة الإنسان العقل، و العقل منه الفطنة و الفهم، و الحفظ و العلم، و بالعقل يكمل، و هو دليله و مبصره، و مفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور، كان عالما،

ص: 237

1- باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج 4 ص 304.

2- سعيد اسماعيل علي، مركزية القضية التربوية في فهم واقع الأمة و أسباب تخلفها، مجلة إسلامية المعرفة، سنة 8، عدد 29، ص 40.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1967، ج 3، ص 226.

حافظًا، ذاكرًا، فطنًا، فهما، فعلم بذلك، كيف؟ ولم؟ وحيث؟ وعرف من نصحه، و من غشه، فإذا عرف ذلك، عرف مجراه و موصوله، و مفصولة، و أخلص الوجدانية لله، و الإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركا لما فات، و وارد على ما هو آت، يعرف ما هو فيه، و لأي شيء هو هنا، و من أين يأتيه، و إلى ما هو صائر، و ذلك كله من تأييد العقل...»(1).

فقد شبه الإمام الإنسان بالبناء و العقل بالدعامة له، يعني إثبات الإنسانية للإنسان و تحققها و قيام معناها إنما هو بالعقل كما أن إثبات السقف و قيامه بالعماد(2).

فأعطى الإمام العقل المنزلة الأولى و كان يعتمد في دروسه و محاضراته و حواراته على الأدلة العلمية و نادى بتحكيم العقل؛ لأنه يعد بمثابة المعيار الذي يميز بين الحق و الباطل و الأداة الكاشفة عن سبيل الرشاد من سبيل الغي فيقول الإمام علي كرم الله وجهه: «كفاك من عقلك ما أوضح لك سبيل غيِّك من رشدك»(3).

و بما أن العقل هو موجّه الإنسان و دافعه و وسيلته في إدراك موقعه و غايته من الحياة يعتبر الصادق العقل أعلى مراتب الغنى بقوله:

«لا- غنى أخصب من العقل و لا فقر أخط من الحمق»(4). و إن المتأمل في مدرسة الصادق يلاحظ المزيد من الاهتمام بالتربية العقلية حتى وصف تلاميذه بأولي النهي بقوله:

«إن أصحابي أولو النهي و التقى فمن لم يكن من أهل النهي و التقى فليس من أصحابي»(5).

و ذلك لأنه يدرك أن مواقف التعليم لا قيمة لها إن لم تكن هناك رعاية للتربية العقلية التي هي محور العملية التعليمية.

و قد صرح الصادق بأن الله تبارك و تعالى فضّل بعض خلقه على بعض في هذه الموهبة، فالناس متفاوتون في قدرة العقل على الإدراك، فعند ما قيل للإمام ما بال الناس منهم من إذا كلمته يستدلّ بأول كلامك على آخره ثم يجيبك و منهم من إذا كلمته يصمت حتى يستغرق في كلامك فيجيبك، و منهم من إذا كلمته يقول: أعد عليّ؟ فأجاب الإمام: 7.

ص: 238

1- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب العقل و الجهل، ح 23.

2- محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ج 1، ص 310.

3- سيد رضي، نهج البلاغة، مرجع سابق، ص 606.

4- الكليني، أصول الكافي، كتاب العقل و الجهل، ج 1، ص 29.

5- سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 2، ص 207.

«إن الله قسم العقل على ثلاثة أجزاء، فمن الناس من ابتدئ بالعقل قبل خلقته فهذا الذي يستدلّ بأول الكلام على آخره ثم يجيب، و منهم من عجن عقله بالنظفة التي خلقهم الله منها فهو الذي يصمت على ما يستغرق في الكلام ثم يجيب، و منهم من ركّب فيه العقل بعد كمال خلقته فهو الذي اذا كلمته يقول أعد عليّ»(1).

وقد ألمح الإمام بكلامه هذا إلى تفاوت المتعلمين، وفقاً لتفاوت عقولهم، و لفت الأنظار إلى مبدأ أساسي و جوهري في العملية التربوية و هو مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين.0.

ص: 239

1- أبو طالب المكي الحارثي، قوت القلوب، القاهرة، د. ت، ص 80.

كما ذكرنا سابقا أن تربية الصادق بنيت على التأسيس القوي للعقل في حياة المسلم وعلى هذا قرنت بين الدين و العقل. فقال: «من كان عاقلا كان له دين و من كان له دين دخل الجنة»(1).

و يعتبر أن العقل هو بوابة الدين، و حينما يفتقد الإنسان هذه البوابة فإنه يفتقد السبيل لمعرفة و وعي الدين، فيعرّف العقل بأنه: «ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان»(2).

فالتدين لا بد أن يسبق بعملية التعقل و إلا تحول الدين إلى خرافة و مجرد ممارسات و شعائر فارغة من أي معنى، فقال الإمام:

«لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون كامل العقل»(3).

فترى بأن الإيمان الأتم في نظر الإمام هو الإيمان الذي يستضيء بنور العقل.

و الإيمان ليس بديلا عن العقل، بل هو و العقل عينان يبصر بهما الإنسان الحقيقة و يكتشف بهما المجهول و يستكمل بهما المعرفة و من هنا يبقى للعقل حتى بعد مجيء الرسالة و تعرّف الإنسان على كلمة الوحي دوره في إمداد الإنسان بالمعرفة و تصحيح معتقداته.

فهذه العلاقة المستحكمة بين العقل و الدين يكشف الصادق عن أبعادها عند ما يقول:

«إن أول الأمور و مبدأها و قوتها و عمارتها التي لا ينتفع شيء إلا به، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه و نورا لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، و أنهم مخلوقون، و أنه المدبر لهم، و أنهم المدبرون، و أنه الباقي و هم الفانون؛ و استدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه و أرضه، و شمس و قمره، و ليله و نهاره، و بأن له و لهم خالقا و مدبرا لم يزل و لا يزول، و عرفوا به الحسن من القبيح، و أن الظلمة في الجهل، و أن النور في العلم، فهذا ما دلهم عليه العقل»(4).

و عند ما سئل رضي الله عنه: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟

ص: 240

1- الحويزي، تفسير نور الثقلين، مرجع سابق، ج 5، ص 382، ح 24.

2- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مرجع سابق، ج 18، ص 186.

3- الطوسي، الأمالي، ص 153.

4- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب العقل و الجهل، ح 34.

قال: «إن العاقل لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته، علم أن الله هو الحق، وأنه هوربه، وعلم أن لخالقه محبة، وأن له كراهية، وأن له طاعة، وأن له معصية، فلم يجد عقله يدلّه على ذلك(1)، وعلم أنّه لا- يوصل إليه إلا بالعلم وطلبه، وأنّه لا ينتفع بعقله، إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الذي لا قوام له إلا به»(2).

فقد أشار الإمام الصادق إلى اقتران العقل بالعلم والدين، وأفصح أن العقل إذا ما توافر لدى الإنسان و التزم به فإنه لا مناص من أن يهديه إلى العلم، والعلم إذا ما حصل عليه الإنسان لا مناص من أن يهديه إلى خالقه ويعرّفه عليه.

فإنّ هذا الاعتراف لم يمنع الصادق من نظرتة لإمكانات العقل، من التنبيه إلى قصوره ومحدودية إمكانات إدراكه خاصة في الأمور الغيبية، بل وضع المنهج الصحيح لاستخدام العقل دون إغراق فيما فوق طاقته. فهو يسعى إلى رعاية العقل وصيانتة من الانحراف، وتبدأ التربية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي، ومنها رأيه بأن العقل يقف عند حد معين من معرفة الخالق، بل من معرفة نفسه فلا يحدده، في قوله:

«إن العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار ولا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته... إنما كلف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه، وهو أن يوقنوا ويقفوا عند أمر الله ونهيه ولم يكلفوا الإحاطة بصفته كما أنّ الملك لا يكلف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم قصير و إنّما يكلفهم الإذعان بسلطانه والانتهاة إلى أمره»(3).8.

ص: 241

1- أي لم يجد عقله يدلّه على ما يحبه الله وعلى ما يكرهه الله حتى يعرف العصيان من الطاعة.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 1، كتاب العقل والجهل، ح 34.

3- كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص 118.

استخدام العقل و التفكير السليم على أساس المنهج العلمي يتصل الإنسان بمنظومة القيم الأخلاقية و يكون له خير معين في بناء شخصيته، و قد أشار خاتم الأنبياء صلّى الله عليه و سلّم إلى هذا الأمر عند ما قال: «رأس العقل بعد الإيمان بالله عزّ و جلّ مداراة الناس»⁽¹⁾.

أي إن العقل له علاقة مع المعرفة بالله من جانب و السلوك مع الآخرين من جانب آخر، و لا تكون الأخلاق السليمة و السلوك الصحيح إلا بالعقل و بعد النظر و الحكمة.

فركز الإمام الصادق هذه العلاقة بين العقل و سلوك الإنسان و ربط ربطا محكما بينهما عند ما تبين بأن حسن الأخلاق مع الناس دليل على وفور العقل و كماله بقوله:

«أكمل الناس عقلا أحسنهم خلقا»⁽²⁾.

و قد برز رأي الصادق في تأثير العقل على سلوك الإنسان عند ما يتحدث عن أوصاف العاقل التي تشمل الأخلاق الفاضلة أو العادات الحميدة.

فقال: «لا يعد العاقل عاقلا حتى يستكمل ثلاثا: إعطاء الحق من نفسه على حال الرضا و الغضب. و أن يرضى للناس ما يرضى لنفسه، و استعمال الحلم عند العثرة»⁽³⁾.

و عند ما يتحدث الإمام عن جنود العقل و الجهل، فإنه يعدّ جيوش العقل و الجهل خمسا و سبعين، يعتبر أكثرها من الفضائل أو الرذائل الأخلاقية بقوله: «اعرفوا العقل و جنده، و الجهل و جنده، تهتدوا... إن الله عزّ و جلّ خلق العقل... ثم جعل للعقل خمسة و سبعين جندا... و خلق الجهل فأعطاه خمسة و سبعين جندا... الخير و هو وزير العقل و جعل ضدّه الشر و هو وزير الجهل، و الإيمان و ضدّه الكفر، و الرجاء و ضدّه القنوط، و العدل و ضدّه الجور، و الشكر و ضدّه الكفران، و الرأفة و ضدّها القسوة، و العفة و ضدّها التهتك، و التواضع و ضدّه الكبر، و الحلم و ضدّه السفر، و الصبر و ضدّه

ص: 242

1- جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير، مرجع سابق، ص 3، ح 4370.

2- الحر العاملي وسائل الشيعة، ج 12، ص 150، ح 15912.

3- الحراني، تحف العقول، ص 318.

الجزع، و القنوع و ضدّه الحرص، و المودّة و ضدّها العداوة، و الأمانة و ضدّها الخيانة... و السخاء و ضدّه البخل. فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلا في نبي أو وصي نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان...»(1).

و الجدير بالذكر أن التعبير بالجند و الجيش - في هذا الصدد - ذو معنى غني، يفصح أن القيم الخلقية هي الضوابط التي تبني و تقوم و تصون شخصية الإنسان و تدعم دور العقل في بناء و تقويم الشخصية الإسلامية.9.

ص: 243

1- المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 109.

بهذه المكانة العظيمة للعقل تهدف التربية في نظر الصادق إلى ضرورة تنمية ذكاء الإنسان وقدرته العقلية.

فبذل جهدا كبيرا لاستخدام الأساليب التربوية في شحذ العقل وإزالة أسباب الكسل والفتور عنه؛ لأن «العقل لا بد أن يعمل وإلا أصابه الصدأ، وإذا أصابه الصدأ تبدل فقبل كل ما يعرض عليه دون تفكير أو تأمل»(1).

وفي ما يلي نشير إلى أهم سبل تنمية العقل عند الصادق:

أ - تدريب العقل على حرية التفكير و الابتعاد عن الجمود و التقليد:

من أولى خطوات التنمية العقلية، تحرير العقل المسلم من الجمود و التقليد الأعمى، و «الإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغي عقله ليجري على سنة آباءه و أجداده و لا يقبل منه أن يلغي عقله خنوعاً لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضي العقل و الدين...»(2).

و لقد ذمّ القرآن الكريم هذه الظاهرة و التي لا يمكن أن تتأسس على أي مبرر عقلي غير رضى المقلّدين بمصادرة عقولهم و تعطيل قدراتهم المعرفية و الفكرية، فقال عزّ شأنه: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ(3).

فنعى القرآن على المقلّدين و أنكر عليهم أن يغفلوا عقولهم و يهملوا أفكارهم و هو بهذا يريد أن يكون لهم شخصية كريمة تجعل لهم حياة مستقلة.

و الإمام الصادق يسلك الطريقة القرآنية ذاتها في الاعتماد على العقل و المنطق، و يعتبر التقليد مذلة عقلية و استعبادا للنفس، و يحتاج في ذلك قرآنيًا عند ما سئل عنه في معنى: اِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ(4) قال: «أما و الله ما دعوهم

ص: 244

1- علي عبد الحليم محمود، التربية العقلية، دار التوزيع و النشر الإسلامي، القاهرة، 1996، ص 51.

2- سعيد إسماعيل علي، اتجاهات الفكر التربوي الحديث، القاهرة، 1991، ص 30.

3- سورة المائدة: الآية 104.

4- سورة التوبة، جزء من الآية 31

إلى عبادة، و لو دعوهم ما أجابوهم، و لكن أحلوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا، فعبدوهم من حيث لا يشعرون»(1).

و في تعبير آخر يقول: «و الله ما صاموا لهم و لا صلوا، لكن أحلوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا فاتبعوهم»(2).

فالاتباع دون فهم، في الحلال و الحرام، أو غيرهما، ترك لزمام النفس في قبضة الغير، و إهدار لحريتها و قدرتها، و تلك عبادة لغير الله.

ذهب الإمام الصادق إلى بيت أحد تلاميذه و كان بيتا صغيرا جدا و كأنه كان من الذين يعلم الإمام أنّ حالته تقتضي أن يكون له بيت أفضل فقال له الإمام:

«لماذا تسكن في هذا البيت؟ من سعادة المرء سعة داره، فقال: يا ابن رسول الله؟ إنّ هذا بيت آبائي و أجدادي و لا أستطيع مغادرته، و بما أن أبي و جدي كانا فيه، فلا أريد مفارقتة فقال الإمام: لو كان أبوك جاهلا فهل عليك أن تقيّد نفسك بجهل أبيك؟ اذهب و هبّ لنفسك بيتا أفضل»(3).

و لقد حرص الصادق على التنمية العقلية من خلال استفزازه للعقل المسلم كي يعمل في تحصيل الوعي و المعرفة و حرية التفكير فقال لرجل من تلاميذه: «... إياك أن تنصب رجلا دون الحجة فتصدق في كل ما قال، و تدعو الناس إلى قوله»(4).

المراد أن الإنسان ينصب رجلا فيصدّقه في كل ما يقول برأيه من غير أن يسند إلى الدلائل العقلية أو النقلية.

أما «عامل التقليد لا يتخلّص في تقليد الأفراد ممّا بل كثيرا ما يفقد شعب استقلاله و شخصيته تجاه شعب آخر ذي امتياز خاص في الحياة المادية و من المجتمعات المتقدمة، فيبالغون في الانجذاب إليها من الناحية الشخصية و من ناحية الحركات و السكنات و بصورة غير منطقية و يودّون تلقي كل شيء من ذلك»(5).

فقال الإمام: «لا تكوننّ إمعة»(6)، تقول: أنا مع الناس و أنا كواحد من الناس»(7).6.

ص: 245

1- الطباطبائي، الميزان، ج 9، ص 255.

2- المجلسي، بحار الأنوار، ج 24، ص 246.

3- مرتضى مطهري، التربية و التعليم في الإسلام، دار الهادي، بيروت، 2000، ص 28.

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 70، ص 153.

5- محمد تقي مصباح، الأخلاق في القرآن الكريم، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2004، ج 1، ص 294 (بتصرف).

6- الإمعة هو الذي لا رأي له و لا عزم فهو يتابع غيره على رأيه و لا يثبت على شيء (الحبنة، أخلاق إسلامي، 764/1).

7- الصدوق، معاني الأخبار، مرجع سابق، ص 266.

هذا التوجيه التربوي يوصي الناس بأن يكونوا في عقائدهم علماء أو متعلمين و لا يكونوا مقلّدين أي من الذين لا يرون لأنفسهم حق التفكير و التحقيق فيما يكتبه أو يقوله الآخرون و هكذا تكون الدعوة للحرية الفكرية و الحث على الاجتهاد و توظيف العقل.

و يلاحظ أن الإمام الصادق في دعوته لبناء الفكر الحرّ، فإنه يحض على تهيئة العقل الاستدلالي لدى المرء، هذا العقل الذي لا يقبل فكرة دون بحث و لا يؤمن بعقيدة ما لم تحصل على برهان، ليكون هذا العقل الواعي ضمانا للحرية الفكرية، و عاصما للإنسان من التفریط بها بدافع من التقليد أو الجمود الفكري.

و في الواقع حركة الصادق جزء من معركة الإسلام لتحرير المحتوى الداخلي للإنسان «فهو كما حرر الإرادة الإنسانية من عبودية الشهوات، كذلك حرر الوعي الإنساني من عبودية التقليد، و بهذا و ذاك أصبح الإنسان حرا في تفكيره و حرا في إرادته»(1).

ب - حث العقل على التفكير و النظر و التدبر:

إشارة

إن التفكير جهد يبذله العقل في سبيل اكتساب معارف و علوم جديدة من معارف سابقة و موجودة و مرتكزة في الذهن. فهو يقوم بدور كبير في التنمية العقلية لأن «من أهم وظائف العقل البشري: التفكير و التأمل و النظر. و إذا تعطلت هذه الوظائف تعطل نشاط العقل و نموه و قدرته على العطاء و يتبع ذلك توقف النشاط البشري و جموده بل و فناؤه»(2).

فالعقل ينمو على أثر التفكير المنطقي، و يظهر كماله الباطني بصورة تدريجية، فقد دعا رسول الله صلّى الله عليه و سلّم إلى التفكير الواعي المتبصر بما يهدي المسلم إلى سواء السبيل في الدين و الدنيا فقال صلّى الله عليه و سلّم: «عوّدوا قلوبكم الترقب و أكثروا التفكير و الاعتبار»(3).

و لم يغفل الصادق في تربيته عن هذه القضية، عند ما كان يدرب تلاميذه على التدبر و النظر و يعتبر بأن: «كثره النظر في العلم تفتح العقل»(4) فهو يرى التفكير من أعظم العبادات لأنها «عبادة حرّة طليقة من كل قيد إلّا قيد واحد و هو التفكير في ذات الله»(5). فقال: «أفضل العبادة إدمان التفكير في الله و قدرته»(6).

ص: 246

1- محمد باقر الصدر، المدرسة الإسلامية، دار الزهراء للطباعة و النشر، بيروت، ط 3، 1980، ص 127. (بتصرف)

2- عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنّة النبوية، مرجع سابق، 516.

3- المتقي الهندي، كنز العمال، ج 3، ص 106، ح 5709.

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 159.

5- مالك بدري، التفكير من المشاهدة إلى الشهود، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1981، ص 69.

6- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب التفكير، ح 3.

فالمراد بالتفكير في الله، النظر إلى أفعاله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه، فإنها تدلّ على كمال علمه و حكمته.

و لا شك أن كثرة التدبر في آيات الله تؤدي إلى تفتيح الأذهان و توسيع الأفكار و المعارف الصحيحة ما لا يمكن الوصول إليه بدون ذلك. و هذا التفكير وسيلة العقل في فهم قوانين الحياة و علل الكون و سنن الله في خلقه، على هذا حث الصادق تلاميذه بالتفكير و التأمل في ما دعا الله عباده إليه، من آيات القرآن الكريم و آيات كونه العظيم و النفس البشرية، التي تنتج عنها تقوية الإيمان بالله و حده. فنشير إلى أهم مجالات التفكير عند الصادق:

النظر في حكمة الكون و مخلوقاته:

إنّ النظر و التبصر الدقيقين و التفكير الواعي في الظواهر الكونية يعتبر وسيلة رئيسة في تربية الفكر الإنساني و تكوين العقلية العلمية التي لا تقبل نتائج بدون مقدمات، لقد سلك الإمام الصادق مسلك القرآن في دعوته إلى التفكير في الآفاق و الأنفس و استخلاص الدروس و العبر منها. فهذه هي «الدعوة الواثقة بالحقيقة الكامنة في كل ما في السموات، و في كل ما في الأرض التي لا تتطلب من الإنسان إلا أن ينظر و يتطلع و يفكر من دون حاجة إلى جهد كبير و أخذ ورد»(1).

فزخرت رسالة التوحيد التي أملاها على تلميذه مفضل بن عمرو بالدعوة إلى التفكير في أسرار الكون بعبارات مختلفة مثل: تأمل،... ففكر... و اعتبر و انظر و غير ذلك. و المتأمل في أبعاد مدرسة الصادق يلاحظ المزيد من الاهتمام بالتربية العقلية و توجيهها التوجيه السليم نحو تدبّر نواميس الكون و تأمل ما فيها من دقة و ارتباط.

فالكون عنده مادة حية للتفكير الذي يؤدي بأقرب طريق إلى الإيمان بوجود الله.

و كما أن القرآن لا- يقتصر على دعوة الإنسان للتفكير في ذلك كله بل يحاول أن يخطوبه الخطوات الأولى في هذا السبيل، و يدلّه على بدايات الطريق، فنرى الإمام يبين كثيرا من الأسرار الكبيرة التي تكون في نطاق الكون، و يذكر تفاصيل خلق الإنسان و أحوال السماء، و الأرض، و الشمس، و القمر، و النجوم، و الفلك، و الليل، و النهار، كذلك أسرار حياة الحيوانات لحثهم على التفكّر و التعقّل و استخدام طاقات عقلية كما يقول لتلميذه مفضل في هذا الصدد: «لألقينّ إليك من حكمة الباري جل و علا و تقدس اسمه - في خلق العالم و السباع و البهائم و الطير و الهوامّ و كل ذي روح من الأنعام و النبات و الشجرة المثمرة و غير ذات الثمر

ص: 247

1- محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، مطبعة الصدر، 1418، ص 110.

و الحبوب و البقول، المأكول من ذلك و غير المأكول - ما يعتبر به المعتبرون و يسكن إلى معرفته المؤمنون و يتحير فيه الملحدون»(1). و هذا الإمام الصادق يتكلم على عالم الطبيعة و أسرارها، و يربي طلابه على تأملها قائلاً:

«انظر إلى شروق الشمس على العالم كيف دبر أن يكون؟ فإنها لو كانت تبرز في موضع من السماء فتقف لا تعدوه، لما وصل شعاعها و منفعتها إلى كثير من الجهات، لأن الجبال و الجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع في أول النهار من المشرق فتشرق على ما قبلها من وجه المغرب ثم لا تزال تدور، و تغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها»(2).

النظر في حكمة التشريع:

إن منهج التربية عند الصادق يربي طاقة العقل أيضاً عن طريق توجيهه إلى النظر في حكمة التشريع الإلهي كحكمة تحريم الربا و الخمر و الزنا... ذلك «لأن التشريع منزل من عند الله و لكن القائمين به هم البشر و ينبغي أن يكون البشر و عين لحكمة التشريع و إلا فلم يطبقوه على تمامه و لن يطبقوه على وضعه الصحيح»(3).

و لذلك نرى أن الإمام جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير و التأمل و لم يقصره على العبادة و إجراء الأحكام دون وعي و يهتم ببيان بعض المقاصد من الأوامر و النواهي في الشريعة حتى يفهم الإنسان هذه الحكمة كما أراد الله، و يستطيع تطبيقها في واقع حياته بصورة واعية.

فعند ما سئل لم حرم الله الربا؟ قال: «لئلا يتمنع الناس بالمعروف»(4). و هذا حق؛ لأن الناس لو كانوا لا يقرضون إلا بالربا ما وجد تعاون بينهم، و عند عدم وجود التعاون يحصل التمانع بينهم، و إذا حصل التمانع أحضرت الأنفس الشح.

و عند ما سئل: فلم حرم الله الخمر، و لا لذة أفضل منها؟

قال: «حرمها لأنها أم الخبائث، و رأس كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب له لثته و لا يعرف ربه، و لا يترك معصية إلا ركبها، و لا حرمة إلا انتهكها»(5).

ص: 248

1- كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص 8.

2- المصدر نفسه ص 81.

3- سيد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 87.

4- الذهبي، تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ترجمة الإمام الصادق، ص 92.

5- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 17، ص 253، ح 11.

ان المدخل الضروري والطبيعي لأي اعتقاد أو إيمان سليم وعمل صالح، إنّما هو العلم بمفهومه الإسلامي الشامل للسنن الإلهية. وإن الله عزّ وجلّ يرشدنا بأن نجعل سنن الله في خلقه موضوع التفكير والتدبر، فأشار إليها القرآن بالإجمال لأن «العلم بهذه السنن من أهم العلوم وأنفعها»⁽¹⁾ لما فيها من الهداية والموعظة كما جاء في الآية الشريفة:

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَدَأَ بِكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ لِكُمًّا مَّا كَانَتْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ⁽²⁾.

ولم يغفل الإمام الصادق عن هذا الأمر فجعل دراسة السنن والنظر فيها موضوعا من موضوعات التدبر، عند ما يتحدّث عنها في تعاليمه و يدعو إلى التأمل في حكمة بعض هذه السنن الربانية، على سبيل المثال يلفت الإمام الأنظار إلى سنة الموت بقوله:

«أفرايت لو كان كل من دخل العالم ييقون، ألم تكن الأرض تضيق بهم؟ فإنهم والموت والآفات تفنيهم أولا بأول يتنافسون في المساكن والمزارع حتى تشب بينهم في ذلك الحروب وتسفك فيهم الدماء، فكيف كانت تكون حالهم لو كانوا يولدون ولا يموتون، وكان يغلب عليهم المرض والشر، وقساوة القلوب؟ فلو وثقوا أنهم لا يموتون لما قنع الواحد منهم بشيء يناله...»⁽³⁾.

وكذلك يدعو إلى التأمل في سنة الابتلاء بأنها تدفع الإنسان إلى الشكر والصبر إذا كان صالحا وتردعه إذا كان ظالما كقوله في الآفات والمكاره والمصائب:

«لكيلا يركنوا إلى المعاصي من طول السلامة فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي، ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البرّ، فإن هذين الأمرين جميعا يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة، وهذه الحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على ما فيه رشدهم فلو أدخلوا منهما لغلوا في الطغيان والمعصية كما على الناس في أول الزمان...»⁽⁴⁾.

ج - تعويد العقل التفكير العلمي:

إشارة

من المؤشرات التي تؤكد حرص الإمام الصادق على الاهتمام بالتربية العقلية، تلك المواقف المربية التي كان الإمام يوجدها لتدريب الطاقة العقلية على طرق التفكير

ص: 249

1- علي بن إبراهيم الوزير، دراسة السنن الإلهية والمسلم المعاصر، ص 8.

2- سورة النساء، الآية 26.

3- المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 140.

4- المصدر نفسه والمكان نفسه.

العلمي المستتير، والاستدلال المثمر للوصول إلى الحقائق وفهمها.

فهناك نماذج عديدة من جهود الصادق في تعويد تلاميذه على التفكير العلمي المنظم و«التفكير العلمي المنظم يعني الاستدلال العقلي الذي يقوم على الملاحظة والمشاهدة مع الفهم والتصور، والتحليل والتركيب والاستنتاج، وإصدار الحكم»(1).

فترى تدريب تلاميذه على خطوات التفكير العلمي كما يلي:

الخطوة الأولى: الدعوة إلى استخدام الحواس للوصول إلى المعرفة (مرحلة الملاحظة والاستبطان)

من خطوات التفكير العلمي هي استخدام الملاحظة العلمية باستخدام الحواس، سواء حواس البصر والسمع أم... «وذلك ليكون هذا الحسّ بعالم الواقع والشهادة مقدمة في عملية التفكير قبل إصدار الحكم في الوقائع والأحداث»(2) فالمعرفة الحسية ما هي إلا مرتبة من التفكير لدى الإمام الصادق حيث يتوصل الإنسان من حين ولادته بالمدرجات الحسية إلى المعارف العقلية، وذلك عن طريق استعمال الحواس، وتدرجه في إحساسه للأمور الجزئية إلى إدراك الأمور الكلية عن طريق تجريد العقل للجزئيات المدركة بالحس، ليتوصل إلى استنتاج المعاني الكلية وبالتالي تؤدي عملية التجريد هذه إلى تنمية العقل الإنساني التي تدعو إليه التربية العقلية.

فيلفت الصادق نظر المتعلمين إلى الحواس التي يستخدمها الإنسان للوصول إلى العلم والمعرفة في قوله:

«انظر إلى هذه الحواس التي خصّ بها الإنسان من خلقه وشرف بها على غيره، كيف جعلت العينان في الرأس كالمصباح فوق المنارة ليتمكن من مطالعة الأشياء...»

وكان الرأس أسنى المواضع للحواس وهو بمنزلة الصومعة لها فجعل الحواس خمسا تلقي خمسا لكي لا يفوتها شيء من المحسوسات... فخلق البصر ليدرك الألوان، ولم يكن بصر يدركها لم يكن منفعة فيها. فخلق السمع ليدرك الأصوات فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن فيها إرب وكذلك سائر الحواس... (3) لست أجد القلب يعلم شيئا إلا بالحواس...»(4)

وهكذا «إن الملاحظة العلمية تتطلب استخدام الحواس باعتبارها أبواب المعرفة

ص: 250

1- علي عبد الحليم محمود، التربية العقلية، مرجع سابق، ص 82.

2- نايف معروف، الإنسان والعقل، دار النفائس، بيروت، 1995 ص 114.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 69.

4- المصدر نفسه، ص 162.

و الإدراك، فإذا استخدم الإنسان بصره لاحظ، وإذا دقق تأمل، و متى تأمل فكر، و متى فكر استغرق، و التفكير هو هدف العلم، و الاستغراق في التفكير هو نهاية المعرفة»(1).

الخطوة الثانية: إدراك العلاقة بين الظاهرة و مسباتها (مرحلة الاستدلال العقلي)

إن الملاحظة و التجربة - و إن كانتا ضروريتين للحصول على معرفة عن العالم الخارجي - إلا أنهما لا تكفيان لوحدهما. «فلو أننا اكتفينا بحواسنا الظاهرية لم نستطع التعبير عن العالم الخارجي، و الإيمان بوجود الترابط بين الحوادث الطبيعية»(2).

يقول الإمام الصادق: «... الحواس الخمس و هي لا تنفع من الاستنباط إلا بدليل كما لا تقطع الظلمة بغير مصباح»(3).

من هنا فإنه يرى الحس بنفسه لا يفيد علما بل لا بد له من مبادئ عقلية لا يعترها ريب؛ لأن الحس يعطينا سلسلة مؤشرات متفرقة و العقل هو الذي يقوم بعملية الربط بينها، فقيمة عمل الحواس من قيمة ارتباطها بالعقل.

قال الإمام الصادق:

«فإنك لو رأيت حجرا يرتفع في الهواء علمت أن راميا رمى به، فليس هذا العلم من قبل البصر، بل من قبل العقل لأن العقل هو الذي يميزه، فيعلم أن الحجر لا يذهب علواً من تلقاء نفسه...»(4).

فهو هنا يدلل بما تلمسه الحواس على لزوم وجود ما لا تلمسه، فهو يستعمل العقل و الواقع معا.

و عند ما سأله زنديق: كيف يعبد الله من الخلق و لم يروه؟ قال الصادق:

«رأته القلوب بنور الإيمان، و أثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، و أبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب و إحكام التأليف. ثم الرسل و آياتها، و الكتب و محكماتها، و اقتصر العلماء على ما رأوه من عظمته دون رؤيته»(5).

فالإنسان المفكر ينتقل من مرتبة النظر إلى الكائنات بعين البصر إلى مرتبة النظر

ص: 251

1- أمينة أحمد حسن، النظرية التربوية في القرآن و تطبيقاتها في عصر الرسول، مرجع سابق ص 250.

2- مهدي كلشني، القرآن و معرفة الطبيعة، دار الأضواء، بيروت، 1989، ص 270.

3- الصدوق، الأمالي، ص 433.

4- كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص 117.

5- المجلسي، بحار الأنوار، ج 10، ص 164 /أبو طالب المكي الحارثي، قوت القلوب، مرجع سابق، ج 2، ص 1115 قريب بهذا

في الموجدات بعين الذهن المعتمد على الحواس، وإذ ذلك يتحقق له استنتاجه المقصود ويتم له استدلاله المراد فيصل إلى مبتغاه من الحق عن هذا الطريق.

الخطوة الثالثة: استخدام التفكير المنطقي (مرحلة الاستنتاج)

هذه المرحلة مرحلة فكرية متقدمة تلي المرحلة السابقة إذ بها يستطيع الإنسان أن يربط بين الحقائق التي حصل عليها، ويمكن أن يحاول ضبط أفكاره وربطها والوصول إلى الكليات والحقائق الجديدة.

فقد نرى موارد عديدة من هذه الاستنتاجات للإمام الصادق، كما أنه دعا إلى استخدام العقل والإفادة من العمليات العقلية للتعرف على قدرة الخالق وعظمته والإيمان بوحديته بقوله:

«لورأيت تمثال الإنسان مصورا على حائط فقال لك قائل: إن هذا ظهرها هنا من تلقاء نفسه لم يصنعه صانع، أكنت تقبل ذلك؟ بل كنت تستهزئ به، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور، جماد، ولا تنكر في الإنسان الحي الناطق؟»⁽¹⁾

و ضرب الإمام مثالا على أساس المعرفة العقلية بين الأسباب والمسببات ويستنتج منها على وجود الخالق والمدبر لهذا العالم.

كما نلاحظ أن حديثه عن الطبيعة بمظاهرها الحية بما يتخللها من قواعد ونواميس حياتية وما يحكمها من إرادة خفية دقيقة التنظيم و الصنع، وكلامه عن السماء والأرض والسحاب والجمال والحيوانات المختلفة المتباينة كالفيل والطاووس والنملة وتحليله الأوضاع الاجتماعية والغرائز الإنسانية في رسالة التوحيد إلى المفضل، يعتبر في ذروة نموذج التفكير العلمي المبدع المبني على دقة الملاحظة والإدراك الواعي.

ولنستمع له قليلا في كلامه كعالم وباحث ومستنتج حيث يصف لنا السمك خلقا وعيشا ودلالة:

«... تأمل خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه، فإنه خلق غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي لذا كان مسكنه الماء، و خلق غير ذي رئة لأنه لا يستطيع أن يتنفس وهو منغمس في اللجة، وجعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها في جانبيه كما يضرب الملاح بالمجاديف من جانبي السفينة، وكسي جسمه قشورا متانا متداخلة كتداخل الدروع والجواشن لتقيه من الآفات فأعين بفضل حس في الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعم من البعد البعيد. فينتجعه وإلا

ص: 252

فكيف يعلم به وبموضعه؟ و اعلم أن من فيه إلى صماخيه(1) منافذ فهو يعب الماء بفيه و يرسله من صماخيه فتروّح إلى ذلك ما يتروّح غيره من الحيوان إلى تنسّم هذا التنسيم.

فكّر الآن في كثرة نسله و ما خصّ به من ذلك، فإنك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة، و العلة في ذلك أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك حتى إن السباع أيضا في حافات الآجام عاكفة على الماء أيضا كي ترصد السمك، فإذا مرّ بها خطفته، فلما كانت السباع تأكل السمك و الطير يأكل السمك و الناس يأكلون السمك و السمك يأكل السمك كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة، فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق و قصر علم المخلوقين فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك...»(2).

هذا هو أسلوب التفكير عند الصادق، ملاحظة و جمع بيانات، و استنتاج و اعتبار من نتائج البحث، و تبصر في أعماق الصنع.

لكن الإمام لم يحتكر هذا النمط من التأمل الفكري لنفسه فقط و إنما أراد شيوع ذلك بين تلاميذه لترتفع من أوساطهم حجب الجهل و الظلام و لتحل بينهم مظاهر المعرفة و الإدراك.9.

ص: 253

1- الصمخ، خرق الأذن الباطن الذي يفضي إلى الرأس (ابن منظور، لسان العرب، مادة صمخ).

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 109.

الفصل الرابع التربية الخلقية و الاجتماعية في مدرسة الإمام الصادق

إشارة

المبحث الأول: البناء الأخلاقي

المبحث الثاني: البناء الاجتماعي

ص: 255

أجمع المربون على اعتبار التربية الأخلاقية الجانب الأصعب من التربية عموماً، كما اعتبروا أنها التربية الأكثر وجوباً في حياة الإنسان، حتى إنهم قالوا: «إن عملية التربية و العملية الأخلاقية شيء واحد ما دامت الثانية لا تخرج عن أنها انتقال الخبرة باستمرار من أمر سييء إلى أحسن منه و أفضل»(1).

و بما أن المجتمع يتكون من الأفراد، فإن لكل فرد فيه تأثيراً واضحاً على بقية أفراد المجتمع، و من هنا أتى هذا الارتباط العميق لنجاح المجتمع و سعادته بالمستوى الأخلاقي لحياة أفرادها؛ لأن الحياة الأخلاقية لكل فرد ستعكس على المجتمع، سواء إيجاباً أم سلباً. «و إذا كان الأمر كذلك فلا بدّ من البدء بالفرد و ذلك بتكوينه إنساناً صالحاً خيراً لنفسه و لغيره معاً، و هذا يكون بتعليمه ما هو خير و ما هو شر و أين تقع حدودهما في ميزان السلوك الإنساني»(2).

و قد أولى الإسلام التربية الخلقية بالغ الأهمية على صعيد كل من الفرد و المجتمع.

فحينما ينشئ الله على رسوله صلّى الله عليه و سلّم بسمو أخلاقه فيقول جلّ من قائل: **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (3)** و حينما يعمد الرسول صلّى الله عليه و سلّم إلى الحديث عن جوهر الدعوة الإسلامية، فإنه يؤكد أنه بعث مؤدباً فيقول: «إنما بعثت لأتمم صالحى الأخلاق»(4) ثم يجعل المتخلقين بالأخلاق الفاضلة أحب الناس إليه و أقربهم منه درجة في قوله: «إن أحبكم إلي و أقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطأون أكتافاً الذين يألفون و يؤلفون»(5) هذا هو جوهر الدين الإسلامى، حيث جعل دعامته الأولى الأخلاق المتينة.

ص: 257

1- جون ديوى، تجديد في الفلسفة، ترجمة مرسى قنديل، الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ص 299.

2- مقداد بالجن، دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد و المجتمع، دار الشروق، بيروت، 1983، ص 32.

3- سورة القلم، الآية 4.

4- أخرجه البخاري في الأدب المفرد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص 90.

5- أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، ح 2321.

و المتأمل للقواعد الأساسية للأخلاق في القرآن الكريم يجد أن الحديث عن الأخلاق فيه متنوع ما بين الأخلاق الشخصية و الأخلاق الاجتماعية، من هنا «فإن التربية الخلقية تمثل روح التربية الإسلامية(1)»، بل هي من أهم الأهداف التي تسعى التربية الإسلامية لتحقيقها و إبرازها بالشكل اللائق بها و ها هو الإمام الصادق استجابة لأحكام الدين الإسلامي و توجيهات القرآن الكريم، يجعل الأخلاق رسالته العليا في منهجه التربوي القويم و يربطها بالدين رباطا لا انفصام له إلى حد أنها أضحت جوهر العملية التربوية و معدنها الثمين.

فهو يعتبرها الهدف الأسمى الذي يرمى إليه من تكوين الشخصية الإنسانية السوية، و قد تجلّى نصحه و تعليمه لنا في أقواله و أفعاله و مما قاله في هذا الصدد:

«إن أجلت في عمرك يومين فاجعل أحدهما لأدبك لتستعين به على يوم موتك»(2).

فقد بدأ الإمام في منهجه بالجانب الأخلاقي و ضبط سلوك الفرد ليعده في مرحلة لاحقة للبناء الاجتماعي حيث كانت آدابه و سلوكياته و توجيهاته و مواقفه منابع ثرة للرؤية في هذا الاتجاه و مناهج للتربية

و قد عرفنا ممّا سبق كيف اهتمت مدرسة الصادق في بناء شخصية المسلم بالتربية العقديّة و التربية العلمية (في المجال المعرفي)، و هنا سنتحدث عن التربية الخلقية و الاجتماعية (في المجال السلوكي) الذي اعتبر من أهم المجالات التي اهتمت بها هذه المدرسة؛ لأنها تجسد التطبيق العملي لكل ما أخذ من دروس و ما أسدي من نصائح لإرشاد الإنسان المؤمن في حياته و إيصاله قريبا من الكمال.0.

ص: 258

1- محمد عطية الإبراشي، التربية الإسلامية و فلسفتها، مرجع سابق، ص 22، (بتصرف).

2- الكليني، روضة الكافي، ج 8، ص 150.

المبحث الأول البناء الخلقي

- ماهية الخلق وأقسامه

- موقع الأخلاق في صرح الإمام التربوي

- أهداف التربية الخلقية في مدرسة الصادق

- مبادئ التربية الخلقية في فكر الإمام

- أساليب التربية الخلقية في مدرسة الصادق

ص: 259

خلق الإنسان من جسد وروح، وقد جعل الله لكل منهما غذاء خاصًا وإذا كان الطعام والشراب من العناصر الأساسية لبناء هذا الجسد و نموه، فإن للروح أنواعا خاصة من الغذاء منها: الإيمان والعلم والمحبة والصدق... إلخ ولعل أهمها على الإطلاق الالتزام بالمبادئ والأخلاق.

وكما يسعى الإنسان في سبيل إحياء مواهبه الفكرية، وإدراك الحقائق العلمية، ويحرز تقدما جديدا في كل يوم، كذلك عليه أن يسعى في سبيل تزكية نفسه وتطهيرها بالفضائل الأخلاقية.

الخلق بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبع والسجية، جمعه أخلاق(1).

وفي الاصطلاح «عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورؤية»(2).

والمقصود من هذا التعريف أن هيئة النفس التي يكون خلقها حسنا تصدر عنها الأفعال المحمودة، وهيئة النفس التي يكون خلقها سيئا تصدر عنها الأفعال المذمومة، وذلك بطريقة مستمرة وليست عارضة أو مؤقتة؛ لأن «التخلق بالأخلاق الحسنة أو السيئة إنما يعني، تشبّع روح الإنسان بصفة ما، حتى تصبح تلك الصفة من ملكاته النفسية، بحيث يستطيع أن يمارس تلك الصفة بيسر، و من دون تفكير، في تعامله مع الناس، إذن لا يمكن للإنسان أن يتصف بصفة الكرم بمجرد قيامه بالبذل والإنفاق أياما، كما أنه بالكذب بضع مرات لا يكون قد تخلق بصفة الكذب المذمومة»(3).

ص: 261

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة خلق، ج 10، ص 86.

2- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3، دار الفكر، بيروت 1995، ص 48.

3- محمد تقي فلسفي، الأخلاق من منظور التعايش والقيم الإنسانية، ج 1، بيروت، 1992، ص 17.

وإذا كان الخلق صفة نفسية، فإن المظهر الخارجي له يسمى «سلوكاً» أو «معاملة» و بهذا يكون السلوك دليل الخلق و مظهره. إلا «أن الخلق ليس صفة للنفس في جملتها، لكن في جانب معين من جوانبها، و ليس هذا الجانب هو جانب العقل و المعرفة، و لا جانب الشعور و العاطفة؛ وإنما هو جانب القصد و الإرادة.(1)

و تنعكس الأخلاق على هذه الصفات المستقرة في النفس الإنسانية، فتظهر حسنها أو قبحها بما يميزها عن غيرها على اعتبار أن آثارها في السلوك قابلة للمدح و الذم.

و الأخلاق تنقسم إلى قسمين: الأول: الأخلاق الفطرية و الثاني: الأخلاق المكتسبة.

فبعض أخلاق الناس أخلاق فطرية، تظهر فيهم منذ أول حياتهم، و منذ بداية نشأتهم. و بعض أخلاق الناس أخلاق مكتسبة من البيئة الطبيعية، أو من البيئة الاجتماعية، أو من توالي الخبرات و التجارب و نحو ذلك.

ولذلك في الإصلاح التربوي قد يقبل بعض الناس بعض فضائل الأخلاق بسهولة، و لا يقبل بعضها الآخر إلا بصعوبة و معالجة طويلة المدى، و قد تقل نسبة استجابته.

و هذا ما أشار إليه الإمام الصادق تماماً في قوله: «إن الخلق منيحة يمنحها الله عزّ و جلّ خلقه، فمنه سجيّة و منه نية. فقيل: فأيهما أفضل؟ فقال: صاحب السجيّة هو مجبول لا يستطيع غيره، و صاحب النية يصبر على الطاعة تصبراً فهو أفضلهما»(2).

فقد عبّر الإمام بقوله هذا عن الأخلاق الفطرية ب «السجيّة»، كما عبّر عن الأخلاق المكتسبة ب «النية». و لم ينظر إلى الأخلاق على أنها كلها كسبية و إلا لأهمل جانب الفطرة الإنسانية، و مقتضياتها الخيرة عند ما تنهياً لها عوامل الخير، كما لم ير أنها كلها وهبية و إلا لأهمل وظيفة العقل و دور الشرع في الإرشاد و الهداية، فضلاً عن إلغاء ما للإرادة الإنسانية من دور مهم في هذا الصدد.

إضافة إلى أن الصادق يعتقد بأن بعض الصفات الرذيلة في خلق الإنسان كسبية تماماً و لم يجبله الله عليها، فليس لها جذور فطرية بل يعلمها الإنسان طوال حياته من البيئة الاجتماعية. كما أشار إليها في قوله: «بني الإنسان على خصال فمهما بني عليه أنه لا يبني على الخيانة و الكذب»(3).4.

ص: 262

1- محمد عبد الله، دراسات إسلامية من العلاقات الاجتماعية و الدولية، دار القلم، ط 2، كويت 1974، ص 88.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب حسن الخلق، ح 11.

3- أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج 3، ص 194.

أما الخلق الطبيعي فإنه ذات نسب فطرية متفاوتة في الناس كتنافوت استعداد الناس لتعلم أنواع العلوم المختلفة. ولكن مع وجود التفاوت الواسع في هذا بين الناس، نلاحظ بأن هذه الطبائع كلها قابلة للتغيير والتعديل وفق ما تكتسبه من محيطها ولا سيما التعليمي والتربوي؛ «لأن وجود الخلق بصفة فطرية يدل على وجود الاستعداد الفطري لتنميته بالتدريب والتعليم وتكرار الخبرات، كما أنه يدل على وجود الاستعداد الفطري لتقويمه وتعديله وتهذيبه، بالتدريب والتعليم وتكرار الخبرات»⁽¹⁾.

وإن التغيير المستمر في تصرفات الإنسان وعاداته وسلوكه، سواء نحو الأفضل أم الأسوأ، هو خير دليل على وجود هذه القابلية وهذا الاستعداد الفطري لتقبل النصح والإرشاد والتوجيه أو رفضه. «ولو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواظب والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حسنوا أخلاقكم»⁽²⁾.

وكذلك قول الصادق يدل على هذا الأمر «وطن نفسك على حسن الصحابة لمن صحبت، في حسن خلقك وكف لسانك، و اكظم غيظك...»⁽³⁾.

ولأن الأخلاق تكتسب بالتعلم والتهذيب والنصح المستمر حتى تصير ملكة، فالإنسان مطبوع على قبول الخلق بالتأديب والمواظب إن سريعا أو بطيئا.

وقد تبلور اقتداء الإمام الصادق المتواصل بالمثل الأعلى للمربين النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم - فأشار إلى مبدأ الاستعداد الفطري في السجاي الأخلاقية عند الناس كنعمة إلهية عظيمة من الله بها على عباده، وبالتالي يتوجب عليهم شكره وحمده، كما يشجعهم دوما على اكتساب المزيد من الفضائل الأخلاقية بالاستعانة بالله حيث قال: «فإن كانت فيكم منها (مكارم الأخلاق) فاحمدوا الله وارغبوا إليه في الزيادة منها»⁽⁴⁾.

وهذه القابلية للتعديل والتحسين، تفتح الباب أمام التربية لتقوم بدور هام في التنشئة الأخلاقية للفرد⁰.

ص: 263

1- عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج 1، دار القلم، دمشق، 1979، ص 184.
2- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3، ص 50 والحديث أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، وفيه أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: آخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رجلي في الفرز أن قال: «أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل».

3- الكليني، أصول الكافي، ج 4، باب الوصية، ح 3.

4- الصدوق، الأمالي، ص 290.

ذكرنا أن الدين الإسلامي يهتم غاية الاهتمام بالتربية الخلقية و يعطيها قدرا كبيرا من التوجيه، باعتبارها الأساس الأول الذي يشيد عليه البناء الاجتماعي السليم.

إن حقيقة هذه التربية في نظر الإسلام «هي تنشئة الفرد و تكوينه، إنسانا متكاملا من الناحية الأخلاقية بحيث يصبح في حياته مفتاحا للخير، و مغلاقا للشر»⁽¹⁾. و مجال الأخلاق في الإسلام هو «مجال الحياة كلها لأن الأخلاق إذا كانت نمطا للعمل و السلوك في الحياة فإنها تشمل جميع النشاطات البشرية».

ولذا، فإننا نلاحظ أن الآيات القرآنية التي تشير إلى مجال التربية الأخلاقية تمثل في مجموعها ما يقرب من ربع عدد آيات الكتاب العظيم⁽²⁾.

و على هذا الاعتبار، اتخذ الإمام الصادق الأخلاق أساسا و نبراسا لتعاليمه التربوية. و انطلاقا من عناية القرآن الكريم بهذا الأمر و تشديده عليه، فقد عني الإمام كل العناية في بث الأخلاق الكريمة، و غرس الفضائل في نفوس المتعلمين؛ لأن الأخلاق - في نظره - تزين الإنسان في نفسه، و تحسن علاقته مع ربه و مع الآخرين، و بها كمال الدين. و قد ورد عنه في هذا قوله: «الخلق الحسن جمال في الدنيا و نزهة في الآخرة و به كمال الدين و القربة إلى الله تعالى»⁽³⁾.

فهو ينتهز كل فرصة مناسبة في الحضر و السفر، ليذكر الناس بواجباتهم، و يحثهم على السير في طريق مكارم الأخلاق، و يريهم على التحلي بالصفات الإنسانية.

و قد ركز الإمام على أهمية حسن الخلق لتأثيرها في رفع الخطايا و النقائص فقال مخاطبا المسلم: «إن الخلق الحسن يميت الخطيئة كما تميت الشمس الجليد»⁽⁴⁾.

ص: 264

1- مقدار يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام، دار عالم الكتب، الرياض، 1997، ص 359.

2- قام الإمام الغزالي بتصنيف هذه الآيات على قاعدة الأخلاق النظرية و العملية بحيث اشتمل القسم الأول على 763 آية بينما اشتمل القسم الثاني على 741 آية قرآنية و بذلك يصبح مجموع آيات كلا القسمين 1504 آيات أي ربع آيات القرآن الكريم.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 68، ص 393.

4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 149.

و هكذا، يعتبر الإمام الصادق حسن الخلق في الحياة الدنيوية - ولا سيما في العلاقات الاجتماعية - طريقا لجلب محبة الله، فيقول: «ما يقدم المؤمن على الله عزّ وجلّ بعمل بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه»(1).

ففي المحيط الذي يشعر كل فرد منه بمسؤوليته، و يتخلقون بالأخلاق الحسنة، تكون أرواح الناس و أموالهم و أعراضهم مصونة من الأذى و الاعتداء، و يكون الناس فيه أقل عرضة للقلق و الاضطراب و الغضب و المخاصمة و الجدل. و في هذا قال الإمام:

«لا عيش أهنأ من حسن الخلق»(2).

و هذا طبيعي لأن نجاح العلاقات الاجتماعية هو أساس الشعور بالطمأنينة و الإحساس بالأمان و راحة البال.

و على سعيد آخر يرى الإمام الصادق أن الفضائل الخلقية مترابطة بعضها ببعض، مثلما إن الرذائل الاخلاقية ذات صلات و وثيقة فيما بينها. لهذا غالبا ما يتعذر الفصل التام بينها. يقول الإمام: «إنّ خصال المكارم بعضها مقيد ببعض»(3).

إن مثل هذه الأصرة بين مجموعة الفضائل أو الرذائل الأخلاقية حصيلة اشتراكها في الجذور و العوامل المسببة لها، أو هي ثمرة الترابط بين نتائجها و استحقاقاتها، حتى إنه يمكن تصورها علي صورة شبكة مترابطة الأجزاء.

و للإمام علي (كرم الله وجهه) إشارة دقيقة إلى هذا المعنى حيث يقول: «إذا كان في الرجل خلّة رائعة فانتظروا أخواتها»(4).

و التبصر بهذه الروابط يمكنه أن يمد يد العون للمربي في بلوغ أهدافه التربوية لإصلاح السلوك و تهذيب الأخلاق لدى المتربي. و لهذا يشرح الإمام الصادق هذه النقطة في سياق برنامجه الأخلاقي، و يسرد المصاديق لها كي يدفع طلابه للتحلي بفضيلة خلقية رفيعة عن طريق سائر الفضائل المرتبطة بها. و من ذلك قوله:

«إن الغنى و العز يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكل توطّنا»(5) فالعزة و الغنى من وجهة نظر الإمام أمران متلازمان مع التوكل.

و هذا يعني أن القلب الذي تحوّل إلى مركز للتوكل على الله فإنّه يشعر بالغنى و عدم الحاجة لغير الله تعالى، و كذلك فإن مثل هذا الإنسان يعيش العزّة و القدرة لأنّه3.

ص: 265

1- محمد مهدي نراقي، جامع السعادات، مرجع سابق، ج 1، ص 345.

2- الصدوق، علل الشرائع، مرجع سابق، ج 2، ص 560.

3- الطوسي، الامالي، ص 301، ح 597.

4- الشريف الرضي، نهج البلاغة، قصار الحكم، 440.

5- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب التفويض إلى الله و التوكل عليه، ح 3.

يتحرّك مع موقع الاعتماد على القدرة المطلقة التي تسمو على جميع القدرات الأخرى ولا تقبل الضعف والتردد. وعلى هذا النحو يشير الإمام أحيانا إلى العلاقة بين الرذائل، و مثال ذلك قوله: «إياكم والخصومة في الدين فإنّها تورث النفاق و تكسب الصّدّ غائن و تستجيز الكذب»⁽¹⁾.

اعتبر الإمام في هذا الكلام، الخصومة، سبيل إلى نشوء النفاق و الضغينة و جواز الكذب و يرى هذه الرذائل الأربع ذات علاقة وثيقة فيما بينها.

أجل، بما أن كثيرا من الخصال تمثل الجذر و القاعدة المنتجة للصفات الأخرى، لذا يهتم الإمام اهتماما خاصا بهذه الأمور الأساسية في تربيته الأخلاقية ليعين المتربّين في الالتزام بالسلوك الأخلاقي القويم.

فمن جملة أبرز و أهم الفضائل الأساسية التي كان الإمام يوليها أهمية كبرى في تربية تلاميذه صفة «الحرية»، فالصادق يرى أن الحرية حاجة أساسية من حاجات النفس لا بدّ من إشباعها و لا يستطيع الإنسان أن يكمل نفسه و يرقى أخلاقه و يصل إلى غايته إلا إذا كان حرّاً.

الحرية من منظور الإمام أصل للكثير من الصفات الأخلاقية الحميدة، حتى إن التحلي ببعض الخصال و الإيجابيات منوط بتوفر خصلة الحرية عند الإنسان. و هذا ما ذكره في حديثه: «خمس خصال من لم تكن فيه واحدة منها فليس فيه كثير مستمتع:

الوفاء و التدبير و الحياء و حسن الخلق و الخامسة تجمع هذه الخصال كلّها و هي:

الحرّيّة»⁽²⁾.

إن الحرية يراد منها تارة التحرر من الشهوات و الأهواء، و أخرى التحلل من التقليد و التبعية، و ثالثا الخلاص من القوة و السيطرة المعتدية، و أي معنى من هذه المعاني الثلاثة فإن الإنسان يفقد شخصيته و إرادته إذا فقد الحرية؛ لأن من تتحكم به العواطف و الانفعالات، أو يسيطر عليه الغير يستحيل عليه التدبير و الوفاء، و حسن الخلق و الحياء، يستحيل عليه التدبير أن يملك من أمره غير الخضوع و التسليم.

و من أجل هذا اعتبر الإمام الصادق الحرية أم الفضائل و رأس الأخلاق، و فقدانها أم الرذائل و أصل المشكلات الشخصية و الاجتماعية.

و من الصفات الأخلاقية المهمة الأخرى التي يعتبرها الإمام الصادق ينبوعا للفضائل الأخرى هي صفة الحياء. و الحياء عبارة عن: «ظاهرة تعبّر عن الخوف من الظهور بمظهر النقص و تعبّر عن علوّهمة النفس إلى الكمالات و نفورها من النقائص»⁴.

ص: 266

1- ابن الأثير، المختار، دمشق، د. ت، ص 22.

2- الصدوق، الخصال، ص 284.

و كراهيتها لها، و حذرهما من أن تظهر أمام الناس ببعض مظاهرها»(1).

من هنا يرى الإمام أن هذه الصفة تختص بالإنسان و تمثل سببا من أسباب تكريمه، و في هذا يقول مخاطبا المفضل بن عمر: «انظر يا مفضل إلى ما خصَّ به الإنسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل قدره العظيم غناؤه، أعني الحياء»(2).

فالحياء يحجز المرء عن الفواحش و يدفعه إلى التحلي بكل جميل و من أجل ذلك قرّر رسول الله صلّى الله عليه و سلّم بأنّ «الحياء خير كلّ»(3).

و يشرح الإمام الصادق كيف أن الكثير من السلوكيات الحسنة و حتى مراعاة الحقوق تظهر بفضل التزام الإنسان بسجية الحياء في حياته:

«فلولاه [أي الحياء] لم يقر ضيف و لم يوف بالعادة و لم تقض الحوائج و لم يتحرّ الجميل و لم يتنكّب القبيح في شيء من الأشياء حتى إنّ كثيرا من الامور المفترضة ايضا إنما يفعل للحياء فإنّ من الناس من لولا الحياء لم يرع حقّ والديه و لم يصل ذا رحم و لم يؤدّ امانة و لم يعف عن فاحشة»(4).

و هكذا يرى الإمام الحياء رأس كثير من مكارم الأخلاق و يشجع طلابه عليه فيقول:

«صدق الحديث و صدق الناس، و إعطاء السائل، و مكافأة الصانع، و أداء الأمانة، و صلة الرحم و التودّد إلى الجار و الصاحب، و قرى الضيف و رأسهنّ الحياء»(5).

و على هذا النحو يشير الإمام أحيانا إلى الجذور الأصلية للذائل و يعبر عنها بأصول الكفر فيقول ما نصّه: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص و الاستكبار و الحسد»(6) ربّما مصدر جميع المصائب الكبرى التي حدثت في العالم الإنسانية منذ صدر الخليفة هي هذه الصفات الثلاث.

و تشير نماذج من هذا القبيل إلى أن الإمام الصادق اهتم عبر نظامه التربوي الأخلاقي المستمد من النظام التربوي القرآني بتحري جذور الفضائل و الرذائل الأخلاقية، و بدأ بها في تربية طلابه و قد استعان بالمقارنات و ظاهرة الترابط القائم بينها في هذا المجال. 1.

ص: 267

1- عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية، مرجع سابق، ج 1، ص 489.

2- كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص 39.

3- أخرجه مسلم في صحيحه، باب شعب الإيمان، ح 37.

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 81.

5- الطوسي، الأمالي، ص 301.

6- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب أصول الكفر و أركانه، ح 1.

تتوخى التربية الخلقية في الإسلام تحقيق الفضائل وفق مستويين:

أحدهما الحد الأدنى الواقعي ويرمي إلى الوصول بالطباع والأخلاق إلى حد الاعتدال أو نقطة التوازن بين الإفراط والتفريط. فالفضائل هي أوساط بين أطراف، والأطراف هي الرذائل. وبذلك جاء حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «خير الأمور أوسطها»⁽¹⁾.

فالحكمة وسط بين السّفه والبله، والحياء وسط بين الوقاحة والخرق، والشجاعة وسط بين رذيلتي الجبن والتهوّر، والعفة وسط بين الشره وخمود الشّهوة، والسّخاء بين رذيلتي التقتير والتبذير، وغير ذلك⁽²⁾ أما الحد الأعلى الثاني فيرمي تطبيق هذه الفضائل إلى منتهى غاياتها ابتغاء مرضاة الله؛ فالعدل فضيلة والإحسان والتفضل مثالية، والسخاء فضيلة، والإنفاق في سبيل الله بغير منّ ولا أذى مثالية. والشجاعة فضيلة، وبذل المسلم روحه في سبيل الله لنشر الدعوة الإسلامية مثالية.

ومّا لا شك فيه أن وجود هذا الحد الأعلى المثالي في الأخلاق هو سمة الأصفياء، ووجوده ضرورة في الأمة؛ لأنه رصيد الخير الذي يشدّها شدّا، ويرتفع بها من هوة المطالب الدانية إلى ذروة المطامح العالية، ويشير إلى هذا الموضوع أحد علماء اللاهوت الغربيين عند ما يفصل بين الأخلاق الدنيوية التي هي ضرورة اجتماعية تفرضها للمحافظة على الأمن، والأخلاق الإنسانية التي هي فيض إلهي تخلق في الإنسان نفسا قدسية. فهو يتحدث بها لنيل الكمالات المعنوية والسمو النفسي⁽³⁾.

وكذلك في مدرسة الصادق، فالأخلاق الحميدة قسمان: الأول: محاسن الأخلاق، والثاني: مكارم الأخلاق. والمحاسن هي أساس العلاقات الاجتماعية وهي

ص: 268

1- جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، الفتح، جدة، 1365، ج 4، ص 208 وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا.

2- ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت ص 45 إلى 48 (بتصرف).

3- محمد علي فروغي، سير الحكمة في أوروبا، نشر زوار، طهران، 1413، ج 3، ص 183 في كلام هنري برجسن. (باللغة الفارسية)

الباعثة على نيل المنافع المادية وتحسين الحياة و أما المكارم فهي معيار الإنسانية، وبها يستقيم الطبع، و تزكو النفس، و يسمو الروح.

و لأن الإمام الصادق عند ما يتكلم عن الأخلاق الحسنة بمعناها الجامع الشامل لبيان أهميتها وقيمتها في التعاليم الإسلامية، يعبر عنها بحسن الخلق، و عمّا يقابلها بسوء الخلق.

و عند ما كان الإمام يريد توجيه الناس إلى السمو المعنوي و كمال النفس ليبيّن لهم القيم الإنسانية الرفيعة كان يحدثهم عن مكارم الأخلاق كما يحدثهم عن المحاسن دون أن يفصل بينهما؛ لأن مدرسته لا تقتصر على الأخلاق الحسنة فحسب بل تريد أن ترقى بالناس إلى المستوى الأعلى المثالي بالمكارم. و هذا معيار المحاسن و المكارم عند الإمام، فقد سئل ذات مرّة: ما حدّ حسن الخلق؟ قال: «تلتين جانبك. و تطيّب كلامك، و تلقى أخاك ببشر حسن»(1).

و جاء رجل، فقال له: يا ابن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، أخبرني بمكارم الأخلاق، فقال:

«العفو عن ظلمك. و صلة من قطعك. و إعطاء من حرمك، و قول الحق و لو على نفسك»(2).

فالبشاشة و التبسم و احترام الناس و أدب الكلام و عيادة المريض و تعزية المصاب و ما شابهها من صور التراحم و التودّد المطلوبة شرعا و عرفا هي من محاسن الأخلاق، و بها تطيب الحياة، إذ تشيع بين الناس مظاهر الفضيلة و تبادل الاحترام و الأدب، و يفيض الودّ و المحبّة على المجتمع و هذا يكاد يكون مسورا لجميع الناس، فكل امرئ يستطيع بالمراقبة و المران أن يتخلّق بها ليتمتع بثمارها المفيدة.

أما مكارم الأخلاق، فلا يبلغها إلا من استطاع أن يتغلب على هوى النفس، و يحررها من أسر الشهوات.

و فيها قال الإمام الصادق: «فإن استطعت أن تكون فيك (المكارم) فلتكن، فإنها تكون في الرجل و لا تكون في ولده، و تكون في ولده و لا تكون في أبيه، و تكون في العبد و لا تكون في الحرّ...»(3).

و من هذا المنطلق يمكن القول، مع علماء النفس، بأن تطبيق محاسن الأخلاق دليل على الوصول إلى مرحلة ال (أنا)، و التخلّق بمكارم الأخلاق دليل على الوصول إلى مرحلة ال (أنا الأعلى) الشامخة.1.

ص: 269

1- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 4، ص 412، ح 5897.

2- المجلسي، بحار الأنوار، ج 66، ص 368.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب المكارم، ح 1.

و ما برح الإمام الصادق يدعو تلاميذه إلى قسمي الأخلاق مؤكداً أن المكارم أشد تأثيراً في ضمان النجاة وسعادة الإنسان، لأنها تحرّر الإنسان من عبادة الذات و الطبيعة الحيوانية و تبعثه على الحب في الله و البغض في الله، و هما غاية التربية الإسلامية.

فقام بتعليم تلاميذه هذه المكارم و ترسيخها في نفوسهم، لكي يكمل البناء الذي أرسى قواعده من قبل جدّه رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فقال ما نصّه:

«إن الله عزّ و جلّ خصّ رسله بمكارم الأخلاق، فامتحنوا أنفسكم؛ فإن كانت فيكم، فاحمدوا الله، و اعلموا أن ذلك من خير، و إن لم تكن فيكم فاسألوا الله، و ارغبوا إليه فيها»⁽¹⁾.

و هكذا نلمس أن تربية الإمام الصادق تجعل «السمو بالأخلاق» و ترقيتها، و التحلي بفضائلها و آدابها أهم مقاصد التربية المتكاملة، ترمي بها إلى ترسيخ هذه القيم و تكوين الخلق الفاضل القويم في نفوس المتعلمين⁰.

ص: 270

1- الصدوق، الأمالي، ص 290.

إشارة

تناولنا أهمية التربية الخلقية وأهدافها في مدرسة الصادق، و من الطبيعي أن نتحدّث بعد ذلك، عن المبادئ الرئيسة لهذه التربية التي نراها تسير بخطى عملية مترابطة و متكاملة معاً، تشكل الإلزام الخلفي في الإنسان و تنمي فيه روح الاستقامة على الخير و الصلاح؛ و أهم هذه الخطى:

أ - تكوين بصيرة أخلاقية:

إشارة

من أهم مبادئ التربية الخلقية عند الصادق تكوين بصيرة أخلاقية لدى كل مسلم.

فهو يرى أن المعرفة لا بد أن تكون سابقة على السلوك، ليكون الإلزام الخلفي حقيقة واقعة في نفس الإنسان و هذه المعرفة تجعل الإنسان متمكناً من أنماط سلوكه و واعياً لأبعادها، و قادراً على القيام بما يجب عليه، و من هنا قال: «العامل على غير بصيرة كسائر على سراب بقيعة لا تزيده سرعة السير إلا بعداً»(1).

«فمعرفة مبررات القانون، و الاقتناع بعدالته يجذب النفوس إلى امثاله و يغريها بطاعته عن محبة و طوعية»(2).

و هكذا تنمية الروح الأخلاقية تحتاج إلى تعليم و تبصير و لا بدّ من وعيها و عياناً نافذاً ليدرك الإنسان حكمة المبادئ الأخلاقية و ليستطيع التمييز بين المحاسن و المساوئ، و ما يترتب على الفضائل من خير، و ما يترتب على الرذائل من شرّ.

«فالعلم و المعرفة شرط جوهري في تقرير خلقية السلوك، كما أنه دلالة على صحّة القصد الخلفي، فتغدو المعرفة بخلقية العمل سبيلاً إلى الالتزام به و الشعور تجاهه بأنه واجب خلقي... كما أن المعرفة بالشر تكون سبيلاً إلى النفور منه و البعد عنه»(3).

و من هذا المنطلق، فقد كان الإقناع الفكري من أهم الطرائق التي سلكها الإمام

ص: 271

1- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 18، ص 122، ح 36.

2- محمد عبد الله دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية و الدولية، دار القلم، الكويت، ص 105.

3- محمد عبد الله عفيفي، النظرية الخلقية عند ابن تيميمة، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، 1988، ص 136.

متأسيا بالمنهج القرآني. و البناء الخلقى عنده، ليس مجرد مدح لبعض الأعمال و لا ذمًا لبعض، وإنما هو تكوين معرفة صحيحة بالفضائل و الرذائل و تحليل للتنتائج النفسية و الاجتماعية لسلوك ما.

و لذلك نجد الإمام معلما و مربيا يسعى لتكوين بصيرة علمية و قناعة عقلية بالقيم الخلقية عن طريق تبين هذه القيم و حدودها، و بيان حكمتها و آثارها، ليختار الفرد المسلم أخلاقه في الحياة العملية في ضوء معايير العمل الصالح في الإسلام.

لقد غرس الإمام هذه المعرفة و الوعي في تلاميذه و محبيه بما نوره على ما يأتي:

تعريف السلوك الأخلاقي بظواهره:

إنّ تبصير الفرد بالقيم و الفضائل و إبعاده عن الرذائل يحتاج إلى معرفة الخير و الشر في مجال التطبيق، لأن الأخلاق هي دراسة القيم في مجال السلوك البشري و لهذا «تتكون من خلال الممارسة و الانخراط في مواقف الحياة حيث يكون التعامل مع الأفراد و الجماعات، و حيث يكون اكتساب القيم و الاتجاهات و العادات ذات الأثر الإيجابي البناء، كالتعاون و التساند الاجتماعي و حب الخير و كره الشر»⁽¹⁾.

و هذا ما يلمسه من يقرأ سيرة الإمام الصادق و منهجه الذي اتّبعه في حياته، فهو يعرف كثيرا من الأخلاقيات بظواهرها السلوكية لتكوين معرفة صحيحة بها و لتفتح للإنسان طريق العمل بمصاديقها في مختلف نواحي الحياة كما نرى في تعريفه للتواضع حيث قال ما نصّه:

«التواضع هو أن ترضى من المجلس بدون شرفك و أن تسلم على من لقيت، و أن تترك المراء، و إن كنت محقا»⁽²⁾.

و كذلك في تعريفه للكبر حيث يقول: «الكبر أن يغمص الناس و يسفّه الحق»⁽³⁾.

فيعرّف الإمام الكبر في عبارة موجزة بأنه تحقير الناس و ازدرأؤهم من جهة و عدم رؤية الحق من جهة أخرى.

و في ضوء هذا الهدف يدلّ الإمام على الفضائل و الرذائل بعلاماتها كقوله:

«للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده. و ينشط إذا كان الناس عنده. و يتعرض في كل أمر للمحمدة»⁽⁴⁾.

ص: 272

1- منير المرسي سرحان: في اجتماعيات التربية، مكتبة الإنجلو المصرية، ط 7، 1991، ص 28.

2- شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأداب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د. ت، ج 3، ص 245.

3- الصدوق، معاني الأخبار، ص 242.

4- الصدوق، الخصال، ص 121.

«و للحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، و يتملق إذا شهد، و يشمت بالمصيبة»(1).

فالعلامم أفضل الطرق لمعرفة الصفات الباطنية، و بما يستطيع الإنسان أن يطلع على وجود هذه الصفات من نفسه فيقوم بمعالجتها.

فلا يكفي عند الصادق أن يريد الإنسان من أعماق نفسه عمل ما يجب عمله، بل يرى من الضروري أن يعرف ذلك بظواهره السلوكية؛ لأن «القوانين الأخلاقية ليست ترفاً عقلياً و إنما هي قواعد للعمل»(2) و لذا كان التركيز في منهج الإمام على الجانب التطبيقي أكثر من المفاهيم و التصورات الذهنية.

تحديد السلوك الأخلاقي و تمييزه عن غيره:

إحدى الطرق لتكوين بصيرة أخلاقية هي تبيين حدود السلوك الخلقى و تمييزه عمّا تشابه منه، لئلا تختلط الفضيلة بالذيلة، و العدل بالظلم، و الصواب بالخطأ.

فمن خلال جهود الصادق في تربية الأمة أخلاقياً، فإنه سعى إلى تصحيح المفاهيم الأخلاقية التي التبس بعضها ببعض أحياناً بتأثير التغيير و التغيير الاجتماعي الضارين في مسيرة الأمة، فقال محمداً مفهوم التعصب: «ليس من العصبية أن تحب أخاك و لكن العصبية أن ترى شرار قومك خيراً من خيار غيرهم»(3).

فحب الإنسان لأخيه و الانتصار له عند الشدة بالحق ليس عصبية و لا صلة لهما بالعصبية؛ لأنهما واجب أخلاقي و شرعي أما إذا كانت النصره خارج الإنصاف، فهي عصبية ذميمة يأبها الشرع و مكارم الأخلاق.

و كذلك يبين الإمام الفضيلة و الرذيلة بتحديد مفهوم العصبية و تمييزها عن الغيرة الممدوحة.

كما حدّد الصادق السخاء بقوله: «ليس السخي المبذر الذي ينفق ماله في غير حق، و لكنه الذي يؤدي إلى الله عزّ و جلّ ما فرض عليه في ماله من الزكاة و غيرها و البخيل الذي لا يؤدي حق الله عزّ و جلّ من ماله»(4).

و بهذا القول رفع الصادق ما بين السخاء و التبذير من الالتباس، و حدّد السخاء بأداء المفروض في المال إلى الله تعالى.

ص: 273

1- المجلسي، بحار الأنوار، ج 70، ص 251.

2- أحمد محمود صبحي، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار النهضة العربية - بيروت 1992، ص 31.

3- حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعية، مرجع سابق، ص 49.

4- الطوسي، أمالي، ص 475.

وقوله: «إلى الله» تحديد آخر للسخاء من التبذير، فليس إخراج الزكاة وحده سخاء في رأي الصادق، وإنما لا بد أن يكون لله تعالى لا لشهرة، ولا لمصلحة خاصة، ولا لفساد في الأرض.

وهكذا يشير الإمام إلى دور النية والقصد في تحديد الفعل وتقويمه؛ لأنها روح العمل. فقال ما نصّه: «النية أفضل من العمل ألا وإن النية هي العمل»⁽¹⁾.

فعلى أساسها تصنّف الأفعال وتوزن، فلا عبء بالفعل ولا قيمة له ما لم يقم على أساس قصد سليم ونية مخلصّة وصادقة مهما يكن ضخماً ومهما يبدو في وضعه المنظور خيراً وحسناً. وقد أثر عن الإمام من تفسير قول الله تعالى:

لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا⁽²⁾ «ليس يعني أكثر عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والحسنة»⁽³⁾. هذا يعني أهمية العمل تتعلق بكيفيته أكثر مما تتعلق بكميته، ومن مقتضيات ذلك أن «تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها»⁽⁴⁾ فكم من الأعمال تعجب بظاهرها والناس يعدّون فاعلها صانعاً للمعروف، في حين أن قصد فاعله تخالف الصورة الظاهرة فينقلب هذا الشكل الخير إلى الرياء الذي هو شر مهلك.

فالإمام يؤكد على أهمية النية لتحديد السلوك الأخلاقي وتمييزه عن غيره من الأفعال، ويعلم تلاميذه هذا الموضوع الخطير الأثر في الحياة؛ لأنها تعبير عن الموقف الداخلي وعن التوجه الذاتي والحقيقة الباطنة للإنسان فشرح قوله تعالى:

كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ⁽⁵⁾ بأنها تعني على نيته»⁽⁶⁾.

تبيين آثار السلوك الأخلاقي و نتائجه:

لمعرفة الفضائل الأخلاقية معرفة صحيحة، لا بد أن تبرز ما فيها من كمال وجمال، ولا بد أن تورث اليقين بفوائدها وثمراتها الطيبات وخيراتها الحسان المادية والمعنوية، والدينية والأخروية. وكذلك معرفة الرذائل والنقائص الأخلاقية لا بد أن تبرز ما فيها من نقص وقبح، ولا بد أن تورث اليقين بمضارها ونتائجها السيئة.

من هنا عرض الصادق، في سبيل تبصير تلاميذه بالسلوكيات الأخلاقية على

ص: 274

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الإخلاص، ح 4.

2- سورة الملك، جزء من الآية 2.

3- الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 10، ص 181.

4- محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 38.

5- سورة الإسراء، جزء من الآية 84.

6- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 67، ص 230.

أنواعها، و ما يترتب على الفضيلة من خير و ما ينجم عن الرذيلة من شرّ؛ فعلى سبيل المثال قال له أحد تلاميذه: «قد عرفت حالي وسعة يدي و توسعي على إخواني، فأصبح نفر منهم في طريق مكة فأتوسع عليهم فقال له: لا تفعل، إن بسطت و بسطوا أجهفت بهم، وإن هم أمسكوا أذلتهم، فأصبح نظراءك، أصبح نظراءك»(1).

لقد نهاه الإمام عن صحبة من دونه في السفر و علل له ذلك، ليعرف ما ينفع و ما يضرّ و ليعي أن جميل العشرة ليس أن يكلف رفيقه أو يذله. و حث الصادق أتباعه على التحلي بالصفات الحميدة و السجيا المطلوبة بذكر فوائدها و نتائجها فقال: «قل الحق لك و عليك تستشار من بين أقربانك»(2).

فبين الإمام أثر أتباع الحق بين الناس الذي يؤدي إلى مكانة الثقة للمرء و منصة المشورة عن الآخرين.

كما حدّر تلاميذه من الأخلاق الذميمة مبينا سوء أثرها في النفس و المجتمع فقال ناهيا عن المرء: «لا تمارينّ حلِيمًا و لا سفِيها فإن الحلِيم يغلبك و السفِيه يؤذيك»(3).

فالتبصير بعواقب الأفعال و آثارها أمر حيوي عند الإمام لإصلاح النفوس، حيث لم يعلم الفضائل و الرذائل إلا بذكر ثمارها العاجلة و الآجلة. و لكنّه رغم ذكر الفوائد الدنيوية للفضائل، تبّه تلاميذه إلى اختلاف الخلق الايماني عن الخلق النفعي(4) لكي ينفذوا سلوكهم الأخلاقي إطاعة لأمر الله و يكون الدافع الأصلي فيهم ابتغاء لوجهه.

فقال ما نصّه:

«عليكم بمكارم الأخلاق فإن الله عزّ و جلّ يحبها، و إياكم و مذامّ الأخلاق فإن الله عزّ و جلّ يبغضها»(5).

و معلوم أن التخلق لغير الله تعالى مهما كان فإنه، ليس من المكارم على ما في الإسلام الحنيف.0.

ص: 275

1- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 279، ح 2441.

2- أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج 3، ص 195.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب المرء و الخصومة، ح 4.

4- أصحاب هذه النظرية يلزمون أنفسهم بالموازن الأخلاقية لاستزادة المنفعة لهم و ليس دافعهم إلى السلوك الأخلاقي إلا النفع المادي و المصلحة الدنيوية؛ لأنهم عرفوا أن مصالحهم و منافعهم الدنيوية تكمن في حسن الأخلاق، فاستخدموها وسيلة لإشباع رغباتهم و لنيل اللذائذ و الأهواء النفسية. (محمد تقي فلسفي، الأخلاق من منظور التعايش و القيم الإنسانية، ج 1 باب الأخلاق النفعية، ص 76).

5- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 200.

إشارة

ب - تكوين عاطفة أخلاقية (1):

معرفة الأخلاق والفضيلة عند الصادق لا تبعث على التمسك بهما ما لم تمتزج بعاطفة أخلاقية تمنحهما الحياة التي تدفع الإنسان نحو عمل الخير وتردعه عن الشر.

هذه العاطفة، كحافز ذاتي في داخل الإنسان، توجه إرادته وتدفعه إلى ممارسة السلوك الأخلاقي وهذا ما سعى الإمام الصادق إلى تحقيقه في نفس الإنسان المسلم، فلم يكتف بالتوعية وحدها، بل شفعها بتكوين الرغبة والاستعداد الكامل في نفوس تلاميذه للالتزام بالمبادئ الأخلاقية، وقد سلك في ذلك طرقاً منها:

التذكير بالوازع الداخلي أو الحس الأخلاقي:

«لقد خلق الخالق العظيم الإنسان» (و أودع في مدارك الأفكار وفي مشاعر الوجدان الفطرية ما تدرك به فضائل الأخلاق و رذائلها، و نستطيع أن نسمي ذلك «الحس الأخلاقي»). وهذا ما يجعل الناس يشعرون بقبح و ينفرون منه، و يشعرون بحسن العمل الحسن و يرتاحون إليه» (2).

وقد وصف القرآن الكريم هذه الهداية التكوينية بأنها إلهام رباني بقوله:

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (3). فالنفس الإنسانية منذ تكوينها و تسويتها ألهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها و طريق تقواها، و هذا هو الحس الفطري الذي تدرك به الخير و الشر، الذي يسميه علماء النفس «الضمير».

وقد أرشدت السنة النبوية إلى وجود هذا الحس في النفوس الإنسانية و أرشدت المسلم إلى استفتاء قلبه في حكم السلوك الذي قد تميل نفسه إلى ممارسته، فقال النبي صلى الله عليه و سلم، عند ما سأله رجل عن البر: «استفت نفسك، البر ما اطمأن إليه القلب، و اطمأنت إليه النفس، و الإثم ما حاك في القلب و تردد في الصدر، و إن أفتاك الناس» (4).

و هذا يدل على أن في النفس الإنسانية قدرة على الإحساس بالبر و الإثم. و قد جمع الرسول صلى الله عليه و سلم فضائل الأخلاق تحت عنوان (البر) و جمع رذائل الأخلاق تحت عنوان (الإثم).

و كذلك الإمام الصادق الذي تخرج من مدرسة جدّه، لم يغفل عن هذا الوازع في

2- عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ج 1، ص 67.

3- سورة الشمس، الآية 8.

4- أخرجه أحمد في المسند، ج 4، ص 228.

النفس الإنسانية فذكر تلاميذه به من حيث تميمته و حمايته في قوله:

«إنك قد جعلت طبيب نفسك، وبيّن لك الداء، و عرفت آية الصحة، و دللت على الدواء، فانظر كيف قيامك على نفسك»⁽¹⁾.

ففي هذا الكلام، تبيان واضح للحس الأخلاقي الذي شبّهه الإمام بالطبيب الذي يعرف الداء و الدواء. فبهذا الوجدان يهتدي الإنسان إلى معرفة أمراض نفسه، و يستطيع الوصول إلى سلامة روحه؛ لأنه إذا كان نقياً صافياً سليماً من العلل، يساعد الإنسان على تمييز مواقف الخير من غيرها، و يحمله على وقوفها و اجتناب مواقف السوء.

فقد أشار الإمام إلى موقع هذا الوازع الداخلي في صيانة الإنسان عن الانحراف بقوله: «من لم يكن له واعظ من قلبه و زاجر من نفسه، و لم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه»⁽²⁾ و من البديهي أنّ الإنسان يحتاج إلى واعظ قبل كل شيء ليكون معه في كل حال و يعلم أسراره الداخلية و يكون عليه و معه دائماً.

فهذه الصرخة الإلهية في نفس الإنسان تقوم شخصيته و تشكل محكمة عادلة و منصفة داخله، و تراقب سلوكه و مواقفه بدقة و توبّخه و تؤنّبهِ عند كل شطط و انحراف كما تمدحه عند كل خير و فضيلة. و على هذا ذكر الصادق الناس بهذا الوازع الداخلي الذي يشعرهم بقبح العمل القبيح و ينفّرهم منه و يشعرهم بحسن العمل الحسن فيرتاحون إليه، ترغيباً لهم في الخير و تنفيراً من الشر.

تحريك عنصر الطمع و الخوف:

للمطمع و الخوف أثر كبير في النفس الإنسانية و هما يتحركان بالترغيب و التهيب، فإذا رأى الإنسان المكافأة على عمل اندفع إليه طمعا فيها، و إذا رأى العقوبة عليه ارتدع عنه خوفاً منها.

و قد اعتمد الصادق في منهجه التربوي اعتماداً كبيراً على تحريك هذين العنصرين لبعث الفضيلة و نبذ الرذيلة من أعماق النفس الإنسانية ما زجا بين العقل و العاطفة لتمكين الروح من الاستقامة على الخير و الحق و الجمال.

و هذه أمثلة من ترغيبه و تهيبه، قال: «من ظلم مظلمة أخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده»⁽³⁾.

و هذا تخويف من العقاب الذي يطال الظالم في الدنيا بأنه قد يكون في نفسه أو

ص: 277

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب محاسبة العمل، ح 6.

2- الصدوق، الأمالي، ص 526.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 330.

في ماله، إذ يقتصّ الله سبحانه منه للمظلوم بمرض أو بلاء أو خسارة في ماله.

وأحيانا يكون العقاب في أولاده ولأن الإنسان يحبّ نفسه و ما يتعلق بها من مال و ولد، أراد الإمام أن يبعد الناس عن ظلم بعضهم بعضا بإخافتهم من عاقبة هذا الظلم.

ورغّب الناس في البر و الفضيلة بلفت أنظارهم للتأثير المتقابل في الأعمال، ليحرّك عواطفهم و أحاسيسهم إلى الالتزام به. فقال: «برّوا آباءكم يبرّكم أبناءكم...»

عَفُوا عن نساء الناس تعف نساءكم»(1).

كما يخوّفهم من عواقب بعض الرذائل في مثل قوله: «من كشف الحجاب عن عورة غيره انكشف الحجاب عن عورات بيته، و من سلّ سيف البغي قتل به و من احتفر لأخيه بئرا سقط فيها»(2).

فالإمام كما رغّب و رهّب بالنتائج الدنيوية للأعمال أشار إلى الآثار الأخروية لها أيضا كقوله: «إن المتكبرين يجعلون في صور الذرّ يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب»(3).

فهذا رعاية لوجود الفروق الفرديّة بين الناس و منهم من يحركّ بالعواقب الأخروية من النفوس المؤمنة الصادقة، و منهم من يتأثر بالنتائج الدنيوية أشد تأثيرا من مستوى العام بين الناس. لهذا تشمل ترغيبات و ترهيبات الإمام كلا الجانبين.

تشجيع الناس على محاسبة النفس (المراقبة الذاتية):

يرى الصادق محاسبة النفس طريقا إلى تكوين عاطفة أخلاقية تؤدي إلى الرغبة في الفضيلة و ترك الرذيلة باستمرار. «فمن عوامل الرقي في بناء الذات، النقد البناء و المحاسبة الذاتية و هو أساس كل حركة و وجودهما ضمانة أكيدة للبناء و التكامل الذاتي»(4) و لا بد للإنسان أن يكون ناقدا لنفسه يزن أعماله و سلوكه بميزان الحق و يميّز الحسن من السيئ منها، قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «ثمرة المحاسبة صلاح النفس»(5).

فالمراقبة هي الملاحظة الكاملة لكيفية الأعمال قبل صدورها، و المحاسبة هي دراسة نتائج الأعمال و آثارها بعد صدورها.

ص: 278

1- الحرائي، تحف العقول، ص 359.

2- أبو نعيم، حلية الأولياء، ج 3، ص 195.

3- سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 14، ص 133.

4- محسن الباقر، مقومات الشخصية الإسلامية، دار البيان العربي، بيروت، 1990، ص 73.

5- عبد الواحد الأمدي، غرر الحكم و درر الكلم، طهران، د. ن، 1376، ح 4656.

و من يراقب نفسه دائما، و لا يغفل عن عمله، فيبادر لاجتناب المعاصي و اجتثاث أثرها من روحه و قلبه قبل أن تتأصل جذورها في نفسه و تصير ملكة له تستقيم سيرته، و تزدهر حياته، و تثمر خيرا عميما.

ولذا شجع الإمام الصادق تلاميذه و مريديه على هذه المحاسبة الواعية، و جعلها واجبا عليهم، فقال: «حق على كل مسلم يعرفنا أن يعرض عمله في كل يوم و ليلة على نفسه، فيكون محاسب نفسه، فإن رأى حسنة استزاد منها، و إن رأى سيئة استغفر منها»(1).

و بين الصادق أن من أهمل محاسبة نفسه أو شك أن يكون عن الخيرات ساهيا و بالقبائح لاهيا فلا تؤثر فيه مواعظ الآخرين، فقال: «من لم يجعل له من نفسه واعظا فإن مواعظ الناس لن تغني عنه شيئا»(2).

فهو يدعو لمراجعة الحسابات و الموازنة يوميا استعدادا لمواجهة حساب الآخرة فقال: «إذا أويت إلى فراشك، فانظر ما سلكت في بطنك، و ما كسبت في يومك، و اذكر أنك ميت، و أن لك معادا»(3).

على وفق هذه المحاسبة في كل يوم يرسم الصادق حقيقة الإنسان المؤمن خاصة و الإنسان عامة بقوله: «من استوي يومه فهو مغبون. و من كان غده شرا من يومه فهو مفتون. و من لم يتفقد النقصان في نفسه دام نقصانه. و من دام نقصانه، فالموت خير له»(4).

هذه النظرة تؤدي إلى تكوين الرغبة في الخير و التقدّم في نفس الإنسان الذي يكون باستطاعته أن يحرك و يوجه و يؤثر.

ج - تكوين قوة الإرادة:

إشارة

يرى الصادق أن التربية الخلقية لا تتم و لا تقوم لها قائمة، دون تربية قوة الإرادة، فهي من مبادئ التربية الخلقية في منهجه؛ لأن إرادة الإنسان هي المحرك الأول لقوة العمل و بقوة هذه الإرادة تكافح الغرائز و الميول و تبتدئ الفضيلة و يتم التوازن، فهي المبدأ الأساس في البناء الخلقى للمسلم، و لا يستطيع الإنسان أن يطبق المبادئ الأخلاقية في كل المواقف و الأحوال دون أن يملك قوة الإرادة.

فكثير من الناس يرون الاستقامة فضيلة، لكن لضعف إرادتهم في المواقف

ص: 279

1- الحرائي، تحف العقول، ص 301.

2- المفيد، الأمالي، ص 28.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 68، ص 267.

4- الصدوق، معاني الأخبار، ص 342.

الضاغطة و المثيرة لا يستطيعون التغلب على الشهوات و الأهواء، فكثيرا ما يعلمون الخير و يجتنبونه، و يعلمون الشر و يأتونه «فمعرفة الخير ليست كافية في الحمل على فعله، بل لا بد أن ينضم إليها إرادة قوية حتى يعمل على وفق ما علم»(1).

و نعني بالإرادة القوية، إرادة تنفذ ما قصدت إليه مهما كلفها من المشاق، و مظاهر قوة الإرادة هي الشجاعة في مواجهة الحياة و ألوانها المختلفة حلوها و مرها، و الثبات على المبادئ التي يؤمن بها و الاستمرار في تطبيقها مهما تكلفه من العناء و المشقة، أينما كان و حيثما وجد.

و قد جمع الإمام الصادق هذه المعاني كلها في كلمته البليغة: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النية»(2).

أي إذا كانت إرادة الإنسان في نفسه قوية، فإنها تمنح الجسد قوة بحيث يستطيع أن يقوم بما تفتح عليه الإرادة و لو كان ضعيفا.

و قد عدّد في تعاليمه ما يدل على مزيد من الاهتمام بتكوين الشخصية القوية الإرادة، و منها تركيزه على الأمور التالية:

الدعوة إلى مخالفة الهوى و جهاد النفس:

لا شك أن جهاد النفس هو من أعظم الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حركته التكاملية، و قد جاء التعبير عنه في الحديث الصحيح المروي عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم بأنّه الجهاد الأكبر(3) و أهمية هذه الضابطة في جانبها الذاتي، إنما تنبع من تربية الإرادة الإنسانية و تقويتها. و لذلك يدعو الصادق إلى هذا الأمر بقوله:

«لا تدع النفس و هواها، فإن هواها رداها، و ترك النفس و ما تهوى أذاها و كف النفس عما تهوى دواؤها»(4).

و في تربية الإرادة أبان الصادق أن النفس و رغباتها و أهواءها عدو الإنسان، فحدّر الناس منها و أمرهم بكبحها و السيطرة عليها بقوله:

«إحذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم، و حصائد ألسنتهم»(5).

ص: 280

1- أحمد أمين، الأخلاق، مكتبة الخانجي، مصر، 1958، ص 36.

2- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 4، ص 400، ح 5859.

3- قد سئل رسول الله صلّى الله عليه و سلّم ما الجهاد الأكبر، قال: جهاد النفس، ثم قال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه (الصدوق، معاني الأخبار، ص 160).

4- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب اتباع الهوى، ح 4.

5- المصدر نفسه، و المكان نفسه، ح 1.

والمقصود أن الخضوع للأهواء والانتقياد التام للميول النفسانية يضعفان الإرادة الخيرة في الإنسان و ضعف الإرادة هو داعي الشقاء و الهلاك و منع النفس عن الهوى دواءها و علاجها.

الالتزام بالورع و التقوى:

التقوى من مادة الوقاية فهي قوة و جودية رادعة في نفس الإنسان، تمنحه سلوكا إراديا خاصا يصونه عن المعاصي و الرذائل و يرشده إلى طاعة الله.

و لما سئل الصادق عن تفسيرها قال: «التقوى أن لا يفقدك الله حيث أمرك و لا يراك حيث نهاك»(1).

يبدو أن التزام طاعة الله في كل ما أمر به و في ما نهى عنه من الوسائل الناجعة في تقوية الإرادة الإنسانية و لذلك لم يدع الإمام فرصة إلا و أوصى أهله و تلاميذه فيها بالتقوى؛ فما من خطبة أو وصية له إلا و يستهلها بالحصّ على التقوى، و لا يميز في هذه النصيحة بين الصغير و الكبير و القريب و البعيد، فيوصي بها الناس عامتهم و خاصتهم، لأنها أساس كل فضيلة و تكمن فيها قوة الإرادة و ضبط النفس.

فعند ما قال أحد تلاميذ الإمام له: إني لا ألقاك إلا في السنين، فأخبرني شيئا آخذ به، فقال: «أوصيك بتقوى الله و الورع و الاجتهاد، و اعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه»(2).

لقد سعى الإمام لتنمية قوة الإرادة لدى تلاميذه بتشجيعهم على الاجتهاد في طاعة الله و الاجتناب عن المحارم و تحمل الضغوط النفسية و عدم الاستسلام لها في هذا الطريق.

تقوية الثقة بالله و التوكل عليه:

اهتم الصادق بتقوية عناصر الإيمان بالله في نفوس أصحابه و تقوية ما يقتضيه الإيمان فيهم من الثقة بالله، و صدق التوكل عليه، و حسن الظن به؛ لأنه «من الوسائل الجذرية لاكتساب فضيلة قوة الإرادة»(3) و هو ما أشار إليه الرسول الخاتم صلى الله عليه و سلم بقوله:

«من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»(4).

فقد حصّ الإمام تلاميذه على التوكل و الثقة بالله و لفت أنظارهم إلى ظواهر هذه

ص: 281

1- القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 13، ص 262.

2- المرجع نفسه، ص 269.

3- عبد الرحمن حبنكة، الأخلاق الإسلامية، مرجع سابق، ص 127.

4- المتقي، كنز العمال، ج 3، ص 101.

الثقة السلوكية في حياة الإنسان، فقال: «من التوكل أ لا تخاف مع الله غيره»(1).

أي هذه الثقة المطلقة بالله تهب الإنسان شجاعة واعية و متانة أعصاب بل رباطة جأش فائقة، لا يخالطها تردد و لا تلجلج. فالتوكل على الله سبحانه اتصال بسبب غير مغلوب البتة، و هو السبب الذي فوق كل سبب. «ف عند ما يتجلى هذا المفهوم بمعناه الصحيح في واقع حياة الإنسان و على سلوكياته، فإن ذلك من شأنه أن يبعث على تقوية الإرادة و تحكيم دعائم المقاومة و الشجاعة»(2).

و هذا ما أشار إليه الصادق تشجيعاً لتلاميذه: «من أعطي التوكل أعطي الكفاية، أتوت كتاب الله: و مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»(3).

و صور الإمام لنا شخصية المؤمن بالصفات التي تجسد قوة إرادته، فقال ما نصّه: «المؤمن له قوة في دين، و حزم في لين، و ورع في رغبة، و صلاة في شغل، و صبر في شدة، و قور في الهزائن، صبور في المكاره... لا يفضحه بطنه و لا يغلبه فرجه...»(4).

و مما لا شك فيه أن هذه الصفات التي يعددها الإمام الصادق تمثل مظاهر لقوة الإرادة، فالمؤمن قوي في دينه، حازم في لينه، و إذا انطلقت رغباته فإنه لا يندفع معها بل إنه يعيش الورع، و هو يحفظ مواقيت الصلاة، و لا يسهو عنها مهما كان من شغل، و هو صابر عند الشدائد و المكاره، كما أنه مالك بطنه و فرجه، لا تسيطر عليه شهواته.

و لا تجد هذا كله إلا في الشخصية القوية الإرادة. 1.

ص: 282

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 71، ص 158.

2- ناصر مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، نشر الجيل الشاب، قم، 2001، ج 1، ص 128.

3- سورة الطلاق، جزء من الآية 3. الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب التوكل، ح 6.

4- الصدوق، الخصال، 571.

إشارة

كما سبق وذكرنا فإنّ المجال السلوكي من أهم المجالات التي اهتمت بها مدرسة الصادق؛ ولطالما اعتمد هذا الإمام المربي، أساليب تربوية متنوعة فيه، يسهم كلّ منها في بناء شخصية الإنسان المسلم بناءً سويًا.

فهو يربّي المجتمع ويهديه ويعرّفه على واجباته بصور شتى، ويعلم الناس السلوك الخلقى بشكل مباشر وغير مباشر، قد تكون هذه الأساليب كلامية شفاهية أحياناً، وقد تكون عملية في أحيان أخرى، وقد تتبدى سلبية حيناً، بينما تأتي إيجابية إصلاحية في حين آخر. وقد يلاحظ أنها عامة لكل الناس تارة وخاصة بتلاميذه تارة أخرى. وعلى العموم، فبالنظر إلى التنوع السلوكي والطابع المركب للأساليب التربوية في سيرة الإمام، يمكن استخلاص أساليب مبتكرة ومؤثرة اتكأ عليها في مناهجه الخاصة بالتربية الأخلاقية. وفيما يلي إشارات إلى طائفة من هذه الأساليب:

أ - الأسلوب العملي المباشر:

ذكرنا في فصل سابق أن الأسلوب العملي من أكثر الأساليب التربوية تأثيراً، في هذا الأسلوب يتأثر الشخص بالسلوك القويم والإيجابي الذي يشاهده من مربيه أو من قدوته الحسنة. وهو إذ يشاهد هذه التصرفات العملية عياناً، فإنه يعي الرسالة التربوية الكامنة فيها.

لقد استخدم الإمام الصادق هذا الأسلوب في كثير من الأحيان، ضارباً صفحاً عن الموعظة والشرح المباشر للسلوك السليم، بعرض أبيه أشكال الخلق الإسلامي على نحو عملي وفي الظرف المناسب، أمام الشخص الذي يروم تربيته؛ ومما أثير عنه في هذا الصدد ما رواه حمّاد البشير⁽¹⁾، قال:

كنت عند عبد الله بن الحسن⁽²⁾ وعنده أخوه الحسن بن الحسن فذكرنا أبا عبد

ص: 283

1- حماد البشير الطنفاصي الكوفي، من أصحاب الباقر والصادق، (الخوئي، معجم رجال الحديث، ج 6 ص 203).

2- انظر إلى ترجمته، ص 40.

اللّه، فنال منه، فقامت من ذلك المجلس فأتيت أبا عبد الله ليلا فدخلت عليه و هو في فراشه... فخبرتة بالمجلس الذي كنا فيه و ما يقول حسن. فقال يا جارية: ضعي لي ماء فأتى به فتوضأ و قام في مسجد بيته، فصلى ركعتين ثم قال: «يا رب إن فلانا أتاني بالذي أتاني عن الحسن و هو يظلمني و قد غفرت له، فلا تأخذه و لا تقايسه يا رب فلم يزل يلح في الدعاء على ربه ثم التفت إليّ فقال: انصرف رحمك الله، ثم زاره بعد ذلك»(1).

عند ما يسمع بعض الجهلة أحدا يغتاب صاحبا لهم ينقلون إليه الغيبة بدلا من أن يدافعوا عنه، ظانين أنهم بهذا يقدمون خدمة لصاحبهم من جهة بإطلاعه على ما يقال عنه، و يكشفون له، من جهة أخرى، مقدار ما يكتونه له من حبّ و صداقة. و كذلك هنا ربما كان يجول في خاطر الراوي أنه وضع يده على كنز ثمين، و إذا ما سارع إلى نقل ما دار في مجلس عبد الله بن الحسن إلى الإمام فسيحمد له الإمام موقفه، و لكن الإمام اعتبر هذا العمل مثيرا للفتنة و من العيوب المعنوية، و السيئات الأخلاقية، فقبّح فعل النمام عملياً.

فصلاة الإمام، و إعلان الصفح عن ذكره بسوء عقيب الصلاة، كل ذلك، يبيّن بأن الإمام أراد أن يلقّنه درساً أخلاقياً لن يساه، و بهذا الخلق العالي قطع الإمام دابر الفتنة.

و نظير ذلك ما روي من كلام جدّه الإمام علي بن الحسين عند ما قيل له: «إن فلانا ينسبك إلى أنك ضالّ مبتدع». فقال له: «ما رعيت حقّ مجالسة الرّجل حيث نقلت إلينا حديثه، و لا أدّيت حقي حيث أبلغتني عن أخي ما لست أعلمه»(2).

ب - الإفادة من الاهتمامات الفكرية و العاطفية لدى المتلقي:

إذا عدا المشرف التربوي في غمرة التعامل مع تلاميذه و الاتصال بهم شخصية مقبولة و محببة لديهم، بحيث لا يتقبّلون فقط اتباعه و احتذاء خطاه كأسوة لهم، بل و فوق ذلك يتواصلون معه تواصلًا عاطفيًا عميقًا، و ينظرون لرضاه القلبي عنهم كأمر على جانب كبير من الأهمية و الجد، عندئذ يستطيع المربي الانتفاع من هذه الرابطة القلبية لحثهم على الفضائل لينهلوا من معينها، و نهيههم عن الرذائل ليقلعوا عنها.

و بالنظر لما كان يتمتع به الإمام الصادق من منزلة عظيمة لدى تلاميذه، و ما يكتنه طلابه من حب و مودّة قلبية عميقة له، فقد استفاد الإمام من هذا الأسلوب بنحو واضح في عملية التربية الأخلاقية، حتى إنه في كثير من الأحيان يستعيض عن البيان الدارج

ص: 284

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 88، ص 285.

2- الطبرسي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1385، ص 323.

والمألوف لإيجابية الأعمال وفضائلها، بالإشارة إلى منزلة هذه الأعمال الحسنة في نفسه وأهميتها لديه وحبّه الغامر لها ولفاعلها. و هكذا، فإن تلاميذه فضلا عن تقطنهم إلى حسن ذلك الفعل، يتفاعل في نفوسهم الشوق إلى ممارسته نظرا لحبهم الحقيقي لأستاذهم. و مثال ذلك قوله رضي الله عنه:

«لئن أخذ خمسة دراهم و أدخل إلى سوقكم هذه، فأتباع بها الطعام و أجمع نفرا من المسلمين أحب إليّ من أن أعتق نسمة»⁽¹⁾.

كما يقرب لتلاميذه و مرديه حسن الصنيع و الإفضال ليحملهم على هذا العمل الجميل فيقول ما نصّه -:

«لأن أطعم مؤمنا محتاجا أحب إليّ من أن أزوره، و لأن أزوره أحب إليّ من أن أعتق عشر رقاب»⁽²⁾.

و في المقابل، كان الإمام يستعيز أحيانا عن الإشارة المباشرة لقبح الفعل، بقبحه في نفسه و اشمئزاه منه فيعرب عن بغضه لذلك الفعل السيئ، بل قد يعتبر قيام تلاميذه بذلك العمل القبيح ظلما له هو، و استخفافا به أو باعث إزعاج له، فيشير بذلك انتباههم لسلبية الفعل، و يشعرهم بوجود صلة بين عملهم و استياء أستاذهم و مربيهم، عسى أن ينتقل هذا الانزعاج من الفعل المشين إليهم و لا يعاودوا اقترافه.

و مما روي في هذا الصدد، أن جماعة من أصحابه كانوا عنده، فقال: «ما لكم تستخفون بنا؟ فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ الله أن نستخف بكم أو بشيء من أمركم؟ فقال الإمام: إنك أحد من استخف بي فقال: معاذ الله أن أستخف بك؟ فقال الإمام: ويحك ألم تسمع فلانا و نحن بقرب الجحفة و هو يقول لك: احملني قدر ميل فقد و الله أعيتت. فو الله ما رفعت له رأسا، لقد استخففت به، و من استخف بمؤمن فينا استخف، و ضيع حرمة الله عزّ و جلّ»⁽³⁾.

يشدد الإمام هنا على أمر يشير بكل تأكيد حفيظة طلابه، و هو الاستخفاف بأستاذهم و مربيهم، ليشير لهم بذلك إلى قبح فعالهم و يدعوهم إلى العزوف عنها.

ج - أسلوب التعريض أو التلميح:

من أساليب التربية الأخلاقية، التعبير غير المباشر و الإشارة غير الصريحة، إلى حسن الأعمال أو قبحها، و التي تترك في أحيان كثيرة تأثيرا طويلا الأمد في نفس

ص: 285

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب إطعام المؤمن، ح 15.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 4، ص 303، ح 30611.

3- الكليني، فروع الكافي، ج 8، ص 103، ح 73.

المتلقّي، إذ بالنظر للتعبير غير المباشر في هذا الأسلوب يضطر المتلقي للتفكير والتدقيق في الأمر واستخلاص النتائج الذهنية بنفسه حتى يتمكن بذلك من استيعاب مراد الأستاذ، الأمر الذي يكرّس التذكرة الأخلاقية في ذهنه لأمد طويل.

أضف إلى ذلك أن هذه الإشارة غير المباشرة إذا كانت تختص بخطأ أو زلة وقع فيها المتلقّي، فإن المربي سيشير من خلالها إلى الخطأ و ينتقده، حافظاً للمتلقى في الوقت ذاته كرامته الإنسانية و مبتعداً عن الحط من شأنه بسبب الفعل السيئ الذي صدر عنه. لذلك يترسّخ هذا التذكير في ذهن الفرد بسرور أكبر (مقارنة بالنقد الصريح) و يدركه بحلاوة أوفر و يحاول أن لا ينساه؛ و مثال ذلك ما صنعه الإمام الصادق مستخدماً هذا الأسلوب بصورة رائعة لتذكير أحد محبيه في الحادثة التالية:

كان رجل يعيش في عصر الإمام الصادق و على الرغم من أنه كان يعتبر نفسه من محبّي أهل البيت، إلا أنه كان يشرب الخمر، ملوّثاً نفسه بهذا الإثم الكبير، التقاه الإمام يوماً مصادفة في زقاق منفرداً. فانتهاز الفرصة لكي ينتقده على ارتكاب هذا المنكر، و يحمله على الإقلاع عنه، فقال له:

«إن الحسن من كل أحد حسن، و إنه منك أحسن لمكانك منا، و إن القبيح من كل أحد قبيح، و إنه منك أقيح»⁽¹⁾.

و بهذا الأسلوب الرائع لم يجعله للإمام هدفاً مباشراً للانتقاد، و لم يحتقره بلومه، بل أكّد احترامه له بسبب مودته لأهل البيت و أشار إلى فضله على غيره، و توّه بأعماله الحسنة و السيئة على صعيد واحد، منتقداً شربه الخمر من دون أن يصرّح بذلك مباشرة، بلّ لمح إلى ذلك تلميحاً. فإن لمثل هذا النوع من الانتقاد تأثيراً في الناس الواعين أعمق بكثير من الانتقاد المباشر الصريح.

د - ردود الفعل السلوكية:

ليس من الضروري أن تكون ردود الفعل حيال الأخطاء شفوية كلامية، إنما يمكن التعبير عن عدم الرضى بتغييرات في السلوك و الأحوال. و يبدو أن الإمام الصادق كان يصرّ أحياناً على ردود الفعل السلوكية في تربيته الأخلاقية، رغم أن استخدام الأسلوب الكلامي كان متاحاً له أيضاً.

وربما كان مرد هذا الإصرار إلى أن تأثيرات ردود الفعل السلوكية أعمق و أنفذ نقداً و أكثر دواماً إذا ما قورنت بالأسلوب الكلامي، فهي تحض المتلقي على التفكير و التدبر من ناحية، و تعبر من ناحية ثانية عن المعتقد القلبي الراسخ لدى المربي.

ص: 286

1- الزمخشري، ربيع الأبرار، مرجع سابق، ج 2، ص 513.

أضف إلى ذلك أن ردود الفعل السلوكية تعد ضرباً من التذكير غير المباشر لا يشمل على الأضرار والأعراض السلبية للتوجيهات اللفظية المباشرة. طبعاً، يمكن أن تكون ردود الأفعال السلوكية مؤثرة حينما يكون المتلقي على معرفة بالنمط السلوكي للمربي ومدلولاته، فيشعر بأقل تغيير يطرأ على سلوكه ويحاول أن يكتشف أسبابه، من هنا يمكننا القول أن الإمام كان يستخدم هذا الأسلوب أكثر ما استخدمه في تربية تلاميذه وخواصه كما قال إسحاق بن عمار(1): دخلت علي أبي عبد الله الصادق. فنظر إليّ بوجه قاطب، فقلت: ما الذي غيّرك عليّ؟ قال: «الذي غيّرك لإخوانك، بلغني يا إسحاق أنك أقعدت ببابك بواباً يردّ عنك الفقراء. فقلت: جعلت فداك إني خفت الشهرة. فقال: «ألا خفت البلية»(2).

كان بوسع الإمام أن يذكر إسحاقاً بأخطائه منذ البداية وبصراحة، ويمنعه عن هذا الفعل الذي أتاه، بيد أنه لم يتصرف بهذه الطريقة، إنما أراد أن يدفع به إلى التفكير في فعلته عبر التحوّل الذي يلاحظه في سلوك الإمام معه ولو من خلال نظرة غاضبة، فيسأل عن سبب هذا التحوّل و يكون بذلك مستعداً لسماع كلام الإمام.

بالإضافة إلى ذلك يذكر الإمام أن تغيّر سلوكه مع تلميذه إسحاق هو حصيلة تغيّر سلوك إسحاق مع إخوانه في الدين، ليشير بذلك إلى قبح هذا الفعل ويؤكد - في الوقت نفسه - على أهمية وخطر هذه المسألة بالنسبة إليه.

ه - انتهاز الفرص والظروف المناسبة:

لا ريب أن المربي الناجح يتحرّى دوماً الفرص المناسبة والمؤثرة لعرض الشذرات التربوية والأخلاقية اللازمة. فالتذكير الأخلاقي يؤثر في المتلقي بأفضل صورة ممكنة حينما يقترن بالمصاديق والمناسبات الخاصة ويرتبط بشؤون الحياة الفردية.

وكان الإمام الصادق يولي أهمية بالغة لهذا الجانب، ويستثمر كل فرصة مناسبة لمعالجة المشكلات الأخلاقية في المجتمع الإسلامي آنذاك. وحيث إنه كان يعتقد أن أي سلوك أو قول له جذوره في تفكير الفاعل ورواه العامة، فقد حاول إصلاح أفكار تلاميذه ورؤاهم و ملاءمتها مع أسس التفكير القرآني وصولاً إلى إصلاح سلوكهم وأقوالهم.

وفي هذا السياق رويت عنه أحداث عديدة تتعلق بصدور بعض الأقوال والتصرفات المجافية للأدب الإسلامي عن بعض الناس في حضوره، وكيف كان رضي

ص: 287

1- إسحاق بن عمار الساباطي من أصحاب الإمام الصادق، روى عن الباقر والصادق وموسى بن جعفر (الخوئي، معجم الرجال 53/3).

2- أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج 1، ص 285.

اللّه عنه يسارع من فوره لتصحيح ذلك السلوك أو القول شارحا جذوره، ليكون بذلك قد وجّه الشخص المخطئ والآخرين في إطار ذلك الموقف وفي حدود تلك المناسبة حتى يصلح الفرد من سلوكه، ولا يفهم من صمت الإمام وعدم اكترائه - إزاء بعض المواقف - تأييده لذلك السلوك فيما يشبه الإمضاء والتكريس و من الأمثلة على ذلك ما روي أن رجلا من أهل السواد كان يلزم جعفر الصادق، فافتقده فسأل عنه، فقال له رجل أن ينتقصه: إنه نبطي، فقال جعفر فورا: «أصل الرجل عقله، و حسبه دينه، و كرمه تقواه و الناس في آدم مستون»(1).

وقد وجد الإمام الفرصة هنا مناسبة، فبادر من فوره إلى تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة عند الرجل مذكرا الناس بالمعيار القرآني العام يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (2).

و لم يرض الإمام أن يتفاضل الأفراد في الأمة الإسلامية الواحدة بأجناسهم وأصولهم وأحسابهم وأنسابهم، علما بأن الإسلام قد قوّض دعائم العصبية، و لم يؤل جهدا في سبيل إزالة هذا التفاضل.

و - التنبيه إلى الجوانب الخفية من العمل:

حيث إن لسلوكيات الإنسان أبعادا وآثارا مختلفة، لذا سيكون سلوك الإنسان أصح وأنضج، كلما كان له رؤية أوسع وإحاطة أكبر بتلك الأبعاد والوجوه.

من الخصائص المهمة للمربي أن يستطيع التفتن إلى نتائج العمل من جوانبه المختلفة. و من شأن هذه السمة عند المربي أن تفسح المجال أمام التلاميذ للرؤية أرحب و للوقوف على الآثار الناتجة عن سلوكهم و ممارساتهم، فيتنبهون إلى كافة التفاصيل الجلية والخفية للعمل و تأثيراته اللاحقة. و هكذا تتوافر لديهم قدرات أدق و أفضل على تمييز الأفعال الحسنة و القبيحة.

لقد أولى الإمام الصادق هذه النقطة اهتماما كبيرا في تربية طلابه أخلاقيا، فشرح لهم في حالات عديدة الأبعاد المنسية و الآثار الخفية لأعمالهم و ممارساتهم، و قد روي في هذا الصدد عن أحد تلاميذه أنه قال: كنا في نحو عشرين نفرا عزمنا على الحجّ إلى بيت الله الحرام على أساس الاشتراك في نفقات السفر، و كنت أذبح لهم شاة في كل منزل ننزل فيه، و في يوم، و نحن في السفر، زرت الإمام الصادق فقال لي: «أتذلّ المؤمنين؟» قلت: أعوذ بالله من ذلك. فقال: «بلغني أنّك كنت تذبح لهم في كل منزل شاة». فقلت: يا مولاي: و الله ما أردت بذلك غير وجه الله تعالى: فقال: «أما

ص: 288

1- ابن طلحة الشافعي، مطالب السؤل، ج 2، ص 57.

2- سورة الحجرات، جزء من الآية 13.

كنت ترى أن فيهم من يحب أن يفعل مثل أفعالك فلا يبلغ مقدرته ذلك، فتتقاصر إليه نفسه؟». قلت: يا ابن رسول الله، أستغفر الله ولا أعود»(1).

لم يكن هذا المرء يرى من عمله سوى قري رفاق سفره، دون أن ينتبه لما في ذلك من إهانة و تحقير للآخرين، فبين له الإمام الصادق الجانب الخفي من وراء عمله فتنبه الرجل إلى ذلك فوراً، ولم يعد لمثله.

ز - التوجيه و الإرشاد من خلال قضاء الحاجات:

لم ينظر الإمام الصادق في منهجه التربوي للحاجات الروحية و الأخلاقية لدى الأفراد فحسب، إنما كان يرى أن كثيرا من التنبيهات الأخلاقية لا تؤثر في المتلقين إلا حينما يجري الاهتمام أيضاً بحاجاتهم المادية و مشكلاتهم. وقد أخذت هذه النقطة الدقيقة في سيرة الإمام بالاعتبار؛ و ترى صدى له في علم النفس الحديث، فنظرية «الحاجات الإنسانية»(2) في العلم المعاصر تشير إلى هذا الجانب، و هو أن لدى معظم الأفراد سلسلة من الحاجات المادية ينبغي أن تشخص و تولى الأهمية المناسبة، بحسب ترابعية أولويتها، و لا شك أن الاحتياجات المالية و المعيشية للأفراد من جملة متطلباتهم الأولية، و قد ركز الإمام اهتمامه على هذه القضية بوصفه مربّ حاذق متعمق حتى يمهد الأرضية المناسبة لتأثير مواعظه الأخلاقية.

روي في هذا الصدد أن المفضل بن قيس(3) دخل على الصادق يوماً يسأله الدعاء، يقول المفضل: «فشكوت إليه بعض حالي و سألته الدعاء فقال: يا جارية هاتي الكيس... فقال: «هذا كيس فيه أربعمائة دينار فاستعن بها». قلت: ما أردت هذا الكيس، و لكن أردت الدعاء لي. قال: «و لا أدع الدعاء لك. و لكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم»(4).

ص: 289

1- سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 16، ص 354.

2- أشهر و أنسب التقسيمات التي عملت للحاجات الإنسانية هو التقسيم الذي أتى به «أبراهام مازلو» فهو يرى أن حاجات الإنسانية الأساسية تقع في خمس فئات أو فصائل أساسية، مرتبة حسب أهميتها و قوتها و تأثيرها في تحريك السلوك. فهي الحاجات الفسيولوجية، حاجة الأمن، حاجة إلى الحب و الانتماء، حاجة إلى الاحترام و التقدير و حاجة إلى تحقيق الذات. فإذا أشبعت حاجات مستوى من مستويات السلم الهرمي، بدأت تظهر حاجات المستوى الذي يليه و هكذا حتى الآخر في هذا السلم. (علي محمد التومي الشيباني، علم النفس الإداري، دار العربية للكتاب، تونس، 1988، ص 112-114 بتصرف).

3- مفضل بن قيس بن رمانة، كوفي، من أصحاب الباقر و من خواص أصحاب الصادق (الخوئي معجم الرجال 305/18).

4- الخوئي، معجم رجال الحديث و تفضيل طبقات الرواة، منشورات مدينة العلم للخوئي، قم، د. ت، ج 18، ص 306.

هكذا تتابع منه العطاء غير المطلوب، و الدعاء المطلوب، و النصح الواجب. فهو معلم في الحقيقة. أعطى فأغنى. ثم نصح، ليقبل النصح منه. و الأعمال أعلى صوتا من الأقوال.

ح - الأوامر و النواهي المباشرة:

إن حسن بعض السلوكيات أو قبحها لا يكفي لإقناع الشخص باتباع أحسنها، لذلك تبدو الحاجة ملحة للاستعانة بالمؤثرات الخارجية إلى جانب الحوافز الداخلية لحصّ الشخص على إتيان الجميل و تحاشي القبيح.

و بسبب العواقب الوخيمة لمثل هذه الأمور، لم يكن الإمام الصادق ليكتفي بإقناع المتلقّي، إنما يبادر إلى الأمر و النهي بشكل جاد، مضيفا لإشاراته المختصرة إلى أسباب أوامره و نواهيه. و هكذا فالأمر و النهي المباشرين في بعض الحالات يعدان أسلوبا تربويًا من أساليب الإمام.

على سبيل المثال استخدم الإمام هذا الأسلوب فيما يتعلق بحقوق الأم، التي تعدّ طبقا لمبادئ التربية الإسلامية ذات بركات و خيرات جمّة، بينما يؤدي التماهي فيها إلى عواقب و خيمة، فقد روي في هذا الصّدّد أن رجلا وقع بينه و بين أمه كلام، فأغلظ لها، فلما دخل عليه من الغد، و كان الإمام قد علم بصنيعه مع أمّه ابتدأ قائلا: «ما لك و أمّك، أغلظت في كلامها البارحة، أما علمت أن بطنها منزل قد سكنته، و أن حجرها مهد قد عمرته، و أن ثديها وعاء قد شربته؟ قال: بلى. قال: فلا تغلظ لها»⁽¹⁾. فالإمام يوصي بالأم معددا جهودها و فضلها على الأبناء باختصار ثم نهى مباشرة عن ترك حقوقها.

ص: 290

المبحث الثاني البناء الاجتماعي

- تنمية روح التعلق بالمجتمع

- تنمية الشعور بالمسؤولية في المجتمع

- مبادئ التربية الاجتماعية في مدرسة الصادق

ص: 291

الإنسان كائن اجتماعي استخلفه الله تعالى في الأرض، وكان من سنة الله في خلقه أن جعل الإنسان محدود القدرة والإمكانات بحيث لا تستقيم حياته إلا إذا عاش مع الجماعة، فهو في حاجة دائمة إلى الأقران والرفاق والأسرة والمجتمع، وعلى هذا فإن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: «الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع»⁽¹⁾.

فاختلاف قدرات الناس ومواهبهم وذكائهم وخبراتهم وسائر إمكاناتهم النفسية والجسدية من ناحية، ثم تنوع الحاجات الضرورية الملبية لرغبات البشر المختلفة من ناحية أخرى هو الذي أدى إلى ضرورة استعانة أفراد المجتمع بعضهم ببعض ومعنى قوله تعالى: لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا⁽²⁾. أي التعاون و تبادل الخدمات و الأعمال و المنافع، فالكل مسخر لخدمة الكل⁽³⁾. وقد قال الإمام الصادق: «إنه لا بد لكم من الناس، إن أحدا لا يستغني عن الناس في حياته، و الناس لا بد لبعضهم من بعض»⁽⁴⁾.

وبناء على ذلك، فالحياة الاجتماعية هدفها تلبية المتطلبات المادية و المعنوية لأفراد المجتمع. ولأن الإسلام دين اجتماعي و «التربية هي في أصلها مهمة اجتماعية»⁽⁵⁾، فإن التربية الاجتماعية في الإسلام تسعى إلى إنشاء المجتمع الصالح «و لا تتوقف عند إعداد الأفراد المؤمنين، وإنما تتخذ من هذا الإعداد وسيلة لهدف آخر هو إخراج أمة المؤمنين التي يتلاحم أفرادها عبر شبكة من الروابط الاجتماعية»⁽⁶⁾.

و هذه التربية ترمي إلى وضع نظام تربوي اجتماعي قادر على أن يخلص المجتمع من

ص: 293

1- ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1414، ج 1، ص 45.

2- سورة الزخرف، جزء من الآية 32.

3- فاروق أحمد الدسوقي، مقومات المجتمع المسلم، المكتب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 161.

4- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب ما يجب من المعاشرة، ج 1.

5- جون ديوي، المبادئ الأخلاقية في التربية، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، 1966، ص 28.

6- ماجد عرسان الكيلاني، الأمة المسلمة، دار الاستقامة، مكة المكرمة، 1995، ص 29.

كل عيوبه وانحرافاتة وأن يهبي الناس ليتعارفوا ويتفاهموا ويتآلفوا ويأتمروا فيما بينهم بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويتعاونوا على البر والتقوى.

وهكذا المجتمع الذي يريد الإسلام بناءه هو خير مجتمع أو خير أمة، على حد تعبير القرآن الكريم ولهذا قال تعالى:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (1).

ومن هنا فقد كان الإمام الصادق في منهجه التربوي حريصا على بناء العلاقات الاجتماعية السليمة بين الأفراد، على أساس قوي من الالتزام النابع من نفوسهم، والمستمد من القيم الأخلاقية في الإسلام، والتي تحدد حقوقهم وواجباتهم ومسؤولياتهم تجاه بعضهم البعض، و مما يؤكد اهتمام مدرسته بالتربية الاجتماعية، ذلك الحرص البالغ بإسناد المسؤولية إلى كل فرد في المجتمع الإسلامي نحو الآخرين.

فهو يريد بناء المجتمع الخير الذي يتميز بقوة البنيان و ترابط الأطراف و الاستقرار و الهدوء، و الذي تسود بين أفراد المودة و الرحمة، و التواصل بالحق و لا يكون بينهم العدا و النزاع. لذا نجده قد أولى اهتماما بالغاً لاكتساب الأفراد الآداب الاجتماعية التي تقوي ترابطهم و تمتن تعاطفهم و ترسخ تكافلهم، فتجعل منهم أسرة واحدة يظللها الوئام و المودة و الأمن، و تفرح عليها السعادة و الطمأنينة.0.

ص: 294

1- سورة آل عمران: جزء من الآية 110.

لطالما عمل الإمام الصادق في منهجه على تنمية المشاعر الجماعية وزرع الحسّ الاجتماعي في الفرد. فهو يرى ضرورة المخالطة و التوسّع في العلاقات في مقابل الانطواء والعزلة والرهبنة، حيث يتجه إلى تأكيد الفطرة الإنسانية وتوجيهها نحو الكمال من جهة، و تنمية العقل بالمعاشرة مع الآخرين من جهة أخرى، فيقول ما نصّه:

«مجاملة الناس ثلث العقل»⁽¹⁾.

و هذا طبيعي، إذ إن الإنسان في كنف المجتمع سيحصل على خواصّه الإنسانية التي كانت تنقصه. و المجتمع يؤدي وظيفة حيويّة بالنسبة إلى الإنسان في تزايد عقله و كثرة تجاربه حيث لا تتكامل شخصية الإنسان، و لا تنمو أبعادها المختلفة بدونه، إضافة إلى أنّ روح الجماعة تجعل الإنسان مرآة صافية يرى من خلالها نقاط ضعفه، فيسعى للقضاء عليها حتى يتمكن من أداء دور المصلح لذاته.

وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في مثاله قائلاً:

«مثال القلب المشحون بالخباثت مثال دمل ممتلئ بالصديد و المدة. و قد لا يحسّ صاحبه بألمه ما لم يتحرّك أو يمسه غيره فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته و لم يكن من يحركه ربما ظنّ بنفسه السلامة و لم يشعر بالدمل في نفسه و اعتقد فقده.

و لكن لو حرّكه محرّك أو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد و فار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال، فكذلك القلب المشحون بالحقد و البخل و الحسد و الغضب و سائر الأخلاق الذميمة إنّما تنفجر من خباثته إذا حرّك»⁽²⁾.

فالإنسان يختبر أخلاقه و صفات باطنه عن طريق المعاشرة؛ فهو لا يقدر على خوض هذه التجربة في العزلة.

من هنا نرى أن التربية على تماسك الجماعة ظاهرة جليّة في تعاليم الإمام في مثل قوله: «عليكم بالصلاة في المساجد و حسن الجوار للناس و إقامة الشهادة و حضور الجنائز. إنّ لا بدّ لكم من الناس...»⁽³⁾.

ص: 295

1- محسن الأمين، أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج 2، ص 525.

2- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج 2، ص 209.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 7، ح 15499.

كما بيّن في المقابل أن النتائج السلبية للعزلة تنعكس على الفرد نفسه فقال:

«من كفّ يده عن الناس فإنّما يكفّ عنهم يداً واحدة ويكفّون عنه أيدي كثيرة»⁽¹⁾.

وقد حث الإمام تلاميذه على الإكثار من الأصدقاء، متابعا عملية غرس الروح الجماعية في نفوسهم، فقال: «من لم يرغب في الاستكثار من الإخوان ابتلي بالخسران»⁽²⁾. وتابع نصحه وإرشاده لمحبيه ومريديه، مشددا على أهمية هذا الأمر في الدنيا والآخرة فقال ما نصّه: «أكثرُوا من الأصدقاء في الدنيا فإنّهم ينفعون في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فحوائج يقومون بها، وأما في الآخرة فإن أهل جهنم قالوا: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ»⁽³⁾.

إن إشارة النص إلى أنّ ظاهرة الصداقة مرتبطة بحوائج الدنيا تعني: أنّ الصداقة مظهر من مظاهر الحاجة إلى الانتماء الاجتماعي.

وكذلك جاء حث الإمام على اندماج الأفراد في المجتمع ذلك الاندماج الإيجابي الذي ينتهي لصالح الاثنين؛ الفرد والمجتمع في آن واحد، كما حذّر في الوقت نفسه من الانسياق السلبي مع المجتمع غير المسؤول، فقال:

«إياكم وعشرة الملوك وأبناء الدنيا ففي ذلك ذهاب دينكم ويعقبكم نفاقا، وذلك داء رديء لا شفاء له، ويورث قساوة القلب ويسلبكم الخشوع. وعليكم بالأشكال من الناس⁽⁴⁾ والأوساط من الناس فعندهم تجدون معادن الجواهر»⁽⁵⁾.

فالإمام بيّن الخطوط الفكرية العامة التي توجّه مسيرة العلاقات الاجتماعية باتجاه التكامل الذاتي في حركة الفرد والمجتمع.5.

ص: 296

1- الصدوق، الخصال، ص 170.

2- الحراني، تحف العقول، ص 319.

3- سورة الشعراء: الآية 100، 101، الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 17، ح 15525.

4- المقصود بالأشكال الأمثال أي عليكم بأمثالكم من الناس دون الأعلون.

5- محمد الحسين المظفر، الإمام الصادق، مرجع سابق، ج 2، ص 65.

إشارة

ذكرنا بأن تعاليم الإمام الصادق تؤكد على ضرورة التماسك الاجتماعي، والابتعاد عن العوامل التي تضعف هذا التماسك. ولما كانت صفة المسؤولية الاجتماعية هي التعبير عن الاهتمام بالآخرين، وهي المظهر الخارجي للحركة الداخلية في شخصية المسلم، فقد حرص الإمام على تربية أفراد المجتمع على يقظة الشعور بالمسؤولية في مختلف مرافقه، وهذا يتوافق مع ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكانت دوائر المسؤولية الاجتماعية تتسع لتشمل المجتمع كله على النحو الذي عبّر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله:

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته»⁽¹⁾.

من هنا فقد اهتم الإمام الصادق بهذه الدوائر انطلاقاً من الأسرة - الخلية الأولى في المجتمع - ثم الأقارب والأرحام، ثم الجيران والأصدقاء وانتهاءً بالمجتمع كله.

ونقف الآن وقفات قصيرة وسريعة لاستعراض ما قرره الصادق للمسلم من مسؤوليات في دائرة العلاقات الخاصة والعامة وهي كما يلي:

أ - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات الخاصة:

إشارة

أكد الصادق على مبدأ الأولوية في دائرة العلاقات الاجتماعية منطلقاً من القرآن الكريم؛ لأن العلاقات بين أبناء المجتمع ليست بمستوى واحد، إذ هناك أشخاص تتشابك معيشتهم ليلاً ونهاراً ويستمر تواصلهم في جميع أبعاد وشؤون الحياة، كما يوجد أشخاص لا تبلغ علاقاتهم هذا المستوى حيث يتم الاتصال بينهم أسبوعياً أو شهرياً لا أكثر.

إذن، فهذه العلاقات ذات شدة وضعف وفوارق عميقة، فتختلف مسؤولية الفرد تجاه كل فرد في المجتمع حسب درجة التباعد والتقارب والاتصال والقرابة بينهم. وهنا يطرح مبدأ الأولوية كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز: وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي

ص: 297

1- يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، دار العلم للملايين، بيروت، 1973، ص 235.

كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (1). مؤكداً على هذا المبدأ، و مشيراً إلى أن الأرحام و الأقارب أيضاً ليسوا متكافئين، حيث يرجح بعضهم على بعض آخر، لدرجة أن الجار القريب قد منحه الإسلام حقوقاً ليست للجار البعيد.

وقد تبلور اهتمام الإمام الصادق بمبدأ الأولوية في تربيته الاجتماعية، و ذلك من خلال دعوة تلاميذه إلى الشعور بالمسؤولية في دائرة العلاقات الخاصة، على الصورة التالية:

العائلة المثالية في فكر الصادق:

إشارة

أكد الإمام الصادق على فعالية دور الأسرة في ترسيخ القيم و الأخلاق؛ لأن الأسرة هي قوام المجتمع و عموده الأساس الذي تركز عليه، و العلاقة بين الأسرة و المجتمع علاقة الجزء بالكل «و لا يستطيع المجتمع أن يجد بديلاً عن الأسرة ليحترم قيمه و معاييرها حتى لو كان حافلاً بالمفكرين و العلماء الذين يرسمون هذه الدعائم النظرية، و ذلك لعجز هؤلاء جميعاً عن تثبيت هذه القيم في الناس أو المحافظة عليها لأن ذلك شأن الأسرة وحدها» (2)، فهي المجتمع الأول الذي يستقي منه الأبناء القيم و الأخلاق و العادات.

و تتنوع العلاقات في إطار الأسرة، و نذكر منها: علاقة الزوج بالزوجة، و علاقة الوالدين بالأبناء و العكس.

و على هذا الأساس رسم الصادق بعض الخطوط العريضة التي يجب أن تحكم العلاقات بين أفراد العائلة الواحدة كما يلي:

- العلاقة بين الزوجين:

من الثابت أن السعادة الزوجية لا تتحقق للزوجين إلا برعاية كل منهما حقوق الآخر و أداء واجباته التي جعلها الله تعالى أساساً لهذه العلاقة. و قد اعتبر الإمام أن توفير الجو العاطفي داخل البيت، و حسن العشرة بين الزوجين التي عبر عنها القرآن الكريم بالموودة و الرحمة، ستؤدي حتماً إلى أن يراعي كلا الطرفين حقوق كل منهما و واجباته، فقال:

«لا غنى بالزوج عن ثلاثة، فيما بينه و بين زوجته: الموافقة ليجلب بها موافقتها و صحبتها و هواها، و حسن خلقه معها و استعماله استعمالاً قلبها بالهيئة الحسنة، و توسعته

ص: 298

1- سورة الأنفال: جزء من الآية 75.

2- علي عبد الحليم محمود، التربية الاجتماعية في الإسلام، دار التوزيع و النشر الإسلامي، بور سعيد، 2001، ص 111.

عليها، ولا غنى للزوجة فيما بينها وبين زوجها عن ثلاث خصال:

صيانة نفسها من كل دنس حتى يطمئن قلبه إلى الثقة في حال المحبوب والمكروه، وحياطته ليكون ذلك عاطفا عليها عند زلة تكون منها، وإظهار العشق بالخلابة والهيئة الحسنة لها في عينه»(1).

وترى الإمام يركّز على ما يجب على الرجل من إحسان العشرة بالسلوك الرفيع والإنفاق اللازم واحترام الذات فيقول: «إن المرء يحتاج في منزله وعياله إلى ثلاث خصال يتكلفتها، وإن لم يكن في طبعه ذلك: معاشرة جميلة، وسعة بتقدير، وغيره بتحسين»(2).

وتعبير الإمام بقوله: «وإن لم يكن في طبعه ذلك»، يدلّ على ضرورة وجود مثل هذه الخصال في ممارسات الزوجين خلال حياتهما المشتركة، وإن أُلزم كلّ منهما نفسه بممارستها دون قناعة راسخة؛ لأنها ستدعم أسس هذه الحياة بين الشريكين فتعكس سعادتهما وصلاحهما على المجتمع بأكمله.

- العلاقة بين الوالدين والأبناء:

هذه العلاقة تشكل الشطر الآخر من العلاقة داخل العائلة الواحدة، وهي مهمة في بناء العائلة بناء سليما. وعند ما يحسن الوالدان التعامل مع أولادهما، ويحسن بالمقابل الأولاد التعامل مع والديهم، فإن الحياة العائلية تغدو سليمة وتؤمن للأطفال تربية صحية ونموا روحيا و جسميا سليما، كما تزرع بين أفرادها بذور المودة والرحمة، وتقوي أواصر التعاون والمحبة.

ويوجّه الإمام الصادق تلاميذه لبناء علاقة سليمة في جوّ العائلة، ويدعوهم إلى تأدية واجباتهم تجاه والديهم، بأن يقدرُوا فضلهم وعظيم إحسانهم، ويجازوهم بما يستحقون من الرعاية والتكريم، كما فرض في «صفات الشريف أن يقوم من مجلسه لأبيه»(3)، وقال لأحد تلاميذه في تفسير قول الله تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا(4) «الإحسان أن تحسن صحبتها وأن لا تكلفها أن يسألك شيئا ممّا يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين... فلا تمل عينيك من النظر إليهما إلاّ برحمة ورقّة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يدك فوق أيديهما، ولا تقدّم قدّامهما»(5).

ص: 299

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 237.

2- الحراني، تحف العقول، ص 322.

3- ابن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج 1، ص 32.

4- سورة الإسراء، جزء من الآية 23.

5- الطباطبائي، الميزان، ج 13، ص 98.

فهو يؤكد على الإحسان بالوالدين خاصة عند عجزهما وشدة احتياجهما إلى الرعاية والبرّ، قال أحد تلاميذ الإمام قلت لأبي عبد الله: إنَّ أبي قد كبر جدا وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة. فقال: «إن استطعت أن تلي ذلك منه فافعل، و لقمه بيدك، فإنَّه جنة (1) لك غدا» (2).

و على صعيد آخر يرى الإمام أن حاجة الأهل إلى المودة والرحمة من والديهم لا تقل عن حاجتهم إلى الغذاء والحركة.

و إن لهذا التعامل الرحيم من قبل الأهل تحديدا تأثيرا كبيرا في تكامل شخصية الأبناء، كما أن فقدان هذه المودة يؤدي إلى انحراف سلوكي وأخلاقي كبيرين في هؤلاء الأبناء الذين يشكلون شريحة كبيرة وأساسية من شرائح المجتمع.

و من ثم أكد على توافر المحبة في علاقة الوالدين مع أبنائهم بقوله:

«إن الله عزّ وجلّ ليرحم الرجل لشدة حبه لولده» (3) كما أوصى بضرورة احترام الأبناء و تكريمهم، و لا سيما خلال فترة مرورهم بفترة المراهقة، فيقول:

«دع ابنك يلعب سبع سنين و يؤدب سبع سنين، و الزمه نفسك سبع سنين» (4).

و إن خطاب الإمام لكل أب بعبارة «الزم نفسك» تدلّ على أهمية احترام الفتى و تقديره و التقرب إليه و مصادقته، و قد أولى الإمام تربية الفتيات رعاية خاصة و مميزة فقال لأحد تلامذته و قد رزقه الله ابنة فسخطها:

«بلغني أنه ولد لك ابنة فتسخطها و ما عليك منها، ريحانة تشمّها و قد كفيت رزقها و كان رسول الله صلّى الله عليه و سلّم أبا بنات» (5).

و لطالما ركّز الإمام على مسؤولية الوالدين تجاه تربية أولادهم في مثل قوله:

«إنّ خير ما ورّث الآباء لأبنائهم الأدب لا المال، فإن المال يذهب و الأدب يبقى» (6).

العلاقة الطيبة مع الأرحام و الأقارب:

إن مواصلة الأهل و الأقرباء و السعي لتعزيز هذه العلاقة و تدعيمها، يدخل في إطار

ص: 300

1- الجنة بضم الجيم و تشديد النون: الدرر الحصينة.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب البر بالوالدين، ح 13.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 15، ص 98، ح 2730.

4- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 492، ح 4743.

5- الكليني، فروع الكافي، ج 6، باب فضل البنات، ح 9.

6- المصدر نفسه، ج 8، ص 150، ح 132.

الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، وعلى كل فرد إعطاء الأولوية لهذه العلاقة وجعلها مميزة وعميقة. «و هذا التعامل الخاص ينطلق من بعد إنساني باعتبار الرابطة النسبية التي تعني امتدادا للإنسان في وجوده و حركته يدركها و يحس بها إحساسا فطرياً»(1).

وقد بذل الإمام جهده في تمتين خيوط هذه الشبكة من العلاقات المحيطة بالإنسان، و التي تقوم بدور كبير في حماية الفرد وسط مشكلات الحياة و متاعبها، كما بين أهمية صلة الرحم التي أشار إليها الخالق في كتابه العزيز: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (2)، فقال الإمام: «هي أرحام الناس، إنَّ الله أمر بصلتها و عظمتها، ألا ترى أنه قرنها بنفسه»(3).

و لطالما أكد الصادق على أن حقَّ الرحم لا يقطعه شيء فحذر من قطع هذه الوشيجة التي أقامها الله بين الناس، إذ جاء إليه رجل فشكا أقاربه، فقال: «أكظم غيظهم». فقال الرجل: إنهم يفعلون و يفعلون. فقال الإمام: «أ تريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم!!»(4).

فتراه بنصيحة هذا يدفع الناس إلى فضيلة صلة الرحم عند القطيعة، و ذلك حرصا على بقاء هذه العلاقات و استمرارها. و قد آمن الإمام نفسه بهذه العقيدة و عمل بها و ضرب المثل الأعلى في ذلك على نحو ورد في مرض وفاته أنه قال:

«أعطوا الحسن بن علي بن علي بن الحسين و هو الأفضس سبعين ديناراً، و أعطوا فلانا كذا و فلانا كذا، فليل له: أ تعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟ قال: تريدون أن لا أكون من الذين قال الله عزَّ و جلَّ: وَ الَّذِينَ يَصِيءُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (5)، إنَّ الله خلق الجنة فطيبها و طيب ريحها، و إنَّ ريحها ليوجد من مسيرة ألفي عام فلا يجد ريحها عاق و لا قاطع رحم»(6).

علاقة الجيران و الأصدقاء:

يحتل الجيران و طريقة التعامل فيما بينهم حيزاً كبيراً و موقعا خاصاً في دائرة العلاقات الاجتماعية المتنوعة حيث يشكل المتجاورون جماعة مترابطة، متعاطفة، يراد

ص: 301

1- محمد باقر الحكيم، دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، المجمع العالمي لأهل البيت، قم، 1997، ج 1، ص 489.

2- سورة النساء: جزء من الآية 1.

3- سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 14، ص 283.

4- أسد حيدر، الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، ص 281.

5- سورة الرعد: الآية 21.

6- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 71، ص 96.

منها تحقيق التعاون لإيجاد بنية اجتماعية سليمة وقوية من خلال الموقع الجغرافي المميز والمشارك، ما يجعلهم يستشعرون الدعة والقوة التي يحتاجونها في مواجهة ما يعترضهم من مشاكل وأحداث ومعاناة.

وقد أخذت هذه العلاقات حيزًا لا بأس به في فكر الإمام الصادق، حيث تكررت توصية الإمام بالجار في مواطن كثيرة حتى إنه نعى على تاركها هذه التوصية بقوله:

«أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقّه ولا يعرف حق جاره»⁽¹⁾. بل إنه أخرج من دائرة تلاميذه من لم يلتزم بحسن الجوار، فقال: «و ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره»⁽²⁾.

ومن صور العلاقات الاجتماعية المهمة، تلك التي تعنى بعلاقة الإنسان مع من حوله من المعارف والأصدقاء. وقد ورد عن الإمام علي (كرم الله وجهه): «عليك ياخوان الصدق فأكثر من اكتسابهم فإنهم عدّة في الرخاء و جنة في البلاء»⁽³⁾.

والصدقة في مفهومها الإسلامي ليست هذه التي بين عامة الناس من المجاملة والصحبة القائمة على أساس المنفعة والمصلحة. فقد نرى كثيرا من الناس يشكون تنكّر الأصدقاء لهم و جفاءهم الذي قد يدفعهم إليه جهلهم بواقع الصداقة والأصدقاء و عدم التمييز، و عدم قدرة هؤلاء الذين يشكون على التمييز بين الأصدقاء الحقيقيين والأصدقاء المزيّفين. فالصداقة إنما هي من الصدق في الصحبة، و تقوم على أساس التصافي و التحابّ في التعامل، و إن لها الكثير من الحقوق العظيمة، على ندرتها توافرها في العلاقات السائدة بين الناس.

وقد أوضح الإمام الصادق واقع الأصدقاء و أبعاد صداقاتهم، و جعل لها شروطا تمنى على الناس التزامها و تطبيقها، و اعتبر أن الذين لا يلتزمون بهذه الشروط أو بعضها على الأقل غير أهل لأن يكونوا أصدقاء بكل ما في الكلمة من معنى، فقال:

«الصدقة محدودة و من لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال الصداقة، و من لم يكن فيه شيء من تلك الحدود فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة: أن تكون سريرته و علانيته كلّ واحدة، و أن يرى زينك زينه و شينك شينه، و أن لا يغيّر عليك مال و لا ولاية و لا يمنعك شيئا مما تصل إليه مقدرته، و أن لا يسلمك عند النكبات»⁽⁴⁾.

وفي هذا دلالة واضحة على أن الإمام مؤمن تماما بأن الصديق في وقت الضيق،⁷.

ص: 302

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب العشرة، ح 3.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 129، ح 15848.

3- الصدوق، الأمالي، ص 380.

4- الصفدي، الوافي بالوفيات، دار صادر، بيروت، 1970، ج 11، ص 127.

و هو الذي يتلاحم مع أخيه، بشكل لا يكون له مصلحة، و لا تؤثر عليه الأموال مهما بلغ مقدارها، و لا يكون بينه و بين صديقه سر يخافه عليه.

و هذا النوع من الصداقة هو الذي لا يبنني على أساس مادي، ينهار مع انهيار المادة، و إنما على أساس معنوي روحي، و لذلك فلا يسلمه عند النكبات و النوازل.

ب - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات العامة:

إن أكبر دائرة من دوائر العلاقات الاجتماعية تتمثل في دائرة المجتمع الإسلامي الكبير (الأمّة)؛ حيث تستقرّ حياة الإنسان، و يتجنب الوقوع في كثير من المشكلات إذا قامت حياته على أسس صحيحة تتبلور في تصرفاته السليمة في خط علاقته بالآخرين و شعوره بالمسؤولية تجاههم بحيث يؤدي ذلك إلى سعادة الجميع.

فمن حق المسلم على المسلم أن يقف إلى جانبه و يغيثه و يضع يده في يده، و أن يشاركه مسؤولياته، أفراحه و أتراحه، و همومه و أحزانه.

و قد اعتبر الإمام الصادق المجتمع الإسلامي أسرة كبيرة مترابطة، و لخصّ علاقات المسلم في هذا المجتمع بثلاث صور ليس بخارج منها، فقال لأحد تلاميذه:

«أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً، و أوسطهم أخاً، و كبيرهم أباً، فارحم ولدك، و صل أخاك، و برّ أباك»(1).

فالمجتمع في هذا التصور يكون كلاً مترابطاً و متماسكاً و متضامناً، و يتحمّل كل عضو فيه مسؤولية الآخرين كما يتحمّل مسؤولية نفسه و أهله.

فها هو الإمام الصادق يستشهد بكلام جده رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فيقول: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم»(2).

إن هذا الكلام يعني نفي صفة الإسلام عن الإنسان اللامبالي الذي لا يعنيه ما قد يحدث للمسلمين من مأس أو ويلات أو هزائم... إلخ، فتراه لا يجهد عقله ليفكر، و لا يراف قلبه ليتعاطف أو ليساعد، و إذا كان هذا موقفه إزاء الأحداث التي تخص المسلمين فليس من الإسلام في شيء و ليس له من إسلامه سوى الاسم.

و من يراجع النصوص الواردة عن الإمام الصادق في هذا الباب، يجد أن تربية

ص: 303

1- محمد تقي الفلسفي، الشاب بين العقل و العاطفة، ج 1، مؤسسة البعثة، بيروت، 1992، ص 64.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الاهتمام بأمر المسلمين، ح 4، قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم «من أصبح و همّه الدنيا فليس من الله في شيء و من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، ج 10، ص 248.

المسلمين على أداء الحقوق والمسؤوليات من أبرز جهود الإمام في البناء الاجتماعي وتقويتها، و من هذه النصوص:

«حق المسلم على المسلم أن لا يشبع ويجوع أخوه، و لا يروى و يعطش أخوه، و لا يكتسى و يعرى أخوه، فما أعظم حق المسلم على أخيه المسلم»⁽¹⁾.

فهو يضيف إلى ذلك ضرورة العناية بحاجاته المعنوية بقوله: «أحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك، و إذا احتجت فسله، و إن سألك فأعطه، لا تملّه خيراً»⁽²⁾ و لا يمله لك، كن له ظهراً فإنه لك ظهر، إذا غاب فاحفظه في غيبته، و إذا شهد فزره و أجلّه و أكرمه، فإنه منك و أنت منه»⁽³⁾.

و هذا التعبير الدقيق «إنه منك و أنت منه»، إضافة إلى دلالة على العلاقة القوية و المتينة بين المسلمين فهو يظهر هذه اللحمة التي لا يمكن أن تنفصل و بالتالي تتعاضد معها مسؤولية المسلم تجاه أخيه المسلم حيث إن المسلمين بعضهم من بعض، كتلة واحدة متماسكة.7.

ص: 304

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 71، ص 243.

2- أي لا تسأم من إكثارك الخير.

3- المفيد، الاختصاص، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د. ت، ص 27.

إشارة

لقد اعتمدت مدرسة الإمام الصادق على الأسس والمبادئ التي تؤدي إلى تقوية الروابط الاجتماعية من جهة و اجتثاث مشاعر الفردية و الأنانية من الإنسان المسلم من جهة أخرى، و يتضح لنا تركيز هذه المدرسة على ذلك من خلال ترسيخها لعدة مبادئ في العلاقات الاجتماعية و من أهمها:

أ - مبدأ التآخي و التعاطف:

إشارة

تشكل قاعدة التآخي و التعاطف أساساً مهماً في القيم الإسلامية الاجتماعية، «و هذه القاعدة تكون بأن يحب الإنسان غيره لوجه الله، دون ابتغاء نفع أو مصلحة»⁽¹⁾ و هي تقود إلى سيادة الأخلاق الخيرة وسط الجماعة، و تشجع الأفراد على التضحية و تقديم كل مساعدة ممكنة للآخرين، و فعل كل برّ يمكنهم القيام به.

و انطلاقاً من هذه القاعدة حدّد الله تعالى علاقة المؤمنين في الآية الكريمة: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**⁽²⁾.

و التعبير عن العاطفة بين المؤمنين بالأخوة يرسم عمق الصلة المتقابلة بين الناس، و التي تكون فريدة في شبكات العلاقات الاجتماعية المتنوعة، و قد اهتم الإمام الصادق بترسيخ هذه الصلة الوثيقة بين تلاميذه من خلال منهجه التعليمي التربوي بقوله:

«تواصلوا و تبارّوا و كونوا إخوة بررة كما أمركم الله عزّ و جلّ»⁽³⁾.

كما ربط المجتمع برباط الحب و المودّة و الإخاء بقوله: «فاتقوا الله في إخوانكم المسلمين فإن لهم عليكم حقاً أن تحبّوهم...»⁽⁴⁾.

ص: 305

1- أسعد السحمراني، الأخلاق في الإسلام و الفلسفة القديمة، دار النفائس، بيروت، 1988، ص 107.

2- سورة الحجرات، جزء من الآية 10.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب التراحم و التعاطف، ح 2.

4- الحراني، تحف العقول، ص 315.

وقد أتى تمثيل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (1) لأفراد المجتمع في توادهم و تراحمهم و تعاطفهم كجسم واحد متماسك، يتأثر كل عضو فيه بالآخر و لا سيما في الحالات الصعبة، وفي هذا انعكاس لواقع المجتمع المتآخي و المتآلف الذي يساند أفرادهم بعضهم البعض.

وقد استخدم الإمام الصادق أيضا هذا التشبيه متأسيا بجده فقال:

«و الله لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون لأخيه مثل الجسد، إذا ضرب عرق واحد تداعت له سائر عروقه» (2). فقد اعتبر الإمام في كلامه، الأخوة شرط الإيمان، و هي من المقومات الأساسية في تركيب بناء الأمة الإسلامية. فهو يرى أن حب الإنسان المسلم لدينه يتجسد في حبه لأخيه، فقال: «من حب الرجل دينه حبه أخاه» (3).

وقد كان الإمام يسعى دوما إلى إيجاد المواقف التي توطن روح الأخوة و المحبة بين تلاميذه، فكان يرشدهم إلى ما يعزز بقاء المودة بينهم، و ذلك عبر أمور عدة، منها:

التزاور:

يقول أبو عبد الله لتلاميذه في هذا الصدد: «تزاوروا و تلاقوا و تذاكروا أمرنا و أحيوه» (4)؛ لأن اختلاط المؤمنين بعضهم ببعض يوفر الحب فيما بينهم و يقوي عزائمهم على فعل الخير، و تجعل كلاً منهم يذكر من نسي ذكر الله.

التناصف:

وجه الإمام تلاميذه إلى مستلزمات الأخوة فقال: «يحتاج الإخوة فيما بينهم إلى ثلاثة أشياء، فإن استعملوها و إلا تباينوا و تباغضوا، و هي: التناصف، التراحم، و نفي الحسد» (5). فمفهوم الإنصاف أن لا يرضى المرء لنفسه بشيء إلا رضي لأخيه مثله.

التهادي:

أوصى الإمام تلاميذه أن يتبادلوا الهدايا قائلا: «تهادوا تحابوا فإن الهدية تذهب بالضغائن» (6)؛ لأن من شأن هذه الظاهرة الكريمة تعميق جذور المحبة و المودة بين

ص: 306

1- قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مثل المؤمنين في توادهم و تراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى». أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر و الآداب، ص 1999.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 71، ص 274.

3- المفيد، الاختصاص، مرجع سابق، ص 31.

4- ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر و نزهة النواظر، مرجع سابق، ج 2، ص 179.

5- الحرائي، تحف العقول، ص 323.

6- الصدوق، الخصال، ص 27.

أفراد جماعة المسلمين و توحيدهم في نظام الجسد الواحد الذي يتشارك أعضاؤه اللذات و الآلام.

التصريح بالحب و المودة:

قال الصادق لأحد تلاميذه: «إذا أحببت رجلا فأخبره بذلك، فإنه أثبت للمودة بينكما»(1). لا شك أنّ التدريب على ممارسة مثل هذا السلوك اللفظي ليساهم بنحو فعال في تحقيق التكيف مع الآخرين، فإذا أعرب المرء عن محبته لأخيه فإنه يوثق بينهما و شائج الأخوة الإيمانية و يرفع كل منهما حقوق هذه الأخوة القائمة على الحب في الله.

الحفاظ على الحشمة:

قال الصادق: «لا تذهب الحشمة بينك و بين أخيك و أبق منها، فإنّ ذهاب الحشمة ذهاب الحياء و بقاء الحشمة بقاء المودة»(2).

ترك ما يكثر المودة:

قال أبو عبد الله لأحد تلاميذه: «إن أردت أن يصفو لك وّد لأخيك فلا تمازحّه و لا تماريّه و لا تباهيّه»(3).

إلا- أن الإمام بيّن بأن مفهوم التآخي بين المسلمين ليس من قبيل العواطف و التمنيات فقط، وإنما هو عبارة عن حقوق و مسؤوليات ثقيلة تلقى على عواتقهم جميعا. و لذا حين سئل عن حق المسلم على المسلم أجاب:

«له سبعة حقوق و واجبات، ما منهنّ حق إلا و هو عليه واجب، إن ضيّع منها شيئا خرج عن ولاية الله في طاعته و لم يكن لله فيه نصيب»، ثم قال:

أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك، و تكره له ما تكره لنفسك، الحق الثاني: أن تجتنب سخطه، و تتبع مرضاته، و تطيع أمره، الحق الثالث: أن تعينه بنفسك، و مالك و لسانك و يدك و رجلك، الحق الرابع: أن تكون عينه و دليله و مرآته، الحق الخامس: أن لا تشيع و يجوع و لا- تروى و يظمأ، و لا- تلبس و يعرى، الحق السادس: أن يكون لك خادم و ليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعثه فيغسل ثيابه، و يصنع طعامه، و يمهد فراشه، الحق السابع: أن تبرّ قسمه، و تجيب دعوته، و تعود مرضه، و تشهد جنازته، و إذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها و لا تلجئه

ص: 307

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب أخبار الرجل بحبّه، ح 2.

2- الحراني، تحف العقول، ص 409.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 291.

أن يسألها، ولكن تبادره مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته و ولايته بولايتك»(1).

وقد حفلت هذه الحقوق منهجا حيا للرابطة الإسلامية التي تجمع ما بين المشاعر و العواطف و المسؤوليات، و توجب اشتراك المسلمين معافي السراء و الضراء.

وعبارة «إن ضيِّع منها [أي الحقوق] شيئا خرج من ولاية الله و طاعته» يشي بخطورة هذا الأمر، من هنا فقد بين الإمام أن هذه الألفة بين المسلمين - و المبنية على دعائم الأخوة - هي من ولاية الله، و أن الإخلال ببعضها إخلال بها كلها؛ و إذا انقطعت هذه الألفة فيما بين المؤمنين فإن حبل الولاية فيما بينهم و بين الله سوف ينقطع، و لن يبقى من ولايتهم لربهم شيء.

و هكذا جهد الإمام الصادق في غرس تلك المفاهيم السامية في نفوس تلاميذه ليجعلهم جماعة مثالية في مودتهم و أخوتهم و تعاطفهم.

ب - مبدأ التعاون و التكافل:

إشارة

تكتمل صورة الاهتمام بالمسؤولية الاجتماعية في مدرسة الصادق من خلال تأكيدها على مبدأ التعاون و التكافل. و هذا الأساس يقوم على الأخوة الصادقة بين المؤمنين، و معناه «التناصر بين أفراد المجتمع ليسد بعضهم حاجات بعض، و يسند الضعفاء من قبل الأقوياء، و كذلك التناصر بينهم في القيام بأعباء العمل الصالح، فيقوي القادرون منهم على ذلك الضعفاء فيه بمختلف معاني القوة و الصَّعْف»(2).

و ها هو القرآن الكريم يعبر عن هذا التعاون تعبيرا واضحا: وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ (3).

و هو ما عبّر عنه الإمام الصادق بقوله مستشهدا بكلام جده رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فقال ما نصّه: «و ليعن بعضكم بعضا فإن أبانا رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم كان يقول: إنّ معاونة المسلم خير و أعظم أجرا من صيام شهر و اعتكافه في المسجد الحرام»(4).

فهو يريد بناء جماعة مؤمنة يكون التكافل بينهم ماديا و معنويا، و لذلك قال:

«المؤمنون خدّم بعضهم بعض، و عند ما سئل: كيف؟ قال: يفيد بعضهم بعضا»(5).

ص: 308

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب حق المؤمن، ح 2.

2- عبد المجيد عمر النجار، الإيمان بالله و أثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1977، ص 207.

3- سورة المائدة، جزء من الآية 2.

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 217.

5- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب أخوة المؤمنين، ح 9.

فعلّ عناية الإمام الصادق بتنمية روح التعاون و التكافل، و التي تبلورت عبر صور و أساليب شتى، إنّما تروم أن تصنع من الإنسان الأرضي الضيق الأفق، أنموذجاً راقياً تتسع روحه ليتعايش مع بني نوعه، و يسعى دوماً لقضاء حوائجهم و يشركهم فيما يمتلك.

و من هنا اعتبر الإمام هذه الصورة و هذا الأداء واجباً ينبغي على كل مسلم أن يلتزم بها فقال: «ويحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل و التعاون على التعاطف و المواساة لأهل الحاجة»(1).

فهذه الرابطة الأفقية بين الإنسان و أخيه رابطة محورية في الارتقاء الحضاري لأيّ مجتمع حيث تعمل على تذويب الأنانيات و تقوية أواصر الأخوة الإسلامية و تشجيع أجواء التكافل.

فقد بيّنت مدرسة الإمام الصادق إذا الصورة التي يريد الإسلام للعلاقة بين أفراد مجتمعه بكل جوانبها، و قامت بتوطيد روح التكافل و التعاون الجماعي في نفوس تلاميذها، عبر مشاريع اجتماعية متعدّدة التي يمكن تلخيصها كما يلي:

تأصيل خدمة الناس و قضاء حوائجهم:

إنها من أروع مظاهر التكافل الاجتماعي؛ فهي المساعدة الطوعية النابعة من نفس الإنسان و قناعته التامة بتلبية حاجات الآخرين. و قد جعل الله للإنسان طاقات نفسية و عقلية و جسدية، و هذه كلها من نعم الله العديدة و منّه و كرمه على عباده.

فإن صرفها العبد في مساعدة أهل الحاجة يكون قد أدّى حق الشكر لله تعالى المؤدي إلى زيادة هذه النعم أضعافاً، و إن منعها عن أهلها يكون قد ضيّع حقّ الله و عرض نعمه تعالى للضياع و الزوال، و هذا مصداق لقول أبي عبد الله: «ما أنعم الله على عبد نعمة فلم يحتمل مؤونة الناس إلّا عرض تلك النعمة للزوال»(2).

و قد أشار الإمام أنّ فوائد مساعدة الآخرين و خدمتهم لا تعود على صاحب الحاجة فقط، بل يعمّ نفعها قاضي الحوائج نفسه كما يعم المجتمع أيضاً، قائلاً: «أيما مؤمن أتى أخاه في حاجة، فإنّما ذلك رحمة من الله ساقها إليه و سببها له، فإن قضى حاجته كان قد قبل الرحمة بقبولها و إن ردّه عن حاجته و هو يقدر على قضائها فإنّما ردّه عن نفسه رحمة من الله جلّ و عزّ ساقها إليه و سببها له...»(3).

ص: 309

1- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 215، ح 16119.

2- الزمخشري، ربيع الأبرار، ج 3؛ ص 662.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب قضاء حاجة المؤمن، ح 5.

و هكذا حث الإمام تلاميذه على التعاون و التكافل بلسان واضح و صريح، فقال:

«إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته لرحمته، و هم الذين يقضون الحوائج للناس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن» (1).

و لم يقتصر الصادق في دعوته على تلبية الحاجات الخاصة فقط، بل لفت أنظار تلاميذه إلى حاجات إنسانية أخرى قد لا ينتبه إليها عادة، فقال: «إسماع الأصم من غير تضجّر صدقة هنيئة» (2).

إسماع الأصم من الأمور المستحيلة طبعاً، إلا أن في هذه الدعوة إشارة إلى اتباع الأسلوب المناسب الذي يستطيع من خلاله الشخص القادر إيصال ما أمكنه من أنواع المساعدة إلى الشخص المحتاج و بأية وسيلة ممكنة.

و قد نرى من خلال جهود أبي عبد الله في التربية تأكيداً على بذل أقصى الجهد و السعي في قضاء حوائج الآخرين، و اعتبار عدم تأديتها خيانة، حيث قال:

«أيما رجل من أصحابنا استعان به رجل من إخوانه في حاجة فلم يبالغ فيها بكل جهده فقد خان الله و رسوله و المؤمنين» (3).

و لم يكتف الإمام بذلك، بل دعا الإنسان الذي قد لا يتمكن من قضاء حوائج الغير بنفسه أو بماله، أن يسعى في قضائها عند من يستطيع، و هذا ما ورد في وصيته بقوله: «الماشى في حاجة أخيه كالساعي بين الصفا و المروة، و قاضي حاجته كالمشحط بدمه في سبيل الله...» (4).

إلا أنه و رغم اهتمام الإمام بقضاء حوائج الناس و دعوته إليها، فقد حذر من أن تؤدي هذه الخدمة إلى استغلال الفرد و تحقيره، فوضع لها حداً يقف عند كرامة المؤمن و صيانة عزّته، فقال: «أخدم أخاك فإن استخدمك ألا و هي الكرامة» (5).

و لطالما حدّث الصادق تلاميذه عن أخلاقيات قضاء الحوائج، فقال: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: تصغيره و ستره و تعجيله» (6) فإن كان غير ذلك محقته و نكده» (7).

ثم شرح الإمام أسبابها فقال: 3.

ص: 310

1- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ج 1، ص 235.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 134، ح 15862.

3- أحمد بن محمد البرقي، المحاسن، ج 1، دار الكتب الإسلامية، إيران، ص 98 ح 65.

4- الحراني، تحف العقول، ص 303.

5- المفيد، الاختصاص، ص 243.

6- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 263.

7- الصدوق، الخصال، ص 133.

«فإنك إذا صغرت عظمته»، فعند ما يعظم الإنسان الحاجة يصغر نفسه عند طالبها لما سيراه من ضعفه و عجزه، بينما إذا اعتبرها صغيرة يعظم و تعظم الحاجة عند طالبها.

ثم قال: «وإذا سترته تممته»، فإن خدمة الآخرين بصمت هي من أعمال الخير التي يقوم بها المؤمن الواثق بنفسه الذي بهمه رضا الله لا رضا الناس و الذي يضع نصب عينيه و ما تفعلوا من خير يعلمه الله (1). ثم قال: «وإذا عجلته هتأته» (2)، فإن الإنسان إذا أسرع في قضاء حاجة الغير فرح بها و شعر بقيمة قضائه لها، بخلاف ما إذا ماطل فيها.

لذا أكد الإمام في كلام آخر على تعجيل قضاء حوائج الآخرين خوفا من فوات الفرصة، فقال: «إن الحاجة تعرض للرجل قبلي فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها أو تأتية و قد استبطأها فلا يكون لها عنده موقع» (3).

الحث على الإقراض و الإمهال:

لقد مارس الإمام الصادق هذا الأمر قولاً و فعلاً ليجسد للمسلمين الأسس المتينة لبناء المجتمع التعاوني الذي ينشط مع الجهد الجماعي. فهو يجعل المؤمن يرى نفسه في الآخرين و يرى الآخرين في نفسه، فيدفع لا محالة إلى التكافل و التضامن. فقال:

«أحبوا للناس ما تحبون لأنفسكم» (4).

و قد احتلت الدعوة إلى التكافل الاقتصادي حيزاً كبيراً من تعاليم الإمام الموجهة إلى طلابه، فعمل على تشجيعهم لنصرة المحتاجين في مرافق الحياة، و توفير حاجاتهم و ذلك عبر إقراض المؤمنين و سدّ حاجاتهم بطريقة تحفظ ماء و جوههم، و هو من أرفع الأمور التي يتقرب بها المسلم إلى الله. «فإن المقرض عند ما يتنازل عن بعض ما يملك و يقدمه للآخر ليقضي حاجته، تتحرك في هذه العملية نفسيته الطاهرة التي تحبّ الخير و تشده» (5). كما يكون لهذا العمل أثر جميل في تمتين أواصر المحبة و التعاون بين أفراد المجتمع الواحد.

و قد ورد عن الصادق الحث على هذا المعروف بقوله: «لئن أقرض قرضاً أحبّ إلي من أن أتصدق بمثله» (6).

ص: 311

- 1- سورة البقرة: جزء من الآية 197.
- 2- الزمخشري، ربيع الأبرار، ج 3، ص 678.
- 3- ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، د. ت، ج 3، ص 175.
- 4- الطبرسي، مشكاة الأنوار، ص 333.
- 5- عباس علي الموسوي، العلاقات الاجتماعية في الإسلام، دار المرتضى، بيروت، 1988، ص 105.
- 6- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 13، ص 87، ح 1.

فالمقرض من وجهة نظر الإمام بمنزلة الصدقة بل ربما هو أفضل إذ إنه يحفظ المال لصاحبه، و يصون كرامة المقرض، فلا يحوجه إلى ذل السؤال.

ولفت الإمام إلى أن من أخلاقيات المقرض وآدابه أن ينظر المعسر إلى وقت الإيسار، ولا يجوز لهم مضايقته أو التشديد عليه، فقال في وصية طويلة كتبها إلى أصحابه:

«إياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين أن تعسروه بشيء يكون لكم قبله وهو معسر فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: ليس لمسلم أن يعسر مسلماً و من انظر معسراً أظله الله يوم القيامة بظله يوم لا ظل إلا ظله»(1).

فإذا تعسرت أحوال ذي حاجة ولم يوفق إلى السداد، وأقفلت الدنيا أبوابها في وجهه، فيجب على المقرض أن ينظره حتى يفتح الله عليه بواسع رحمته و جوده. لذا عند ما سئل أبو عبد الله: ما للرجل أن يبلغ من غريمه؟ استدلل الإمام بكلام الوحي وقال: «لا يبلغ به شئنا الله انظره»(2) ثم تلا هذه الآية: وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(3).

وليس مثل هذا في تعاليم الإمام مجرد نظرية فحسب، بل هو يراقب تلاميذه بأن يطبقوها و يجسدوها في واقعهم العملي كما قال أحد تلاميذه، قلت لأبي عبد الله: إن لي على رجل دينا وقد أراد أن يبيع داره فيعطيني، فقال الصادق: «أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه، أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه»(4).

فالإمام هنا لم يرض أن تباع دار يسكنها المستدين ليقضي ما عليه من دين، لا بل استعاذ بالله من القيام بمثل هذا بين أتباعه و مرديه.

الدعوة إلى المواساة و الإغاثة:

يرى الصادق بأن المواساة من مقاييس القرب إلى الله، فقال لتلاميذه: «تقربوا إلى الله بمواساة إخوانكم»(5) و هو يعتبرها من أشد ما افترض الله على خلقه(6) كما اعتبرها من علامات الصدق في الأخوة، فقال:

ص: 312

- 1- الكليني، فروع الكافي، ج 8، ص 9.
- 2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 18، ص 367، ح 23865.
- 3- سورة البقرة: الآية 280.
- 4- الطوسي، الاتبصار، ج 3، ص 6، ح 13.
- 5- الصدوق، الخصال، ص 8.
- 6- ورد عن الصادق: «أشد الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك، ذكر الله على كل حال، مواساة الأخ في المال (أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ج 1، ص 85).

«الإخوان ثلاثة: مواس بنفسه، وآخر مواس بماله، وهما الصادقان في الإخاء، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة، فلا تعدّه من أهل الثقة»(1).

و تتحقق المواساة بتفريج الكرب عن المكروبين وإغاثة الملهوف، وإدخال السرور في قلب المؤمن سواء عبر الموقف أو الكلمة أو أي طريقة مناسبة، وقد انطلق الإمام من تعاليم جده رسول الله صلى الله عليه وسلم في التناصر المعنوي النفسي بين المؤمنين، فقال: «من أغاث أخاه المؤمن اللّهفان عند جهده، فنفس كربته وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله عزّ وجلّ له بذلك عند الله اثنتان وسبعون رحمة من الله، ويعجل له منها واحدة يصلح بها معيشتة ويدخر له إحدى وسبعين رحمة لأفراع يوم القيامة وأهواله»(2).

ذلك «لأنّ كرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة لا شيء، فأدخر الله جزاء تنفيس الكرب عنه لينفس به كرب الآخرة»(3).

وهكذا دعا الصادق المجتمع الإسلامي بجميع أفراده إلى التكافل المادي والمعنوي، إلا أنّه اعتبر أن للأغنياء في هذا المعروف دوراً خاصاً ومميزاً، فحين دخل إليه رجل، سأله الإمام: كيف خلّفت إخوانك؟ فأحسن الثناء عليهم. فسأله: «كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟ قال الرجل: قليلة. قال الإمام: كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة. قال الإمام: فكيف يزعم هؤلاء أنهم أتباعنا؟»(4).

و كآتي بالإمام يرى في مواساة الأغنياء للفقراء ومساعدتهم شرطاً لا غناء عنه للتلمذ في مدرسته.

ومن هذا الموقف ندرك بأن استراتيجية الإمام التربوية لم تتوقع في دائرة التنظير أو تكتف برفع الشعارات وإطلاق الخطابات، بل نلاحظ أنها قد خرجت منها إلى حيّز العمل، كما أنها تركز على صيغتها الأساسية في النزول إلى واقع المجتمع، تستخبر وتحوار وتحرّك وتؤثر ليصبح المجتمع بكل أفراده وعلى مختلف مستوياتهم مستعدين لتقديم الخدمة للآخرين بكل محبة وفي أي وقت، معتمدين على ما منحهم الله سبحانه من قدرات وإمكانات ومواهب. فكلما ازدادت هذه النعم عليهم، ازدادت مسؤولياتهم تجاه الآخرين وتجاه المجتمع بكامله.

ولكي يرفع الإمام وتيرة السعي والجهد في خدمة الآخرين، قام بتذكير المتعلّمين لديه بهذا الجانب المهم وهي حاجتهم الدائمة إلى توفيق الله تعالى وتسدّده، حتى 8.

ص: 313

1- الحرائي، تحف العقول، ص 324.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب تفريج كرب المؤمن، ح 1.

3- سليم بن عبد الهلالي، إيقاظ الهمم، دار ابن الجوزي، السعودية، 1419، ص 490.

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 65، ص 168.

يلزمهم بالدعاء و الطلب فقال: «و ليس كل من يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، و ليس كل من يرغب فيه يقدر عليه، و لا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة و القدرة و الإذن، فهناك تمت السعادة للطالب و المطلوب إليه»(1).

فهذه المواقف الكثيرة توحى لنا بمدى إيلاء الإمام لهذا المبدأ المهم في المجتمع، عنايته و تخطيطه و بذله و تركيزه في ذهنية الأمة.

ج - مبدأ الصدق و الأمانة:

إشارة

أساس الحياة الاجتماعية للإنسان هو العمل على المستوى الجماعي. و لا يتسنى ذلك إلا بأن يتعامل أفراد المجتمع فيما بينهم من موقع الثقة المتبادلة و اعتماد البعض على البعض الآخر، و هذا المعنى لا يتحصّل إلا بتوافر عنصري الصدق و الأمانة بينهم.

لذلك اعتبر الصادق مبدأ الصدق و الأمانة من المبادئ المهمة التي يجب الالتزام بها في دائرة العلاقات الاجتماعية. فالصدق «هو تطابق الكلام مع الواقع سواء كان الواقع الخارجي أم الباطني»(2). فهو يرمز إلى الطهارة في الذات و البعد عن الرذيلة، و له تأثير في جميع أعمال الإنسان و سلوكياته. كما قال الإمام الصادق: «من صدق لسانه زكى عمله»(3).

و إذا اتخذ الفرد هذه الفضيلة منهاجاً لحياته تلاشت المشكلات التي مصدرها و أساسها الكذب و الخداع و «متى انهارت في الفرد فضيلة الصدق انقطعت ما بينه و بين مجتمعه رابطة عظمى، و غدا الناس لا يصدقونه فيما يقول، و لا يتقون به فيما يحدث به أو فيما يعد فلا يكون إليه أمراً و لا يعقدون بينهم و بينه عهداً»(4).

و كذلك «الأمانة هي التزام الواجبات الاجتماعية و أدائها خير أداء»(5). و هي لا تحصر في أضيق معانيها و حدودها، أي في إطار قيام الإنسان بحفظ ما يودع لديه من مال، بل تكون شاملة للقيام بجميع التكاليف و الالتزامات الاجتماعية و الأخلاقية، كما أشار إلى ذلك أبو عبد الله قائلاً: «لا يكون الأمين أميناً حتى يؤتمن على ثلاثة فيؤديها: على الأموال و الأسرار و الفروج. و إن حفظ اثنين و ضيّع واحداً فليس بأمين»(6).

ص: 314

1- ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة من معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت، 1988، ص 216.

2- ناصر مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، مرجع سابق، ج 3، ص 186.

3- الطوسي، الأمالي، ص 245.

4- عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية و أسسها، مرجع سابق، ج 1، ص 30.

5- مصطفى السباعي، أخلاقنا الاجتماعية، دار السلام، القاهرة، 1418، ص 76.

6- الحراني، تحف العقول، ص 316.

إن «الأمانة تدعو الإنسان إلى صدق الحديث كما أن صدق الحديث يدعو الإنسان إلى الأمانة في الجهة المقابلة؛ لأن صدق الحديث نوع من الأمانة في القول والأمانة نوع من الصدق في العمل. على هذا الأساس فإنّ هاتين الصفتين ترتبطان بجذر مشترك وتعبّران عن وجهين لعملة واحدة»(1).

فالصادق يحكي عن الأهمية البالغة لهذا المبدأ بأنها من الأسس المشتركة بين جميع الأديان السماوية، فقال: «إن الله عزّ وجلّ لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر»(2).

فالمؤمن الحقيقي هو الذي يتحرّك في سلوكه من موقع الصدق ومراعاة الأمانة بصورها المختلفة، ويهتم بالحفاظ عليها من موقع المسؤولية وأداء الوظيفة؛ لهذا تكررت في كثير من وصايا الإمام هذه العبارة: «عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة»(3)، كما كان يوصي بهما كل من دخل عليه من أصحابه ومن فارقه.

من هنا نرى أن تربية الأفراد على انتهاج هذا الخط تحظى من الإمام بعناية خاصة من خلال عدة أمور في توجيهاته التربوية للأمة. فنشير إلى أهمها فيما يلي:

إلزام الناس بأداء الأمانة إلى صاحبها:

يرى الصادق بأن الأمانة خلق كريم يدلّ على يقظة ضمير الإنسان وإحساسه بالمسؤولية المنوطة به، فيتولاها ويوجه تلاميذه إلى أدائها للمسلم وغير المسلم؛ لأن اختلاف الدين لا يمنع الشخصية المسلمة من أداء الحقوق إلى صاحبها، فقال: «أدوا الأمانات إلى أهلها إن كانوا مجوساً»(4). حتى إنه وصل إلى أبعد من ذلك، فأكد على هذه المسؤولية - عبر أنموذجه هو - بأنه يؤدّي الأمانة ولو كان لقاتل جدّه علي بن أبي طالب، فقال: «اتقوا الله، وعليكم بأداء الأمانة إلى من اتتمنكم، فلو أنّ قاتل علي اتتمني على أمانة لأديتها إليه»(5)، وهذا لا شكّ أنه لتعظيم أهمية الأمانة وأدائها ورفع شأنها.

التشجيع على هذا المبدأ من خلال عرض القدوة:

فقد جاء حث الإمام علي الصدق والأمانة من خلال تجسيد هذه الفضيلة عملياً في واقع الأمة. فهو يذكر المكانة الرفيعة للإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) عند

ص: 315

- 1- ناصر مكارم الشيرازي، الأخلاق في القرآن، مرجع سابق، ج 3، ص 162.
- 2- الكليني، أصول الكافي، ج باب الصدق، ح 1.
- 3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 8، باب أحكام العشرة، ح 2 و 7 و 8.
- 4- أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، مرجع سابق، ج 4، ص 333.
- 5- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 351، ح 995.

رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم ثم يشير إلى سبب احتلاله هذه المكانة، ليمكّن تلاميذه من الاقتداء بأنموذج حيّ في حياتهم.

فقال إلى أحد تلاميذه: «انظر ما بلغ بسببه عليّ بن أبي طالب عند رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم فالزمه، فإنّ عليّاً إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صَلَّى الله عليه و سلم بصدق الحديث و أداء الأمانة» (1).

وضع هذا المبدأ معيار لمعرفة الأشخاص:

يعتبر الإمام الصدّوق و الأمانة علامتين بارزتين في سلوك المؤمن، فيقول:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده فإن ذلك شيء اعتاده، و لو تركه استوحش لذلك، و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أمانته» (2).

فلا اعتبار بطول الركوع و السجود و لا اعتبار بكثرة الصيام و القيام، بل الميزان الذي يقيّم على أساسه إيمان الرجل، هو صدق حديثه و مدى التزامه بالأمانة.

التركيز على النتائج الإيجابية لهذا المبدأ في التعامل الاجتماعي:

لم يترك الإمام التأكيد على معطيات الصدق و الأمانة في الحياة الاجتماعية، و هي تقوم على المحبة في النفوس، و كثرة التعامل و ثقة الناس فيما بينهم، فقال في وصيته إلى أحد تلاميذه: «عليك بصدق الحديث و أداء الأمانة تشارك الناس في أموالهم هكذا - و جمع بين أصابعه» (3).

وقد يكون في جمعه بين أصابعه - حين تكلم على الصدق و الأمانة - إشارة إلى عملية الاندماج العملي و الروحي بين أفراد المجتمع من خلال تعاملهم مع بعضهم البعض و تشاركتهم في معظم أمور حياتهم.

التحذير من الائتمان بالفاسق:

وجّه الإمام المودع للأمانة و صاحب المال لأن يكون ذكياً في اختيار الشخص المؤمن، و ألا يكون ساذجاً بحيث يودع أمانته لدى أي شخص كان. و كان لو أتى إليه رجل فقال له: «إني اتّمنت رجلاً على مال و أودعته عنده فخاني و أنكر مالي، قال الإمام: «لم يخنك الأمين و لكنّ اتّمنت الخائن» (4).

فالتوجيه التربوي الذي رمى إليه الإمام من خلال هذه الحادثة يتضمن التفاته إلى جانبين مهمّين:

ص: 316

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الصدق، ح 5.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 68، ص 8.

- 3- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب أداء الأمانة، ح 9.
- 4- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 305، ح 4093.

- الجانب النفسي لدى الرجل بعد الحادثة، فقد غدا منفعلا بالشك و سوء الظن بالآخرين مع ما يتبع ذلك من نتائج و آثار أبرزها: الانفرادية و الانعزال.

- الجانب الاجتماعي في المسألة، فإن سقوط الثقة بالآخرين و تكشف القناع عن وجه الخائن المخادع، ينبغي أن يظل محصورا في نطاق الأفراد الذين سقطت الأقنعة عن وجوههم، و انكشفت حقيقتهم المزرية، و من الخطورة بمكان أن يمتد الشك و الريب إلى الآخرين الذين لا علاقة لهم بما جرى، و الذين لا يملكون الصفات أو التصرفات نفسها.

فالإمام ينطلق في كلامه من نظرة واقعية لها وجهان:

الأول: أن الأمين لا يخون، و لو كان في أمس الحاجة إلى ما تحت يده، أو إلى ما أودع لديه، فإنه يعفّ و يحافظ على حقوق الآخرين و يؤديها إليهم.

و الثاني: أن الإمام لا ينفي وجود من يخون الأمانة و يترك الوفاء، فهذه حقيقة واقعية لها مصاديق بين الناس.

إذن، فهذه الحادثة ينبغي أن تضيف إلى المرء خبرة جديدة تجعل عقله أكثر تفتحا و يقظة، حتى لا يعود مرة أخرى لائتمان الخائن، و لا ينساق إلى اتهام من جرّب أمانته و وفاءه، كما يقول الإمام في مناسبة أخرى: «ليس لك أن تأمن الخائن و قد جرّبته، و ليس لك أن تتهم من اتّمتته»⁽¹⁾.

د - مبدأ الإصلاح الاجتماعي:

إشارة

لا يخفى على أحد ما ما للإصلاح الاجتماعي من أهمية قصوى و دور فعّال في توفير السّلام و استتباب الأمن و الشعور بالطمأنينة و سيادة العدل بين أفراد المجتمع الواحد.

و لا- جرم أن له موقعا خاصا في التربية الاجتماعية، فهو من التغييرات الإيجابية في المجتمع التي تساعد على تحوّل نحو الأفضل كما توجّهه نحو الأصوب، و تثبت خطى أفرادها على الطريق الأقوم و النهج الأسلم.

و من قواعد الإصلاح الاجتماعي الأساسية - وفق العقيدة الربانية - محاربة الفساد و الانحراف و الحفاظ على القيم الإسلامية. إلا أن الوصول إلى ذلك له مدخل أساسي و هام جدا، يتجلّى بشعور كل فرد من أفراد المجتمع بمسؤوليته عن نفسه أولا، و عمّن يعيل و عن المجتمع الذي يعيش فيه ثانيا. و أن يكون على علم و وثيق من أنه سوف يحاسب على تقصيره في أيّ من هذه المسؤوليات بعد ذلك.

ص: 317

1- الحر العاملي، الفصول المهمة في معرفة أصول الأئمة، تحقيق: محمد القائني، دار إحياء التراث العربي، 2003، ج 2، ص 293.

فالإسلام حمّل الأفراد هذه المسؤوليات، كلّ حسب موقعه ومؤهلاته؛ وعلى هذا، فإن هذا المجتمع، أفراداً وأسرًا وأمةً، وبكل من فيه من رجال ونساء، مدعوّ لانتهاج سبيل الخير والدعوة إليه، وأفراده مدعوّون لأن يتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر. وهذا التواصي من «الوظائف الاجتماعية التي تمثل في المجتمع الإسلامي قوة الدفع إلى الارتقاء في سلم الكمال، وقوة الحماية عن الانزلاق إلى دركات النقص، وقوة الصيانة التي تصون المكاسب التي يحققها المسلمون أفراداً وجماعات، من مكاسب المعارف والفضائل الخلقية والسلوكية»⁽¹⁾.

ونظراً لأهمية هذا المبدأ والسعي إلى ترجمته عملياً، فإن الإمام الصادق كان ينمي لدى تلاميذه الشعور بالمسؤولية تجاه سلوك الآخرين، ومحاولة التغيير والإصلاح في المجتمع، فهو يريد أن يرقّي الفرد من عضو عادي إلى فرد رسالي يتحمّل مهمة توجيه الآخرين وتقويم انحرافاتهم.

وقد أوجب الإمام على الإنسان المؤمن الوقوف في وجه الانحراف والعصيان، ومحاولة تغيير ما يجري حوله من خلاف، فإن لم يستطع هذا الإنسان أن يقوم بأدنى تغيير أو تأثير، فيرى الإمام في هذه الحال ضرورة الكفّ عن مجالستهم والتواصل معهم، حتى لا يكون سبباً في تشجيعهم على الاستمرار في ارتكاب المعاصي والمحرمات، فيقول: «لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره»⁽²⁾.

وعلى مستوى التخطيط للقيام بالتغيير، يعتمد الإمام فكرة التدرج في العمل الاجتماعي والتغيير الإصلاحي فيه، تبعاً لقوة الإيمان عند الناس، فيقول: «إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنتين لصاحب الواحدة لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشرة، فلا تسقط من هو دونك، فيسقطك من هو فوقك وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة، فارفعه إليك برفق، ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره»⁽³⁾.

يستفاد من هذا النص أنّ التدرج أمر أساسي يدخل في صلب النظام التربوي للإمام؛ لأنه لا يمكن لأي شخص تقبّل فكرة تغيير ما اعتاد عليه من تصرفات وأعمال أو اعتقادات دفعة واحدة، بل يتحقق ذلك تدريجياً، ومصحوباً بكثير من الرفق واللين في التعامل.²

ص: 318

1- عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ص 392.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 11، ص 503.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب درجات الإيمان، ح 2.

فليس من الحكمة تحميل صاحب الخطوة الأولى مثلاً ما يمكن لصاحب الخطوة الثانية أن يحمله، وذلك ليتم انسجام الدعوة والإصلاح مع عقلية المخاطب و مستوى إيمانه، وهكذا قام الإمام في مدرسته بتربية الإنسان المسؤول الذي يجعل همّ إصلاح المجتمع و تطويره إلى الأفضل بالتدرّج و إن من أهم خطوات العملية في هذا الطريق ما يلي:

المراقبة و النقد الاجتماعي.

مواجهة الخلافات و الخصومات الاجتماعية.

المراقبة و النقد الاجتماعي:

إن المراقبة الاجتماعية هي إحدى الوسائل البالغة الأهمية في عملية إصلاح المجتمع و تغييره و استقرار القيم الأخلاقية فيه، و قد جعل الدين الإسلامي كلّ مسلم رقيباً على نفسه، كما جعله رقيباً على غيره، و ذلك ليتسنى له القيام بدور فعّال في بناء المجتمع و السير به نحو الأفضل.

و يتبلور هذا الدور في تطبيق فريضتي الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. و قد تناولت الحديث عنهما جملة من الآيات القرآنية، ف جعلت منهما صفتين ملازميتين لأفراد الأمة الإسلامية، و ذلك في قوله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ (1)» و بما أن هذه الدعوة أتت على لسان الوحي، فلا مجال للشك أنّ ممارسة الأمر بالمعروف و محاولة تغيير المنكر، من أفضل الطرق العملية المثمرة في صيانة المجتمع و تقويمه. «و لا نجد في النظم التي ابتكرها الإنسان لرعاية القوانين و الدساتير و تبصير الناس بها - حتى لا يقعوا في المخالفات المتوالية - نظاماً يصل إلى فكرة هذا المبدأ باعتباره مبدأً تربوياً جاداً يتيح لأكبر قاعدة في الأمة أن تعرف ما لا بد من معرفته... و بطريقة مكررة تضمن التذكّر الدائم و تشمل كل البيئات في المجتمع» (2). لذا فإن «الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر مبدأ عظيم يصلح بمفرده دستوراً لجميع نواحي الإصلاح» (3).

و ها هو الإمام الصادق يهتم بهذه الخطوة الإصلاحية اهتماماً بالغاً، و يعتبرها ركناً أساسياً في صيانة الأمة الإسلامية، حيث يرى أنها شرط للتدبّن؛ لأن بهما يعبد الله و يسود الأمن و تزول أسباب الفتن، و بهما يمكن تغيير الواقع إلى الصلاح، فيقول:

ص: 319

1- سورة التوبة: جزء من الآية 71.

2- أحمد بن محمد بن هارون الخلال، الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، تحقيق عبد القادر عطا، دار الأنصار، القاهرة، 1974، ص 46.

3- سعيد إسماعيل علي، فلسفة التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص 111.

«ويل لقوم لا يدينون لله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(1).

من هذا المنطلق فقد قرّر الإمام اعتماد أساس النصح المتبادل في المجتمع، والذي يتم من خلاله نصح كلّ فرد الآخر إذا رأى منه ما يندرج في إطار مخالفة السلوك الأخلاقي، فقال لأحد تلامذته: «عليك بالنصح لله في خلقه فلن تلقاه بعمل أفضل منه»(2).

كما كان يرى الإمام أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إضافة إلى الأبعاد الاجتماعية المتعددة، أبعاداً تربوية عميقة، وأن تكرار الأمر والنهي على أسماع الناس كلما خفي معروف أو ظهر منكر على مر الأيام يحقق دون شك تثقيف الأمة كلها.

ويرى فيه كذلك إفادة للعاقل والجاهل فيقول: «إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ، أو جاهل فيتعلم»(3).

وهذا الأمر إنما يتحقق بأداء أهل الحق والصلاح واجبيهم، وذلك بالأخذ بيد أهل الفساد والمعصية للسير بهم نحو الطريق الصحيح، و نجد الإمام يلقي التبعة الأكبر والأهم على كاهل العلماء بالدرجة الأولى فيقول: «لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم... ما يمنعكم إذا بلغكم عن رجل منكم ما تكرهونه مما يدخل علينا به الأذى والعيب عند الناس، أن تأتوه فتؤنبوه وتعظوه وتقولوا له قولاً بليغاً»(4).

فالإمام هنا يوجب على العالم أن لا يتخلى عن تعليم الجاهل حتى لا يبقى يتردى في جهالته، فيرتكب ما يخالف الدين.

وقد انصبت جهود الإمام الصادق في مشواره التربوي الحافل، على أن يرسخ في عقول تلامذته أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً وأداباً يجب أخذها في اعتبار الأمر النهائي، حتى يكون له استجابة أكثر، وتأثير أقوى. كما شدد على أن من يريد القيام بمثل هذه المهمة، لا بد أن تتوافر فيه صفات وخصال مميزة، «إنما هو (أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) على القوي المطاع العالم بالمعروف والنهي عن المنكر لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً»(5).

إذاً، وباستعمال الإمام كلمة (إنما) حصر تحقيق هذه الفريضة بكل مكلف تتوافر فيه خصائص ثلاث:6.

ص: 320

1- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 176، ح 353.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 71، ص 338.

3- الحراني، تحف العقول، ص 358.

4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 11، ص 415.

5- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح 16.

- أن يكون قويا، أي أن له قدرة واستطاعة في التغيير والإصلاح فلا يضعف أمام شدة، ولا يجبن أمام قوة.

- أن يكون مطاعا، أي أن الناس يقبلون نصائحه الرشيدة، و كلماته المفيدة.

- أن يكون عارفا و بصيرا بمصاديق و مظاهر المعروف و المنكر.

فالصادق يحتمل المجتمع المسلم هذه المسؤولية بمستويات تتناسب مع مستويات الاستطاعة لكل فرد من أفرادها؛ إلا أنه لا يعني أي شخص من الحد الأدنى لتطبيق هذه الفريضة، وإن كان عبر الإنكار بالقلب على الأقل، وقد قال في ذلك:

«حسب المؤمن عزّا إذا رأى منكرا أن يعلم الله عزّ وجلّ من قلبه إنكاره»(1).

ذلك أن الإمام يؤمن و يشرح لتلاميذه «من شهد أمرا فكرهه، كان كمن غاب عنه و من غاب عن أمر فرضيه، كان كمن شهده»(2). إضافة إلى ذلك، نجد الإمام يولي الجانب الأخلاقي في مسألة الأمر و النهي اهتماما خاصا، فيدعو للرفق و الشفقة في تطبيق هذه الفريضة، فيقول: «كن رفيقا في أمرك بالمعروف، و شقيقا في نهيك عن المنكر»(3).

فلا بد لمن يقوم بالنصح أن يتحلى بلبين الجانب و حسن الخلق، و أن يكون كلامه حين يأمر الآخرين و ينهاهم منبعثا من حبه لهم و حذبه عليهم. فقد أراد الصادق أن يثبت للمجتمع بجميع أفرادها أن الأمر النهي «عادل فيما يأمر، و عادل فيما ينهي»(4) أي أن يراعي حدود الإنصاف و العدالة، و ينهج منهج الحكمة و الموعظة الحسنة في دعوته ليكون التأثير أبلغ.

وبما أن الهدف الأساسي من هذه الفريضة، هو التأثير في نفوس الناس، و رفع مستواهم نحو الأعلى و الأفضل، فلا بد أن ينتبه المصلح إلى مدى الفائدة التي تحققت أو ستتحقق من نصحه هذا. و أن يمسك في حال لاحظ أو تأكد من أنه لم يعد لكلامه و لا لنصحه أثر فيمن يوجّه إليه، و قد أكد الصادق هذا الأمر قائلا:

«و ليكن أحدكم بمنزلة الطبيب المداوي إن رأى موضعا لدوائه، و إلا أمسك»(5).

فقد شبه الإمام هنا الإنسان المصلح بالطبيب الذي لا بدّ أن يكون على بينة من تأثير دوائه و طرق استخدامه.

نأتي الآن إلى ذكر أسلوب آخر في الأمر و النهي، بإمكانه أن يستمرّ أو يستخدم5.

ص: 321

1- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 178، ح 361.

2- المرجع نفسه، ص 170، ح 327.

3- محمد رضا الحكيمي، الحياة، ج 1، ص 230.

4- الطبرسي، مشكاة الأنوار، مرجع سابق، ص 101.

5- الكليني، فروع الكافي، ج 8، ص 345.

في كل الظروف، ألا وهو الأسلوب غير المباشر، والذي ركز عليه الإمام، و لظالما أراد من الدعاة أن يقرنوا العمل بالقول، حتى يصبحوا قدوة صالحة بأعمالهم قبل أقوالهم، فلم يزل يكرر هذه الوصية بقوله: «كونوا دعاة الناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»(1).

وهكذا يتبدى لنا حرص الإمام الشديد على تربية فئة مؤمنة تسعى دوما لإصلاح المجتمع والسير به نحو الأفضل والأرقى وذلك بانتهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كأحد السبل الأساسية، الذي يساعد على الطاعة ويزيد من فرصها، ويقلل من فرص المعصية ويمنع من وجودها في المجتمع.

مواجهة الخلافات و الخصومات الاجتماعية:

إشارة

من أهم المشكلات التي قد تهدد الجماعات البشرية، نشوء الخلافات وأسباب الفرقة المؤدية إلى التنازع، وهو الطريق الحتمي للفشل والوهن، وينهى الله عن التنازع فيما بين المؤمنين فيقول جلّ من قائل: وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (2).

فالتنازع والخلاف والخصومة من أهم أسباب الفساد والانحراف بين أفراد المجتمع. كما أنها تؤدي إلى هدر الطاقات البشرية، واستنزاف القدرات الخلاقة في غير أماكنها، وهدم بنية الجماعات، وقلع أسس المودات والصدقات.

وقد أدرك الإمام الصادق خطورة هذا الأمر، فتشدد فيه وحذر من عواقبه، فقال:

«إياك وكثرة الخصومات فإنها تبعدك من الله»(3)، كما حذر من مخاطرها على الأجواء النفسية والاجتماعية بقوله: «إياكم والمرء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان، وينبت عليهما النفاق... و من زرع العداوة حصد ما بذر»(4)

وعلى هذا، فإن من أبرز مظاهر إصلاح المجتمع المؤدية إلى صحته وسلامته، العمل على فض النزاعات وإزالة الخصومات ومعالجة الخلافات، التي تسمح للفرد أن يعيش في كنف مجتمع ناعم بالسلام والأمن والاستقرار.

والمصلح الاجتماعي الذي يترتب في مدرسة الصادق لا يتوانى عن استئصال بذور الاختلاف من تربة المجتمع. فهو المسارع دوما نحو تقرب أفراد المجتمع، فيتحلى أبناؤه بالمحبة والإخاء، ويشبكون أيديهم متحدين في مواجهة أعدائهم ومؤازرة أصدقائهم.

ص: 322

1- أحمد بن محمد البرقي، المحاسن، دار الكتب الإسلامية، إيران، د. ت، ص 18، ح 50.

2- سورة الأنفال: جزء من الآية 46.

3- الحرائي، تحف العقول، ص 309.

4- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب المرء والخصومة، ح 1.

و لظالما كان سلوك الإمام مرآة تعكس هذه المثل والإرشادات التربوية الإصلاحية في كل مناسبة. وقد روي أن أبا عبد الله إذا مرّ بجماعة يختصمون لا يجوزهم حتى يقول ثلاثاً: «إتقوا الله إتقوا الله و يرفع بها صوته»⁽¹⁾.

و لا يختلف أحد في الانعكاسات السلبية التي تنتج عن النزاعات والخصومات، ولكن المشكلة تكمن في إيجاد الطرق المناسبة للتخلص من هذه الخلافات، والوصول إلى تغيير حال الخصومة والنزاع إلى حال الوحدة والاعتصام بحبل الله تعالى.

و الإمام الصادق كمصلح تربوي يقدم لنا بعض الطرق الناجعة إلى حلّ هذه المشكلات ويواجه معها باعتماد أسلوبيين: الوقاية والعلاج.

و أسلوب الوقاية يتمثل في السعي إلى حل المشكلات قبل حدوثها؛ أي أن يتم التركيز على زرع الأصول والمبادئ الأخلاقية في نفوس المؤمنين؛ لأنها كقيلة تتمتع بالعلاقات السليمة وتحصينها والابتعاد عمّا يثير الحساسيات والعصبية بين الأفراد.

أما أسلوب العلاج فيتمثل في السعي إلى حل المشكلات بعد حدوثها؛ أي أن يتم السعي إلى إزالة آثار الحقد والبغض من القلوب، و تعويد النفوس وتربيتها على ردّات الفعل الصحيحة والسليمة. و من أبرز هذه الأساليب:

1 - تجنب جذور الخلافات والخصومات:

إشارة

إن معرفة الأسباب المؤدية إلى النزاع وتجنبها، تعتبر مدخلا هاماً يوصلنا إلى تقليل فرص حصول مثل هذه النزاعات، و تدخل في أساس الإجراءات الوقائية عند الإمام الصادق، لا بل إنها تدخل في صميم منهجه التربوي الذي حذّر بشدة من تباعد المسلمين واختلاف كلمتهم و تشتت شملهم، و ذلك لتحصين هذا المجتمع و صيانتة من التفتت و الانهيار.

و لأن المجال لا يتسع للإحاطة بكل ما يمكن اعتماده من الأساليب الإصلاحية، فسنختار منها نماذج من جذور الخلاف التي يعرفها الإمام و يحذّر الأمة عنها، فنذكر بعضها:

- تتبع العثرات والعيوب:

قد لا يسلم إنسان من نقاط ضعف و عيوب في شخصيته و سلوكه و أخلاقه، إلا أن الإمام حذّر من التركيز و الحديث الدائم عن هذه النقاط و إثارتها، كما اعتبرها ابتعاداً عن الله لما لها من أثر في تعميق حالة الكراهية و العداوة، فقال: «أبعد ما يكون العبد من

ص: 323

اللّٰه أن يكون الرجل يؤاخي الرجل و هو يحفظ عليه زلّاته ليعيّره بها يوما ما»(1).

كما شدّد على عدم اعتبار نقاط الضعف و العيوب التي تحدثنا عنها هدفا دائما، نصوّب بنادقنا نحوه، فنصيبه بما يؤدي إلى أذيته لا إلى تصويبه و تقويمه، فقال: «إياكم و التعرض لعيوب الناس فمنزلة المتعرض لعيوب الناس كمنزلة الهدف»(2).

- الاستهزاء و الاحتقار:

إنّ السخرية من الآخرين و تحقيرهم، تشكّل تهديدا لوجود المجتمع؛ و أقلّ أضراره تتمثل في نفور الناس و كراهيتهم لمن يسخر منهم؛ لأنّ مبعث ذلك، الغرور بالنفس و اعتقاد المستهزئ بكونه أفضل من كل من هم حوله، و هذا سيؤدي حتما إلى زوال التعاطف بين أفراد المجتمع. و قد أشار الإمام إلى هذا فقال: «لا يطمعنّ المستهزئ بالناس في صدق المودة»(3).

- النميمة و السعاية:

فقد شبّه الإمام الصادق النّمّام بالساحر الذي يفرّق بين الأحبة بسحره، فتكلم في حديث مختصر عميق المغزى عن دور النميمة التخريبي الهدّام في المجتمع قائلا: «إن من أكبر السحر النميمة يفرّق بها بين المتحابين و يجلب العداوة على المتصافين و يسفك بها الدماء و يهدم الدور و تكشف بها الستور و النّمّام أشرّ من وطأ على الأرض بقدم»(4).

و لطالما كان يجتمع مثل هؤلاء الأشخاص حول الملوك و الولاة و السلاطين، فيتقرّبون منهم كي يتمكنوا من زرع بذور الخلاف و الفرقة لتحقيق أهدافهم السيئة الوضيعة، لذا نجد الإمام يحذر أحد الولاة (النجاشي(5) الذي كان قد طلب منه بعض الوصايا، فكتب الإمام إليه: «إياك و السعاية و أهل النمائم فلا يلتزقن بك أحد منهم، و لا يراك اللّٰه يوما و لا ليلة و أنت تقبل منهم صرفا و لا عدلا فيسخط اللّٰه عليك و يهتك سترك»(6).

ص: 324

- 1- زين الدين العاملي، منية المرید، ص 331.
- 2- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص 263.
- 3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 144.
- 4- المصدر نفسه، ج 60، ص 21.
- 5- عبد اللّٰه بن النجاشي أبو بجير الأسدي البصري، و لّي الأهواز من أقطار فارس، من قبل أبي جعفر المنصور العباسي، و يروي عن أبي عبد اللّٰه رسالة منه إليه (معجم الرجال للخوئي 10 / 359).
- 6- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 17، ص 308.

- الجدل و المرء:

إنّ الجدل عبارة عن تردّد الكلام بين الخصمين، إذا أراد كلّ واحد منهما إحكام قوله، ليدفع به قول صاحبه وهو نوعان: «إن كان في تقرير الحق فهو ممدوح وإن كان في تقرير الباطل فهو مذموم»(1) الذي يقصد به دفع الحق أو مجرد العناد أو ليلبس الحق بالباطل أو طلب السمعة و الجاه. وأمّا المرء «طعن في كلام الغير لإظهار الخلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير»(2).

و الإمام ينهى عن الجدل المذموم الذي لا يراد به وجه الله كما ينهى عن المرء بما أنّهما يمثلان آفة من أشدّ الآفات التي تسبّب الخصومة و تفرق صفوف الأمة. فقال «إياك و المرء فإنه يحبط عملك، و إياك و الجدل فإنه يوبقك»(3).

- الغيبة:

لا- ينظر الإمام إلى الغيبة كذيلة أخلاقية فحسب، بل هو يراها من العوامل الهدّامة لشخصيات الأفراد في المجتمع، و التي تجعلهم يسقطون في أحوال الحقد و البغضاء و العداوة، فوجد الإمام يتمثل شدة قبح عمل المغتاب إلى درجة أن الشيطان نفسه يتبرأ من رفقته و صحبته و يستقبح قبول ولايته، فيقول: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه و هدم مروءته ليستقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»(4).

وقد نهى الإمام عن هذه الرذيلة (الغيبة) حتى في حالات القطيعة، اتقاء لازدياد وتيرة العدا و اتساع رقعة الخلاف و حفظا لماء الوجه و تحسّبا لعودة المؤدّة و الألفة يوما ما، فورد على لسانه: «لا تتبع أخاك بعد القطيعة و قيعة فيسدّ طريق الرجوع إليك، فلعلّ التجارب تردّه عليك»(5).

- التهمة:

يقول الصادق في هذا الصدد: «من اتهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما»(6). إن في كلام الصادق هنا إظهارا للأثر السلبي لانتهاج المؤمن أخاه، و التشكيك في نزاهته

ص: 325

1- فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، المطبعة الحسينية، القاهرة، ج 7، ص 282 (بتصرف).

2- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992، ص 266.

3- الحراني، تحف العقول، ص 309.

4- المفيد، الاختصاص، مرجع سابق، ص 32.

5- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 71، ص 166.

6- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب التهمة و سوء الظن، ح 2.

وصدقه ونوابه... إلخ؛ لأن في ذلك إسقاطاً للحرمات و تعدياً على الكرامات و عدم الشعور بالأمان و الطمأنينة بين الأفراد.

- السبّ و اللّعن:

من المؤكد أن توجيه الشتائم للآخرين وإهانتهم عن طريق السبّ أو اللعن أو غيره، سيتسبب بمزيد من الشحناء و البغضاء، و سيبقى أثره في النفوس، و إن توصل المتنازعون إلى صلح بينهم فيما بعد، و قد نقل الإمام إلينا كلاماً في ذلك ورد على لسان جده رسول الله صلى الله عليه و سلّم فقال: «سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة»(1). و كذلك حذر من التلاعن بين أفراد الأمة الإسلامية بقوله: «إن اللعنة إذا خرجت من صاحبها ترددت بينه و بين الذي يلعن... فاحذروا أن تلعنوا مؤمناً فيحل لكم»(2).

و لا يكتفي الإمام بالتحذير و ذكر نتائج ارتكاب رذيلتي السبّ و اللّعن، إنما نجده - و كعادته - ينصح باعتماد أساليب وقائية نحاول إبعاد المؤمن عن التلفظ بأقل ما يمكن [أن] يقال في مقام الإيذاء فيقول:

«إذا قال الرجل لأخيه المؤمن: أفّ خرج من ولايته - أي الولاية التي تربط المؤمن بالمؤمن -... و لا يقبل الله من مؤمن عملاً و هو مضمّر على أخيه سوءاً»(3).

إنّ مجرد التعبير بلفظة أفّ، أخف كلمة صادرة عن نزعة الكراهية و «هذا القدر من التعبير العدواني يخطره الإمام، فيما يدعنا نتأمل بمزيد من الملاحظة مدى حرص الإمام على تنقية الشخصية و تدرئها على أعلى مستويات السلوك السوي»(4).

*** هذه بعض جذور الخلاف التي حدّثنا عنها الإمام و حثنا على استئصالها، و نصح بتجاوزها، كما دلّنا على بعض أساليب الوقاية من الوقوع فيها.

و من هنا يظهر لنا بوضوح حرص الإمام الدائم و اهتمامه المتواصل - عبر نهجه القويم - بوحدة جماعة المسلمين و عدم كونهم فريسة للخلاف و الفرقة، لئلا تكسر شوكتهم و توهن قواهم، فيطمع بهم عدوّهم و يقذف بهم إلى الفشل، بينما يصيبون في تحابّهم و توادّهم و ابتعادهم عن هذه الرذائل العزّة و الرقيّ و التقدّم لهم و لمجتمعهم الحضاري و الإنساني.

ص: 326

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب السباب، ح 1.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 8، ص 613.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 146.

4- محمود البستاني، دراسات في علم النفس الإسلامي، دار البلاغة، بيروت، 2000، ج 2، ص 171.

2 - التغافل و حسن الظن:

ثمة تدابير وقائية أولاها الإمام الصادق اهتماما خاصا؛ بهدف منع حدوث الخلافات و الخصومات في المجتمع، و هذه التدابير تتمثل في اعتماد التغافل و حسن الظن، «و التغافل يعني أن يكون المرء عالما بالشيء و مطلعاً عليه ثم يتعمد بإرادته أن يظهر نفسه و كأنه لا يعرف شيئاً عنه»(1).

فإذا كان هذا التغافل بهدف ستر العيوب الخفية للآخرين، و التغاضي عن زلاتهم التي لا ينبغي إظهارها، فهو من صفات المؤمنين الحميدة، و دليل على عظمة الفرد و كرامته، كما يعدّ من العوامل الرئيسة لإصلاح المجتمع، حيث يبعث على التحابّ و التقارب بين الناس، و ربما يحول دون وقوع النزاع و الشجار، و من هنا يبرز دوره المهم في تخفيف آلام الحياة و منغصاتها.

و بعبارة أكثر إيجازاً، التغافل في وقته و موضعه المناسب يعتبر من ضرورات الحياة الاجتماعية الهادئة السلمية التي يقتضيها كلّ من العقل و المصلحة. و قد تناول الصادق في نهجه التربوي هذا الموضوع قائلاً: «صلاح حال التعايش التعاشر ملء مكيال، ثلثاه فطنة، و ثلثه تغافل»(2).

فليست الدنيا شيء وراء التعايش و التعاشر فيما بين البشر، و لا بدّ من أن يعيش الناس عيشة ترضي الله، لا نزاع فيها و لا خصام. و الميزان الذي كال به الإمام ليوازن بين كفتي التعايش و التعاشر، يمثل الانتباه و الفطنة ثلثيه، بينما يمثل التغافل عن بعض الأمور الثلث الباقي، و هي نسبة لا يستهان بها.

فكما أن على المؤمن العاقل أن يتعامل مع مسائل الحياة بالتحقق و التدقيق و اليقظة كي يتمكن من إحراز خيره و صلاحه، و أن لا يغفل عن حيل أعدائه و مكرمهم و سوء سعيهم، بل عليه أن يكون دائماً يقظاً و على حذر، و لكن في المقابل يجب أن لا تخلو حياته و معاشرته من التسامح و التساهل، حتى تصفوله و للآخرين أجواء المعاشرة و العلاقة.

و هذا التساهل يقتضي في بعض الأحيان أن يجعل الإنسان كثيراً من الأمور الجزئية في علاقته مع الآخرين في زاوية النسيان و الإهمال؛ لأن الدقة الشديدة في متابعة كلمات الآخرين و مواقفهم و وضعها تحت المجهر قد يؤدي إلى مضاعفة المشكلات و خلق الحساسيات في أجواء المجتمع المسلم.

فالصادق يحرص كل الحرص على أن يعيش الناس مع بعضهم البعض في أمن و وئام، و في جوّ من الثقة المتبادلة، و عدم الإسراع إلى تصديق ما يسمعه عن أصدقاء أو

ص: 327

1- محمد تقي فلسفي، الأخلاق من منظور التعايش و القيم الإنسانية، مرجع سابق، ص 275.

2- الحرّاني، تحف العقول، ص 359.

إخوان لهم. فروي أن أحد تلاميذ الإمام قال له: يبلغني عن الرجل من إخواني ما أكرهه، فأسأله فينكر ذلك وقد أخبرني عنه الثقات أجاب الإمام في ذلك: «إذا بلغك عن أخيك شيء وشهد أربعون أنهم سمعوه منه فقال: لم أقل، فاقبل منه»(1).

وفي كلام الصادق تشديد واضح على أهمية الثقة في الحياة الاجتماعية؛ لأنها تشكل أساسا متينا للتعامل المشترك بين أفرادها، فهو يشجع المسلم على أن يمر على زلات الآخرين مرور الكرام من موقع سعة الصدر، و حفظا لماء وجههم، و اتقاء لانتشار الحقد و البغضاء فيما بينهم.

و على هذا، فقد أوصى الإمام أفراد المجتمع الإسلامي بحسن الظن، و أن يلتمس كل فرد منه عذرا لأخيه، أو محملا يحمله عليه فيما قد يشك فيه، فقال: «إذا بلغكم عن مسلم كلمة فاحملوها على أحسن ما تجدون، فإن لم تجدوا فلو موأ أنفسكم»(2).

ثم عاد فأكد ما نصح به قائلا: «فإن لم تجد له عذرا فقل لنفسك: لعل له عذرا لا تعرفه»(3).

و الإمام انطلاقا من القرآن الكريم و السنة الشريفة يعلمنا كيف نربي أنفسنا على أن لا نظن بأحد سوءا إلا أن يردنا عليه إثبات قطعي أو بيّنة؛ لأن تحوّل الثقة بين الناس إلى الشك و سوء الظن سيوجّه علاقة الأفراد في المجتمع نحو الحذر و الريبة، و ربما إلى التأمّر عليهم و النيل من مواقعهم الاجتماعية، و بالتالي سيجرّهم ذلك إلى خوض صراعات، و نشوب خلافات قد لا تنتهي....

3 - إصلاح ذات البين:

إن من أهم الوسائل التي اعتمدها الإمام الصادق في علاج النزاعات و الخصومات بين أفراد المجتمع، هي إصلاح ذات البين.

و قد أشرنا فيما سبق إلى أن المجتمع الإسلامي لا بدّ أن يبنّي على قاعدة التآخي و التآلف، إلا أن الشيطان قد يفسد فيما بين الأخوين، فيثير أحدهما على الآخر، رغم الحذر و اتخاذ التدابير الوقائية. فيجب على طرفي النزاع، كما يجب على الآخرين أن يتداركوا فوراً ما أفسد الشيطان من العلاقة بينهما، التزاما بقوله تعالى:

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ (4)، و قوله تعالى: فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ (5).

ص: 328

1- سيد كاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 15، ص 230.

2- محمد بن أبي بكر باعلوي الخضرمي، المشروع الروي، ج 1، ص 35.

3- المصدر نفسه و المكان نفسه.

4- سورة الأنفال، جزء من الآية 1.

5- سورة الحجرات، جزء من الآية 10.

فإذا ما اشتدَّ أمر الخصام وجب على كل مسلم أن يسارع إلى الإصلاح بين المتخاصمين بمختلف الوسائل. و معروف ما لهذا العمل من أهمية و فضل، و ما له من آثار إيجابية في توطيد العلاقات الاجتماعية العامّة. و لذا فقد بذل الصادق أقصى جهده في حث المؤمنين و ترغيبهم بإصلاح ذات البين حتى اعتبره أفضل الصدقة فقال:

«صدقة يحبّها الله إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا و تقارب بينهم إذا تباعدوا»(1).

و في المقابل، اعتبر الإمام أن أقبح الأعمال عنده، هو أن يبادر أحد الطرفين المتنازعين إلى الصلح مع الآخر، فيمدّ يده إليه فيقبض الآخر عنه يده و لا يستجيب لمبادرته، فقال في ذلك: «ملعون رجل يبدؤه أخوه بالصلح فلم يصالحه»(2).

و التأمل في نصوص الإمام الواردة في إصلاح ذات البين، يبيّـرنا بالدور الرائد الذي أعطاه للمصلحين، لما له من أثر في سدّ أبواب الفتن و إطفاء نار النزاعات المحرقة، و قد ربّى الإمام في طلابه روح الإصلاح و وجههم إلى كيفية التعامل مع المتنازعين في مثل هذه الحالات، فورد عنه ما نصّه:

«الكلام ثلاثة: صدق، كذب و إصلاح بين الناس، قيل له: الإصلاح بين الناس؟ قال: تسمع من الرجل كلاما يبلغه فتخبث نفسه فتقول: سمعت من فلان. قال فيك من الخير: كذا و كذا خلاف ما سمعته منه»(3).

و لا شك أنّ الكلام يحتمل وجهين، فإمّا أن يكون مطابقا للواقع أو مخالفا له، فالأول يدعى صدقا، و الثاني كذبا، و لكن بما أن الكلام المخالف للواقع بدوره على قسمين: فإمّا أن يكون موجبا للفساد أو موجبا للإصلاح، فإنّ الإمام قد فصل بين هذين القسمين و قرّر بأنّ القسم الموجب للإصلاح هو قسم ثالث من أقسام الكلام.

و الإصلاح ليس بالأمر السهل كما يظنه البعض، إنما هو عملية صعبة و معقدة، تحتاج إلى فطنة و دراية و مزيد من الوعي و الإدراك.

و لا عجب إذا رأينا الإمام الصادق نفسه في طليعة الساعين إلى إصلاح ذات البين و رأب الصدع بين الناس، إلا أنه استطاع أن يبتكر أسلوبا مميزا لم يسبقه إليه أحد في علاج الكثير من المشكلات و المواقف الحرجة، فقد عيّن مبلغا من المال دراهم و دنانير للإصلاح و فصل الخصومة بين أصحابه إذا حصل بينهم خلاف أو نزاع في القضايا المالية، تأليفا لقلوبهم، و دفعا لموجبات العداة و التفرقة بينهم.6.

ص: 329

1- الطبرسي، مشكاة الأنوار، مرجع سابق، ص 309.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 71، ص 236.

3- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الكذب، ح 16.

كما ورد عن أبي حنيفة سائق الحاج(1) قال: مرّ بنا المفضل وأنا وختي نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل. فأتيناها، فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه قال:

«أما إنها ليست من مالي، ولكن أبو عبد الله أمرني: «إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء، أن أصلح بينهما، و أفنديهما من ماله» فهذا من مال أبي عبد الله»(2).

وهكذا نلاحظ كيف يكلف الإمام بعضنا من تلاميذه لحلّ الخلافات بين الناس بما يودع لديهم من ماله؛ لأنه يشعر ويدرك أثر تعطيل دور الإصلاح في تنافر القلوب وضعف المودة الاجتماعية إلى أبعد الحدود.

4 - العفو ومقابلة الإساءة بالإحسان:

فالمشاكل الاجتماعية بين الأفراد إنما تبدأ بخطأ من طرف أو شخص، فإذا قوبل الخطأ بتصرف من جنسه كردّ فعل عليه، ترسّخت المشكلة وتعدت، لذلك نجد أبا عبد الله يدعو في تربيته الاجتماعية إلى العفو والصفح عن المسيئين، ويعتبر أن مقابلة الإساءة بالإحسان من أهم الأساليب المتبعة لعلاج الخصومات وإطفاء ثورة النزاعات.

فرغم أن من حقّ المظلوم أن يعاقب على السيئة بمثلها - وفق مقتضى العدل - إلا أنّ الأخلاق الإسلامية توصي بالعفو والمغفرة، من غير تشجيع على الظلم والتمادي فيه؛ لأن مرتبة الإحسان أعلى وأرفع، وبها يصل الفرد إلى مستوى لا تمنعه معه الإساءة الشخصية من فعل الخير إلى المسيء؛ لأنه إنما يفعله ابتغاء مرضاة الله.

وعلى هذا الأساس يستنكر الإمام الصادق وجود الحقد في قلب المؤمن بقوله:

«حقد المؤمن مقامه، ثم يفارق أخاه فلا يجد عليه شيئاً»(3).

فعند ما يصل المرء إلى مرحلة دفن الحقد مباشرة وعدم ترك أي أثر منه في النفس على الشخص المسيء، فإن العفو سوف يسهل عليه و ستكون خطواته الأولى في مسيرته الحصول على مكارم الأخلاق؛ لأن مقابلة السيئة بالحسنة، هو أقصى ما يصل إليه من صفاء في النفس ينعكس على تصرفاته ومواقفه، وقد تبلور هذا في وصية الصادق إلى عبد الله بن جندب بن جنادة(4) حيث قال له:

ص: 330

1- سعيد بن بيان أبو حنيفة الكوفي سمي سائق الحاج لأنه يسوق الحاج من الكوفة، حدث عن الإمام الصادق، توفي سنة 148 (محسن الأمين، أعيان الشيعة 234/7).

2- الكاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 2، ص 287.

3- المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 211

4- عبد الله بن جندب البجلي: عربي، كان من أصحاب الإمام الصادق والإمام موسى بن جعفر - رضي الله عنهما (الخوئي، معجم الرجال، 149/10).

«يا ابن جندب، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء إليك، وسلم على من سبك، وانصف من خصمك، واعف عن ظلمك كما أنك تحب أن يعفى عنك، فاعتبر بعفو الله عنك، ألا ترى أن شمسهُ أشرقت على الأبرار والفجار، وأن مطره ينزل على الصالحين، والخاطئين»(1).

فالإمام في قوله هذا يتمثل بالآية الكريمة: **إِذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (2)** بمصاديقها في واقع الحياة، ويركز على محور الإحسان الذي يغرس المحبة ويزيل آثار الإساءة من القلوب، فأداء الإحسان لا يدفع الخصومة فحسب، بل يحوّل المسيء إلى محبّ، كما أشار الإمام إلى هذه الجبلة في الإنسان بقوله: «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»(3).

وهكذا نتيقن أن الإمام عمل في رسالته التربوية على مستويين في وقت واحد؛ فهو في حين عمل على إزالة التناقضات الاجتماعية من الساحة، فقد عمل في الوقت نفسه على القضاء على منبع تلك التناقضات من النفس الإنسانية التي يتقاسمها الهوى والإيمان.

كذلك هذه المشاريع كلّها هي نماذج من الوعي الاجتماعي الذي سعى الإمام الصادق إلى ترويجه في المجتمع والتي تربي الفرد وتعدّه روحياً وأخلاقياً وثقافياً ليبنى مجتمعاً صالحاً يسوده الخير والحبّ والوئام.7.

ص: 331

1- باقر شريف القرشي، موسوعة الإمام الصادق، ج 2، ص 252.

2- سورة فصلت، جزء من الآية 34.

3- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 4، ص 419، ح 5917.

الفصل الخامس التربية الاقتصادية و المهنية في مدرسة الصادق

اشارة

المبحث الأول: البناء الاقتصادي

المبحث الثاني: البناء المهني

ص: 333

تعتبر التربية الاقتصادية و المهنية جزءاً من منظومة التربية الإسلامية، لا ينفصم عنها طبقاً للفهم الصحيح للإسلام، الذي يشمل كل نواحي الحياة. فقد عنيت هذه التربية بالنشاط الاقتصادي النافع و جعلت الكسب الطيب جزءاً لا يتجزأ من الإيمان و التقوى، و نهت الإنسان عن الاستكانة إلى الفقر ما دام في مقدوره أن يتخلص منه و يرتقي إلى مراتب الاكتفاء و الغنى، ذلك لأن الله تبارك و تعالى خلق كل الخيرات في الكون و جعلها في خدمة الإنسان:

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (1).

كما يحث كل فرد مسلم على العمل و استصلاح الموارد الطبيعية لتحسين أسباب العيش و تحقيق التقدم و نشره في المجتمع.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (2)

فالإسلام لا يعارض الدافع المادي للعمل و الكسب و تأمين المعيشة، بل إنه يتمشى مع ذلك و يمتاز عن غيره من الأنظمة الفكرية و المجتمعية في أنه جعل الاحتراف شعيرة من الشعائر التعبدية، مما شكل حافزاً للمسلمين للاشتغال بالمهن المختلفة.

على هذا الأساس، فإن التربية الاقتصادية في الإسلام تعلم الإنسان كيف يتصرف شؤونه الاقتصادية جاعلاً نصب عينيه علاقته بالله. فالإنتاج و التوزيع و الاستهلاك لا بد أن يبنى على المعرفة الصحيحة و التطبيق السليم للتعاليم الإلهية.

و من هنا هذه التربية تمثل المجال الحيوي الذي يتجلى فيه اهتمام الإسلام بالجانبين الروحي و المادي معاً، كما إن التربية المهنية تمثل المجال الذي يخلق الحضارة الإسلامية من خلال عديد من المهن و الحرف، و كسب الخبرات و المهارات اللازمة فيها مع مراعاة احترام المبادئ الأخلاقية.

إن الإمام الصادق كمفكر تربوي كان يمارس هذا اللون من التربية، المؤسسة على تنمية الوعي الاقتصادي و المهني للفرد المسلم فهو لم يغفل قيمة الجانب المعيشي

ص: 335

1- سورة لقمان جزء من الآية 20.

2- سورة الملك، الآية 15.

بأقتصادياته وضروراته في حياة الفرد و حياة الجماعة. بل كرّس جانبا كبيرا من خطابه للدعوة إلى مكافحة التخلف و تنمية الإنتاج و
توظيف الطاقات و مكافحة البطالة و تشجيع الفرد نحو الحرف و المهن الطيبة و اعتبار ذلك عملا عباديًا و جهادا مقدسا، هذا إلى جانب
اهتمامه بتربية المستهلك الواعي الذي يدرك دور المال في حياته و وظيفته الاجتماعية، بوصفها وسيلة إلى أهداف أسمى، أبرزها ابتغاء
مرضاة الله جلّ شأنه فيتحقق بذلك سعادة البشر في الدارين الدنيا و الآخرة.

و سنتناول في هذا الفصل تعاليمه و مناهجه التربوية في هذا الصدد إن شاء الله.

ص: 336

المبحث الأول البناء الاقتصادي

- مفهوم الاقتصاد وأهميته

- الجانب الاقتصادي في فكر الإمام التربوي

- تربية المسلم الاقتصادية في المجال المعرفي

- تربية المسلم الاقتصادية في المجال السلوكي

ص: 337

أصل «الاقتصاد» مأخوذ من كلمة «قصد»، و القصد في الشيء هو الاعتدال و التوسط فيه، و هو مرحلة بين الإفراط و التفریط، يقال: «فلان مقتصد في المعيشة» أي متوسط فيها»(1)، و علم الاقتصاد هو «العلم الذي يدرس النشاط الإنساني في سعيه لإشباع حاجاته المتعددة بواسطة الوسائل النادرة ذات الاستعمالات المختلفة»(2).

و على هذا الأساس، قام علماء معاصرون بدراسة هذا العلم، نظرا لأهميته المباشرة و تأثيره العميق في جوانب حياة الفرد و المجتمع، و لما يقدمه من حلول تجاه ما يواجهه الإنسان من مشكلات و ما يمرّ به من أزمات. كما إن الحاجات الاقتصادية تحتل المرتبة الأهم في سلم حاجات البشر على الأرض.

و بما أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بدون غذاء و لا كساء و لا سكن، فنجد أنها حاجات دائمة يجب أن نسعى إلى تحقيقها و توفيرها؛ لأنها تغطي قسما كبيرا من نشاطات الفرد و المجتمع، و تشكل في حياة الإنسان علاقات متنوعة و معقدة.

إنّ الإسلام دين شامل و منهج متكامل يعالج جميع جوانب حياة الإنسان، و لقد اهتمّ هذا الدين - منذ ظهوره - بالنواحي الاقتصادية، و تراه من خلال الآيات القرآنية الكريمة و الأحاديث النبوية الشريفة، يقرّر الأصول الهامة التي تنظم العلاقات الاقتصادية بين الناس، فقال عزّ و جلّ: **وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا (3)**، كما

ص: 339

-
- 1- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس و جواهر القاموس، المكتبة الحياة، بيروت، 1994، ج 2، ص 466.
 - 2- محمد محروس إسماعيل و آخرون، مقدمة في علم الاقتصاد، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، 2000، ص 15.
 - 3- سورة البقرة جزء من الآية: 275.

قال تعالى: كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (1)، وقال جل وعلا: وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (2).

وها هو الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتناول بعض جوانب التربية الاقتصادية الإسلامية فيقول: «الجانب مرزوق والمحتكر ملعون» (3) ويقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضا: «من غشنا ليس منا» (4).

وورد غير ذلك الكثير من الآيات والأحاديث التي تنظم الحياة الاقتصادية بين أفراد المجتمع.

وعليه، نستطيع أن نعرف علم الاقتصاد الإسلامي بأنه: «العلم الذي ينظم علاقة الأشخاص بالمال في كسبه وفي إنفاقه وفق مقاصد الشريعة وأحكامها» (5). فهو يبحث في كيفية تنظيم النشاط الاقتصادي للأمة الإسلامية أفرادا وجماعات، مما يؤدي إلى اكتساب الحلال وإنفاقه فيما يرضي الله.

من هنا يختلف الاقتصاد الإسلامي في أسسه وفروضه مع الاقتصاد الوضعي تماما.

فالاقتصاد الوضعي يعتبر أن أساس الأزمات الاقتصادية يعود إلى مشكلة الندرة، وهي عبارة عن ندرة وسائل إشباع الحاجات الإنسانية التي تنشأ عن محدودية الثروات الطبيعية من جهة، وتنامي الحاجات البشرية المرتبطة بزيادة عدد السكان والتقدم الحضاري من جهة أخرى (6).

هذا يعني ضالة الثروات المتوافرة بالمقارنة مع حاجات الإنسان، ومن هنا فإن كل نظرية اقتصادية تحاول إيجاد الحل الملائم لهذه المشكلة، كنظرية الرأسمالية أو الاشتراكية مثلاً.

ص: 340

1- سورة الحشر جزء من الآية 7.

2- سورة الفرقان، الآية 67.

3- أخرجه ابن ماجه في سننه، باب الحكرة و الجلب، ح 2153.

4- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ح 101.

5- عبد الحميد محمود البعلي، أصول الاقتصاد الإسلامي، دار الداوي، الرياض، 2000، ص 28.

6- تنشأ هذه النظرية من الآراء الاقتصادية لتوماس روبرت مالتس، بأنّ الزيادة في عدد سكان العالم، تتم كمتتالية هندسية مثل 2، 4، 8، 16 اما الموارد الغذائية فإنها تزداد كمتتالية حسابية، مثل 1، 2، 3 وقد استنتج أنّ عدد البشر يتزايد بسرعة أكبر من تزايد الانتاج الغذائي، و أنّ هذا الوضع سيؤدي لا محالة، إلى تكاثر البشر مما سيفضي إلى المجاعة (محسن كاظم، تاريخ الفكر الاقتصادي، ذات السلاسل، الكويت، 1989، ص 172، بتصرف).

أما بالنسبة للنظرية الاقتصادية الإسلامية فإن المشكلة الحقيقية لم تنشأ عن بخل الطبيعة أو عجزها عن تلبية حاجات الإنسان، ولا بسبب ندرة الموارد، لأن الله تعالى خلق الأرزاق كلها لجميع مخلوقاته، فقَدَّرَها حق قدرها، وبارك فيها، كما قال سبحانه وتعالى: * قُلْ أَأَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَتْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ (1).

ولو أمعنا النظر في مضمون الآيات السابقة نستنتج أن الله تعالى قد حشد للإنسان في هذا الكون الفسيح كل ما له فيه مصلحة و منفعة. و قد أشار الإمام الصادق إلى هذا المعنى انطلاقاً من فهمه للقرآن الكريم، فقال مؤكداً: «أن الله عزّ وجل خلق الخلق و خلق معهم أرزاقهم حلالاً طيباً» (2)، فتراه من خلال كلامه يرفض الإقرار بمشكلة الندرة المذكورة، و يصرّح بأن الله تعالى وقرّ للإنسان في هذا الكون الموارد الكافية التي تساعد على استمرار حياته من خلال تلبية احتياجاته المادية.

إذا، المشكلة قبل كل شيء، هي مشكلة الإنسان نفسه، فأنايته وحبّه المفرط للمال، و غلوّه في هذا الحب أحياناً، يقوده إلى سوء استخدام الثروات، و سوء تنظيمه الاقتصادي في توزيعها، و حرمان الآخرين، مما يؤدي إلى اضطراب أنظمة الحياة المعاشية للبشر في كل زمان و مكان مهما تغيرت الظروف؛ و هذا هو السبب الأكثر أهمية لكثير من مشكلات الإنسان الحياتية بصورة عامة، و الاقتصادية بصورة خاصة و هذا الأمر بالذات هو ما أشار الصادق في كلامه:

«... فالأطار هي التي تطبق الأرض... و بها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع، و ما يجري في ذلك بينهم من التشاجر و التظالم، حتى يستأثر بالماء ذوو العزّة و القوة و يحرمه الضعفاء» (3). «فظلم الإنسان في حياته العملية و كفرانه بالنعمة الإلهية هما السببان الأساسيان للمشكلة الاقتصادية في حياة الإنسان» (4).

و لا يمكن إيجاد ما يسمى بالحلول الاقتصادية إلا بإصلاح نفوس الناس و عقائدهم. فبمجرد تفسير المشكلة على أساس إنساني يمكن التغلب عليها بإعادة تربية (7).

ص: 341

1- سورة فصلت، الآية 9-10.

2- الكليني، فروع الكافي، ج 5 باب الإجمال في الطلب، ص 4.

3- كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص 96.

4- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، دار الفكر، بيروت، 1969، ص 307.

الإنسان وصياغة مفاهيمه ونظرته إلى المال والمنفعة، وتصحيح سلوكه في الكسب و الإنفاق ليتناسب مع النهج الإلهي.

ولذا فإن «المدخل إلى علم الاقتصاد الإسلامي هو مدخل تربوي سلوكي يضع قواعد السلوك الصحيح و يشارك في التربية عليها»⁽¹⁾.

و من هنا تظهر ضرورة التربية الاقتصادية للمسلم، فهي جزء من التربية الإسلامية الشاملة لتحقيق الحياة الكريمة التي تعينه على عمارة الأرض وعبادة الله عزّ و جلّ.7.

ص: 342

1- محمد قطب، حول التأصيل للعلوم الاجتماعية، دار الشروق، بيروت 1418، ص 147.

إن القضايا الاقتصادية تعتبر عصب الحياة في المجتمع الإنساني، و التربية في هذا الصدد ينبغي أن تصبح أحد العناصر الأساسية في التوعية و في نشر الثقافة بين الجمهور.

و على هذا فإن التربية الاقتصادية تهدف إلى «تشكيل السلوك الاقتصادي للمسلم المنبثق من تكوينه الشخصي إيمانيًا و خلقيًا و ثقافيًا، من خلال تزويده بالثقافة الفكرية و بالخبرات العملية و الاقتصادية، بما يتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية»⁽¹⁾.

فهذه التربية واجبة في كل مراحل الحياة، منذ الطفولة حتى الشيخوخة، وفق مقررات معينة تناسب كل مرحلة، إذ إنه لا يمكن الفصل بينها و بين التربية الإسلامية.

و قد اهتم الإمام الصادق كعالم تربوي بهذا الجانب اهتماما كبيرا، فكانت له كلمات مضيئة ذات طابع اقتصادي يضفي على منهجه التربوي مزيدا من المصداقية و الفعالية، و ممّا قاله في ذلك: «ثلاثة أشياء يحتاج الناس طرًا إليها: الأمن، و العدل، و الخصب»⁽²⁾.

فالمتمأمل في كلامه يجد أن الإمام يعتبر تأمين الحاجات و المتطلبات المادية و المعيشية هي من المستلزمات الأولية لحياة كل مجتمع و استمرار بقائه.

فهو يرى أن الخصب و اتساع الرزق يقترن بتحقيق الأمن و العدل من ناحية، بكثرة الموارد و توفرها و بالعمل الذي يستثمر تلك الموارد استثمارا طيبا من ناحية أخرى.

و هذا التعليم مقتضاه أن الناس إذا لم ينالوا ما يحتاجون إليه، فإن أيّ إصلاح أو وعظ أو تثقيف لن يؤتي أكله في حملهم على تعديل سلوكهم. فإقامة العدل الاجتماعي و الاقتصادي من أهم الأمور المؤثرة في الحركات البناءة. و هذا واضح لدى كل من له إلمام بواقع حياة الناس و طبيعة المجتمع.

ص: 343

1- حسين شحاتة، أصول منهج التربية الاقتصادية في الإسلام، مجلة الاقتصاد الإسلامي، دبي، 1426 عدد 295، ص 31.

2- الحراني، تحف العقول، ص 320.

إضافة إلى ذلك، فإن الإمام يرى العلاقة الجدلية واضحة بين الأزمات الاقتصادية والأخلاق وسلوك الأفراد، فيؤكد ما يراه قائلاً: «غلاء السعر يسيء الخلق ويذهب الأمانة ويضجر المرء المسلم»⁽¹⁾.

فلا يستطيع عاقل أن ينكر تأثير القضايا الأخلاقية إلى حد كبير بالعوامل الاقتصادية، ولا يمكن تجاهل مثل هذه العلاقة على ضوء هذه الحقيقة التجريبية الحسية و«من الصعوبة بمكان المحافظة على القيم الأخلاقية كالشهامه والصراحة والصدق والأمانة واستقلال الشخصية بالنسبة للفرد الجائع».

فليس بالضرورة أن يلجأ الجائع إلى الكذب والغش والخداع، غير أنه يكون أكثر استعداداً من غيره للوقوع في حبال هذه الأمراض الاجتماعية، والتعرض للانحرافات الخلقية وفقدان الإيمان»⁽²⁾.

من هنا يعتبر الصادق أن الفقر الاقتصادي قد يكون باعثاً على ارتكاب الذنب، كما أن الغنى المادي قد يصبح عاملاً مساعداً على التقوى والصلاح، فيقول: «غنى يحجزك عن الظلم خير من فقر يحملك على الإثم»⁽³⁾.

و على سعيد آخر، يرى الإمام الصادق علاقة وثيقة بين قيام المجتمع الإسلامي ودوامه، وبين النظام الاقتصادي السائد فيه، فيتمثل ذلك قائلاً:

«إن من بقاء المسلمين وبقاء الإسلام، أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف. وإن من فناء الإسلام وفناء المسلمين، أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق ولا يصنع فيها المعروف»⁽⁴⁾.

وهو يؤكد بأن ثروات الأمة إن كانت بيد الذين يعرفون الحق في الأموال ولا يسيئون استخدامها، وينفقونها في وجوه البر بما يعود بالخير على كل الناس وعلى جوانب حياتهم المختلفة، سواء المادية والروحية والفردية والاجتماعية، ووفقاً لمنهج الله تعالى، فهذا يؤدي إلى حياة المجتمع وعزته وبقائه.

أما إن كان المال بيد أناس لا يعرفون حق الله تعالى في إدارة المال ويعتبرونه غاية، ويسعون وراء الحرية في الاستغلال والملكية، و يسوّغون لأنفسهم التكاثر والاحتياز، فإن هذا سوف يؤدي إلى فساد المجتمع وسقوطه و هلاكه. 1.

ص: 344

-
- 1- الكليني، فروع الكافي، باب الأسعار، ج 5، ح 6.
 - 2- ناصر مكارم الشيرازي، الخطوط الأساسية للاقتصاد الإسلامي، دار الصفوة، بيروت، 1994، ص 29، (بتصرف).
 - 3- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 166، ح 3614.
 - 4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 11، ص 521.

وفي إطار هذا التعليم ثمة إرشادات موجّهة لا ينبغي أن نمّر عليها غير مدرّكين لأهميتها، ومنها:

1 - ليس مقدار المال من حيث القلة والكثرة هو المعيار الباتّ للمصالح والمفاسد الاجتماعية، وتركيز العدالة وإقامة القسط، بل المعيار هو كيفية جريان المال في الأيدي وتداوله بين الأفراد، فبقاء المجتمع وبقاؤه يرتبط بأصحاب الثروات، وكيفية إدارتهم لها، ومن هنا يأتي التركيز على العامل الإنساني في القضايا الاقتصادية.

2 - عبارة «يعرف فيها الحق»، توحى بضرورة المعرفة والاختصاص في المسائل الاقتصادية، والخبرة بالأمر المتعلقة بالأموال، والاطلاع على نظرة الإسلام إلى المال وحقوقه، والعلم بأشكال تداوله بين الناس.

3 - عبارة «يصنع المعروف»، يتوقف فيها على وضع الأموال في مواضعها الإلهية ورعاية العدالة والحق فيها، أي السلوك الاقتصادي الرشيد الذي يرضى عنه الله، وإنما قدّم في الحديث قوله: «يعرف فيها الحق» على قوله: «يصنع المعروف» للتدليل على أن الأساس الأهم في الأمور الاقتصادية - كسائر الأمور - هو تقديم الخبرة والمعرفة على السلوك والتطبيق، إذ إن التجاوز عن صنيع المعروف في كثير من الأحيان يعود إلى عدم العلم والمعرفة الواعية.

و من ثم فإن الإمام في منهجه التربوي يرى في التغيير الفكري والنفسي والسلوكي في الأفراد، تمهيدا لبناء المجتمع الإنساني الذي يقوم على القسط والعدل الاقتصادي.

فهو يرسم خطة تربيته الاقتصادية على أساس خطوتين:

* الخطوة الأولى: تتجه إلى مجال النظر والتصور.

* الخطوة الثانية: تتجه إلى مجال التطبيق والسلوك.

وفيما يلي عرض لأهم تعاليم الإمام الصادق الاقتصادية، نستخلصها في البحوث التالية إن شاء الله.

إشارة

ينطلق الإمام الصادق في منهجه التربوي إلى تكوين معرفة صحيحة لدى الفرد؛ لأن هذه المعرفة هي مادة الحركة الإنسانية وقودها، ولا شك بأن سلوك الإنسان ونشاطه نابع من النظام الفكري القابع في عقله وباطنه، وبالتالي فإن المحتوى الفكري لدى الإنسان إذا لم يبن على أسس سليمة فإنه سينعكس سلبا على تصرفاته، ولن يكون صالحا أو مؤهلا لأن يصبح إنسانا سويا ناجحا في مسيرة حياته.

ومن هنا فإن الإمام يعتمد في منهجه التربوي الاقتصادي على تصحيح نظرة أفراد المجتمع إلى المال و كل ما يتعلق به، على أساس معطيات الكتاب والسنة.

ويبدو أن معظم النشاطات الاقتصادية والمعيشية للفرد تنشأ من نظرتهم إلى الثروة.

وتقويم هذا التصور سوف يؤدي بلا شك إلى محاولة إنشاء السلوك السليم، أو بمعنى آخر، فإن تنظيم الحياة الاقتصادية للفرد يرتبط ارتباطا وثيقا بنظرتهم الشاملة والمتكاملة إلى المال.

فالمال هو عصب الحياة الاقتصادية، إذ إن الإنسان يستطيع من خلاله تحقيق الخير والرفاهية له ولأسرته ولأفراد المجتمع الذي يعيش فيه. «و هو بالنسبة للفرد وسيلة لإشباع الحاجيات و بالنسبة للمجتمع وسيلة التنمية و مصدر القوة»⁽¹⁾.

انطلاقا من هذا المفهوم، فقد عنيت مدرسة الإمام الصادق بهذا الأمر في المجتمع، وأولته اهتماما بالغا، وذلك من خلال التركيز على نواح عدة تبين كل منها بعدا خاصا لهذا التصور، منها:

أ - تعميق مفهوم المال و الملكية:

حقيقة المال:

إنّ المال في الأصل: «ما يملك من الذهب و الفضة ثم أطلق على كل ما يقتنى و يملك من الأعيان»⁽²⁾ و سمي المال مالا لميل النفس إليه.

ص: 346

1- أمين زغلول، المال و استثماره في ميزان الشريعة، مطبعة الأمانة، القاهرة، 1986، ص 9.

2- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث و الأثر، دار المعرفة، بيروت، ج 2، ص 689.

أما المفهوم الاقتصادي للمال فإنه يعدّ كل ما ينتفع به على أي وجه من وجوه النفع مالا، كما أنه يعد «كل ما يقوم بثمن مالا، أيًا كان نوعه، و أيًا كانت قيمته»⁽¹⁾.

وقد بين الإسلام أنّ الله جل ثناؤه هو المالك الحقيقي لكل ما في السموات والأرض، كما يتضح من قوله عزّ وجلّ:

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⁽²⁾.

لذا، فإن كل ما يسمى المال هو مال الله و ما يؤتاه الإنسان في حياته إنّما هو جزء من مال الله، كما قال تعالى: وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ⁽³⁾.

و من ثم فإن ملكية الإنسان للمال ليست ملكية أصلية و حقيقية، بل هو مستخلف من الله في تملك المال كما ورد في الكتاب العزيز: وَ أَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلْنَا فِيهِ ⁽⁴⁾، فقد اقترنت الدعوة القرآنية إلى الإنفاق بالتذكير بمعنى الاستخلاف على المال لئلا يظنّ المالك أن حقه في المال حق ثابت دائم مطلق.

وعلى هذا الأساس فقد ركّز الإمام الصادق على هذا المبدأ الأساس في منهجه التربوي لكي تستقيم نظرة تلاميذه إلى المال، فهو يعبّر عنها تارة بالوديعة في قوله:

«إن المال مال الله جعله ودائع عند خلقه»⁽⁵⁾

وتارة بالعارية كقوله: «إجعل مالك كعارية تردّها»⁽⁶⁾.

ويظهر لنا مدى تركيز الإمام على ترسيخ هذا التصور في نفوس الناس، عند ما اعتبره جزءا من حقيقة العبودية، في قوله:

«حقيقة العبودية ثلاثة أشياء، الأول أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكا لأن العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله، يضعونه حيث أمرهم الله به...»⁽⁷⁾

من خلال هذا المفهوم الرائع يرّبي الإمام الفرد المسلم على أصل هام، و هو أن الإنسان ليس مستقلا في امتلاكه و لا حرّا بتصرفه في المال بغير إذن صاحبه الحقيقي، أو بخلاف مراده و مقصوده و مشيئته و مطلوبه، لأنه عبد لله و مستخلف في مال الله.9.

ص: 347

1- عبد الكريم الخطيب، السياسة المالية في الإسلام، دار الفكر العربي، بيروت، د. ت، ص 22.

2- سورة آل عمران، الآية 189.

3- سورة النور، جزء من الآية 33.

4- سورة الحديد، جزء من الآية 7.

5- محمد بن مسعود السمرقندي، التفسير العياشي، مرجع سابق، ج 2، ص 13.

6- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 4، ص 410، ح 5892.

7- زين الدين بن علي العاملي، منية المرید في آداب المفید و المستفید، مرجع سابق، ص 149.

و«هذا التصور الإسلامي الخاص لجوهر الملكية متى تركز وسيطر على ذهنية المالك المسلم، أصبح قوة موجهة في مجال السلوك وقيدا صارما يفرض على المالك التزام التعليمات والحدود المرسومة من قبل الله عزّ وجلّ، كما يلتزم الوكيل والخليفة دائما بإرادة الموكل والمستخلف»(1).

ويؤكد الإمام هذه النظرة الاستخلافية في طريقة امتلاك الأموال و كيفية إنفاقها بقوله:

«لو أنّ الناس أخذوا ما أمرهم الله عزّ وجلّ به فأنفقوه في ما نهاهم الله عنه ما قبله منهم، ولو أخذوا ما نهاهم الله عنه فأنفقوه في ما أمرهم الله به ما قبله منهم حتى يأخذوه من حقّ وينفقوه في حقّ»(2).

ويقصد الصادق من هذا التوجيه أن تصرف الإنسان الاقتصادي كسبا وإنتاجا وإنفاقا - محكوم بإرادة المالك الحقيقي، وهو الله، أي أنه مقيد بأوامره ونواهيه، وأن حسابه على هذا التصرف واقع لا محالة، كما أن الإيمان بهذا الأمر «يقلل من تكالب الإنسان المسلم على المال ويهذب نفسه ويجعله يراقب الله أثناء كسب المال و حين إنفاقه له، فيصبح المال بذلك نعمة و وسيلة لإسعاد الإنسان»(3). وليس نعمة و وسيلة إلى شقائه في دنياه وأخراه وهذا ما يهدف إليه الدين الحقّ.

حقيقة الملكية:

إن ملكية الله لكل شيء، لا تعني حرمان الإنسان من جهده أو منعه من التصرف في ما يحصل عليه نتيجة جهده وعمله، بل إن الملكية الفردية حق أساس ثابت و واضح في الإسلام، كما أن الاستخلاف يحيز التملك و الانتفاع، منعا من الاعتداء و الظلم و بغي الناس بعضهم على بعض.

ورغم أن المال لله تعالى و الناس خلفاؤه فيه، إلا أن الشارع الكريم يسمي الإنسان مالكا و يعدّه صاحبا له باعتبار أنه المتسبب في تحصيل المال و جمعه، و لم يغفل الحق - تبارك و تعالى - مجهود الفرد و حق الانتفاع به في هذا الصدد، فنسب القرآن الأموال إلى الناس فقال جلّ من قائل: لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (4)، و أقر بملكية الإنسان استجابة لغريزة حب المال في فطرته: وَ تَحِبُّونَ أَمْوَالَ حُبًّا جَمًّا (5).

ص: 348

1- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، مرجع سابق، ص 564.

2- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 57.

3- عبد النعيم حسنين، الإنسان و المال، دار الوفاء، المنصورة، 1986، ص 161.

4- سورة التوبة، جزء من الآية 34.

5- سورة الفجر، الآية 20.

ثم إنّ حماية الملكية تنمي في المسلم شعورا داخليًا بالأمان و هو يرى الجميع يتجافى عن الظلم و الغضب و العدوان»(1).

و لقد أعطى الإسلام الفرد حقوقًا كاملة من ملكيته تقابل بها المسؤولية عن كل تصرف فيه؛ «لأن المال في نظر الإسلام له وظيفة اجتماعية و التصرف به، كسبا و إنفاقًا، مرهون بتحقيق تلك الوظيفة للفرد و الأمة على حد سواء»(2).

فلا يجوز للمالك أن يحول دون أداء الأموال لدورها الاجتماعي عن طريق الاكتناز أو الإشراف أو منع المجتمع من حقه فيها، و على هذا فكلما ازدادت دائرة الامتلاك ازدادت حدود المسؤولية، و قد سعى الإمام الصادق إلى لفت أنظار تلاميذه إلى هذه الصلة الوثيقة حتى يبين لهم حقيقة الملكية و مفهومها في الإسلام، فقال: «ما كثر مال الرجل قطّ إلاّ عظمت الحجة لله تعالى عليه، فإن قدرتم أن تدفعوها عن أنفسكم فافعلوا»، و عند ما سئل بما ذا؟ قال: «قضاء حوائج إخوانكم من أموالكم»(3).

و هكذا يركز أبو عبد الله في نفوس أبناء المجتمع أن المالك يجب أن يصرف جزءا من ماله على المجتمع و مرافقه؛ لأن سعة المال تفضي بالمالك إلى مزيد من التبعات و المسؤوليات، و قد لا يتم أداء هذه التكاليف إلاّ باتباع أوامر الله فيها، و من أهمها: قضاء حوائج الناس.

دور المال في حياة الإنسان:

إشارة

ورد ذكر المال في القرآن الكريم ستا و ثمانين مرة(4)، مفردا و جمعا، و معرّفا و منكرًا، و مضافا و غير مضاف... و لا ريب أن تكرار لفظ المال على هذا النحو في القرآن دليل على اهتمام القرآن به، و تقديرا لآثاره في الحياة.

و من البديهي أن الإنسان لن يتمكن من تحقيق العيش الهادئ المطمئن في الحياة و التوصل إلى الأهداف المنشودة من خلق العالم و أداء رسالته و تعميره الكون و ارتقائه في سلم الرقي و التحضّر إلاّ بالمال(5).

ص: 349

1- مصطفى رجب، حماية الملكية في النظام الإسلامي و أبعادها التربوية، مجلة الاقتصاد الإسلامي، دبي، عدد 290، 1426، ص 49.

2- رفعت السيد العوضي، في الاقتصاد الإسلامي، سلسلة الكتاب الأمة، مؤسسة الخليج، قطر، 1410، عدد 24، ص 11.

3- الطوسي، الأمالي، ص 309.

4- فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس للقرآن الكريم، مادة مال و مشتقاتها.

5- وهبة الزحيلي، مفهوم المال و الاقتصاد في الإسلام، مجلة نهج الإسلام، دمشق، 1992 عدد 49، ص 24، (بتصرف).

و عند ما يدرك الفرد وظيفة المال و الغرض المنشود منه في الحياة، ينظم نشاطاته الاقتصادية وفقا له.

ولذا فقد أكد الإمام الصادق في تربيته الاقتصادية بوجه عام، و في مجال تصحيح النظرة المعرفية بوجه خاص على دور المال في حياة الإنسان. و قد تناولت التعابير التي أوردها الإمام الجائين السلبي و الإيجابي للمال، ليتمكن الإنسان من الاطلاع على مضارره و فوائده، فيمكنه أن يحترز من شره و يستدرّ من خيره... فقد عرّف المال بما يلي:

أولا المال قوام الدين و العون على الآخرة

لقد عبر الإمام الصادق عن المال بقوام الدين، و نهى عن تضييعه و إهماله، كما أوصى واحدا من تلاميذه: «احتفظ بمالك فإنه قوام دينك»⁽¹⁾ ثم يستدل بالآية الشريفة:

وَ لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ⁽²⁾.

و لأنه يؤمن بصلة وثيقة بين الدنيا و الآخرة، فإنه يرى أن إنفاق المال في الاستعانة على العبادة و في سبيل النفس و العيال يعدّ طلبا للآخرة.

«قال له رجل: إنا لنطلب الدنيا و نحب أن نؤتاها. قال الإمام: ما ذا تحب أن تصنع بها؟ فقال الرجل: أوسع بها على نفسي و عيالي، و أصل بها قرباتي، و أتصدق و أحج و أعتمر. فقال: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»⁽³⁾.

فبهذا الفهم السديد يوجه الإمام الأمة إلى تعميق الفهم لوظيفة المال كونه عونا لطلب الآخرة و وسيلة يستقوي بها على غرائزه و نزواته، كما يتقوى بها على طاعة ربه و عبادته، و يفسح المجال أمام كل مواهبه و طاقاته للنمو و التكامل.

ثانيا المال قوام الدنيا و تحقيق السعادة فيه

يرى الإمام أن المال قوام الدنيا، و به يحقق الخير و العدل، و لذا فسّر قوله تعالى:

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ⁽⁴⁾، و يظفر برضوان الله و الجنة في

ص: 350

1- الطوسي، الأمالي، ج 2، ص 292.

2- سورة النساء، جزء من الآية 5.

3- الطوسي، الأمالي، ص 662.

4- سورة البقرة: جزء من الآية 201.

الآخرة، والسعة في الرزق والمعاش وحسن الخلق في الدنيا(1).

فنظرة الإمام إلى المال نظرة واقعية، لا ينكر فيها أثره في توفير كفايته المعاشية و المكاسب المادية و كل ما يحتاجه الإنسان في حياته، فتراه يقول في شأن الدنانير و الدراهم و ما على الناس فيها: «هي خواتيم الله من أرضه جعلها مصحة لخلقه و بها تستقيم شؤونهم و مطالبهم»(2)

فهو لا يجعل الثروة هدف الحياة و غايتها، بل إنه ينظر إليها على أنها ذريعة للحياة و مصحة للناس، كما يشير إلى أن فقدان المال يؤثر تأثيرا سلبيا على العيش و العقل و القلب، و ذلك من خلال قوله: «خمس خصال من فقد واحدة منهن لم يزل ناقص العيش، زائل العقل، مشغول القلب...» و ذكر منها «الغنى و السعة في الرزق»(3).

ثالثا في المال اطمئنان النفس و راحتها

يرى الإمام «أن النفس قد تلتاث(4) على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما يعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت»(5).

و قد عبّر الإمام عن المال بما يعتمد عليه، لأن الناس يعتمدون عليه في قضاء حوائجهم في الحضر و السفر، فلذا يؤكد على ضرورة صيانه، قال له رجل:

«يكون معي الدراهم فيها تماثيل و أنا محرم فأجعلها في همياني(6) و أشده في وسطي؟ فقال: لا بأس، أو ليس هي نفقتك و عليها اعتمادك بعد الله عزّ و جلّ(7)؟».

و هذا يظهر أن الاعتماد على الله في كل الأمور أمر مسلّم به، إلا أن هناك وسائل تسهم في تحقيق هذه الحاجات و الحصول عليها، و المال هو إحدى هذه الوسائل التي سخرها الله لنا و دعانا للحفاظ عليها و عدم إهمالها حتى في وقت الإحرام في الحج،

ص: 351

1- الصدوق، معاني الأخبار، ص 175.

2- الطوسي، الأمالي، ج 2، ص 520.

3- الصدوق، الخصال، ص 284.

4- أي: تبطئ، و قال ابن الأثير: هو من اللوثة: الاسترخاء و البطء، (النهاية في غريب الحديث، مرجع سابق، 618/2).

5- هذه مقولة لسلمان الفارسي التي احتجّ بها الإمام الصادق على الصوفية، الحراني، تحف العقول، ص 351.

6- هميان أي كيس النفقة، جمعه هميان

7- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2 ص 280، ح 2449.

فبين الحكم الشرعي فيها و جواز حملها و الاهتمام بها نظرا لأهميتها.

رابعاً المنافع الاجتماعية للمال

المال في رأي الإمام سبب للشرف و العلو في المجتمع، يستغني به صاحبه عن الآخرين، فقال: «عليك بإصلاح المال، فإن فيه منبهة»(1) للكريم و استغناء عن اللئيم»(2).

و يؤكد الإمام على طلب المال و السعي إلى زيادته لما فيه من الخير للفرد و المجتمع، فيقول: «لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال، يكفّ به وجهه و يقضي به دينه و يصل به رحمه»(3).

فكفّ الوجه و قضاء الدين يعني سدّ الحاجة من خلال الاعتماد على الجهد الشخصي و عدم اللجوء إلى مساعدة الآخرين، و صلة الرحم هي إعطاء ذوي الحاجة من رحم الإنسان في المجتمع مما توفر لديه من الثروة، و تحقيق التكافل الاجتماعي الذي يسعى الإسلام إلى تحقيقه.

و الأمر الذي يجب إمعان النظر فيه هو أن الصادق لم يكتف في مسيرته التربوية بإبراز الدور الإيجابي للمال فحسب، بل إنه حين كشف عن الوجه الجميل للمال، و أظهر لتلاميذه جوانب الحسن منه، كشف أيضاً عن الوجه البغيض له، ذلك الوجه الذي يزين للناس الشرّ و يوقعهم في الفتنة و الفساد، كقوله: «إن مع كثرة المال تكثر الذنوب لواجب الحقوق»(4).

لذا فقد حدّر الإمام تلاميذه من فتنة المال و الإخلاق إلى حبه حبا طاعيا و بين لهم آثاره السلبية كي لا يصبحوا عبيدا بل أربابا له؛ لأن الإنسان إذا لم يكن متيقظا باستمرار من هذه الفتنة، فسيؤول به الأمر حتما إلى الهلاك.

هذا ما أراد الإمام غرسه في المسلم - منطلقا من تعاليم الدين الإسلامي، لتتكون لديه نظرة واسعة متكاملة تشمل الوجوه الإيجابية و السلبية للمال معا، و ها هو يعلم تلاميذه ترديد دعاء جدّه الإمام علي بن الحسين زين العابدين الحافل بإبراز هذه الوجوه:

ص: 352

1- أي: مشعر بقدره و معل له، لسان العرب، ج 13 ص 564.

2- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب إصلاح المال، ح 6.

3- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 7، ص 4.

4- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب ذم الدنيا و الزهد فيها، ح 21.

«اللهم إنني أسألك حسن المعيشة، معيشة أتقوى بها على جميع حوائجي وأتوصل بها في الحياة إلى آخرتي، من غير أن تترفني فيها فأطغي، أو تقتر بها علي فأشقى، أوسع علي من حلال رزقك... ثم لا تشغلني عن شكر نعمتك بإكثار منها تلهيني بهجته و تفتني زهرات زهوته، و لا بإقلال علي منها يقصر لعملي كده و يملأ صدري بهمه...»(1).

ب - تصحيح المفاهيم الخاطئة في طلب المعاش:

الرزق بين التقدير و الطلب:

من أهم ما أولاه الصادق اهتمامه في المجال المعرفي هو ترسيخ النظرة الصحيحة في طلب الرزق و كسب المعيشة؛ لأنه يشكل نسبة كبيرة من النشاطات الاقتصادية للفرد.

ونظرا للأهمية المادية لهذا الأمر، توهم بعض المسلمين من بدء الرسالة بأن السعي في طلب الرزق يتعارض مع الاهتمام بالعبادات و الحياة المعنوية للمسلم، و تبعا لهذه النظرة الخاطئة، أهملوا السعي في طلب الرزق و أقبلوا على العبادة و العزلة.

و كذلك جرى هذا الأمر في عصر الإمام الصادق أيضا، فقام الإمام بإزالة هذا التصور الخاطئ و بين أنه لا يجوز ترك العمل بحجة الانقطاع إلى العبادة مثل الصلاة و الصوم، فلما أخبروه عن رجل قال: «لأقعدن و لأصلين، و لأصومن و لأعبدن الله، فأما رزقي فيأتيني». قال الإمام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم»(2).

فلا يجوز الإعراض عن العمل بدعوى التوكل على الله، و انتظار الفرج و الرزق منه سبحانه، بل لا بد من السعي إليه، و إلا اعتبر هذا تواكلا، لا توكلا، فشتان بينهما، و التوكل لا ينافي العمل و الأخذ بالأسباب؛ لأن «الإسلام لا يريد من المسلم العزوف عن الحياة الدنيا و طبياتها فهو يأمر بعمارة الأرض و استخراج خيراتها ليكون المسلمون أهل العزة و السيادة و القيادة»(3).

و في نصوص أخرى نجد الإمام يعمل على تغيير وجهة نظر الناس الخاطئة في هذا الصدد، ليدركوا أن العمل عبادة يثاب عليها المرء و عند ما سأل عن رجل، فقيل له: أصابته الحاجة. قال: «فما يصنع اليوم؟» قيل: في البيت يعبد ربّه. قال: «فمن أين

ص: 353

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الدعاء للرزق، ح 13.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 4، ص 116.

3- محمد الدسوقي، دعائم العقيدة في الإسلام، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1990، ص 182.

قوته؟». قيل: من عند بعض إخوانه. فقال أبو عبد الله: «و الله للذي يقوته أشد عبادة منه»(1).

فأصبح في ضوء هذا الكلام، العامل الذي يسعى في سبيل رزقه أفضل عند الله من المتعبد الذي لا يعمل إنَّما يعيش عالة على المجتمع الإنساني.

انطلاقاً من هذا المفهوم، فقد حث الإمام تلاميذه على طلب الرزق عن طريق السعي فيه حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، في مثل قوله: «لا تدعن طلب الرزق وإن استطعت أن لا تكون كلاً فافعل»(2).

وندرک مدى أهمية هذا الأمر عند الإمام إذ ينهى تلاميذه عن تركه، حتى في الظروف الصعبة بقوله لأحد تلاميذه: «يا هشام إن رأيت الصَّفين قد التقيا، فلا تدع طلب الرزق في ذلك اليوم»(3).

ويوصي الناس بالضرب في الأرض لطلب الرزق فيقول: «إن الله تبارك و تعالی ليحبّ الاغتراب في طلب الرزق»(4).

وفي التطبيق العملي لهذا الشعار النظري نرى بأنه كان يسعى بنفسه لتوفير حاجته من أسباب المعاش؛ وعند ما خرج في يوم صائف شديد الحرّ وقيل له: يا ابن رسول الله؟ حالك عند الله عزّ وجلّ وقرابتك من رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و أنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!! فقال لمن أنكر عليه ذلك: خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك»(5).

و مما ينبغي أن ننظر فيه يامعان، أنّ الصادق رغم ترغيبه الشديد بالسعي في طلب الرزق، يتحدث عن تكفّل الله بالرزق للناس كقوله: «لو كان العبد في حجر لأتاه الله برزقه فأجملوا في الطلب»(6) حيث يشير إلى الرزق المقسوم عند الله قائلًا:

«إن كان الله تبارك و تعالی قد تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا؟... و إن كان الرزق مقسوما فالحرص لماذا؟. و إن كان الحساب حقا فالجمع لماذا؟...»(7)

غير أنّ الملاحظ لهذا المفهوم في ضوء نصوص الإمام، - للوهلة الأولى - يجدد6.

ص: 354

1- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب الحث على طلب الرزق، ح 4.

2- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 79.

3- المصدر نفسه، ص 324.

4- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 156، ح 3571.

5- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 47، ص 55.

6- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب الاجمال في الطلب، ح 4.

7- الصدوق، الأمالي، ص 56.

تناقضا بين معطياته الفكرية المتعلقة بطلب المال وبين الرزق المقدّر من الله تبارك وتعالى، ولكنّ الإمام نفسه بيّن هذا التفاوت و يجمع بين الأمرين فيقول ما نصه ليزيل هذا الإشكال:

«الرزق مقسوم، على ضربين: أحدهما واصل إلى صاحبه وإن لم يطلبه، والآخر معلّق بطلبه، فالذي قسم للعبد على كل حال آتية وإن لم يسع له، والذي قسم له بالسعي فينبغي أن يلتزمه من وجوهه، وهو ما أحلّه الله له دون غيره، فإن طلبه من جهة الحرام فوجده حسب عليه برزقه و حوسب به»(1).

إذا فالنوع الأول من أنواع الرزق المقسوم هو ما قدّر من جانب الله تبارك وتعالى، وهو ما يأتي الفرد دون سعيه و طلبه، ورغم وجود الموانع يصل إلى صاحبه.

و في ضوء هذه النظرة، يركّز الإمام في ذهنية تلاميذه بأنهم ليسوا مستقلين في كسب معيشتهم بل الرزق من الله و يتعلق بإرادته، حيث يشير إلى أن الرزق قد يجري بغير حيلة، كقوله: «إن الله تعالى وسّع في أرزاق الحمقاء ليعتبر العقلاء، و يعلموا أن الدنيا ليس ينال ما فيها بعمل و لا حيلة(2)».

فقد تجد امراء كئيسا فظنا من أكثر الناس فهما يفني عمره في طلب قليل من الرزق و لا يتيسّر له ذلك، كما قد نرى أقلّ الخلق عقلا تفتح عليه أبواب الرزق، «و لو كان السبب جهد الإنسان و عقله لوجب أن يكون الأعتل أفضل في هذه الأحوال، فلما رأينا أن الأعتل أقل نصيبا و أن الأجهل الأخص أوفر نصيبا، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى:

أَهُمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (3).

أما النوع الثاني من أنواع الرزق فمرهون بالسعي و الطلب، و هو مضمون لطلبه و الذي يجب أن يسعى للحصول عليه عبر مختلف الوسائل المشروعة، و هذا ما بدا واضحا حينما قال رجل لأبي عبد الله: «ادع الله أن يرزقني في دعة فقال: لا أدعوك، أطلب كما أمرك الله عزّ و جلّ»(4).

لقد طلب هذا الرجل من الإمام الدعاء بالرزق مع العافية عن طلبه، و الراحة في 3.

ص: 355

1- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12 ص 29.

2- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 323.

3- سورة الزخرف، جزء من الآية 32، فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420، ج 20، ص 243.

4- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب الحث على الطلب، ح 3.

حصوله، فأجابه بأنه لا يدعو له بذلك، بل عليه أن يأخذ بالأسباب، فيكدّ ويسعى لكسب لقمة العيش، ولا يكفي الاعتماد على الدعاء.

من هنا نفهم بأن الإمام يرغّب تلاميذه في طلب الرزق، ويشجعهم على السعي لتأمين معيشتهم، توجه بكلامه من خلال الأسباب الطبيعية لكسب الرزق في حين أنه لما نهى عن الحرص و الطمع فيه توجه بكلامه إلى الوجه المقدر من الرزق، أي ما قد يحصل عليه الإنسان دون سعي منه إليه.

وهكذا، ومن خلال هذه النظرة الشاملة، يرّبي الإمام تلاميذه على اعتماد التوازن بأن لا يفرطوا في الطلب بالحرص و الطمع، مقابل عدم ترك السعي و الطلب بحجة التقدير الإلهي في الرزق.

من هنا يصبح لزاماً على المرء أن يكدّ و يجتهد لكسب معيسته، و ألا يترك أي سعي فيها، على رغم اطمئنانه بتكفل الله عزّ و جلّ و التوكل عليه، و يتبلور هذا في تعاليم الصادق حين قال: «لا تدع طلب الرزق من حلّه... و اعقل راحلتك و توكل»⁽¹⁾.

كما أن الضوابط التي عني بها الصادق ذات العلاقة بسعي الإنسان لجلب الرزق و تحصيل المعاش قد تصل بالفرد إلى حد الاعتدال و الاتزان، فيقول في ذلك:

«و ليكن طلبك المعيشة فوق كسب المضيّع، دون طلب الحريص الراضي بالدنيا المطمئن إليها، و لكن انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفّف ترفع نفسك عن منزلة الواهي الضعيف تكتسب ما لا بد للمؤمن منه»⁽²⁾.

ضرورة الوعي بمؤثرات الرزق:

إشارة

كما ذكرنا سابقاً، فقد قام الإمام الصادق بتوضيح نظرة الإسلام الشاملة في طلب الرزق، و بذل جهداً كبيراً في تربية الأمة و تنشئتها على الاعتدال و التوازن في هذا الصدد. و لم يقتصر الإمام في نشاطه على هذا الأمر فحسب، بل إنه اهتم بتعليمهم و تذكيرهم بعض السنن الكونية المؤثرة في زيادة الرزق و تقليصه، منطلقاً دوماً من كتاب الله و السنّة النبوية الشريفة.

و لو تأملنا في النصوص الواردة عن أبي عبد الله نجد بأنه يؤمن بعلاقة وثيقة بين سلوك الإنسان و مستوى معيسته، فأطلق في خطاباته الكثير مما يشير إلى هذا التأثير للمبادئ الأخلاقية و العبادية و الاجتماعية على سعة الرزق أو الحرمان منه. و فيما يلي نشير إلى نماذج مما ورد عنه في هذا المجال:

ص: 356

1- المفيد، الأمالي، ص 172.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 100، ص 33.

- في المبادئ الأخلاقية:

ترسم تعاليم الإمام شبكة مترابطة من العلاقة بين السلوك الأخلاقي و الرزق المقدر للإنسان، و منها تأثير الشكر و القناعة و حسن النية على بسط الرزق كقوله:

«من حسنت نيته زيد في رزقه»(1)، وقوله: «الشكر زيادة في النعم و أمان من الفقر»(2).

كما أشار كذلك إلى تأثير القناعة في سعة الرزق حينما قال مخاطباً أحد تلاميذه:

«يا حمران انظر من هو دونك في المقدره، و لا تنظر إلى من هو فوقك في المقدره، فإن ذلك أفتح لك بما قسم لك، و أخرى أن تستوجب الزيادة من ربك»(3).

و هكذا أراد الإمام أن يرسخ في ذهنية المسلم بأن الالتزام بالأخلاق الفاضلة له أثر مباشر في تحقيق البركة في الأرزاق و تحقيق الأمن النفسي.

و على صعيد آخر فقد اعتبر الإمام ارتكاب الذنوب و استقلال الرزق من موانع الرزق، فقال: «إن المؤمن لينوي الذنب فيحرم رزقه»(4). كما قال: «من استقلّ قليل الرزق حرم الكثير»(5).

فالذنوب سبب لانقطاع الرزق و حرمان الإنسان من الموارد الطبيعية، فتشتد الفاقة و يعمّ الفقر، فتشلّ الحياة الاقتصادية، كما أن استقلال الرزق قد يؤدي إلى حرمان المسلم من الرزق الذي كان قد هيئ له.

كذلك يبين الإمام العلاقة بين ذل السؤال و الفقر العاجل فيقول: «إياكم و سؤال الناس فإنه ذل في الدنيا و فقر تعجلونه»(6).

- في المبادئ الاجتماعية:

لم يغفل الإمام عن تأثير المبادئ الاجتماعية المتمثلة في أداء حقوق الآخرين في المجتمع، من أداء الأمانة، و حسن الجوار، و إقراء الضيف و الصدقة... إلى ما هنالك من قيم و مثل جعلها الله تبارك و تعالى مفتاح الرزق.

و ممّا ورد على لسانه في ذلك، عند ما قال له تلميذه: إني لا أتعدى أو أتعشى إلا

ص: 357

1- الطوسي، الأمالي، ص 245.

2- الحرائي، تحف العقول، ص 359.

3- الصدوق، علل الشرائع، ج 2، ص 559.

4- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 1، ص 58.

5- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 7، ص 227.

6- الكليني، أصول الكافي، ج 4، باب كراهية المسألة، ح 1.

و معي اثنان أو ثلاثة، أو أكثر. قال: «فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم. إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير»(1).

و من المؤكد أن الصادق لم ينس إلزام نفسه و أهل بيته تأدية الحقوق الاجتماعية و يرى في هذا الأمر تأثيرا بارزا على سعة الرزق كما قال لابنه: «أما علمت أن لكل شيء مفتاحا و مفتاح الرزق الصدقة»(2).

و هو نفسه يستفيد من هذا المفتاح في حال الضيق و يعبر عنها بالتجارة المربحة مع الله، كما قال: «إني لأملق أحيانا فأنا أتاجر مع الله بالصدقة فيربحني و أتسع»(3).

فهو ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر لأنه يرى العلاج أن يتعامل مع الله بعبائه للفقراء.

- في المبادئ العبادية:

إن الله تبارك و تعالى جعل العلاقة بين العبادات و سعة الرزق من سننه الكونية، و انطلاقا من هذا المفهوم فقد لفت الصادق أنظار تلاميذه إلى هذا الارتباط، كي لا يغفلوه لحظة في سعيهم و جهدهم لطلب المعيشة.

و مما قاله: «لا تتركوا ركعتين بعد العشاء الآخرة، فإنها مجلبة للرزق»(4).

و قد يعلم الإمام تلاميذه بعض الأذكار التي تؤثر في صيانة المال، كقوله:

«من أعجب بشيء من أمواله و أراد بقاءه، فليقل: ما شاء الله، لا حول و لا قوة إلا بالله»(5).

و قد أظهر الإمام تأثير الحج في سعة الرزق عند ما قال له أحد تلاميذه: إني و طنت نفسي على لزوم الحج كل عام بنفسي أو برجل من أهل بيتي بمالي، قال: «إن عزمت عليه و فعلت ذلك فأبشر بكثرة المال»(6).

نستخلص مما تقدم أن الإنسان حين يشكل إطاره الفكري على هذا الأساس، فإنه ينظر إلى مفاتيح الرزق بنظرة واسعة، شاملة، فلا يكتفي بأخذ الأسباب المادية في حياته الاقتصادية فقط، بل يأخذ بالأسباب المادية و المعنوية معا، و في كل نشاطاته، فيجتنب بذلك وقوعه في دائرة الحاجة و الحرمان.

ص: 358

1- الطوسي، الأمالي، ص 237.

2- الكاظم القزويني، موسوعة الإمام الصادق، ج 2، ص 215.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 206.

4- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 84، ص 107.

5- نور الدين المرعشي التستري، إحقاق الحق و إزهاق الباطل، مكتبة المرعشي، قم، 1406، ج 19، ص 532.

6- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 218، ح 2215.

التوازن بين الربح المادي و المعنوي:

تهدف كافة الاقتصاديات الوضعية - من رأسمالية و اشتراكية - إلى تحقيق النفع المادي وحده لأتباعها، «فغاية النشاط الاقتصادي الرأسمالي هو أن يحقق كل فرد أكبر قدر من الربح و الكسب المادي، و غاية النشاط الاقتصادي الاشتراكي هو أن يحقق كل مجتمع أكبر قدر من الرفاهية و الرخاء المادي، فالمادة هي الأساس و الغاية لذاتها من كافة المذاهب الاقتصادية الوضعية»(1).

أمّا النشاط الاقتصادي في الإسلام لا يهدف إلى تحقيق النفع المادي فحسب، بل لتحقيق المنافع المعنوية و الروحية التي تحقّق السعادة الدائمة للإنسان في الدنيا و الآخرة.

من هنا يختلف مفهوم الربح(2) في الاقتصاد الإسلامي مع الاقتصاد الوضعي «فقد اتسع مفهومه في الإسلام فيشمل المفهوم الروحي و المادي معاً، و لا ينفصل كل منهما عن الآخر»(3).

فإنّ الإمام الصادق يعترف بأهمية الربح بالنسبة للعمل الاقتصادي و يشجع تلاميذه عليه بما أنّه هو الدافع الحقيقي وراء المعاملات التي أقرتها الشريعة الإسلامية على اختلاف أنواع هذه المعاملات و أغراضها على نحو ما ذكره أتباعه فقال: قلت لأبي عبد الله: إن الناس يزعمون أنّ الربح على المضطر حرام و هو من الرّبا فقال: «و هل رأيت أحدا اشترى - غنيّاً او فقيراً - إلاّ من ضرورة؟! قد أحلّ الله البيع و حرّم الرّبا و اربح لا ترب»(4).

هكذا يقوم الإمام نظرة بعض أفراد المجتمع إلى الربح و يذكّرهم بالآية القرآنية التي تفصل بين البيع و الربا و يصرّح بأنّ الربح و السعي وراء حصوله، مشروع، بيد أنّه يجب ألاّ يخرج عن قواعد الشرع الحنيف بما يحقّق مصالح الفرد و الجماعة معاً.

ص: 359

- 1- محمد شوقي الفنجري، المذهب الاقتصادي في الإسلام، دار عكاظ، الرياض، 1401، ص 83.
- 2- الربح في علم الاقتصاد هو الفرق بين مجموع نفقات إنتاج سلعة ما، أو مجموع النفقات الضرورية للحصول عليها و بين ثمن بيع هذه السلعة (سميح مسعود، الموسوعة الاقتصادية، شركة المطبوعات للتوزيع، بيروت، 1997، ط 2، ص 79).
- 3- عوف محمد الكفراوي، تكاليف الإنتاج و التسعير في الإسلام، مركز الإسكندرية للكتاب، القاهرة، 1999، ص 246.
- 4- الطوسي، استبصار، ج 3، ص 72، ح 238.

و لا- نرى جهود الإمام في التشجيع على الربح فحسب، بل نرى اهتمام هذا المفكر التربوي بخلق التوازن القويم بين الاتجاه المادي و الروحي من النشاط الاقتصادي و الربح الحاصل عنه.

فهو يريد أن يوجّه نظرة تلاميذه إلى أن الربح المادي يجب ألاّ يكون هو الأساس الوحيد في المعاملات و إنّما يجب أيضا مراعاة القيم الأخلاقية مع التراحم و التعاطف و مراعاة الحقوق في المجتمع الإسلامي و هنا يتحقق التلازم و الترابط بين الربح المادي و الربح المعنوي.

و لتسليط الضوء على تعاليمه البتاءة، تقدّم إحدى التطبيقات التي عمل بها الإمام نفسه حتى يرسخ هذه النظرة السليمة في أفكار الناس و عقولهم؛

حيث روي أن أبا عبد الله دعا مولى له، يقال له مصادف فأعطاه ألف دينار، و قال له: تجهّز حتى تخرج إلى مصر، فإنّ عيالي قد كثروا. فتجهّز بمتاع و خرج مع التجار إلى مصر، فلما دنوا من مصر استقبلتهم قافلة خارجة من مصر، فسألوهم عن المتاع الذي معهم: ما حاله في المدينة - و كان متاع العائمة -؟ فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء، فتحالفوا و تعاقدوا على أن لا ينقصوا متاعهم من ربح الدّينار ديناراً.

فلما قبضوا أموالهم و انصرفوا إلى المدينة دخل مصادف على أبي عبد الله و معه كيسان في كل واحد ألف دينار فقال: هذا رأس المال، و هذا الآخر ربح، فقال: «إنّ هذا الربح كثير و لكن ما صنعته في المتاع؟» فحدّثه كيف صنعوا و كيف تحالفوا فقال:

«سبحان الله! تحلفون على قوم مسلمين أن لا تبيعوهم إلاّ ربح الدّينار ديناراً! ثم أخذ أحد الكيسين فقال: هذا رأس مالي و لا حاجة لنا في هذا الربح ثم قال: يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال»(1).

فالإمام لا يسمح لوكلائه بتحقيق الأرباح غير العادية و يمقتهم و يذكّرهم بأنّ قيمة العمل في هذا السفر لم تكن في نظره كافية لأن يعودوا بالربح الذي ليس من حقه، و هذا في الحقيقة غبن للمشتري.

و الواقع أنّ كلام الإمام متفرع من المبدأ الإسلامي العام الذي يحرم الضرر و الظلم للبائع و المبتاع سواء بسواء.

و من البديهي أنّ عرض السلعة عند ما يكون منحصراً في فئة معينة أو مجموعة خاصة، و لا يوجد أيّ منافس له في السوق، فإنّه يمهد الأرضية للبائع للسيطرة على الأسعار و يبيع سلعته بأكثر حدّ من الربح(2).

ص: 360

1- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب الحلف في الشراء و البيع، ح 1.

2- هذا ما يسمى في المصطلح الاقتصادي إحتكار البائع monopoly seller (معجم مصطلحات اقتصادية، ص 110).

ولكنّ الإمام يعتبر الربح الفاحش في هذه الحالة و الذي يتحقّق عن طريق دفع الثمن إجحافاً بحق المشتري و «هو لم يفرض عقوبة للمغالين بالأسعار؛ لأنّه لم يكن على رأس الدولة بل يكفيّه أنّه رفض ربحاً كبيراً جاء به وكلاؤه... فلم يعالج أمر الأسعار في عنف و لكنّه عالجه من طريق تهذيب الأخلاق ليكون أنجح و أودم»(1).

و هكذا علّم الصادق برّد فعله مراعاة حق المشتري و عدم غبنه، مع الالتفات بمفهوم الربح المعنوي الذي يحصل عليه المسلم عن طريق اهتمامه بهذه الحدود الشرعيّة و القيم الأخلاقية.

العلاقة بين الكسب و العمل

إنّ النشاط الاقتصادي للفرد المسلم يرمي إلى الخروج من الفقر و تأمين المعاش على حد الكفاية(2)، و لم يتحقّق هذا الهدف إلاّ عن طريق الاهتمام بالكسب و هو «ما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع و تحصيل حظ ككسب المال»(3) و لكنّ الاقتصاد الإسلامي جعل في طرق الكسب بعض الضوابط التي تكفل سلامة الفرد و المجتمع و عدم انحرافهما.

فالكسب و «التملك مباح من حيث المبدأ و لكنّه مقيد بأن يكون حلالاً من مأخذه، حلالاً في استخدامه، و حلالاً في إنفاقه، فلا يكون من غضب أو سرقة أو غش أو احتكار أو ربا...»(4).

كما أن النبي صلّى الله عليه و سلّم حدّر من أقوام لا يهتمون بكسب الحلال فقال: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أم من الحرام؟»(5).

و من أهم الضوابط التي عيّنها الإسلام في هذا الصدد مبدأ تنظيم الكسب من خلال جهد الإنسان و عمله، و لم يسمح بتحصيل المال بدون عمل، فالجهد البشري هو سبب الملكية و الإنتاج سواء في حالات التفاعل المباشر مع الطبيعة، أم بالتفاعل مع الأشياء في مرحلتها الثانية مرحلة التكييف و التصنيع.

و بالتأمل في النصوص الواردة عن الإمام المرّي، نجد بأنّه يريد أن يرسّخ في ذهنية تلاميذه هذا الترابط و ذلك من خلال تأكيده على عدم جواز إحالة العامل للعمل

ص: 361

1- عبد العزيز سيد الأهل، جعفر بن محمد، مرجع سابق، ص 154.

2- أي المستوى اللائق للمعيشة التي تختلف مع مفهوم «الكفاف» أي المستوى الأدنى للمعيشة لكل فرد.

3- الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة كسب، ص 468.

4- محمد قطب، تأصيل العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص 146.

5- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، ح 2059.

إلى عامل آخر، دون أن يكون قد عمل فيه شيئاً. فعند ما سئل عن الرجل يتقبل العمل فلا يعمل فيه و يدفعه إلى آخر فيريح فيه، قال الإمام: «لا، إلا أن يكون قد عمل فيه شيئاً»⁽¹⁾.

وفي مجال آخر روى أحد تلاميذه فقال: سألته عن الرجل الخياط يتقبل العمل فيقطعه و يعطيه من يخيطه و يستفضل قال: «لا بأس قد عمل فيه».

فقد أشار الإمام إلى القاعدة التي تقرّر «أن الكسب لا يقوم إلا على أساس إنفاق عمل خلال مشروع، فالعمل المنفق هو المبرّر الأساس الوحيد لحصول صاحبه على مكافأة»⁽²⁾ وهذا من أهم التصورات التي يجب أن تكون في النشاطات المعيشية للفرد المسلم.

وقد يعمّق الإمام في بعض الأحيان المفهوم ذاته بأسلوب آخر فيقول:

«إني لأكره أن أستأجر الرحي وحدها، ثم أؤجرها بأكثر ممّا استأجرتها، إلا أن أحدث فيها حدثاً»⁽³⁾.

فالصادق يرّي ضمائر الناس و يجعل تفكيرهم يتّجه إلى أنّ الكسب لا بدّ أن يكون بمقدار ما يبذله الإنسان من سعي و كدح في الحياة، فلن يحصل المال الطيب إلاً بجهد و عناء و مخاطرة، و لذلك عند ما قيل له:

ما بال المؤمن قد يكون أشحّ شيء؟ قال: «لأنه يكسب الرزق من حلّه، و مطلب الحلال عزيز، فلا يحبّ أن يفارقه شيئه لما يعلم من عزّ مطلبه»⁽⁴⁾.

و من هنا فقد عني الإمام عناية كبيرة بمحاربة الربا الذي يمثل استغلالاً فاحشاً لحاجة الإنسان، و يؤدي إلى كسب - عائد - مضمون يستأثر به المرابي دون أدنى مشاركة في العمل الجادّ و بناء اقتصاد الأمة.

ف «الربا يجعل المحتاج عبداً للغني و يجعل الغني عبداً للمال، و ذلك انحطاط بالمستوى البشري يتردى فيه الفقير و الغني على السواء»⁽⁵⁾.

و هذا ما أكّده الصادق بالإشارة إلى سلبيات الربا الخلقية و الاجتماعية و الاقتصادية².

ص: 362

1- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب الرجل يتقبّل بالعمل، ح 1.

2- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، مرجع سابق، ص 618.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 13، ص 263، ح 5.

4- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 560، ح 4924.

5- أحمد شلبي، الاقتصاد في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1990، ط 8، ص 72.

ليردّ الناس إلى الرشيد و الصواب فقال: «إنّما حرّم الله عزّ و جلّ الربا لكي لا يمتنع الناس من اصطناع المعروف»⁽¹⁾، ولو كان الربا حلالا لترك الناس التجارات و ما يحتاجون إليه، فحرّم الله الربا لتفرّ الناس عن الحرام إلى التجارات و إلى البيع و الشراء فيفصل ذلك بينهم في القرض»⁽²⁾.1.

ص: 363

-
- 1- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 262.
 - 2- الصدوق، علل الشرائع، ج 2، باب علة تحريم الربا، ح 1.

بيّنّا فيما سبق أن التربية الاقتصادية في مدرسة الإمام الصادق ارتكزت على محورين أساسيين: أولهما: تصحيح الجوانب الفكرية و ثانيهما: تعليم الجوانب السلوكية.

و بعد أن تناولنا في حديثنا المحور الأول مركّزين على كيفية توجيه النظرة الصحيحة إلى المال و كسب الرزق و تصويبيها و إظهار مقوماتها، فإننا سنشير فيما يلي إلى الجانب السلوكي الذي يمثل الوجه الثاني في هذا المجال.

و يبدو أن السلوك الاقتصادي للإنسان - وإن تعدّدت شعبه و تنوّعت مجالاته - فإنه ينضوي تحت عنوانين كبيرين، و هما: الكسب و الإنفاق أو الإنتاج و الاستهلاك⁽¹⁾، فالإنسان يكتسب الأموال ثم ينفقها و يعود ثانية لاكتسابها و إنفاقها من جديد، و هكذا في دورة ممتدة بامتداد الحياة.

ص: 364

1- لم يرد في القرآن الكريم المصطلحات المعهودة في علم الاقتصاد و لقد استخدم القرآن مصطلحات اقتصادية أحسن و أمثل و أفضل بكثير من تلك المصطلحات الاقتصادية الشائعة و كأنه أعرض قصدا عن استخدامها. على سبيل المثال: استخدم القرآن الكريم مصطلح «التّعم» بدلا من مصطلح «الموارد» عند الاقتصاديين؛ لأنّ هذه الكلمة لا تحمل أية مضامين ذات قيمة و لا تنبئ بشيء عن مصدرها و أهميتها، و لكن مصطلح «النعم» يحمل دلالات ذات معنى، بأنّ هذه الأشياء مصدر لتّعم الإنسان و رفاهيته، و هي مخلوقة لذلك، و هي منحة من الخالق و إنعام منه على الإنسان، و كل ذلك يقتضي حسن استخدامها و الانتفاع بها. و كذلك نرى أن القرآن الكريم رغم اهتمامه الكبير بالإنتاج و التنمية إلا أنه لم يستخدم هذه الكلمة بل استعاض عنها بكلمة «العمران أو العمارة» حيث يندرج تحتها معنى الإنتاج و تحسين مستويات المعيشة و لها دلالات أخرى أيضا. و كذلك مصطلح الإنفاق بدلا من «الاستهلاك»، لأنّ فيه دلالة بارزة على التدمير و الإفناء، و الهلاك للسلع و الموارد بينما يدل مصطلح الإنفاق على معاني النفع و الإفادة، و بناء الإنسان و زيادة الموارد و السلع، على عكس مصطلح «الاستهلاك». فرغم أننا لا نرى أنفسنا محتاجين إلى الاستفادة من المصطلحات الحديثة بعد ما جاءت في القرآن الكريم كلمات حيّة و غنية، كما أننا لم نجد هذه المصطلحات في مدرسة الإمام الصادق التربوية، و لكن نستخدم في هذا الفصل بعض هذه المصطلحات لاستئناس الأذهان بها و تداولها بين الناس، نجىء بها بشكل توضيحي لا تأسيسي.

والمعروف ان أيّما منهما (الكسب و الإنفاق) لا غنى لأحدهما عن الآخر، كما لا تستقيم حياة الإنسان إلاّ بصلاحيهما معا. و من ثم فقد أولى الصادق هذين الأمرين اهتماما بالغاً في منهجه التربوي، فحاول تكوين الشخصية ذات السلوك القويم فيهما.

و لعلنا نستطيع تلخيص مشاريع الإمام في هذا الصدد و التي سعى إلى ترويجها في المجتمع بما يلي:

أ - تربية المسلم على الإنتاج في مدرسة الصادق:

أهمية الإنتاج و جوهه:

يحتل الإنتاج أهمية كبرى في علم الاقتصاد، حيث عرّف بعض العلماء هذا العلم بأنه «علم قوانين الإنتاج»⁽¹⁾.

فأصبح الاقتصاديون المعاصرون يأخذون بتعريف شامل للإنتاج، يدخل تحته إنتاج السلع و الخدمات أيّا كان نوعها، أو مصدرها، طالما أنها نافعة تشبع رغبة لدى المستهلك. لذلك عرّفوا الإنتاج «بأنه خلق المنافع أو زيادتها»⁽²⁾.

أما تعريف الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي فهو: «بذل الجهد الدائب في تسمير موارد الثروة، و مضاعفة الغلة من أجل رخاء المجتمع، و دعم وجوده و قيمه العليا»⁽³⁾.

و يبدو واضحاً من التعريف إن الإنتاج في الإسلام يهدف إلى إشباع حاجات الإنسان المادية و المعنوية، أي إيجاد المنفعة في شكل سلعة اقتصادية، و جعلها صالحة لإشباع الحاجات الإنسانية.

و نرى في هذا الصدد أن الإمام الصادق قد لفت إلى تنوع الطرق و الأساليب التي يمكن أن يعتمد عليها الإنسان في سبيل الكسب و زيادة المنفعة، كما عرّف لتلاميذه الأشكال المتنوعة للنشاطات الإنتاجية المتوافرة، فقال:

«و كذلك أعطى (الإنسان) علم ما فيه صلاح دنياه كالزراعة و الغراس و استخراج الأرضين و اقتناء الأغنام و الأنعام و استنباط المياه و معرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام، و المعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر و ركوب السفن و الغوص في البحر و ضروب الحيل في صيد الوحش و الطير و الحيتان و التصرف في الصناعات و وجوه المتاجر و المكاسب و غير ذلك مما يطول شرحه و يكثّر تعداده مما فيه صلاح أمره في هذه الدار»⁽⁴⁾.

ص: 365

1- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، مرجع سابق، ص 379.

2- محمد محروس، إسماعيل و آخرون، مقدمة في علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص 176.

3- فهد العصيمي، خطة الإسلام في موارد الإنتاج، دار النشر الدولي، الرياض، 1994، ص 15.

4- كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص 41.

فكل الأمور التي ذكرها الإمام في كلامه تنطبق على تعريف العمل المنتج في الفكر الاقتصادي و«هو الذي يهدف إلى إنتاج سلع وخدمات تشبع حاجات الإنسان»(1)، فالإمام يريد أن يبين لتلاميذه بأن الله عزّ وجلّ لم يخلق الموارد في هذا الكون جاهزة للإشباع، إنما جعلها تحتاج لكسب وإنتاج، كي تصبح جاهزة للانتفاع.

ولذلك فرض الله على الإنسان السعي المتواصل لإشباع حاجاته، ولفهم أسرار الكون، والكشف عن موارد الطبيعة واستغلالها الاستغلال الأمثل الذي يحقق الخير والرفاهية للمجتمع في مجموعه.

أهداف الإنتاج و ضوابطه:

إن الإنتاج في الإسلام، وسيلة لغاية سامية، تتمثل في عمارة الكون وتحقيق عبادة الله في الأرض، فالمسلم ينتج ليحقق الغاية من وجوده، وليقوّي جماعة المسلمين، وليحقّق مقام الخيريّة والشاهديّة على أمم الأرض جميعاً.

على هذا، فإن هناك فرقاً جوهرياً بين الإنتاج في الإسلام والإنتاج في النظم الاقتصادية الأخرى، لأن هذه النظم الوضعية «تقوم على أساس من الفلسفة المادية التي تسعى إلى إشباع رغبات المستهلك و المنتج على السواء بغض النظر عن كون هذه الرغبة أو السلعة أو الخدمة نافعة أو ضارة بالصحة و باعثة على الانحلال و الفساد كالكحول و الأفلام الهابطة»(2).

و هذا ما يتعارض مع النشاط الاقتصادي في الإسلام الذي يعتمد على الأصول العقديّة و الأخلاقية.

«فالإنتاج في الإسلام لا يهدف إلى السيطرة على السوق و الاحتكار و الاستئثار بخيرات الدنيا، إنّما يهدف لتحقيق الخير و الرفاهية و النفع العام للمجتمع كلّ، طلباً لمرضاة الله و التي هب الغاية التي يتوخاها المسلم بكل نشاطه الاقتصادي»(3).

و من ثمّ فلا بدّ أن تتم عملية الإنتاج على أساس ضوابط تنظيمية وفقاً لهذه الأهداف، و الإمام الصادق - منذ اثني عشر قرناً - يعلم تلاميذه أهم المقاييس و الضوابط للإنتاج و يحثّ مراعاتها في أيّ نشاط اقتصادي، تلك القواعد التي ينبغي أن نستفيد منها في التربية الاقتصادية في المجتمع، فقال ما نصّه:

ص: 366

1- عبد العزيز فهمي هيكل، مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت، ص 83.

2- عمر بن فيحان المرزوقي، النشاط الاقتصادي من المنظور الإسلامي، مجلة كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية عدد 45، ص 281.

3- صالح حميد العلي، عناصر الإنتاج، مرجع سابق، ص 102.

«وأنواع صنوف الآلات التي يحتاج إليها العباد التي منها منافعهم وبها قوامهم وفيها بلغة جميع حوائجهم فحلال فعله و تعليمه و العمل به، وفيه، لنفسه أو غيره...»

و ما يكون منه وفيه الفساد محضاً، ولا يكون فيه ولا منه شيء من وجوه الصلاح، فحرام تعليمه و تعلمه و العمل به و أخذ الأجر عليه و جميع التقلب فيه من جميع الحركات كلها إلا أن تكون صناعة قد تنصرف إلى بعض وجوه المنافع»(1).

فيشير الإمام بهذا الكلام إلى أن الإنتاج في المجتمع الإسلامي لا بد أن يستند إلى أصول و هي:

1 - أصل الحاجة (التي يحتاج إليها)

2 - أصل النفع (التي منها منافعهم)

3 - أصل العمومية (يحتاج إليها العباد...)

4 - أصل الاكتفاء الذاتي (فيها بلغة جميع حوائجهم).

يرى أبو عبد الله أن الإنتاج يجب أن يكون بحسب الكمّ و الكيف مقيداً بالحدود التي تؤشرها هذه الأصول، فهو يعتبر الحاجة إلى شيء، هي السبب الأعمق في إيجاده، كما يعتبر أن الانتفاع به، المبرّر الرئيس لإنتاجه، و لو لا الحاجة إلى شيء و النفع منه، لكان إنتاجه عبثاً، و السعي من أجله تضييعاً للجهد و المال و الوقت الإنساني الثمين.

و حينما يشير الإمام إلى القاعدة الأولى و هي الحاجة، تخرج منها المنتجات غير الضرورية و التي قد يستغنى عنها، كالبضائع الترفيهية و التجميلية الأرستقراطية، و التي لا تقتصر آثارها السلبية على الحقل الاقتصادي فحسب، بل تتعدّها إلى القوام الأخلاقي و التربوي في المجتمع.

و عند ما يؤكد على القاعدة الثانية و هي النفع الإنساني، يخرج عن دائرتها كل الأشياء التي تضرّ الحياة البشرية التي يسمّيها القرآن بالخبائث، إضافة إلى السلع غير النافعة و الحاجات غير الضروريّة التي اصطنعها الإعلام في المجتمع، و الذي يزيّن للناس سبل اقتنائها بكل الطرق الخبيثة، فيكبر عندهم الميل للاستهلاك، و يصبحون مستهلكين من الطراز الأول.

أمّا القاعدة الثالثة و هي: العمومية، فتؤكد على استجابة حاجات الجماهير و عامة الناس الذين عبّر الإمام عنهم بالعباد دون أي تخصيص حتى لا يقتصر الإنتاج على الأشياء الخاصة التي يتمتع بها المترفون، و تصير سبباً لرخاء فئة خاصة من الأغنياء؛ لأنها تؤدي إلى نفي تقريب مستويات المعاش للجميع.5.

ص: 367

و القاعدة الرابعة تؤكد على أن الهدف من الإنتاج في المجتمع الإسلامي لا بد أن يتوَّخى إلى حدِّ الاكتفاء الذاتي، و وصول المجتمع إلى المستوى الذي لا يحتاج معه إلى غيره على صعيد الحاجات الضرورية، الأمر الذي يؤدي إلى قوام و قوة للمسلمين و يغنيهم عن استيراد منتجات الآخرين، و التذلل لهم تحت ذريعة الحصول على الضروريات.

و هكذا يظهر اهتمام الصادق بماهية الشيء، المنتج و قصد المنتج من إنتاجه على أساس نظرة الإسلام إلى الإنسان و حياته و غايته، و يسعى إلى تربية المسلم على السلوك الإنتاجي الذي يؤدي إلى إنتاج جميع الضروريات و الطيبات في الحياة من جهة و نزع الدوافع الاقتصادية المادية البحتة من جهة أخرى.

عناصر الإنتاج و حسن استغلالها:

إشارة

إنّ الإنتاج لا يتمّ إلا بتضافر مجموعة من القوى و العوامل و العناصر المرتبط بعضها ببعض، و التي تسمّى بعناصر الإنتاج «فالشئ يعدّ عنصر إنتاج، إذا أسهم في العملية الإنتاجية و لا يمكن أن يتم الإنتاج بدونها بل بلغت درجة هذه الإسهامات»(1).

و على هذا فإن عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي ثلاثة هي: الأرض أو الطبيعة، و العمل، و رأس المال.

لقد بيّن علماء الاقتصاد المعاصر مفهوم الإنتاج و عناصره و جعلوهما في نظرية سموها بنظرية الإنتاج، على أنها نظرية جديدة كان لهم الفضل في ابتداعها، و الحق أن علماء المسلمين سبقوا غيرهم في هذا المجال و لم يتكلموا عن الإنتاج فحسب، بل بيّنوا عناصره و طرق استثمار المال فيه، كما تحدّثوا عن العمل و أنواعه و الأحكام المتعلقة بها.

و من أجل هؤلاء العلماء جعفر بن محمد الصادق الذي تجلّت في كتاباته و رسائله و وصاياه كثير من التحليلات الاقتصادية التي تحدّث الإنسان على أن يكون عضوا نافعا، فهو يحرص أشدّ الحرص على أن يكون جميع أتباعه عاملين منتجين، فيوجّههم إلى هذا الهدف بأساليب متعدّدة حتّى يتحوّلوا إلى طاقة إنتاجية تتحقّق بها عمارة الأرض، و فيما يلي نتحدّث عن بعض جهوده في تبين عناصر الإنتاج و حسن الاستغلال منها:

1 - الطبيعة و الانتفاع بها:

يقصد بالطبيعة «ما خلقه الله عزّ و جلّ في هذا الكون من موارد و لم يتدخّل أحد من إيجادها»(2).

ص: 368

1- إسماعيل إبراهيم البدوي، عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي و الاقتصاد الوضعي، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2002، ص 88.

2- صالح حميد العلي، عناصر الإنتاج، مرجع سابق، ص 131.

و الواقع أنّ الطبيعة هي المصدر المادي الأول للإنتاج و فيها موارد متاحة للإنسان، تكون نافعة له وصالحة لإشباع حاجاته، سواء بطريق مباشر أم غير مباشر، فعناية الفكر الإسلامي بالطبيعة ليس لكونها إحدى أهمّ و أعظم نعم الله عزّ و جلّ على عباده فحسب، بل باعتبارها الركن الأساس للنشاط الاقتصادي للإنسان و التي تدخل في تنظيم معاشه. «فالتوظيف الكامل و الفعال للموارد المادية المستمدة من الطبيعة، هدف من أهم أهداف النظام الاقتصادي في الإسلام، لأنّه لا يساعد فقط في توفير الحياة الاقتصادية الطيبة فحسب، بل يمنح الإنسان العزّة و الكرامة»(1).

و ينقسم عنصر الطبيعة إلى فروع عديدة من النعم الإلهية التي تسمّى في علم الاقتصاد بالموارد الطبيعية.

و من أهمها الأرض التي لا يكاد الإنسان يتصور قيام نشاط إنتاجي بدونها؛ لأن الله تعالى وّرّع موارد الطبيعة الأخرى على ظهر الأرض و في جوفها و من حولها.

فالإمام الصادق وّجه الأنظار إلى أنّ الأرض مستودع الثروة و مصدرها الرئيس الذي جعل فيها كل ما يحتاج إليه البشر من المواد الأولية للإنتاج و وسائل العيش قائلا:

«فكّر في هذه الأشياء التي تراها موجودة معدّة في العالم من مآربهم فالتراب للبناء و الحديد للصناعات و الخشب للسفن و غيرها و الحجارة للأرحاء و غيرها و النحاس للأواني و الذهب و الفضة للمعاملة و الذخيرة و الحطب للتوقد و الرماد للكلس...»(2).

هذه النعم الطبيعية منها ما يكون جاهزا للإنتفاع المباشر و منها ما يكون غير جاهز، إلّا أنّه من الممكن تحويل هذه الموارد غير الصالحة للإنتفاع إلى موارد مؤهلة يمكن الإنتفاع بها.

فالإمام عند ما يتحدث أمام تلاميذه عن الأرض و النبات و المياه و المعادن و خيرات الطبيعة الأخرى لا يريد أن يتكلم عن الأسرار الكونية فحسب، بل يريد أن يدفع أتباعه دفعا إلى استغلال النعم و المنافع الاقتصادية فيها و استصلاح الموارد الطبيعية لتحسين أسباب العيش و تحقيق التقدم و نشره في المجتمع، كما نرى في كلامه عن المعادن حين قال:

«فكر في هذه المعادن و ما يخرج منها من الجواهر المختلفة مثل الجص و الكلس و المرترك (أكسيد الرصاص) و التوتيا (أو أكسيد الزنك) و النحاس و الرصاص و الفضة و الذهب و الزبرجد و الياقوت و الزمرد و ضروب الحجارة و كذلك ما يخرج بها من القار4.

ص: 369

1- أحمد صبحي العيادي، السياسة النقدية و المالية في الإسلام، مجلة الشريعة و الدراسات الإسلامية، عدد 54، ص 305 (بتصرف).

2- كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص 44.

والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم، فهل يخفى على ذي عقل أنّ هذه كلها ذخائر ذخرت للإنسان في هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند الحاجة إليها»(1).

فهو في مجال التربة يدعو إلى عدم استصغار واستحقار أية مادة خام من مواد الطبيعة و أي عنصر من عناصرها، إذ ربما تنتهي هذه المادة بعد التحليل العلمي والتجارب الطبيعية في المختبرات إلى مادة عالية الثمن بالغة الأهمية في ميدان العلم فقال:

«اعلم أنه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين وربما كان الخسيس في سوق المكتسب نفيسا في سوق العلم، فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته لو فطن طالبو الكيمياء لما في العذرة، لا شتروها بأنفس الأثمان، وغالبوا بها (غالوا بها)»(2).

هكذا يشجع الإمام تلاميذه على البحث عن كنوز الطبيعة وخيراتها، واستخدام هذه الكنوز والخيرات في إنتاج حاجات البشر و تنمية هذا الإنتاج لإسعادهم حتى تتحقق بذلك رفاهة اجتماعية عامة.

2 - رأس المال و تكوينه:

إن رأس المال يعتبر عنصرا من عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي، ويلاحظ أن لفظ المال أعمّ وأشمل من لفظ رأس المال، إذ المال ما يملك و يقتنى، أما رأس المال فهو أصل المال بلا ربح ولا زيادة حينما يستثمر في عمل ما. قال تعالى: **وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ** (3).

وعلى هذا الأساس يمكن تعريفه بأنه «كل ما يستخدم في العملية الإنتاجية من أعيان أو نقود»(4).

و يفهم من هذا التعريف أن كل ما يساهم في الإنتاج بصورة مباشرة كالمباني والآلات، وبصورة غير مباشرة كالنقود، فإنه يطلق عليه اسم رأس المال.

فالنقود استخدمت في عمل إنتاجي عند ما خصّصت لشراء المواد الأولية أو لرأس المال العينيّ أو لدفع أجور العمال، و أما إذا دفعت لأغراض استهلاكية فلا يطلق عليها اسم رأس المال.

و الإمام الصادق في منهجه التربوي الاقتصادي يحث أتباعه على الإنفاق الإنتاجي

ص: 370

1- كاظم المظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص 44.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 136.

3- سورة البقرة، جزء من الآية: 279.

4- صالح حميد العلي، عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص 271.

و يفصّل له على الإنفاق الاستهلاكي حرصاً منه على تكوين وزيادة رأس المال، كما جاء في كلامه: «مشتري العقدة مرزوق و بائعها ممحوق»⁽¹⁾. و العقدة من الأرض: البقعة الكثيرة الشجر⁽²⁾.

تعبير الإمام بقوله: «مرزوق» يرمي إلى إمكانية تنمية الثروة من العقدة، كما أنه ينهي عن بيع رأس المال المنتج، من غير سبب و ضرورة المحافظة عليه، فيرشد تلاميذه إلى أنّه من الواجب في حال البيع أن يوجّه ثمنه النقديّ إلى شراء أصل إنتاجي آخر، كما روى أحدهم قائلًا: «قلت لأبي عبد الله: إنّ لي أرضاً تطلب منّي و يرغبونني، فقال لي: «أما علمت أنّ من باع الماء و الطّين ذهب ماله هباءً؟!» قلت: إنّني أبيع بالثمن الكثير، و أشتري ما هو أوسع رقعة ممّا بعت، قال: «فلا بأس»⁽³⁾.

فالإمام يعتبر بيع العقار و تبديد ثمنه في الاستهلاك إضاعة للمال، و ذلك من أجل توسيع قاعدة رأس المال العيني.

و يبرز اهتمام الإمام بالتنمية و استثمار المال في سيرته العملية عند ما يأمر بإضافة ربح العمل إلى رأس ماله بدلا من استغلاله في مجالات أخرى، كما روى عن رجل قال: «ربحت في مال أبي عبد الله، الذي كان في يدي، مائة دينار، ثم لقيته، فقلت له: قد ربحت لك هذا المبلغ، ففرح أبو عبد الله بذلك فرحا شديدا فقال لي: «أثبتها في رأس مالي»⁽⁴⁾.

و يستحسن هنا أن نشير إلى أنّ الإمام قد علّم تلاميذه بعض الأساليب لحفظ رأس المال لتقليص عنصر المخاطرة في الاستثمار⁽⁵⁾، على سبيل المثال:

روي أنّ رجلا- أتى الإمام بصورة المستنصح له، فقال له: يا أبا عبد الله كيف صرت اتخذت الأموال قطعا متفرقة، و لو كانت في موضوع واحد كانت أيسر لمؤونتها و أعظم لمنفعتها؟ فقال أبو عبد الله: «اتخذتها متفرقة فإن أصاب هذا المال شيء سلم هذا المال، و الصرة تجمع بهذا كله»⁽⁶⁾.1.

ص: 371

1- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 388، ح 1156.

2- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث و الأثر، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ج 3، ص 271.

3- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب شراء العقارات و بيعها، ح 8.

4- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 326، ح 898.

5- هذا ما يسمى في علم الاقتصاد محفظة استثمارية (Portfolio) و هي ما يملكه شخص أو مؤسسة من أوراق مالية كالأسهم الممتازة و العادية و السندات و من استثمارات عقارية و سلع، الغرض منها تخفيض المخاطر من خلال تنويع الاستثمارات (التاجي الفاروق، قاموس مصطلحات المصارف و المال و الاستثمار، مكتبة لبنان د. ت، ص 505).

6- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب شراء العقارات، ح 1.

رغم أنّ الإمام يدعو إلى ادّخار(1) الثروة و تكوين رأس المال إلا- أنّه في الوقت نفسه ينهى عن الاكتناز و هو حبس المال عن الإنتاج و وضعه بعيدا عن متناول الناس و استفادتهم؛ لأنّ «الدنانير و الدراهم حاكمين و متوسطين بين سائر الأموال، حتى تقدّر الأموال بهما... و من كنزهما فقط ظلمهما و أبطل الحكمة منهما(2)»

فالإمام يرفض إمساك النقود؛ لأنه يخرج المال عن مدار الحركة الاقتصادية فقال ما نصّه: «ما يخلف الرجل بعده شيئا أشدّ عليه من المال الصّامت(3) قيل له: كيف يصنع به؟ قال: يجعله في الحائط و البستان و الدّار(4)».

فهو بهذا التعبير يلزم أتباعه باستثمار المال بشكل تام، و ذلك من خلال تأثيم المكتنزين، و بما أنّ الناس قد يدّخرون النقود التي لا تدّر عليهم أيّ فائدة إلاّ بدافع الاحتياط من أخطار المستقبل - لحماية أنفسهم أو وراثتهم - ينصح الإمام تلاميذه لتلافي أخطار هذه الحالة بتوفير المال من شراء السلع المنتجة كضمانة لهم عند الحاجة كقوله:

«اتخذ عقدة أو ضيعة فإنّ الرجل إذا نزلت به التازلة أو المصيبة فذكر أنّ وراء ظهره ما يقيم عياله كان أسخى لنفسه(5)».

و هكذا حاول أبو عبد الله تعميق الفهم لدور رأس المال و يعلم - في الوقت نفسه - كيفية تكوينه و المحافظة عليه و مصادرة الثروة في المجتمع.

3 - العمل و الحث عليه:

إن العمل هو العنصر الهام و الفعال في كلّ طرق الإنتاج، و هو العنصر الإنساني الذي يمثل النشاط الدائب و الحركة المستمرة في سبيل التقدّم و رفع مستوى المعيشة.

و يعرف الاقتصاديون العمل بأنّه «كل جهد بدني أو ذهني مقصود و منظم يبذله الإنسان لإيجاد زيادة مادية أو منفعة(6)».

أما مفهوم العمل في الاقتصاد الإسلامي، فيمكن تعريفه بأنّه «كل جهد مشروع،

ص: 372

1- الادخار اصطلاحا هو كل مال يقرر صاحبه عدم استغلاله لأغراض كثيرة، إن يستخدم هذه المدّخرات بوسيلة تدّر عليها دخلا زائدا يسمّى الاستثمار، و إن يحبس بشكل نقود أو ذهب أو فضة يسمّى الاكتناز. فالادخار أعمّ من الاكتناز و الاستثمار. (صالح حميد العلي، عناصر الانتاج، ص 287 بتصرف)

2- الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 4، ص 91.

3- المال الصامت أي الذهب و الفضة (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج 1، ص 152).

4- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3 ص 170، ح 3642.

5- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 17، ص 70، ح 22011.

6- محمد رواس قلعه جي، مباحث في الاقتصاد الإسلامي، دار النفائس، بيروت، 1412، ص 67.

مقصود و منظم، بدنياً كان أو ذهنياً، أو خليطاً منهما يبذله الإنسان لإيجاد منفعة اقتصادية مادية أو معنوية»(1).

ولأهمية العمل و خطورة أبعاده في عملية الإنتاج لم يجعله الإسلام مع عناصر الإنتاج الأخرى على درجة واحدة، وإنما جعلها على درجات متفاوتة فجعل العمل في أعلى هذه الدرجات.

ذلك لأنّ الإنسان العامل هو الذي يجري على الموارد الطبيعية التغيير و التبديل الذي يؤدي إلى الإنتاج، و هكذا شأن الطاقة الإنسانية بالنسبة لرأس المال - العنصر الثاني للإنتاج - هي التي تقوم بتشغيل الثروة و استثمارها «فالمال ليس المصدر لفعالية الإنسان و لكنّ الإنسان الفعال هو الذي يجعل المال فعالاً»(2). «و لهذا علّق رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فعالية المال بفعالية الرجل حيث قال: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»(3).

فنرى ضرورة العمل للإنسان بحسب النظام التكويني، لقد اقتضت سنة الله في خلق العالم، أنّ الأرزاق التي ضمّنها و الأقوات التي قدّرها و المعاش التي يسّرّها، لا تنال إلاّ بجهد يبذل و عمل يؤدّي، بحيث يضطر الإنسان لتلبية حاجاته المختلفة بالسعي و الكدح، كما في قوله تعالى: يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (4) «فحقيقة الكدح هي المستقرّة في حياة الإنسان»(5).

فقد أشار الصادق إلى هذه الحقيقة بقوله:

«فانظر كيف كفي الخلقه التي لم يكن عنده - الانسان - فيها حيلة، و ترك عليه في كلّ شيء من الأشياء موضع عمل و حركة لما له في ذلك من الصّلاح»(6).

ثمّ يذكر بعض الأمثلة في كلامه:

«فإنه خلق له الحب لطعامه، و كلّف طحنه و عجنه و خبزه، و خلق له الوبر لكسوته فكلف ندفه و غزله و نسجه، و خلق له الشجر فكلف غرسها و سقيها و القيام عليها، و خلقت له العقاقير لأدويته فكلف لقطها و خلطها و صنعها، و كذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثال»(7).سه

ص: 373

1- صالح حميد العلي، عناصر الإنتاج، مرجع سابق، ص 198.

2- جودت سعيد، الإنسان كلا و عدلا، دار الفكر، بيروت، 1993، ص 19.

3- أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، ح 17692.

4- سورة الانشقاق، الآية 6.

5- سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج 6 ص 3866.

6- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 3، ص 86.

7- المصدر نفسه، و المكان نفسه

و كذلك الإمام يشرح الحكمة البالغة الموجودة في العمل و آثارها الإيجابية للإنسان بقوله:

«لو لا يكون له - الإنسان - في الأشياء موضع شغل و عمل، لما حملته الأرض أشرا و بطرا و لبلغ به كذلك إلى أن يتعاطى أمورا فيها تلف نفسه. و لو كفي الناس كلّ ما يحتاجون إليه، لما تهنأوا بالعيش، و لا وجدوا له لذة، ألا ترى لو أنّ امراء نزل بقوم فأقام حينما بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعم و مشرب و خدمة، لتبرّم بالفراغ، و نازعته نفسه إلى الشاغل بشيء، فكيف لو كان طول عمره مكفيا لا يحتاج إلى شيء؟ و كان من صواب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للإنسان أن جعل له فيها موضع شغل لكيلا تبرمه البطالة، و لتكفّه عن تعاطي ما لا يناله، و لا خير فيه إن ناله»(1).

و انطلاقا من هذا المفهوم فقد كان الإمام جعفر حريصا على أن تعمل كل الطاقات القادرة في المجتمع الإسلامي حتى لا تصبح كالأ و عالة على غيرها، كما كتب إلى رجل من أتباعه: «لا تكسل عن معيشتك فتكون كالأ على غيرك»(2).

و المكانة التي لها اعتبار خاص للسعي و العمل في مدرسة الصادق تتضح بصورة أكبر من خلال اهتمامه بعرض القدوة الصالحة لتلاميذه، فهو يدعو المسلمين إلى التأسّي بسيرة الأنبياء الصالحين في الجهد و السعي و يسرد قصصا من حياة الرسول الأكرم - القدوة العليا - لتلاميذه تشجعا للعمل و الإنتاج، فيتحدث عن رجل قد ترك التجارة قائلا: «أما علم، أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم اشترى عيرا أتت من الشام، فاستفضل فيها ما قضى دينه، و قسم في قرابته»(3).

كما يؤكد على سيرة آباءه الصالحين من أهل البيت في هذا الصدد فيقول:

«لا تكسلوا في طلب معاشكم فإنّ آباءنا كانوا يركضون فيها و يطلبونها»(4).

و الصادق نفسه يقتدي بهذه السيرة و يحرص على أن يشارك بنفسه في العمل و الإنتاج، و هذه نماذج من سيرته العملية في السعي و الجهد و قد روى أحد أتباعه ما نصّه:

«رأيت أبا عبد الله و بيده مسحاة و عليه إزار غليظ يعمل في حائط له، و العرق يتصبّب عن ظهره، فقلت: أعطني أكفك، فقال لي: «إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة»(5).4.

ص: 374

1- كاظم المظفر، توحيد المفضل، ص 45.

2- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب كراهية الكسل، ح 9.

3- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 226، ح 897.

4- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 95، ح 3576.

5- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 17 ح 21924.

وفي مجال آخر قال: «دعوني فإنني أشتهي أن يراني الله أعمل بيدي وأطلب الحلال في أذى نفسي»(1).

وهكذا يريد الإمام أن يكون قوة فاعلة في الحياة بأمر ربه كما يحاول أن يغرّس نبتة السّعي والجهد في نفوس أبناء المجتمع، ويغذيها لتكبر وتمو فتتحول إلى قوة فاعلة و طاقة إنتاجية تغني المجتمع وتقويه.

ب - تربية المسلم على الاستهلاك في مدرسة الصادق:

أهمية الاستهلاك و ترشيده:

ما يقصد بالاستهلاك «هو كمية السلع والخدمات التي تستخدم لإشباع الحاجات الجارية»(2).

يعتبر الاستهلاك الهدف النهائي من الاقتصاد، لأن إشباع الحاجات الإنسانية بواسطة الموارد المتاحة - موضوع علم الاقتصاد - يتم من خلال الاستهلاك للسلع والخدمات، وفي ضوء هذا، تتم باقي الوظائف الاقتصادية الرئيسة من إنتاج وتمويل واستثمار وتبادل.

أما الاستهلاك في الاقتصاد الإسلامي فهو: «الاستخدام المشروع للسلع والخدمات في إشباع الحاجات والرغبات المباحة شرعاً»(3).

حيث إنّ كل فرد في المجتمع يعتبر مستهلكاً، وإذا كانت فئة من أفراد المجتمع غير منتجة، فلا يوجد بين الأفراد غير مستهلك ولذا لقي موضوع الاستهلاك عناية كبيرة من النظام الاقتصادي، فلم يهمل الإسلام هذا الجانب المهم من حياة الناس إذ إن زيادة الإنتاج وحدها لا تكفي لتوفير الحياة الطيبة.

فلا قيمة لتحسين الإنتاج إذا لم يحسن الناس استهلاك ما ينتجون. لهذا يعتبر الإنفاق أخطر مرحلة من مراحل التعامل مع الثروة والانتفاع بها.

ويرى الإسلام أنّ سوء استهلاك أو سوء استخدام الثروة وعدم الانتفاع بها انتفاعاً دقيقاً متوازناً، يساعد على نشر الفقر وتبديد الأموال، وما يناله المسلم نتيجة سعيه وإنتاجه، عطاء من الله ومنه، ولذلك وجب الحمد على هذا الفضل والإحسان، ومن مقتضيات الحمد حسن التصرف في المال وجودة توظيف ما رزقه

ص: 375

1- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3 ص 163، ح 3595.

2- سميح مسعود، الاقتصادية، مرجع سابق، ص 17.

3- محمود عبد الكريم إرشيد، دور القيم والأخلاق في ضبط الاستهلاك، مجلة الاقتصاد الإسلامي، عدد 293.

اللّه، كما أرشد الإمام الصادق أتباعه إلى هذا الأمر بقوله: «تلقوا النعم بحسن مجاورتها»⁽¹⁾.

فالمسلم في إطار هذه النظرة يأكل ويشرب ويتمتع بطيبات الحياة ليقوى على عبادة الله و ينظّم استهلاكه وفقا لأهداف العاجل والآجل في الدنيا والآخرة، والمنفعة هي الخير الذي يحققه الفرد من جراء استهلاكه، فيشبع رغائبه المادية والروحية.

أمّا غير المسلم في النظام الاقتصادي الوضعي فإنه يستهلك لحصول الملذّات المادية وإشباع الشهوات الجسدية فقط، و يقتصر اهتمامه على تحسين وزيادة مستوى معيشته الحاضرة؛ لأنّ الاستهلاك نفسه قيمة اجتماعية، فهو يريد تعظيم إشباع حاجاته من عاجل لا بديل له في الآخرة.

و المنفعة هنا، المنفعة الذاتية أي مقدار ما يحصل عليه الفرد من سدّ الحاجة، «بمقدار الإشباع من السلعة أو الخدمة المعينة تتحقق المنفعة بغض النظر عن الطريقة التي يحصل بها أو الأسلوب الذي يستعين به للوصول إلى المنفعة»⁽²⁾.

هكذا يتميز السلوك الاقتصادي للمسلم من غيره؛ لأنّ النظام الاقتصادي الإسلامي يهتم بإشباع حاجات الإنسان مع حصول السمو الروحي والاطمئنان القلبي، وألزم كل فرد بحتمية تحقيق التوازن في الاستهلاك بين متطلبات جسده و بين متطلبات روحه، بشكل يمكنه من أداء رسالته على الوجه الأكمل.

من هنا اهتم الإسلام بتنظيم الاستهلاك تنظيمًا اقتصاديًا مخططًا، ورسم للإنسان منهاج الانتفاع واستخدام الثروة بشكل مبرمج و محسوب، لكي لا ينحرف الفرد في تصرفاته، و لكي تتم استفادته من الخيرات و النعم التي أنعم الله بها على الإنسان.

فيمكن القول بأن مفهوم ترشيد الاستهلاك الفردي في الإسلام يعني «اتخاذ جميع الإجراءات و التدابير التي من شأنها تنظيم استهلاك الفرد و توجيهه مما يحقق له السعادة الدنيوية و الآخروية بالتزامه بمبادئ الشريعة الإسلامية»⁽³⁾.

و هذا ما يعبر عنه الإمام الصادق بالتدبير في المعيشة. فإنّ اهتمامه بقضية الاستهلاك و التربية عليه لا تقلّ عن اهتمامه بقضية الإنتاج و التربية عليه، و أنه ربط القضيتين معا بمنظوره إلى العقيدة الإسلامية³.

ص: 376

1- الطوسي، الأمالي، ج 1، ص 303.

2- محمد علي سميران، مبدأ الإيثار في المنهج الإسلامي و نظرية تكبير المنفعة في الاقتصاد الوضعي، مجلة الشريعة و الدراسات الإسلامية - كويت، عدد 53، ص 299.

3- منظور أحمد الأزهرى، ترشيد الاستهلاك الفردي في الاقتصاد الإسلامي دار السلام، القاهرة، 2002، ص 23.

فالمسلم في رأيه مأمور بتدبير معيشتة أحسن تدبير، حتى يكون لديه من المال ما ينفقه في وجوه البرّ عليه وعلى من يعول، وبذا يحقق المال الغرض منه بدوره في تنمية المجتمع الإنساني.

على هذا اعتبر الإمام التدبير نصف العيش كما اعتبره جزءا من الدين بقوله:

«التدبير نصف العيش»(1) و: «من الدين التدبير في المعيشة»(2).

والقصد من التدبير في المعيشة هو التخطيط لما رزق الله الإنسان في حياته من المال والنعم، حيث إن مهمة الإنسان في الحياة في هذا الصدد تتمثل في إدارة النعم التي وهب الله إياها، حتى يستخدم طاقته وفنّه في التصرف فيه وينظّم عيشه تحت ظلّه.

والحق أن عملية إنفاق المال لا تقلّ - عند العقلاء - مشقة واحتياجا إلى الحكمة والعقل عن القدر الذي يبذله الإنسان في الحصول عليه وفي تثميره، حيث إنّ ترشيد الاستهلاك هو الكسب تماما على حدّ تعبير الإمام الصادق.

كما روي أنّ رجلا قال لأبي عبد الله: «بلغني أنّ الاقتصاد والتدبير في المعيشة نصف الكسب فقال الإمام: لا، بل هو الكسب كلّ»(3).

فإنّ الإنسان إذا استهلك جميع ما كسب دون حدّ وقيود، أو أنفق ماله فيما لا يفيد، إنما يعدّ ذلك تضييعا للمال وبعثرة له فيما لا طائل من ورائه ولن يجني صاحبه وكذلك المجتمع من جراء هذا التصرف إلا الخسارة والضرر، وهذا المقصد بالذات هو ما أكّده الإمام في كلامه بأنّ ترشيد الاستهلاك كلّ الكسب لأنه يضمن عدم ضياع الأموال ويحفظها.

وفي هذا السياق أثر عنه قوله: «لا يصلح المرء المسلم إلا ثلاثة: التفقه في الدين، الصبر على النأبة، وحسن التقدير في المعيشة»(4).

فالصادق يعتبر أساس الحياة الطيبة للمسلم على ثلاثة أركان فأحدها حسن التدبير في العيش ومما ينبغي بامعان النظر أنّ جعل هذا الركن إلى جانب الآ-خر، والمهم من الحياة فهو التفقه في الدين ففي رأيه لا يمكن للإنسان أن يحلّ الإيمان محلّ التدبير ولا يستغني عنه أيّ مؤمن لذلك يربّي الصادق تلاميذه عليها إلى جانب الوعي والمعرفة بالدين.4.

ص: 377

1- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص 262.

2- الطوسي، أمالي، ص 670.

3- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 68، ص 349.

4- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب إصلاح المال، ح 4.

إنَّ التربية الاقتصادية الإسلامية تهتم بالإنفاق و تحثُّ عليه، ذلك «لأنَّه يؤدي إلى الرواج و انتعاش الأحوال، أما الإمساك فيؤدي إلى الكساد و البطالة و ركود الحالة الاقتصادية»(1).

و في إباحة الاستهلاك و الحَض على الإنفاق يأتي قول الله تبارك و تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ (2).

أما الإسلام فقد اشترط في إنفاق المال و التصرف فيه، أن يكون في وجوه نافعة و مشروعة، بعيدة عن كل ما حرّم الله تعالى.

فإذا التمس المرء كسبه من طرق سليمة، و اجتمع له المال من وجوه المشروعة، غير مختلط بظلم أحد، أو جائر على حق أحد، كان من المحتم عليه أن ينفقه في وجوه سليمة.

تنفع و لا تضر، فإن فعل غير هذا كان مستأهلاً لأن تذهب من يده هذه النعمة و أن تزول، ثم كان له حسابه عند الله فيما ضيع من حقوق.

من هنا وجّه الإمام الصادق تلاميذه في تربيته السلوكية إلى القاعدة الرئيسة في جميع النفقات بقوله: «إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجّهها الله، و لم يعطكموها لتكنزوها»(3).

ثم رسم الخطوط الأولى لإنفاق المال في سبل مشروعة مستقيمة يؤدي فيها المال مطالب الحياة الطيبة الكريمة لأصحابه فيسعدهم و يسعد من حولهم. فعند ما سأله رجل عن وجوه النفقات، بيّن كل وجوه استهلاك المال في حياة المسلم مما هو في سبيل الوجوب و الندب في جدول منظم؛ فقال:

«أما الوجوه التي فيها إخراج الأموال في جميع وجوه الحلال المفترض عليهم و وجوه النوافل كلّها، فأربعة و عشرون وجهاً، منها سبعة وجوه على خاصة نفسه، و خمسة وجوه على من تلزمه نفسه. و ثلاثة وجوه مما تلزمه فيها من وجوه الدين.

و خمسة وجوه مما تلزمه فيها من وجوه الصلوات. و أربعة أوجه مما تلزمه فيها النفقة من وجوه اصطناع المعروف»(4).

ص: 378

1- سعيد أبو الفتوح بسيني، الحرية الاقتصادية في الإسلام و أثرها في التنمية، دار الوفاء، المنصورة، 1988، ص 465.

2- سورة البقرة، جزء من الآية 254.

3- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 57، ح 1693.

4- الحراني، تحف العقول، ص 331.

فتأتي توجيهاته على مصاديقها من الإنفاق على النفس والأهل، و ما يستحق أن ينفق الإنسان في العبادات و الحقوق الاجتماعية ممّا يؤدي إلى الارتقاء النفسي و الروحي، و هذا ما ينصه:

«فأما الوجوه التي تلزمه فيها: النفقة على خاصة نفسه فهي مطعمه و مشربه و ملبسه و منكحه و مخدمه و عطاؤه فيما يحتاج إليه من الأجراء على ترميم متاعه أو حمله أو حفظه، و شيء يحتاج إليه من نحو منزله أو آلة من الآلات يستعين بها على حوائجه.

و أما الوجوه الخمسة التي تجب عليه النفقة لمن تلزمه نفسه فعلى ولده و والديه و امرأته و مملوكه لازم له ذلك في حال العسر و اليسر.

و أما الوجوه الثلاثة المفروضة من وجوه الدين فالزكاة المفروضة الواجبة في كل عام و الحج المفروض و الجهاد في إبانه و زمانه.

و أما الوجوه الخمسة من وجوه الصلوات النوافل فصلة من فوجه و صلة القرابة و صلة المؤمنين و التنفل في وجوه الصدقة و البر و العتق.

و أما الوجوه الأربعة فقضاء الدين و العارية و القرض و إقراء الضيف و اجبات في السنة»(1).

و من الجدير بالذكر أنّ الصادق في ذكر مجموع النفقات التي فرضها الإسلام على الفرد، يلفت نظر السائل و الآخرين إلى إشباع الرغبات المعنوية إضافة إلى إشباع الرغبات المادية.

و ذلك على النقيض من الاقتصاديات الوضعية التي قصرت عنايتها على الجانب المادي دون مراعاة أو التفات إلى الجوانب الأخرى كالقيم و المبادئ الأخلاقية و الروحية في الاستهلاك.

فقد أدخل الإمام في السلة الاستهلاكية للمسلم ما يسميه حق الله في المال و ما يذكر في باب التكافل و التضامن في المجتمع الذي «يشير الشعور بالأخوة و المحبة بين الأفراد من جهة و يؤدي إلى الفرح الداخلي العظيم في المنفق من جهة أخرى؛ لأنه قد أدى حق الله في المال الذي استخلفه فيه و طهر نفسه بالصدقات المندوبة كما طهر ماله بالصدقات المفروضة»(2).

و هكذا يرى الإمام المعلم أداء هذه الحقوق من أسباب السعادة للفرد و المجتمع.

ص: 379

1- المصدر نفسه و المكان نفسه.

2- فوزي عطوي، الاقتصاد و المال في التشريع الإسلامي و النظم الوضعية، دار الفكر العربي، بيروت، 1988، ص 26 و 27 بتصرف.

كما ورد على لسانه: «لو أنّ الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير»(1).

ويحدّر الأمة من منع هذه الحقوق بقوله: «من منع حقاً لله عزّ وجلّ أنفق في باطل مثليه»(2).

بناء على هذا يركّز الصادق منهجه التربوي أولاً على إلزام الناس بأداء ما فرض الله عليهم من الزكاة كضريبة اجتماعية وبما أنّ الإنسان قد يتصور أحياناً أن ماله سيفنى بأداء الزكاة و سيزداد بمنعه، هو يؤكد أن الله تبارك و تعالی يثيب فاعل الزكاة بالبركة و نماء الأموال، فيقول:

«ما من رجل أدى الزكاة فنقصت من ماله، و لا منعها أحد فزادت في ماله»(3).

ثانياً: يشجع الإمام أتباعه على دائرة أوسع من الواجبات بالتأكيد على الوجوه الخيرة من الصدقة و البرّ و الإيثار حتى لا يغيب عن بالهم، الفقير المحتاج لحظة فيما يمارس من نشاطه الاقتصادي كقوله:

«أ ترون أنّما في المال (مال) الزكاة وحدها؟ ما فرض الله في المال من غير الزكاة أكثر، تعطي منه القرابة، و المعترض لك ممن يسألك»(4).

هكذا يوضّح الإمام أنّ في المال حقاً غير الزكاة ممّا يجني ثمراته المجتمع الإسلامي، «و هو خلق نوع من الترابط و التماسك و الإحساس الجماعي المشترك مادياً و معنوياً بين أفراد الجماعة الإسلامية»(5) فهو يراقب تلاميذه بأداء هذه الحقوق و مواساتهم الفقراء و تخفيف العبء عنهم، كما روي أنه خاطب أحد أتباعه بقوله:

«إنك رب مال كثير فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة؟» قال: نعم. قال الإمام: «فتخرج الحق المعلوم من مالك؟» قال: نعم.

قال: «فتصل قرابتك؟ و تصل إخوانك؟» قال: نعم. قال: يا فلان إن المال يفنى، و البدن يبلى، و العمل يبقى و الدين حي لا يموت. ما قدمت فلم يسبقك، و ما أخرت فلن يلحقك»(6).

فبهذا الترغيب و التهيب يريد الإمام أن يحزّر تلميذه من عبودية المال.8.

ص: 380

1- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 4، ص 49، ح 128.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص 25، ح 2.

3- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 11، ح 1590.

4- الكليني، فروع الكافي، ج 3، باب تفضيل القرابة في الزكاة، ح 551.

5- رفعت السيد العوضي، في الاقتصاد الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة، مؤسسة الخليج، قطر، 1410، عدد 24.

6- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 7، ح 1578.

وهكذا كانت توجيهات الصادق تحوّل اتجاه الاستهلاك في المسلم و مسار إنفاقه للمال من التسابق على إشباع الرغبات و الاستجابة للزعات و التفتّن في أساليب الحياة و ألوان البذخ، إلى تحمل الهموم الكبيرة و الإحساس بالمسؤولية إزاء الآخرين.

و لا- يكتفي النظام التربوي الاقتصادي في فكر الإمام بمجرد الكلام و طرح النظريات في سبيل تحقيق أهدافه و إنّما يعمد إلى التطبيق العملي لهذه الأمور؛

فكان الإمام يقوم بنفسه بتقديم مساعدات مالية لأهل الحاجة و توزيع ماله عليهم و العمل على إغناء الناس و إزاحة كابوس الفقر عن كواهلهم.

كما روى أحد تلاميذه قال: قلت للإمام: «بلغني أنك كنت تفعل في غلة «عين زياد» شيئاً، و أنا أحبّ أن أسمعك منك. قال: فقال لي: نعم كنت أمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم، ليدخل الناس و يأكلوا؛ و كنت أمر في كل يوم أن يوضع عشر ثبنا، يقعد على كل ثبنة عشرة، كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى، يلقي لكل نفس منه مد من رطب. و كنت أمر لجيران الضيعة كلهم - الشيخ و العجوز و الصبي و المريض و المرأة و من لا يقدر أن يجيء - فيأكل منها، لكل إنسان منهم مدّاً؛ فإذا كان الجذاذ، أوفيت القوّم و الوكلاء و الرجال أجرتهم، و أحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوتات و المستحقين الراحلتين و الثلاث و الأقل و الأكثر، على قدر استحقاقهم، و حصل لي بعد ذلك أربعمائة دينار. و كانت غلّتها أربعة آلاف دينار»(1).

تحديد الإنفاق و الإلزام به:

إشارة

يقصد من الاستهلاك في الاقتصاد الوضعي، الاستهلاك نفسه أي إشباع رغبات المستهلك، و ما دامت هذه الحاجات مدعمة بالقدرة على الشراء يعنى بها، و يوضع لها حدود، لذلك «لا تتجّه السياسات الاقتصادية الوضعية نحو ترشيد الاستهلاك الفردي للسلع، و الخدمات، إلا انبعاثاً من وجود ندرة في عرض بعض السلع، و الخدمات، و عدم قدرة المعروض منها، على مواجهة المطلوب»(2).

أما الاستهلاك في الإسلام فإنه ليس غاية للوجود الإنساني بحد ذاته، و إن كان غاية للنشاط الاقتصادي فالمجتمع المسلم يستهلك ليعيش و لا يعيش ليستهلك، و يهدف الاستهلاك فيه إلى تحقيق غايات أخلاقية و عقديّة و إنسانية.

على هذا ركّز تنظيم الإنفاق للمستهلك المسلم و توجيه اختياراته في الاستهلاك وفقاً لهذه الأهداف.

ص: 381

1- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص 140.

2- بيلي إبراهيم أحمد العلمي، السياسة الاقتصادية الإسلامية لترشيد الاستهلاك الفردي، جامعة القاهرة، 2000، ص 1.

فالإسلام وإن كان يبيح الإنفاق بل يأمر به إلا أنه قد جعل له قيوداً حتى مع وجود وفرة في المعروض من السلع والخدمات، فلا يجوز للمسلم أن يتخطى هذه الحدود.

وقد أكد الإمام الصادق في مدرسته التربوية على هذا المنهج الاقتصادي الإسلامي لترشيد الإنفاق الفردي وأرشد تلاميذه إلى أسلوب التحديد الكمي والنوعي للاستهلاك مما يعرفنا أن المسلم لا بد أن يتعلم ويحسن عن طريق الوعي والتربية: ما ذا يستهلك؟ وكم يستهلك؟ ولم يستهلك؟ وفي هذا البحث سوف نتناول أهم إرشاداته في هذا المجال:

1 - التحديد الكيفي:

لقد امتازت البرامج الترشيدية في مدرسة الصادق، بأنها تنظم حياة الفرد اليومية على استهلاك الطيبات واجتناب الخبائث عبر تفصيل الضوابط الشرعية للاستهلاك.

قال تعالى: وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ (1)

لأن الإسلام لا يسمح لأي فرد بأن يصرف ماله على نزواته وفيما حرم الله أو يستهلكه في غير موضعه، ولكنه يوجه الفرد لاستهلاكه فيما ينفع، ليحقق الغرض منه.

من هنا تختلف السلع والخدمات التي يستهلكها المسلم من غيره.

فالإمام الصادق عند ما يوجه تلاميذه إلى أحكام الحلال والحرام في إشباع الحاجات الضرورية كالأكل والشرب يسوق ذهنية الأمة إلى قضية النفع والضرر أو الصلاح والفساد للإنسان حتى يرببهم على أنماط الاستهلاك السليمة والواعية وهذا ما ينصّه:

«فأما ما يحل ويجوز للإنسان أكله مما أخرجت الأرض فثلاثة صنوف من الأغذية: صنف منها جميع الحب كله من الحنطة والشعير والأرز والحمص وغير ذلك من صنوف الحب وصنوف السماسم وغيرها.

كل شيء من الحب مما يكون فيه غذاء الإنسان في بدنه وقوته فحلال أكله وكل شيء تكون فيه المضرة على الإنسان في بدنه فحرام أكله إلا في حال الضرورة وكذلك من جميع صنوف الثمار وجميع صنوف البقول والنبات....» (2).

وبما أن المنفعة والمضرة ليست مقتصرة على جسد الإنسان فحسب بل تشعل كل النواحي الصحية والنفسية والاجتماعية.

فإن الإمام يلفت أنظار تلاميذه إلى تأثير بعض السلع على النواحي العقلية التي تؤدي إلى حرمة، كقوله:

ص: 382

1- سورة الأنعام، جزء من الآية 119.

2- الحراني، تحف العقول، ص 337.

«و ما يجوز من الأشربة من جميع صنوفها، فما لا يغيّر العقل كثيرة فلا بأس بشربه و كل شيء منها يغيّر العقل كثيرة فالقليل منه حرام»(1).

فمما ينجم عن هذا التوجيه أنّ الاستهلاك لا بد أن يتوجه إلى الطيبات التي بها قوام طاقات الإنسان و قدراته الجسدية و العقلية و الروحية.

و المستهلك عند ما يتخذ قرار إشباع حاجاته لا بدّ له من «تجنب جميع السلع و الخدمات التي يثبت قطعاً أنّها ضارة بالصحة أو بالأخلاق، أو تلك التي يتضمن استهلاكه لها انغماساً واضحاً في ترف الحياة الدنيا و تذييراً لا يستحسنه إلا الشيطان»(2).

على صعيد آخر يحاول الإمام في مسيرته التربوية تغيير النمط الاستهلاكي في المجتمع، و الذي يتمثل في إرشاداته إلى عدم اقتصار الإنفاق، على شراء السلع الاستهلاكية البحتة، حتى يدخر الفرد شيئاً من ثمن السلعة، عن طريق مساهمته في العملية الإنتاجية، و هو يعتبر هذا الأمر من الطرق الأساسية للقضاء على الفقر، كما ورد عنه قوله في هذا الصدد: «شراء الحنطة ينفي الفقر، و شراء الدقيق ينشئ الفقر، و شراء الخبز محق»(3).

هذا التوجيه التربوي تضمن إشارة لطيفة إلى مراحل متتالية في تحويل المواد الأولية إلى إنتاج السلعة النهائية، ثم يبيّن بأنّه كلما ازدادت المساهمة في الإنتاج، كلما ابتعد الفرد و المجتمع عن الفقر و هذا بادّخار القيمة المضافة(4) التي حصل عليها الفرد عن طريق مساهمته نفسه.

هكذا نرى بأنّ الإمام في مسيرته التربوية قد اهتمّ بتوجيه الطلب الاستهلاكي إلى الطلب الإنتاجي من جهة و الالتفات إلى قاعدة المصلحة و النفع البشري - بدنا و عقلا و روحا - في نوعية السلع الاستهلاكية من جهة أخرى، حتى لا يذهب تلاميذه فيما لا فائدة من ورائه أو فيه ضرراً.

ص: 383

1- المصدر نفسه، ص 338.

2- أحمد عبد الرحمن يسري، دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، 1988، ص 35.

3- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 7، ص 162.

4- القيمة المضافة (Vallu added) عبارة عن الفرق بين تكاليف استخدام عناصر الإنتاج في مرحلة ما و الثمن الذي تباع به السلعة عند نهاية هذه المرحلة... و تبيّن الأهمية الكسبية لكل صناعة أو مرحلة على حدة منها. (زكي بدوي، المعجم الاقتصادي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت، ص 300).

إشارة

من أهم الأساليب الحاسمة التي اعتمد عليها الإمام الصادق لترشيد الاستهلاك الفردي هو التأكيد على التحديد الكمي للإنفاق. فهو لم يكتف في تربيته بضبط سلوك المستهلك نوعيًا، إنما يضبط درجة الكمية التي يسمح للفرد المسلم باستهلاكه من السلع.

فالإسلام أمر أتباعه بالتمتع في هذه الدنيا بالطيبات الحلال، مع ضرورة المحافظة على خط الاعتدال في هذا التمتع.

لأن «قضية الاستهلاك في الإسلام ليست كما هي في الفكر المادي المعاصر، قضية إنفاق يتناسب مع الإنتاج، أو مع ما رزقه الإنسان من رزق، بل هي قضية اعتدال في الإنفاق، مهما وسع الله سبحانه على الإنسان في الرزق»⁽¹⁾، أو على حد التعبير القرآني المحكم، في وصف عباد الرحمن المؤمنين:

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (2).

و هذا المقصد بالذات هو ما اهتم به الإمام في تعاليمه، فأوضح بأن المسلم ليس حرا طليقا في إنفاق ماله، يبذله يمنة و يسرة من غير رقيب، وإنما هو مقيد و مسؤول عن النفقة فيما أحله الله، و لذلك يقول الإمام لأحد تلاميذه:

«أ ترى الله اتتمن رجلا على مال خوّل له، أن يشتري فرسا بعشرة آلاف درهم، و يجزئه فرس بعشرين درهما؟»... (3)

و هذه المطالبة الصريحة من الإمام بوجوب ترشيد الاستهلاك و تحديده كميًا حتى في حالات الغنى و الرخاء و وفرة الإنتاج فهو لا ينهى عن التوفير لكل فرد، ذلك المستوى اللائق و الكريم من المعيشة الذي يتناسب مع ظروفه و أوضاعه، بل كما برز في تعبيره «يجزئه»، يدعو إلى الاعتدال في الأنماط الاستهلاكية و الحفاظ على النعمة مهما كانت إمكانات الفرد كبيرة.

و لذلك وجدنا من أبرز إرشاداته لتلاميذه التوكيد على وسطية الاستهلاك، أي بالقدر الذي يحقق القصد منه في كل جوانب الحياة. و هذا فيما روى عنه أبان بن تغلب:

«المال مال الله، يضعه عند الرجل ودائع، و جوّز لهم أن يأكلوا قصدا، و يشربوا

ص: 384

1- عبد الغني عبود، التربية الاقتصادية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1992، ص 157.

2- سورة الفرقان، الآية 67.

3- محمد بن مسعود، تفسير العياشي، مرجع سابق، ج 2، ص 13.

قصدًا، و يلبسوا قصدًا، و ينكحوا قصدًا، و يركبوا قصدًا؛ و يعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين و يلمّوا به شعثهم. فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالًا، و يشرب حلالًا، و يركب حلالًا، و ينكح حلالًا؛ و من عدا ذلك كان عليه حرامًا»(1).

في هذا الكلام نرى تأكيدًا على استخلافية المال، ثم الاقتصاد و الاعتدال في وجوه الاستهلاك، إضافة إلى أداء الحقوق الاجتماعية للمسلم فهو يعتبر التجاوز عن هذا الحد، خروجًا عن دائرة طاعة الله و هو حرام.

و نجد في كثير من التوجيهات التربوية للإمام ما يرسم لنا الطريق في تطبيق الاعتدال و منها:

- الحث على التقدير:

تأسيسًا على ما سبق، أكّدت مدرسة الصادق على ضرورة التدبير في المعيشة للمسلم، و ربما نستطيع أن نقول: إن من معالم حسن التدبير، الالتزام بالتقدير و الرفق في العيش، كما يقول الإمام:

«الرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال، و الرفق لا يعجز عنه شيء و التبذير لا يبقى معه شيء»(2).

و في هذا الكلام- ترغيب في اكتساب «الرفق في تقدير المعيشة أي التوسط بين التقتير و التبذير، و عبارة «لا يعجز عن شيء» يعني لا يضعف و لا يقصر عن شيء من المال لأن القليل من المال يكفي مع التقدير»(3).

و مما ينبغي أن نتأمل فيه، أن الإمام قد يوصي بقضية التقدير في الأسرة، كأنه يرى من الضروري أن تبدأ التربية الاستهلاكية من البيوت.

و قال بصدد أهمية الكيل: «و يقوتهنّ (أي الرجل عياله) بالمدّ، فإني أقوت به نفسي و عيالي. و ليقدر لكل إنسان منهم قوته، فإن شاء أكله، و إن شاء وهبه، و إن شاء تصدق به»(4).

و التقدير أكثر فضلًا عند ما يلزم الإنسان نفسه بها في حال الغنى، و يرمي بها إلى مواسة الناس و تطابق الاستهلاك الفردي مع مستوى الجماهير، كما يقول الصادق:

«فإننا نستكره أن نأكل جيدًا و يأكل الناس رديئًا»(5).

ص: 385

1- المصدر نفسه و المكان نفسه.

2- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب الرفق، ح 9.

3- محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، مرجع سابق، ج 8، ص 351.

4- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب حق المرأة على الزوج، ح 5.

5- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 7، ص 161.

فهو في سيرته العملية يعمل هكذا حينما يريد أن يعرض القدوة للآخرين، فروي في هذا الصدد أنه عند ما أصاب أهل المدينة قحط و زادت أسعار السلع فيها، قال الإمام لمولاه:

«كم عندنا من طعام؟ قال: عندنا ما يكفيننا أشهراً كثيرة. قال: أخرجه وبعه! قال: وليس بالمدينة طعام. قال: بعه! أشرت مع الناس يوماً بيوم. ثم قال:

يا فلان! اجعل قوت عيالي نصفاً شعيراً و نصفاً حنطة، فإن الله يعلم أنني واجد أن أطعمهم الحنطة على وجهها، ولكني أحببت أن يراني الله قد أحسنت تقدير المعيشة»(1).

- التحذير من الإسراف و الإفراط:

من معالم التربية الاقتصادية في مدرسة الصادق التحذير من الإسراف أي «مجاوزه القصد»(2) و هو: «صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي، بخلاف التبذير، فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي»(3).

فالنهى عن الإسراف يمثل تحديداً كمياً لنفقات المعيشة كما أن المنع من التبذير يمثل تحديداً كيفياً للتصرف في المال، لأن «التبذير، الجهل بمواقع الحقوق و السرف بالجهل بمقادير الحقوق»(4).

فالإمام الصادق يريد أن يكون الرقابة الذاتية لدى الفرد بحيث يراقب نفسه بنفسه في كل شيء و عن طريق تقوى الله، لذلك يرشد تلاميذه بقوله:

«إنّ القصد أمر يحبه الله و السرف أمر يبغضه الله»... «اتق الله و لا تسرف و لا تقتروا و كن بين ذلك قواماً و إن التبذير من الإسراف»(5).

وقد سعى إلى تحويل هذه المبادئ العامة إلى إجراءات سلوكية في تربية تلاميذه، عبر تبين مظاهر الاستهلاك الخارجة عن الوسطية، في الحياة اليومية كقوله:

«إنما السرف أن تجعل ثوب صونك(6) ثوب بذلتك»(7).

ص: 386

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 47، ص 60.

2- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ج 3، ص 151.

3- الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، 1969، ص 24.

4- أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا و الدين، تحقيق مصطفى السقاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398، ص 187.

5- الكليني، فروع الكافي، ج 4، باب فضل القصد، ح 2 و باب فضل الزكاة، ح 14.

6- ثياب الصون: التي تلبس للتجمل و البذلة: الثوب الرث الخلق و ثوب الخدمة و ما يلبس كل يوم.

7- الطبرسي، مكارم الأخلاق، مرجع سابق، ص 156.

وقال: «أدنى الإسراف هراقة فضل الإناء، وابتذال ثوب الصون، وإلقاء النوى»⁽¹⁾.

ومن أهم هذه الإجراءات، توجيهه إلى المحافظة الشديدة على الموارد، وعدم السماح بهدرها في الاستهلاك، وقد روي «أنّه نظر إلى فاكهة قد رميت من داره لم يستقص أكلها، فغضب الإمام وقال: ما هذا؟ إن كنتم شبعتم فإن كثيرا من الناس لم يشبعوا، فأطعموه من يحتاج إليه»⁽²⁾.

يمقت الإمام هذا السلوك الاستهلاكي لما له من تأثير سيئ على الأفراد والمجتمعات؛ لأن فيها ظلما للفقير والمسكين. وعليه، تجيء توجيهاته بأن يعرف معيارا لمصاديق الإسراف حتى لا يخطئ الناس فيها بقوله:

«ليس فيما أصلح البدن إسراف إنما الإسراف فيما أتلف المال وأضر بالبدن»⁽³⁾.

- غرس روح القناعة:

إنّ حالة الحرص والطمع هي العامل لشقاء الإنسان وغرقه في الملذّات المادية والدينيوية، فالحرص يطلب الغنى من خارج ذاته ووجوده في حين أن أصل الغنى وحقيقته يجب أن يحصل عليها الإنسان من داخله.

وهذا ما يقصد إليه الصادق في تربيته عند ما يتحدّث عن واقع الإنسان في الحياة بقوله:

«مطلوبات الناس في الدنيا الفانية: الغنى، والدّعة، وقلة الاهتمام، والعزّ، فأما الغنى فموجود في القناعة، فمن طلبه في كثرة المال لم يجده...»⁽⁴⁾.

وذلك لأنّ القناعة هي التي تورث الإنسان الطمأنينة والهدوء النفسي في الحياة، والإنسان عند ما تصاب روحه بالحرص، فإنّه لو ملك الدنيا بما فيها فإنه يعيش فقيرا كذلك، ولكنّه إذا عاشت روحه الغنى الذاتي ولم يجد في نفسه طمعا، فلو سلب من جميع ما في الدنيا فإنه يعيش الغنى كذلك.

وهذا ما أشار إليه الإمام في معالجة المشكلة التي شكها فيها رجل إليه: «أنه يطلب فيصيب ولا يقنع و تنازعه نفسه إلى ما هو أكثر منه، و قال: علمني شيئا أنتفع به، فقال أبو عبد الله:

ص: 387

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 72، ص 303.

2- المصدر نفسه، ج 63، ص 432.

3- الكليني، فروع الكافي، ج 6، باب فضل القصد، ح 10.

4- الصدوق، معاني الأخبار، ص 23.

«إن كان ما يكفيك يغنيك، فأدنى ما فيها يغنيك، وإن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يغنيك»(1).

فالإمام يلفت نظر الرجل إلى النظام الحكيم الحاكم على هوية الإنسان وفطرته ويرشده إلى الحد المناسب لواقع الوجود الإنساني وهو حد القصد والاعتدال، فيدعوه إليه ويعلمه اكتساب الغنى النفسي بجوهره البناء وهو الاستغناء بالكفاف.

- النهي عن التقتير والتفريط:

يعرّف التقتير بأنه «إنفاق أقل مما ينبغي فيما ينبغي وهو عكس الإسراف إذ إن - التقتير - إنفاق أقل من حد الاعتدال»(2).

فالإمام جعفر عند ما يحذّر من الإسراف والترف وتبديد الموارد الاقتصادية، فإنه ينهى في الوقت نفسه عن الشح والبخل والتقتير وفقا لمنهج الاعتدال في الاستهلاك.

فهو يذمّ حرمان النفس من التمتع بالمباحات المتاحة والطيبات من الرزق مؤكدا على الآية الشريفة: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ (3).

ويحث تلاميذه على الانتفاع بزينة الله التي خلقها لعباده في مثل قوله:

«اتخذوا الدابة فإنها زين... ومن سعادة المرء دابة يركبها في حوائجه ويقضي عليها حقوق إخوانه»(4).

ويؤكد المعنى نفسه في حديث آخر فيقول: «ما أنفقت من الطيب فليس بسرف»(5).

وعند التأمل في النصوص الواردة عنه قولاً وفعلاً يتضح لنا مدى اهتمامه بالتربية الجمالية لتلاميذه.

وقد يتحدّث عن الله بأنه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، مؤكداً بأنها طريق إلى شكر الله تعالى حيث يقول:

«إظهار النعمة أحب إلى الله من صيانتها فإياك أن تتزّين إلا في أحسن زيّ قومك»(6).

ص: 388

1- الكليني، أصول الكافي، ج 2، باب القناعة، ح 10.

2- أمين منتصر، نظرية سلوك المستهلك في الاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، د. ت. ص 60.

3- سورة الأعراف، الآية 32.

4- الطبرسي، مكارم الأخلاق، مرجع سابق، ص 262.

5- الكليني، فروع الكافي، ج 6، باب الطيب، ح 16.

6- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 3، ص 342.

فهو على صعيد سلوكه الشخصي كان هكذا، وهو بصفته أحد المرين الكبار يظهر في المجتمع بشكل رائع وجميل حيث ورد عن سفيان الثوري أنه قال:

دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خزّ دكناء وكساء خزّ، فجعلت انظر إليه تعجبا، فقال لي: «يا ثوري، ما لك تنظر إلينا؟ لعلك تعجب ممّا ترى» فقلت له:

يا ابن رسول الله؟، ليس هذا من لباسك ولا لباس أبائك!

فقال: «يا ثوري، كان ذلك زمان افتقار، و كانوا يعملون على قدر إقتاره و افتقاره، و هذا زمان قد أسبل كل شيء عزاليه. ثم حسر رذن جبته، فإذا تحتها جبة صوف بيضاء يقصر الذيل عن الذيل و الرذن عن الرذن، و قال: يا ثوري، لبسنا هذا لله و هذا لكم، فما كان لله أخفينا، و ما كان لكم أبديناه»(1).

فقد أشار الإمام في كلامه إلى تغيير الأحوال و الشرائط مع مضي الزمن، و أكد تأثير هذا الأمر على المستوى المعيشي مبينا بأن الزهد في نعم الله ليس فضيلة، إنما الفضيلة هي في تمتع الإنسان بها في حدود القيم التي رسمها الدين لإثراء سعادته، و منها عدم إغراق الفرد في اللذات الدنيوية إضافة إلى تعويد نفسه على تحمل الظروف الصعبة قبل وقوعها كالتعود على خشونة الطعام و الملابس.

و قام الإمام بهذه التربية على أكمل وجه عند ما يعرف الزهد تعريفا دقيقا يتضمن تحذيرا من التباس هذه المرتبة الإيمانية بالتقتير و التقشف، و هذا ما ينص عليه قائلا:

«ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال و لا- بتحريم الحلال بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عزّ و جلّ»(2).

فالصادق بهذا التوجيه التربوي، يلفت الأنظار إلى أن الزهد حالة نفسانية، تتحقّق باطمئنان الإنسان إلى قدرة الله و عطائه، و ليس هو تحريم الحلال و منع الجود و العطاء على نفسه و على الآخرين. و هكذا يربي الإمام تلاميذه بحدود الاستهلاك السليم: لا إسراف و لا تقتير بل إنفاق بالتقدير و القناعة و هذه هي الرسالة التي تقوم على منهج الاعتدال في تربية الخلق ليصبحوا أنموذجا يحتذى في المجتمع.1.

ص: 389

1- أبو نعيم، حلية الأولياء، ج 3، ص 193 /الشافعي، مطالب السؤول، مرجع سابق، ج 2، ص 56.

2- الصدوق، معاني الأخبار، مرجع سابق، ص 251.

المبحث الثاني البناء المهني

- مفهوم المهنة وأهميتها

- الجانب المهني في فكر الإمام التربوي

- تصنيف المهن و الحرف في مدرسة الصادق

- أخلاقيات المهن و الحرف في مدرسة الصادق

ص: 391

إن التربية الإسلامية تهدف إلى بناء إنسان مسلم عارف بدينه و يتصرف وفق قواعده و مبادئه، و في الوقت ذاته ترمي إلى تخريج إنسان قادر على أن يعيش حياة كريمة في المجتمع، يقدر أن يعطيه و يسهم في حركة بنائه و دفعه و تطوير الحياة فيه من خلال عمل معين يتقنه و يجيده.

لذلك فإن التربية المهنية جزء من التربية الشاملة في الإسلام، و هي العملية التي تجمع كل القيم العلمية و الاجتماعية و الخلقية حول مهنة معينة و تقدمها للفرد لإعداده للقيام بتلك المهنة.

و من البديهي أن من عوامل تخلف المجتمع افتقاره إلى الكوادر الفنية و المهنية. فتوافر مثل هذه الكوادر يوفر للمجتمع الجانب المادي في نموه و قوته و استمراره؛ و هنا تبرز ضرورة التوجيه التربوي للقدرات و المهن و التكنولوجيا في أي مجتمع يسعى إلى التغيير و التطور.

إذ «إن العمل و التنمية صنوان لا يفترقان، فلا تنمية بغير عمل، و لا يمكن أن نتصور التنمية الحقيقية بغير عمل»⁽¹⁾. فإذا أراد المجتمع أن ينمي نفسه فلا بد أن يأخذ بالاتجاه العملي.

من هنا نجد أن الإمام الصادق قد اهتم بهذا الجانب من التربية في مدرسته؛ لأنها من العوامل التي تدفع الأمم إلى الرقي، و تحافظ على كيانها، بل إنها من الركائز التي يركز عليها الاقتصاد في كل بلد من البلدان. فشجع تلاميذه على دراسة كل مهنة أو فن أو صناعة مما يحتاج إليه المجتمع و اكتساب المهارات فيها و تعلم ضوابطها و آدابها و أخلاقياتها، لكي يعدّهم إعداداً مهنيّاً لأداء وظيفتهم في الحياة.

ستحاول هذه الدراسة من خلال النصوص الواردة في تعاليم الإمام أن نتناول مدى اهتمام الإمام بالحرف و المهن و مدى ما وصل إليه الاتجاه الحرفي و المهني في تربيته و ما يمكن أن نستفيد من ذلك عند التخطيط التربوي لنهضتنا الحضارية و العمرانية الآتية و المستقبلية.

ص: 393

1- عبد العزيز الخياط، نظرة الإسلام للعمل و أثره في التنمية، دار السلام للطباعة، القاهرة، 1989، ص 72.

المهنة لغة: الحذق بالخدمة والعمل والماهن: الخادم وقد مهن القوم أي خدمهم(1).

وفي الاصطلاح: «مجموعة من الأعمال المتشابهة التي تنتمي إلى عائلة مهنية واحدة بحيث يستطيع الشخص أن يمارسها بعد تدريب طفيف لتوجد الارتباط بين تلك الاعمال»(2). فلكل مهنة أسسها العلمية، «و من الضروري أن يكون لدى صاحب المهنة معلومات و مهارات متخصصة في المجال الذي يقوم بالعمل فيه، ثم عليه أن يستخدم هذه المعلومات و المهارات في تعلم أو توجيه أو تقديم خدمات لأعضاء المجتمع الذي يعيش فيه»(3).

إن المسلم مطالب بأن يعمل في إطار الدنيا مبتغيا وجه الله سبحانه و تعالى، وفي هذا الإطار نادى الإسلام بضرورة تدريب الفرد المسلم على الاشتغال بمهنة و تزويده بمهارات مناسبة يكسب منها عيشه. حتى يعتبر أن «بعض المهن و الحرف حسب تدرج أهميتها في حياة البشر إنما هي فروض كفاية لا يجوز أن يخلو منها المجتمع؛ لأنه يعرض أفراده إلى المشقة الحياتية»(4).

و من هنا كان للإسلام دور عظيم في نشر الحرف و المهن و الصناعات بين المسلمين، و يتضح ذلك مما نراه في كثير من مظاهر الحياة الإسلامية.

ص: 394

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة مهن، ص 424.

2- سيد عبد الحميد مرسي، الشخصية المنتجة، مكتبة وهبة، القاهرة، 1985 م، ص 13 (بتصرف).

3- محمد منير سعد الدين، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، مرجع سابق، ص 101.

4- عبد الرحمن النقيب، مدخل لدراسة الاتجاه الحرفي و المهني في التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، المنصورة، د. ت، ص 121.

إنَّ الله قد فوّض إلى الإنسان عمارة الأرض و جعله يعمل و يسعى فيها و يسير في أرجائها ليعمرها و يستخرج منها أرزاقه. ثم أعطى البشر من الطاقات و الاستعدادات و الإمكانيات ما يتناسب مع العمل على الأرض و أداء هذه الرسالة.

على ضوء هذا الأمر جاء في تعاليم الصادق ما يدلّ على هذا التناسق بين خلقة الإنسان و مهمته في الكون فقال: «فأما الإنسان فإنه ذو حيلة و كفّ مهياً للعمل فهو ينسج و يغزل و...»⁽¹⁾.

فالإمام يبين بأنّ الله تعالى أمد الإنسان بما يحتاج إليه في العمل و هما أمران: قوة الفكر (فإنّه ذو حيلة) و طاقة العمل (كفّ مهياً)، و يريد سبحانه و تعالى أن يكون الإنسان كادحا عاملا مؤديا دوره في الحياة. و بما أنّ المهن و الحرف وسيلة للإنسان في طلب معاشه، فلا بدّ له من الاشتغال بمهنة أو حرفة حتى يستطيع أن يشبع حاجاته.

و هذا ما أشار إليه الصادق في كلامه، فقال ما نصّه:

«و جعل سبحانه أسباب أرزاقهم - الناس - في ضروب الأعمال، و أنواع الصناعات، و ذلك أودم في البقاء، و أصح في التدبير.»⁽²⁾

و الواقع أنّ «الاشتغال و تحمل المسؤولية هو من ضروريات الحياة الحرة الكريمة في المجتمعات البشرية و من يطمح لينال نصيبا من مزايا المدنية و يأكل لقمته بعز و كرامة عليه أن يكون عضوا نافعا في المجتمع و يأخذ على عاتقه عملا في حدود كفاءته و قدرته لينتفع من نتاج عمله هذا الآخرون مثلما ينتفع هو من نتاج عمل الغير.»⁽³⁾

على هذا الأساس يرى الصادق خلق المناخ الثقافي المرّبي الذي يوجّه نحو العمل و المهنة أساسا هاما في أي عملية تغيير و بناء، فهو يرمي إلى هذا الهدف التربوي، و انطلاقا منه قد يعبر عن العمل بالعزّة فقال لمولى له: «يا عبد الله احتفظ بعزّك، فقال:

و ما عزّي؟ قال: غدوك إلى سوقك و إكرامك نفسك»⁽⁴⁾

ص: 395

1- كاظم مظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص 61.

2- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 10، ص 171.

3- محمد تقي فلسفي، الشاب بين العقل و العاطفة، مرجع سابق، ج 2، ص 309.

4- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 7، ص 4، ح 12.

كما قد يشير إلى دور العمل في احتفاظ الإنسان بموقعه و مكانته بين الناس، فحين قال له أحد تلاميذه: «إني هممت أن أدع السوق، وفي يدي شيء». فقال:

«إذا يسقط رأيك، ولا يستعان بك على شيء.»⁽¹⁾

وبما أن البطالة تعتبر آفة اقتصادية تقتك بالمجتمع، فهو يرفع صوته عالياً ليَهْزَ أعماق المجتمع و يحرك نواة وعيه و ذلك بهدف التحذير من الوقوع في شبك البطالة و الكسل فيقول:

«من كسل عما يصلح به أمر معيشته، فليس فيه خير لأمر دنياه.»⁽²⁾

فهو يعتبر السعي في تدبير أمر المعيشة معيار الخير لدى الإنسان في دنياه، فمن كسل عن هذا الأمر فلا خير فيه، ولا يصلح لأمر الدنيا.

و بينما نرى القوانين الوضعية للبطالة ينبثق من خارج الإنسان، فإننا نرى الصادق يعمل على معالجة هذه الظاهرة من ذاتية الإنسان حتى يكون دافع الإنسان للعمل نابعا من داخله لا من الخارج.

و للتغلب على هذه الظاهرة الهدامة و توجيه ثقافة الناس إلى السعي و الجهد، فإنه ينفي فكرة احتقار بعض الناس لبعض الأعمال و يعلم أصحابه أن لكل حرفة قيمة اجتماعية، مهما كان نوعها، و أن الهوان و الضعة في الاعتماد على معونة الناس.

قد روي في هذا الصدد أن رجلا أتى أبا عبد الله فقال: «إني لا أحسن أن أعمل عملا بيدي، و لا أحسن أن أتجر و أنا محارف محتاج، فقال: اعمل فاحمل على رأسك و استغن عن الناس.»⁽³⁾

فالإمام يعالج هذه المشكلة بالعمل في حمل المتاع و نقل البضائع و هذا ما لا يحتاج إلى رأس مال كالتجارة و لا إلى الخبرة و الممارسة كما في الصناعات، فهو ينقل ما يريد الآخرون نقله و يأخذ بدله أجرة و بذلك يغنيه عن سؤال الناس؛ لأن الحرفة مهما كانت بسيطة و متواضعة، ترفع قدر الإنسان و تحفظ عليه كرامته من ذل المسألة.

و الأمر الذي يجب إمعان النظر فيه، أن لكل مهنة أخلاقيات خاصة تؤثر على نفس الإنسان و شخصيته، ذلك لأن مهنة الشخص و إجراءاته، هو تكرار أعمال معينة و مميزة تتبدل إلى عادات الشخص و سلوكه و تترك أثرا عميقا على ذات الإنسان.

إن الصادق كعالم تربوي لم يغفل عن هذا، فقد ذكر لأتباعه بعض التأثيرات².

ص: 396

1- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب فضل التجارة، ح 10.

2- الحويزي، تفسير نور الثقلين، مرجع سابق، ج 1، ص 567.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 22، ح 21922.

السلبية لبعض المهن على شخصية الفرد محذرا من تلك الانعكاسات السلبية على نفسية الإنسان وعلى سلوكه. فقال لأحد تلاميذه عند ما سأله في أي الاعمال أضع ولدي؟ فقال:

«إذا عدلته عن خمسة أشياء فضعه حيث شئت، لا تسلمه صيرقيًا فإن الصيرفي لا يسلم من الربا، لا تسلمه بياع الأكفان فإنّ صاحب الأكفان يسره الوبا إذا كان ولا تسلمه بياع الطعام فإنه لا يسلم من الاحتكار، ولا تسلمه جزّارًا فإنّ الجزار تسلب منه الرحمة، ولا تسلمه نخاسا، لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: شر الناس من باع الناس»⁽¹⁾.

و هذا التوجيه التربوي يتضمن كيفية تأثير بيئة عمل أي فرد في بناء شخصيته الاجتماعية و صفاته الأخلاقية، و مدى اهتمام الإمام بهذا الأمر في تربيته المهنية، مذكرا بمسؤولية الآباء في إرشاد أولادهم عند اختيارهم المهن و الحرف).

ص: 397

1- الطوسي، الاستبصار، ج 3، ص 62، ح 208 و ورد حديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم بهذا اللفظ: «شر الناس الذين يبيعون عن ناس» (كنز العمال، ج 4، ص 38، ح 9391).

إشارة

إن المهن و الحرف بصفة عامة متعددة و شاملة بتنوع وجوه المعاش و قدرات الناس، و قد ذكر الإمام الصادق في إرشاداته التربوية بعض هذه المهن و الحرف في مواضيع عديدة و بأساليب مختلفة؛ من خلال أطلعنا على النصوص الواردة عنه يمكن القول بأنه أشار إلى ثمانية عشر نوعا من المهن على أساس نوعية العمل التي تختلف باختلاف مجال العمل.

و هذه الأنواع هي: الزراعة و الرعي و التجارة و الصناعة و الإمارة و الإجارة و التعليم و الكتابة و الحساب و الصياغة و السراجة و البناء و الحياكة و القصارة و الجزارة و الصرافة و الخياطة و صنعة صنوف التصاوير.

كما يصنف وجوه المعاملات فيما بين العباد مما يكون لهم فيه المكاسب، بأربع جهات و أوضح بأن: «أول هذه الجهات الأربع الولاية و توليه بعضهم على بعض، فالأول ولاية الولاية و ولاية الولاية إلى أدناهم بابا من أبواب الولاية على من هو وال عليه. ثم التجارة في جميع البيع و الشراء بعضهم من بعض، ثم الصناعات في جميع صفوفها. ثم الإجازات في كل ما يحتاج إليه من الإجازات...»⁽¹⁾.

و من أهم الخطوات التي خطاها الإمام في تربيته المهنية هي ربط هذه المهن و الحرف جميعا بالشرع و تحقيق غاياته. فهو يلفت أنظار تلاميذه بأن المسلم لا يقوم على حرفة أو مهنة إلا إذا عرف مواقف الشريعة من تلك الحرفة أو المهنة و ما يجب عليه شرعا في أدائه ذلك العمل و من ثم يظل سلوكه الوظيفي أو المهني في إطار الشريعة و أخلاقياتها السامية.

و هذا ما ورد على لسانه فقال ما نصّه: «كل هذه الصنوف تكون حلالا من جهة و حراما من جهة أخرى، و الفرض من الله على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال منها و العمل بذلك الحلال و اجتناب الحرام منها»⁽²⁾.

ص: 398

1- الحرائي، تحف العقول، ص 331.

2- المصدر نفسه، المكان نفسه.

وفي المباحث القادمة سوف نتعرض لبعض هذه المجالات التي شجعت الصادق تلاميذه عليها.

أ - الزراعة:

إن الزرع هو عطاء الأرض الذي تقدمه للإنسان من أجل أن يحيا ويعيش ويقوى على السير قدما نحو الكمال المطلوب.

«وقد ذكرت هذه المهنة في القرآن الكريم مرات عديدة، فلم تذكر مهنة أو حرفة أو مكوناتها مثلما ذكرت الزراعة في القرآن، وهذا دليل على أهميتها للفرد والمجتمع»⁽¹⁾ ونرى القرآن الكريم يوجهنا إلى حرفة الزراعة ممتنا على الإنسان بتسييرها له فيقول تعالى:

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⁽²⁾.

انطلاقا من هذا المفهوم فقد اعتبر الصادق حرفة الزراعة أطيب المهن وأحلها كسبا فقال:

«إزرعوا و ازرعوا فلا والله ما عمل الناس عملا أحلّ ولا أطيب منه»⁽³⁾.

و تدعيما لأهمية التقدم الزراعي ودوره في قدرة الشعوب وقوتها واستقلالها، يصف الإمام الزراعة بأنها «الكيمياء الأكبر»⁽⁴⁾.

ويحث الأمة عليها بالتأكيد على استمرار الانتفاع بها للإنسان حتى بعد الموت كصدقة مستمرة، و باعثا به الحافز الديني في العامل المسلم فقال: «ست خصال ينتفع بها المؤمن من بعد موته... و ذكر منها: غرس يغرسه...»⁽⁵⁾.

هكذا يتحدث الإمام عن الثواب المستمر لهذا العمل ما دام الغرس أو الزرع مأكولا منه. ورفع الإمام من شأن الفلاحين والمزارعين فاعتبرهم «كنوز الله في أرضه، و ما في الأعمال شيء أحب إلى الله من الزراعة»⁽⁶⁾.

ولم يكتف الصادق بإطلاق التأكيدات اللفظية في هذا المجال، بل زاول الزراعة

ص: 399

1- جمال محمد الهندي، التربية المهنية والحرفية في الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، 2000 ص 169

2- سورة النحل الآية 11

3- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 250، ح 3907.

4- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب فضل الزراعة، ح 6.

5- الصدوق، الخصال، ص 323

6- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 6، ص 384، ح 1138.

بنفسه فتجشم عناءها للتدليل العملي على أهمية هذا الأمر الحيوي وعند ما يتسارع الناس لمعاونته يقول:

«إني لأعمل في بعض ضياعي حتى أعرق وإن لي من يكفيني ليعلم الله عزّ وجلّ أني أطلب الرزق الحلال»(1).

ب - الرعي:

تعتبر الثروة الحيوانية البرية منها و البحرية و الجوية ركنا أساسيًا في قائمة الموارد الغذائية التي يحتاج إليها الإنسان و تقوم عليها حياته، و لهذا اعتنى الإمام جعفر بهذه الثروة باعتبارها نعمة كبرى وهبها الله للناس عليهم أن يشكروه عليها و يستفيدوا منها غاية الاستفادة.

و من هذا المفهوم فقد حثّ الإمام على تربية المواشي و الأنعام و خاصة أن بعض الناس كانوا ينظرون إليها نظرة فيها كثير من الازدراء و التحقير فقال:

«إذا اتخذ أهل بيت شاة أتاهم الله برزقها، و زاد في أرزاقهم، و ارتحل الفقر عنهم مرحلة، فإن اتخذوا شاتين أتاهم الله بأرزاقهما، و زاد في أرزاقهم، و ارتحل الفقر عنهم مرحلتين، فإن اتخذوا ثلاثة أتاهم الله بأرزاقهم، و ارتحل الفقر عنهم رأساً»(2).

فالإمام يحث تلاميذه على هذا العمل، بذكر تأثيره في محو الفقر و ازدياد الرزق.

ج - الصناعة:

إذا كان الإمام الصادق قد رغب في الزراعة و الرعي و أشاد بفضلها، فإنه لم يحصر نشاط الأمة و جهدها فيهما و أبى على أتباعه أن يكتفوا بالزرع أو الرعي وحده، بل شجعهم على أن يعملوا بمختلف الصناعات؛ و الصناعة هي «أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية، إما في مواد بعينها و تسمى الصنائع: من كتابة و تجارة و خياطة و حياكة و فروسية و أمثال ذلك، أو في مواد غير معينة: و هي جميع الامتهانات و التصرفات كالتعليم لأي علم»(3).

و الإمام يذكر بعض أنواعها إذ سأله عن وجوه اكتساب العباد بقوله:

«كل ما يتعلم العباد أو يعلمون غيرهم من صنوف الصناعات، مثل الكتابة و الحساب و الصياغة و السراجة و البناء و الحياكة و القصاراة و الخياطة و أصناف صنوف التصاوير...»(4).

ص: 400

1- الكليني، فروع الكافي، ج 5، ح 15.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 11، ص 509.

3- ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 682 ز

4- الحراني، تحف العقول، ص 335.

كما نرى من الإمام إشارة لطيفة لأحد تلاميذه، إلى أن التدبر في ظرائف الخلق الإلهي في الطبيعة والاستلهاً منها، أصبحت منشأً لظهور الصناعات عند البشر فقال:

«فانظر إلى حكمة الخلق كيف سبقت حكمة الصناعة»(1).

ثم ضرب الإمام مثالا في هذا المجال: «ألا ترى إلى عمد الفساطيط و الخيم كيف تمدّ بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبه فلا تسقط و لا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب لتمسكه و تقيمه... فصارت الحيلة التي يستعملها الصناع في تثبيت الخيم متقدمة في خلق الشجر... فالصناعة مأخوذة من الخلق»(2).

فنستطيع أن نعدّ أمثلة كثيرة كهذه في الصناعات و التقنيات التي أخذت فكرتها من الطبيعة عبر العصور.

وبما أن الصناعة تعتبر الدعامة الأساسية للإنتاج لأي شعب، على اعتبار أنها من مقومات المجتمع المتحضر، فإن الصادق يدفع تلاميذه إلى العمل في الصناعة بتحويل المواد الخام إلى سلع متنوعة يحتاج إليها الناس حتى ينتفعوا بها.

هذا ما ورد في كلامه عند ما روى عنه أبو حمزة الثمالي بأنه مرّ معه في سوق النحاس فسأل عن أصل النحاس فأجاب الإمام: «أصله فضة إلا أن الأرض أفسدتها فمن قدر على أن يخرج الفساد منها انتفع بها»(3). هكذا يشير الإمام إلى إمكانية استخراج الموارد الثمينة من المواد المعدنية في الأرض و الانتفاع بها إضافة إلى التعليم و التشجيع على ممارسة مثل هذه العمليات المنتجة و الصناعية في آن.

د - التجارة:

خلق الله سبحانه و تعالى الناس على حالة يحتاج فيها بعضهم إلى بعض، فليس الفرد يملك كل ما يحتاج إليه، بل يملك هذا ما يستغني عنه ذلك و العكس، و يحتاج إلى بعض ما يستغني عنه الآخرون، و من ثم «ألهم الله الخلق أن يتبادلوا السلع و المنافع بالبيع و الشراء و سائر المعاملات حتى تستقيم الحياة»(4).

و عند ما جاء الصادق من يرحوه أن يدعو الله له ألا يكون رزقه علي أيدي العباد، أجابه: «أبى الله عليك ذلك، أبى الله ألا يجعل رزق العباد بعضهم من بعض، و لكن

ص: 401

1- كاظم مظفر، توحيد المفضل، مرجع سابق، ص 101.

2- المصدر نفسه و المكان نفسه.

3- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 173.

4- زياد عبد الباقي، العمل و العمال و المهن في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، 1987، ص 38.

ادع الله أن يجعل رزقك على يد خيار خلقه، فإنه من السعادة، ولا يجعله على أيدي شرار خلقه، فإنه من الشقاوة»(1).

عليه، فإن الناس أسباب الرزق بعضهم بعضا وتعتبر التجارة من أهم مظاهر هذه العلاقة بينهم. و«التجارة» الكسب من البضائع وإعدادها لأغراض إما بالتقلب بها في البلاد أو احتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها»(2).

وقد حث الإمام جعفر تلاميذه على التجارة مرغبا فيها، وكان لا يألو جهدا ولا يدخر نصحا في دفعهم للعمل بالتجارة حتى إنه يذكرهم أن أكثر أسباب الرزق متعلقة بمهنة التجارة قائلا: «إن تسعة أعشار الرزق في التجارة»(3).

وبما أن الإمام في مسيرته التربوية يريد أن يبعث الدافع الداخلي القوي في أتباعه لممارسة التجارة فإنه يتحدث في إرشاداته عن أثر هذه المهنة في الخبرة العقلية فعلا وتركها، فقال:

«التجارة تزيد في العقل»(4) ويؤكد المعنى ذاته في حديث آخر حيث يقول ما نصّه - : «إن من ترك التجارة ذهب ثلثا عقله»(5).

ولم ينس هذا المفكر التربوي أن يوجّه تلاميذه بحدود التجارة وضوابطها في الإسلام، فيظهر لنا مدى اهتمامه بهذا الأمر في تربيته المهنية عند ما يعتبر التفقه في الدين أساس التجارة بقوله:

«من أراد التجارة فليتفقه في دينه ليعلم بذلك ما يحل له مما يحرم عليه و من لم يتفقه في دينه ثم اتجر تورط في الشبهات»(6).

إذا على التاجر أن يعرف ما عيّنه الله وشرعه في البيع والشراء ولا يجوز له أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

فالمصادق يشرح هذه الحدود بالتفصيل لتلاميذه حتى يفرّق لهم بين التجارة المشروعة وغيرها و سيطول الحديث لو ذهبنا ننقل من أحاديثه ما ورد في هذا الصدد من هنا فإننا سنكتفي بالإشارة هنا إلى القليل منها فقال:

«كل بيع ملهوّ به و كل منهّي عنه، مما يتقرب به لغير الله، أو يقوى به الكفر».

ص: 402

1- الحرائي، تحف العقول، ص 362.

2- ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 682.

3- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 233، ح 3858.

4- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب فضل التجارة و المواظبة عليها، ح 2.

5- الطوسي، التهذيب، ج 7، ص 4.

6- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 12، ص 283، ح 4.

و الشرك من جميع وجوه المعاصي أو باب من الأبواب يقوى به باب من أبواب الضلالة، أو باب من أبواب الباطل، أو باب يوهن به الحق، فهو حرام محرم، حرام بيعه و شراؤه... إلا في حال تدعو الضرورة فيه إلى ذلك»(1).

ذلك لأن الإسلام فرض على المسلم أن يعمل بحرف و مهنة طيبة لا تؤدي إلى الفساد و الضلال، و الإمام في منهجه يريد أن ينمي تقوى الله في القلوب لأن خشية المؤمن من عقاب الله هي حجر الزاوية في الاشتغال بالحرف و المهنة الطيبة.3.

ص: 403

1- الحرائي، تحف العقول، ص 333.

إشارة

تحتل الأخلاق بصفة عامة مكانة مهمة في تكوين شخصية المسلم مهما كانت مهنته أو حرفته، وقد تحدثنا في البحوث السابقة عن موقع الأخلاق في مدرسة الصادق، بيد أنها قد ركزت بجوار الدعوة الأخلاقية العامة، على بعض الآداب و الأخلاقيات المهمة في حياة الحرفي اليومية. ذلك لأن العمل في الإسلام يعتمد على الناحية الخلقية و التقوى، و على خشية الله أكثر مما يعتمد على الالتزام و السيطرة التي توفرها القوانين الوضعية.

فسلطان الخلق و التقوى أقوى من سلطان القانون و خشية الله تعالى حارس لا يغفل، و سلطان القانون كثير الغفلة و النسيان، و من جهة أخرى فإن «التنمية الاقتصادية عملية معقدة متعددة الجوانب و تحتاج إلى معالجة شاملة غير أن أحد جوانبها الأساسية هي القيم الأخلاقية التي تسود المجتمع»⁽¹⁾.

مدرسة الصادق بما حوت تعاليمها من أخلاقيات و قيم تدفع تلاميذها إلى هذا الاتجاه في كل الحرف و المهن، و حين تدعو المسلم إلى الامتثال فإنها تدعوه أيضا إلى تكوين مهارات فنية في مهنته و التزام الأمانة و الصدق و إيفاء الكيل و عدم الغش و الكذب و غير ذلك من الأخلاقيات التي سنتناول أهمها واحدة بعد أخرى فيما يلي:

أ - الخبرة و المهارة:

إن المهن و الحرف لا- بد أن تقوم على العلم حتى يتمكن الإنسان من السيطرة عليها و يتفهم قوانينها و يشرع في نمائها. لذلك ينبغي أن يستزيد الفرد المسلم من العلم بالقدر الذي يعينه على أداء عمله على الوجه الأكمل.

و معنى هذا «أن الإعداد المهني للفرد يجب أن يكون مسلحا له بالخبرات و المهارات اللازمة لأداء وظيفته في المجتمع»⁽²⁾.

ص: 404

1- جمال محمد الهندي، التربية المهنية و الحرفية في الإسلام، مرجع سابق، ص 345.

2- إبراهيم مطاوع، قراءات في التربية و علم النفس، مكتبة الطابع الجامعي، مكة المكرمة، 1986، ص 289.

من هنا أرشد الإمام الصادق تلاميذه إلى أن رجل الحرفة أو المهنة مطالب بالحدق في صنعته فقال:

«كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خصال يجتلب بها المكسب: أولها هو أن يكون حاذقا بعمله...» و تأكيداً على تزويد المحترفين بالمهارات لينجحوا في عملهم يقول: «ما أبالي إلى من ائتمنت خائناً أو مضيعاً»⁽¹⁾.

فالإمام في هذا التعليم يعتبر تضييع العمل عدلاً للخيانة فيه و من المعلوم أن التضييع قد ينشأ من فقدان المعارف و الفنون اللازمة في أداء العمل.

فلا يجوز لمن لا يجيد العمل لعدم الاختصاص و المهارة فيه أن يقبله و إن طلب منه.

ب - الإتيان:

الإتيان هو المعيار الذي نزن به قيمة العمل من حيث السمو و الضعة و يقصد به أداء العمل بإتيان تام بحيث يكون مستوفياً للمواصفات المطلوبة، و تتضاءل درجة الإتيان كلما قلّت هذه المواصفات.

لم يكتف الإمام الصادق بضرورة المهارة و الحدق في العمل بل يؤكد على أدائه على الوجه الأكمل؛ و مما يؤدي إلى الإتيان: الجدية في العمل و التنبه لقيمة الوقت، فهو يحث رجل المهنة على استغلال الفرص و المبادرة إلى السعي الجادّ في البكور، إذ بعث برسالة إلى أتباعه كتب إليهم فيها:

«فعلیکم بالجد و الاجتهاد، و إذا صلیتم الصبح و انصرفتم، فبکروا في طلب الرزق و اطلبوا الحلال، فإن الله سيرزقکم و يعینکم علیه»⁽²⁾ في هذا الكلام التفات إلى الجدية و المحافظة على مواعيد العمل التي تعتبر من أسباب إتيان العمل.

كما أن الإمام جعفرًا ينصح العامل ببعض الآداب التي تؤدي إلى تجويد العمل و تحسينه و منها: الاعتدال في العمل أي ترك الإفراط و الإهمال، و ذلك أن «الإفراط في العمل يمتد إلى الإهمال في التنفيذ و ترك يقظة الواجبة لسلامة العمل»⁽³⁾.

و هذا ما أشار إليه الصادق في تعاليمه فقال ما نصّه: «إياک و خصلتین: الضجر و الكسل، فإنک إن ضجرت لم تصبر على حق و إن کسلت لم تؤد حقاً»⁽⁴⁾.

ص: 405

1- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 19، ح 24220.

2- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب الحث على الطلب، ح 8.

3- قطب إبراهيم محمد، الإطار الأخلاقي لمالية المسلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983، ص 50.

4- الصدوق، الأمالي، ص 636.

فالضجر يفقد الإنسان همته و صبره، فلا يطيق انتظار تحصيل حق، كما أن الكسل يضعف عزيمته و يخفف نشاطه فلا يقوى على تأدية واجب مما يؤدي إلى نفور الناس منه و ابتعادهم عنه.

وفي هذه المسيرة يلفت الأنظار إلى نوعية السلع و الخدمات التي تعرض للناس بما أنه مظهر من مظاهر الإتقان في العمل، فعند ما سأل عن شغل أحد تلاميذه، أجابه بقوله: أبيع الطعام، فقد أرشده الإمام قاتلاً:

«اشتر الجيد، وبع الجيد، فإن الجيد إذا بعته قيل له: بارك الله فيك و فيمن باعك»⁽¹⁾ و من الواضح أن الاهتمام بجودة البضاعة يؤدي إلى رضى المشتري و رضى الله تعالى، كما أن عدمه يفضي إلى زعزعة الثقة في عمله و انصراف المتعاملين معه عن خدماته أو إنتاجه و إلحاق الضرر به.

ج - الصدق و تجنب الغش:

على صاحب الحرفة أو المهنة أن يتحرى الصدق فإنه رأس ماله، و الإمام يبين لتلاميذه فضل المهنة التي تقوم على الصدق و يوصي تلاميذه بالالتزام به مذكراً بالمرتبة التي تصل العامل بها يوم القيامة، كما روي عنه في جواب من سأله عن التجارة:

«عليك بصدق اللسان في حديثك، و لا تكتم عيباً يكون في تجارتك، و لا تغبن المشتري المسترسل فإن غبنه لا يحل، و لا ترض للناس إلا ما ترضاه لنفسك، و أعط الحق و خذه... فإن التاجر الصدوق مع السفرة الكرام البررة يوم القيامة»⁽²⁾

كما حرص الإمام على التزام تلاميذه بعدم التضليل و الخداع في البيع و الشراء فنهى عن كل ما يؤدي إلى الغش و التدليس، فلا يجوز للبايع أن يكتم شيئاً يكرهه المشتري إذا علم به. كما روي أنه سئل عن الطعام يخلط بعضه ببعض، و بعضه أجود من بعض؟ قال: «إذا رأيت شيئاً فليأخذ ما لم يغط الجيد الرديء»⁽³⁾.

فالصدق يستوجب من صاحب الحرفة أو المهنة أن يظهر ما في سلعته من عيوب و لا يخفيها لمن يشتريها. و الإمام يوصي العامل بأن يخبر المشتري بحقيقة السلع حتى يباطنها الذي لم يظهر له، كما روي عن أحد أتباعه «قلت لأبي عبد الله: إنا نعمل القلانس فنجعل فيها القطن العتيق فنبيعها، و لا نبين لهم ما فيها؟ فقال:

«إني أحب لك أن تبين لهم ما فيها»⁽⁴⁾.

ص: 406

1- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب فضل الشيء الجيد الذي يباع، ح 2.

2- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 17، ص 385، ح 22804.

3- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 7، ص 34.

4- الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 105، ح 3651.

هكذا يلزم الإمام المسلم بالصدق في كافة معاملاته، في صناعته وفي بيعه وأن لا يتبع من الأساليب والأعمال السيئة ما يظهر سلعته أو خدمته على غير حقيقتها.

د - الالتزام بالأمانة:

من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها رجل الحرفة أو المهنة هي الالتزام بالأمانة في شغله، والإمام جعفر يؤكد أن العامل لا بدّ «أن يكون مؤدياً للأمانة في صناعته حتى يجلب بها المكسب»⁽¹⁾.

ذلك أنّ صاحب كل مهنة ياتمنه الناس في معاملتهم معه فهم يأمنونه في جودة السلع وكيلها ووزنها كما يأمنونه في سعرها، فعليه أن يكون مراعيًا لتلك القيم. ومن أهم مظاهرها إيفاء الكيل وإتمامه والمسلم إذا كال أو وزن لا يأخذ أكثر من حقه ولا يعطي الناس أقل من استحقاقهم فإنه إذا ظف في كيله أو وزنه بأن زاد على ما أخذ أو نقص مما أعطى تضعف ثقة الناس به وينصرفون عن معاملته وينفضون من حوله ويكسد حرفته أو تجارته ويكسر سوقه، هذا إلى جانب عذاب الله الأليم الذي أعدّه له في الآخرة حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُواهُمْ يُخْسِرُونَ .

ونظراً لخطورة هذا الأمر نرى إيلاء الإمام كبير الاهتمام بترسيخ هذه الأخلاق في نفوس أتباعه في نياتهم وتصرفاتهم حيث يقول في هذا الصدد ما نصه:

«إنو الوفاء، فإن أتى على يدك - وقد نويت الوفاء - نقصان، كنت من أهل الوفاء، وإن نويت النقصان ثم أوفيت كنت من أهل النقصان»⁽²⁾.

فالإمام يؤكد على صلاح النية وإخلاص القلب لرب العالمين، فلينو المسلم بحرفته أو مهنته الالتزام بحدود الله وإن عجز أو أخطأ في أداء عمله على الوجه الأكمل فإن الله هو المطلع على خبايا النفوس فيغفر له ويقبل عمله؛ لأن بعد نيته أرجح لديه من عجز وسائله.

ه - حسن المعاملة:

إن كل حرفة أو مهنة تقضي حاجة من حاجات الناس، وتقدم خدمات خاصة لهم. وعلى هذا الأساس فإن التعامل بالحسنى والمودة مع الناس تعتبر من أهم عوامل النجاح لصاحب الحرفة، فهي تنبع من الأخوة الإسلامية التي تؤدي إلى التعاطف والتراحم في العلاقات بين المسلمين. فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ص: 407

1- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 236.

2- الكليني، فروع الكافي، ج 5، باب الوفاء والبخس، ح 3.

«رحم الله عبدا، سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا قضى»(1).

و السماحة تنبع من الأخوة الإسلامية التي تؤدي إلى التعاطف و التراحم في العلاقات بين المسلمين، و مما يدخل في سماحة البيع حسن معاملة المشتريين و إرضاء أذواقهم و الإسراع في تلبية طلباتهم التي يؤكد الصادق عليها في وصاياه التربوية للتاجر و الصانع، و هذا ما ينص عليه قاتلا:

«كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يجتلب بها المكسب و هي: «أن يكون حاذقا بعمله، مؤديا للأمانة فيه، مستميلا لمن استعمله»(2).

فالإمام يرى بأن التعامل بالحسنى إلى جانب التخصص و الالتزام بالتقوى واجب على كل عامل لما له من الأثر النافع فيه، فربما يكون العامل ذا مهارة دون الالتزام؛

فهو لا يوفق في كسبه، و ربما يكون العامل ملتزما بالتقوى دون خبرة، فهو كذلك أيضا، فصاحب المهنة لو كان ذا مهارة و الملتزم بالأمانة يحتاج إلى أن يكون قادرا على الدعوة لصناعته و عمله و استمالة الناس إليها، حتى تروج صناعته و يكثر ربحه، و هذا لا يتحقق إلا بحسن المعاملة.

هذا هو ما يعنى به في العصر الحديث المتخصصون في التوجيه المهني و يعتبرونه من طرق التسويق.

*** نستنتج من هذه التعاليم أن مدرسة الصادق قد ركزت تربيتها المهنية على تزويد المحترفين بالمهارات المعرفية و السلوكية التي تمكنهم من السيطرة على الحرفة أو المهنة، و بالتالي من زيادة دخلهم و تحسين مستوى معيشتهم.6.

ص: 408

1- أخرجه ابن ماجه في سننه، ح 2203.

2- المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 236.

تناولت هذه الدراسة الفكر التربوي عند الإمام الصادق و حاولت قدر الإمكان أن أوضح المعالم العامة للنسق الفكري لديه، و الذي يبرز فيه سمات مدرسته و مميزات منهجه التربوي.

ان الشخصية الإسلامية المتميزة التي سعى الإمام جعفر لايجادها لم تكن مثالية غير واقعية، حيث إن التاريخ الإسلامي شهد تربية مثل هذه الشخصية في مدرسته، و الأمر الذي يجب أن لا نغفل عنه تلك الخاصية التي تميّز هذه الشخصية و هي تعود في الأصل إلى تميّز التربية الإسلامية عما سواها من النظريات التربوية بدوافعها و أهدافها.

وقد عبّر الإمام في خطبه و وصاياه و رسائله و حكمه و كل ما فعله عن صورة الإسلام الحقيقية و رسم المنهج الفكري و الأخلاقي و الاجتماعي للأمة من خلال الإسلام.

مما لا شك فيه أن التربية الإسلامية، تربية شاملة، متكاملة، متّزنة، معتدلة و الفكر التربوي عند الصادق يتّصف بهذه السمات نفسها، فهو يهتم - كما بيّنا في ما سبق - بالإنسان وليدا و ناشئا و شابا و كهلا و شيخا في موازنة عادلة بين جميع جوانب شخصيته جسميا و روحيا و عقليا، و لم يغفل الصادق أي جزء من تصوره عن الإنسان، فخطب العقل و سعى لتغذيته و دعا لتنميته، ثم عمل على تغذية الروح و إشباع تطلعاتها إلى جانب دعوته نحو الأخلاق الفاضلة و تحذيره عن الرذائل، و هكذا نظّم علاقة الإنسان بربه و بنفسه و بأفراد مجتمعه.

و نرى في تربية الإمام توازنا عجبيا بين العمل للدنيا و العمل للآخرة و توازنا بين النزعة الفردية و النزعة الجماعية و توازنا بين الضرب في مناكب الأرض سعيا وراء الرزق و بين الترفع على متاع الأرض رجاء الفوز برضوان الله في الآخرة....

فإذا أردنا أن نصف المنهج الذي سلكه الإمام في التربية، يمكن القول بأنه المنهج الوسط بين الإفراط و التفریط. كما ذكرنا في تعاليمه من اقتصاد في العبادة و السماح في المعاملات.

و على الرغم من أن النظام التربوي عند الإمام الصادق فرع من نظام تربوي إسلامي عام، فإن له ميزاته التي تميّزه عن غيره من فروع التربية الإسلامية الأخرى.

و من هذه المميزات التي توصل إليها البحث و التي تعكس المعالم التربوية الخاصة للصادق، ما يلي:

التربية على الصعيدين العام و الخاص:

في الوقت الذي كان فيه الإمام الصادق داعياً إلى الحق و مربيًا لكافة أفراد المجتمع، إلا أنه لم يغفل عن تربية جماعة خاصة و كفوءة تكون بحد ذاتها قادرة على تولي هذه الرسالة و النهوض بها.

لذلك كان له خطان تربويان على الصعيد العام و على الصعيد الخاص. عمل بهما الصادق من أجل بناء الأمة و تنمية و عيها العام حتى تمتلك الخصائص التي ذكرها القرآن الكريم و السنة الشريفة، فحاول الصادق توعية كافة الأمة بجميع مستوياتها إذ سجل له التاريخ، مجموعة ضخمة من الأحاديث تمثل ثروة من الإرشادات و التوجيهات و قد انتشرت هذه الأحاديث بين أبناء الأمة و لها أثر كبير في إيجاد نهضة أخلاقية في المجتمع آنذاك.

و على الصعيد الخاص سعى الإمام إلى تربية الفئة الواعية عقديًا و عاطفيًا و سلوكيًا، حتى تنتشر بين الأمة كنماذج حيّة للشخصية الإسلامية.

و ممّا لا ريب فيه أن هذه العملية لا تقل أهمية عن عملية بناء الأمة الواعية نظرًا لحاجة الأمة المستمرة إلى الكوادر الرسالية و المتحملة بكل جدارة المهام الصعبة التي يلقيها الإمام على عاتقها.

التربية المتعددة الأبعاد:

إنّ البحوث التربوية الحديثة باتت متفقة على أنّ لشخصية الإنسان وحده تركيبة تستقطب أبعادًا ثلاثة هي: أ - البعد المعرفي. ب - البعد الوجداني. ج - البعد السلوكي.

و البعدان الأولان يشكلان البناء التحتي للسلوك و مظهره، فكل سلوك نتاج تفاعل عناصر المضمون العقائدي الفكري و المحتوى العاطفي الروحي. و ليس السلوك ظواهر منعزلة تدرس بمنأى عن البعدين الأول و الثاني، لأن مواقف الفرد و تصرفاته تتكيف وفق المفاهيم المنبثقة عن القاعدة الفكرية للشخص و حسب طبيعة المشاعر و الأحاسيس التي تتماهى بدورها مع تلك القاعدة الفكرية.

يظهر من هذه الدراسة أنّ منهج الإمام الصادق، في تربية الفرد و المجتمعات قد انطلق من تجذير الوعي العقديّ قبل كل شيء الذي يقوم على جملة من التصورات عن الكون و الإنسان و الحياة و يشكل الخلفية و العمق الفكري للفرد، من هنا فقد عني الإمام

جعفر بهذا البعد في شخصية الإنسان من خلال توجيهاته التربوية في المجالات العقديّة، والعلمية والعقلية.

ثم سعى لتنمية الحس العاطفي الوجداني بجملة من المفاهيم التي غداها بايحاءات معنوية روحية. لأنّ المفاهيم العقلية، مهما أوتيت من عمق ودقة، لا تملك أن تبعث في الإنسان الطاقة الكافية ليندفع في اتجاه تمثّل تلك المفاهيم. من هنا كانت قاعدة المعرفة بحاجة إلى إطار معنوي من الأحاسيس والعواطف الوجدانية يشكّل ضمانة التنفيذ لتلك القيم.

ومن بعد ذلك وجّه الإمام الفرد إلى مجموعة من القيم السلوكية العملية من خلال إرشاداته في المجالات الخلقية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

فترى معالم هذا المنهج ضمن مستوياته الثلاثة تنطوي على مشروع تغيير شامول وعميق يستوعب كل مناحي الوجود البشري.

تربية الصالح المصلح:

لم يكتف الإمام الصادق في مدرسته الفكرية بتربية الإنسان الصالح، إنما كان يطمح دوماً إلى هدف أرقى يتمثل في تربية الإنسان الذي يمارس دور المصلح فضلاً عن أن يكون صالحاً.

فالمصلح من يصدر الصلاح وينقله لغيره بينما الصالح هو الذي يصلح في نفسه ولا يساهم في تغيير الواقع نحو الأفضل. فالأول له قوة إيمانية والثاني إيمانه أقل قوة وتأثيراً.

وقد اعتمد الإمام في ترسيم برنامجه التربوي على إعداد الشخصية المصلحة الرسالية التي تتحمل المسؤولية في المجتمع، وتؤدي دوراً مطلوباً في عملية التغيير الاجتماعي، هذا الفرد يقوم بإصلاح ذاته من النقائص وتكميل الفضائل واكتسابها، كما يقوم في الوقت نفسه بإصلاح المجتمع من أمراضه الوبيلة.

فالمنهج التربوي للصادق هو عملية تشيئة الفرد من عضو عادي في المجتمع إلى فرد مسؤول وقيادي، وهذا يعني اقتران عملية التغيير الفردي والتغيير الاجتماعي في آن واحد.

التربية التدريجية

يمتاز منهج الإمام الصادق في بناء الإنسان الرسالي بأنه منهج ذو عدة مراحل، فهو لا يقفز بالإنسان من القاعدة إلى القمة دون الصعود على سلم متدرج، بل يتناول حالة الإنسان في كل مرحلة، فيعالج هذه الحالة بشكل موضوعي يطابق الواقع. ذلك لأنّه «لا يصلح

دعوة الناس إلى ما يتقبل عليهم تركه باديء ذي بدء، لاعتيادهم على ممارسته أو حاجتهم إليه، بل ينبغي دعوتهم إلى ما يسهل عليهم امتثاله، لخفته على طباعهم وقربه إلى حياتهم لأن امتثال التكليف الشديد يتطلب قوة لا يملكها الإنسان في البداية»(1).

فالمنهج الجيد هو القادر على استيعاب مدى نمو الإنسان باتجاه التكامل المطلوب و من الصعب جدا تحديد المراحل التي يجتازها الإنسان في طريقه للصعود إلى القمة، لأنه تحديد لا يقاس بالزمن و لا بالعمر و لا بأي شيء محسوس آخر، إنه يقاس بمقدار استجابة الإنسان للموجه و للقيم التي يزرعها في نفسه.

و لذلك نرى بأن الإمام يستعمل في عرض إرشاداته، أسلوب التدرج حسب مستويات الناس، و لا يحمل على صاحب الخطوة الأولى ما يحمله على صاحب الخطوة الثانية تقديرا لعقلية المخاطبين و مستواهم و درجة إيمانهم.

سيادة الروح الأخلاقية:

من خصائص المنهج التربوي عند الإمام اهتمامه للقيم الأخلاقية، و هيمنة هذه الأخلاق على كافة المجالات التربوية، ذلك أن تطور الإنسان في الميادين العلمية، و العقلية، و الاقتصادية، و التقنية... الخ من دون سيادة روح الأخلاق عليه، سيفضي إلى طغيان الفرد و انحرافه و تمرده، و إلى إصابة المجتمع أيضا بأضرار جسيمة.

من جهة أخرى، رغم أن التربية الأخلاقية كانت موضع اهتمام الكثير من رواد التربية و علمائها الذين يشتركون في هذا الجانب مع تربية الإمام الصادق، بيد أن السمة البارزة للمنهج التربوي عند الإمام هي أن الأخلاق تمثل ركنا أساسيا في مدرسته الفكرية، و لها الهيمنة على سائر المجالات التربوية، أي أنها لا تقع بموازاتها.

و قد ذكرنا في الفصول السابقة نماذج من تأكيدات الإمام بشأن الاهتمام بالقيم الأخلاقية في المجالات العلمية و الاقتصادية و المهنية و غيرها من المجالات.

و لهذا تتميز تربية الإمام بأنها تعمد إلى بناء الإنسان من داخله بناء خلقيا سليما لا يقوم على التظاهر بالأدب، أو على التكيف السلبي من أجل التعايش الاجتماعي، وإنما هي تجعل المسلم يعود إلى ذات نفسه، و إلى المبادئ الخلقية التي يلتزم بها في جميع أنماط سلوكه مثل الصدق، و الأمانة، و العدل، و الرحمة، و الحلم، و الحرية و غير ذلك من أمهات الفضائل الإسلامية، المرتبطة ارتباطا وثيقا بحقيقة الإيمان.

و لذلك نستطيع أن نقول بأن تربية الإمام الصادق تمتاز بأنها تنطلق من الداخل إلى

ص: 412

الخارج، و تؤكد مدرسته أنّ تحرّر النفس من قيود الهوى و سيطرتها على الشهوات و الغرائز يمثل الخطوة الأولى في بناء الشخصية الرسالية التي تعيش حال السعادة الحقيقية.

التربية التطبيقية:

كان التطبيق العملي أحد المقومات الأساسية لتربية الإمام الصادق، فلم تكن تعتمد على مبادئ مجردة و نظريات محضه حتى تبقى حبرا على ورق، بل كانت العملية التربوية و التعليمية عنده تتحول من الناحية النظرية إلى سلوك عملي، فكان التطبيق مقترنا مع الفكرة و القول مرافقا للعمل.

إنّ هذا المنهج المطروح على بساطته و وضوحه ينطلق من الواقع و الحياة فيلبي الحاجات الواقعية للإنسان، حتى تلك التي تنادي بها البحوث الحديثة في علم النفس، كحاجة الانتماء، و الحاجة إلى الحب و التقدير الاجتماعي و من هنا يحاول الإمام معالجة هذه الحاجات في إطار الإيمان بالله و داخل منظومة الاعتقاد الديني لا خارجها.

فلم يفصل الإمام موضوعات العقيدة عن جوانبها العملية لا في مجال العلم و لا الأخلاق و لا الاقتصاد... و كأن منهجه قد تخطى مرحلة وجود النظرية أصلا و تجاوزها مباشرة إلى التنفيذ.

على هذا لا يكفي أن تصفه بأنه منهج قابل للتطبيق بل نقول: إنه منهج قد طبّق بالفعل على مدى سنوات طويلة و تربّت في ظلّه شخصيات إسلامية مميّزة.

تقديم التكليف على الحق:

من أهم خصائص المنهج التربوي عند الإمام الصادق تربية الأفراد على روح الشعور بالمسؤولية و ترجيح التكليف على تحصيل الحقوق.

إن ملاحظة الأسس التربوية للإمام في بعدها الاجتماعي، و في تنظيم العلاقات مع الآخرين تدلّنا بوضوح على أن هذا المربي الكبير كان يؤمن بأن صاحب الشخصية الإسلامية المتكاملة ينبغي أن يفكر في أداء وظائفه و واجباته حيال الآخرين قبل أن يفكر في استيفاء حقوقه من الآخرين، و التشديد على واجباتهم (سواء كانوا أفرادا أو مجتمعا) إزاءه، و بعبارة أخرى فإنه يهتم بحقوق المجتمع و الأفراد عليه قبل اهتمامه بتوقعاته منهم.

و ما يعاضد هذا المنحى تأكيدات الإمام على الإرشادات التربوية الخاصة بنظام العائلة و العلاقة مع الجيران و الأصدقاء و توصياته بأصول التكافل و التعاون الاجتماعي، و تجنّب أسباب الاختلاف و الخصام.

و من الجلي أن مثل هذا التوجه التربوي يتباين عن الاتجاهات التربوية الغربية القائمة على اكتساب الحقوق و أصالة منافع الفرد. و لا مرأى أن تربية الفرد و المجتمع

على أساس اكتساب الحقوق والمصالح، لن تثمر سوى المزيد من المشكلات للمجتمع و توسيع رقعة الخلافات و الأحقاد و الفوضى، بينما النظام التربوي الذي يخصص الأولوية لأداء التكليف، و يشدد على النهوض بالواجبات قبل المطالبة بالحقوق، يمكنه تربية إنسان يفكر بمسؤولياته قبل أي شيء، و هذا ما يفرضي طبعاً إلى انتشار روح المحبة و الأخوة و الإيثار بين أفراد المجتمع.

البدء بالنفس

يمتاز المنهج التربوي للإمام الصادق بأنه يقوم على مبدأ تربوي أصيل يتمثل في البدء بالنفس، ذلك أنّ الفكر يظل معلقاً في الفضاء ما لم يتحول إلى بشر يترجم سلوكه و تصرفاته و مشاعره مبادئ المنهج و معانيه.

من هنا فقد كانت حياة الإمام ترجمة عملية لإرشاداته، و تجسيدا كاملاً لتعاليمه، ليكون عمله النموذج الصحيح الدقيق لمبادئه النظرية، فهو يبدأ بتطبيق المنهج على نفسه ثم يأمر بها أتباعه و يدعو الناس إلى الالتزام به، كمال قال: «إني و الله ما أمركم إلا بما نأمر به أنفسنا»⁽¹⁾.

و كان الصادق على مرأى من الناس و تحت نظر تلاميذه في جميع مجالات الحياة من البيت و الطريق و المسجد و المجتمع.

و هكذا كان مربياً و هادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به حتى يربي الأمة عن طريق القدوة، فيعتبر نفسه أول الناس و أولاهم بتنفيذ ما يدعو إليه.

و من هنا كانت تربيته ذات أثر فعّال و عميق.

*** نستنتج من هذا كلّهُ أنّ المنهج التربوي لمدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق، يختزن داخله كل المقومات الضرورية لصنع الإنسان النموذجي، الآذي يتوفر على كل الكمالات و الذي يعيش التوازن النفسي في أجلى مظاهره، و يقدر على الفعل الإيجابي داخل ساحات البناء الحضاري و التغيير الاجتماعي.

و هذه الذخيرة التراثية التربوية - و التي تستمد أهدافها و وسائلها و محتواها من كتاب الله و سنة رسوله الكريم - هي صورة أخرى من تجليات عظمة التربية الإسلامية التي تطرح للبشرية خطّ الحياة و السعادة الأبدية.

أسأل الله تعالى أخيراً أن يجعل ثواب هذه الدراسة في ميزان حسناتي و حسنات من أحبّ يوم القيامة، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ص: 414

إشارة

- فهرس الآيات القرآنية

- فهرس الأحاديث النبوية

- فهرس الأعلام

- المصادر والمراجع

- فهرس المحتويات

ص: 415

السورة رقمها رقم الصفحة سورة البقرة * إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا... \ 42\26

وأقيموا الصلوة وءاتوا الزكوة... \ 185\43

قل من كان عدوا لجبريل \ 152\97

ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب \ 140\132

وكذلك جعلنكم أمة وسطا \ 31\143

إن الذين يكتمون ما أنزلنا \ 210\159

* ليس البر أن تولوا وجوهكم \ 32\177

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر \ 191\185

وما تفعلوا من خير يعلمه الله \ 311\197

ربنا آتانا في الدنيا حسنة \ 350\201

حفظوا على الصلوات و الصلوة الوسطى \ 44\238

يا أيها الذين ءامنوا أنفقوا مما رزقناكم \ 378\254

مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله \ 43\261

ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا \ 200\962

وأحل الله البيع و حرّم الربوا \ 339\275

وإن تبتم فلکم رءوسا \ 370\279

وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة \ 312\280

السورة رقمها رقم الصفحة ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه | 152\285

لا يكلف الله نفسا إلا وسعها | 216\286

سورة آل عمران إن الدين عند الله الإسلام | 36\19

و من يتبع غير الإسلام ديننا | 36\85

كنتم خير أمة أخرجت للناس | 37\110

ولله ملك السموت والأرض | 347\189

سورة النساء و اتقوا الله الذى تساءلون | 301\1

فانكحوا ما طاب لكم من النساء | 88\3

ولا تؤتوا السفهاء أموالكم | 350\5

يريد الله لبيّن لكم و يهديكم سنن الذين | 249\26

و الذين ءامنوا و عملوا الصلحت | 41\57

* إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمت | 39\58

إن الذين توقّفهم الملكة | 152\97

و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء | 88\129

يأيتها الذين ءامنوا ءامنوا بالله | 153\136

سورة المائدة و تعاونوا على البرّ و التقوى | 308\2

و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله | 244\140

سورة الأنعام و قد فصل لكم ما حرم عليكم | 382\119

السورة رقمها رقم الصفحة سورة الأعراف قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده 388\32

قل يأيها الناس إني رسول الله 35\158

وإذ أخذ ربك من بنى آدم 112\172

خذ العفو وأمر بالعرف 82\199

سورة الأنفال وأصلحوا ذات بينكم 328\1

* إن شرّ الدّوابّ عند الله 235\22

ولا تنزعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم 322\46

وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض 298, 297\75

سورة التوبة اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا 244\31

* ليأكلون أموال النّاس بالباطل 348\34

قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا 162\51

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء 319\71

خذ من أموالهم صدقة 185\103

سورة يونس يأيها النّاس قد جاءكم موعظة 38\57

قل انظروا ما ذا في السموات والأرض 89\101

سورة هود فما لبث أن جاء بعجل حنيذا 82\69

ص: 419

سورة يوسف نحن نقصّ عليك أحسن القصص\40\3

و ما يؤمن أكثرهم بالله\106\107

لقد كان في قصصهم\40\111

سورة الرعد و الذين يصلون ما أمر الله به\301\21

سورة إبراهيم مثل الذين كفروا بربهم\42\18

سورة النحل ينبت لكم به الزرع\399\11

و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس\28\44

أفأمن الذين مكروا السيئات\41\45

ثم إذا مسكم الضرّ فإليه تجرون\145\53

و الله أخرجكم من بطون أمهتكم\110\78

من عمل صالحا من ذكر أو أنثى\178\97

ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة\38\125

سورة الإسراء إنّ هذا القرآن يهدي للتي\154\9

و بالولدين إحسانا\299\23

و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك\31\29

ص: 420

قل كلّ يعمل على\ 274\84

سورة الكهف و لا تقولنّ لشيءٍ إني فاعل\ 23، 213\24

سورة مريم و أوصني بالصّلاة و الزّكوة\ 183\31

سورة النور و اتوهم من مال الله الذي اءتكم\ 347\33

سورة الفرقان و الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا\ 340\67، 384

سورة الشعراء فما لنا من شفيعين* و لا صديق حميم\ 100، 296\101

سورة القصص و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة\ 31\77

سورة العنكبوت مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء\ 42\41

و تلك الأمثل نضربها للنّاس\ 42\34

إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء\ 183\45

ص: 421

سورة الروم و من ءاياته خلق السموت و الأرض | 216\22

فأقم وجهك للدين حنيفا | 144\30

و ما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس | 19\39

سورة لقمان و لا تصعر خدك للناس | 215\18

ألم تروا أن الله سخر لكم | 335\20

و إذ قال لقمن لابنه و هو يعظه | 38\13

سورة الأحزاب لقد كان لكم في رسول الله أسوة | 39\21

سورة سبأ و ما أرسلناك إلا كافة للناس | 35\28

سورة فاطر إنما يخشى الله من عباده العلماء | 81\28

و الذين كفروا لهم نار جهنم | 41\36

سورة الزمر قل هل يستوى الذين يعلمون | 199\9

و لقد ضربنا للناس في هذا القرآن | 226\27

ص: 422

سورة فصلت * قل أنتم لتكفرون بالذي خلقا 341\9

ادفع بالتى هى أحسن ا 331\34

سنريهم ءايتنا فى الأفاق وفى أنفسهم ا 146\53

سورة الشورى * شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ا 156\13

سورة الزخرف ليتخذ بعضهم بعضا سخريًا ا 293\32

سورة الحجرات إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ا 328، 305\10

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ا 288، 225\13

سورة ق ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب ا 152\18

سورة الذاريات و ما خلقت الجنّ و الإنس إلا ليعبدونا ا 36، 26\56

سورة النجم و ما ينطق عن الهوى ا 3، 28\4

ص: 423

سورة الحديد و أنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه | 347\7

سورة الحشر و مآءاتكم الرّسول فخذوه و ما نهكم عنه | 28\7، 339

سورة الصف يأيّها الذين ءامنوا لم تقولونا | 2، 32\3

سورة الطلاق و من يتّق الله يجعل له مخرجا | 2، 41\3، 282

سورة التحريم يأيّها الذين ءامنوا قوا أنفسكم و أهليكم | 120\6

سورة الملك ليبلوكم أيكم أحسن عملا | 274\2

ألا يعلم من خلق و هو اللّطيف | 27\14

هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا | 335\15

سورة القلم و إنّك لعلى خلق عظيم | 257\4

سورة القيامة و لا أقسم بالنّفس اللّوامة | 34\2

ص: 424

بل الإنسان على نفسه بصيرة\34\14

سورة الإنشقاق يأتيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا\373\6

سورة الطارق إن كل نفس لّما عليها حافظا\152\4

سورة الفجر و تحبون المال حبا جمّا\348\20

سورة الشمس و نفس و ما سوّها\112\7

فألهمها فجورها و تقوها\276\8

سورة العلق اقرأ باسم ربك الذي خلقا\1-27\5

ص: 425

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث الصفحة - أحب الأعمال إلى الله 179

- إذا التبست عليكم الفتن 155

- استفتت نفسك 276

- أفضل الجهاد من جاهد 280

- إن أحبكم إليّ وأقربكم منّي 257، 258

- إن شفاعتي يوم القيامة 159

- إن لبدنك عليك حقا 30

- إن الملائكة لتضع أجنحتها 199

- إنّما بعثت لأتمم 257

- الإيمان أن تؤمن بالله 143

- بني الإسلام على خمس 175

- الجالب مرزوق والمحتكر 340

- الحياء خير كلّ 255

- خذوا من العمل ما تطيقون 191

- رحم الله عبدا سمحا 408

- شر الناس الذين يبيعون 397

- طلب العلم فريضة على 199

- عودوا قلوبكم الترقب 246

- كلّ كلام أو أمر ذي بال 213

- كللكم راع و كللكم مسؤول 297

- كل مولود يولد على الفطرة 145

- قيّدو العلم بالكتابة 222

- ما جمع شيء أفضل من حلم 220

- ما ملأ آدمي وعاء أشدّ 177

- مثل المؤمنين في توادهم 306

- من أصبح وهمّه الدنيا 303

- من سرّه أن يكون 281

- من سلك طريقا إلى الجنة 195

- من غشّنا ليس 340

- من يرد الله به خيرا 200

- نعم المال الصالح 373

- وقرّوا من تعلمونه 214

- يأتي على الناس زمان 361

ص: 427

أبان بن تغلب: 86، 98، 99، 159، 205، 215، 384.

إبراهيم بن الوليد: 51.

إبراهيم بن رجاء الشيباني: 92.

إبراهيم بن محمد: 55.

ابن أبي العوجاء: 84، 85، 88، 165.

ابن الغضائري: 86.

ابن المثنى: 98.

ابن الواضح: 93.

ابن جريج: 78.

ابن حبان: 79.

ابن حجر العسقلاني: 93، 94، 97، 98، 99، 166، 216.

ابن حجر الهيثمي: 95.

ابن خلكان: 75، 76، 92، 94، 100.

ابن شهاب الزهري: 78.

ابن عدي: 94.

ابن عقدة: 86.

ابن ماجه: 22، 99، 159، 199، 340.

أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري:

90.

أبو الخطاب: 62.

أبو الربيع الزهراني: 98.

أبو بصير الأسدي: 98.

أبو جعفر المنصور: 55، 67، 125.

أبو حاتم الرازي: 93.

أبو حنيفة: 78، 86، 87، 93، 35، 96.

أبو داود الطيالسي: 97.

أبو زهرة: 48، 57، 59، 61، 63، 75، 79، 80، 84، 86، 88، 91، 96، 100، 109، 164، 217، 219، 222.

أبو سلمة الخلال: 56.

أبو شاعر الديصاني: 88.

أبو عاصم: 97.

أبو عامر العقدي: 97.

أبو عمرو بن العلاء: 86.

أبو مسلم الخراساني: 54.

أبو معمر الهذلي: 98.

أبو نعيم الأصفهاني: 78، 94، 98، 159، 262، 312.

أبو بكر بن عيَّاش: 79.

أبو جعفر محمد بن النعمان: 91.

أبي حمزة الشمالي: 215.

أبو داود: 25.

إسحاق بن راهويه: 93.

إسحاق بن عمار: 287.

أسماء بنت عبد الرحمن: 76.

ص: 428

إسماعيل بن جابر: 80.

إسماعيل بن جعفر: 98.

الأصبحي: 92.

الأعرج: 78.

الأعمش: 78.

الأوزاعي: 61.

الباقر: 51، 75، 76، 78، 99، 180، 284، 287، 289.

الترمذي: 24، 97.

الشمالي: 83، 98، 401.

الجاحظ: 65، 67، 93.

الجعدي بن درهم: 60، 165.

الجهم بن صفوان: 60، 61.

الحاكم النيسابوري: 94.

الحسن البصري: 59.

الحسن بن علي: 55، 56، 87، 96، 301.

الحسن بن علي الوشاء: 87.

الحكم بن عتبة: 72.

الذهبي: 75، 76، 79، 87، 93، 94، 97، 98، 99، 119، 125، 129، 177، 187، 248، 310، 377.

السيبيعي: 78.

السنفاح: 54.

الشهرستاني: 60، 61، 94، 171.

الغزالي: 44، 122، 186، 210، 220، 261، 263، 264، 295، 372.

الفضيل بن عياض: 92.

القاسم بن محمد: 76، 79.

النسائي: 99.

النفس الزكية: 55، 57.

الوليد بن مسلم: 97.

الوليد بن يزيد: 51.

أم فروة: 76.

أيوب السختياني: 186.

بريد بن معاوية العجلي: 98.

جابر بن حيان: 89، 92، 100، 109، 206.

جابر بن عبد الله الخزر جي الأنصاري:

159.

جابر بن يزيد الجعفي: 98.

جورجي زيدان: 100.

حاتم بن إسماعيل: 97.

حسين بن علي: 52.

حمّاد البشير: 283.

حمران بن أعين: 128، 206، 231.

خالد بن يزيد: 69.

خير الدين الزركلي: 95.

روح بن عبادة: 97.

زرارة بن أعين: 163، 206، 207.

زهير بن محمد التميمي: 97.

زيد بن أحزم: 98.

زيد بن علي: 56، 83.

سفيان الثوري: 65، 89، 129، 187، 214.

سفيان بن عيينة: 98.

شعبة بن الحجاج: 97.

عبد الرحمن بن مهدي: 97.

ص: 429

عبد الله المحض: 56.

عبد الله بن أبي أويس: 92.

عبد الله بن المبارك: 65.

عبد الله بن النجاشي: 91.

عبد الملك بن مروان: 51، 53، 61، 66.

عبد الله بن جندب: 331.

عبيد الله بن أبي شعبة: 208.

عثمان الدارمي: 97.

عثمان بن فرقذ: 98.

عطاء: 59، 150، 375، 399.

عفان بن مسلم: 98.

علي بن الحسين: 56، 78، 93، 94، 130، 159، 231، 284، 301، 352.

علي بن المديني: 98.

عمر الأشرف: 56.

عمر بن عبد العزيز: 53، 61، 67، 69، 76، 155.

عمرو بن دينار: 78.

عمرو بن سعيد: 53.

عمرو بن عبيد: 60، 232.

عيسى بن موسى: 55.

غيلان الدمشقي: 61.

فريد وجددي: 100.

قيس الماصر: 231.

ماسرجوية البصري: 69.

مالك بن أنس: 81، 93، 94، 96، 214.

محمد بن إدريس الشافعي: 93.

محمد بن جهضم: 98.

محمد بن مسلم: 98.

محمد بن ميمون الزعفراني: 92.

مروان بن الحكم: 51، 52، 53.

مروان بن محمد: 51، 54، 60، 166.

مسلم بن الحجاج: 94.

مسلم بن عقبة: 52.

معاوية بن أبي سفيان: 51.

معاوية بن عمار الدهني: 97.

معبد الجهني: 61.

مفضل بن عمرو: 89، 129، 167، 247.

مفضل بن قيس: 289.

موسى بن جعفر: 90، 330.

موسى بن عقبة الأسدي: 99.

هشام بن الحكم: 88، 206، 225.

هشام بن عبد الملك: 51، 54، 60، 165.

واصل بن عطاء: 59.

حفص بن غياث: 98.

ياقوت الحموي: 99.

يحيى بن بكير: 97.

يحيى بن سعيد الأنصاري: 86، 97.

يحيى بن سعيد بن فروخ: 98.

يحيى بن معين: 60.

يحيى بن يحيى النيسابوري: 98.

يزيد بن الوليد: 51.

ص: 430

- القرآن الكريم

[- سائر الكتب]

- 1 - الإبراشي، محمد عطية: التربية الإسلامية وفلسفتها، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- 2 - ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن إدريس: الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- 3 - ابن أبي الحديد، عبد الحميد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987 م.
- 4 - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق شيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- 5 - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني، المختار، دمشق، د. ن، د. ت.
- 6 - ابن بابويه القمي (الصدوق)، محمد بن علي بن الحسين: الأمالي، مؤسسة البعثة، قم، 1417 هـ.
- 7 - ابن بابويه القمي (الصدوق)، محمد بن علي بن الحسين: التوحيد، تحقيق سيد هاشم الحسيني الطهراني، جماعة المدرسين، قم، 1387 هـ.
- 8 - ابن بابويه القمي (الصدوق)، محمد بن علي بن الحسين: الخصال: تحقيق علي أكبر غفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د. ت.
- 9 - ابن بابويه القمي (الصدوق)، محمد بن علي بن الحسين: علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف، 1966 م.
- 10 - ابن بابويه القمي (الصدوق)، محمد بن علي بن الحسين: معاني الأخبار، مؤسسة النشر الإسلامي، تحقيق علي أكبر غفاري، إيران، 1403 هـ.
- 11 - ابن بابويه القمي (الصدوق)، محمد بن علي بن الحسين: من لا يحضره الفقيه، تحقيق علي أكبر غفاري، جامعة المدرسين، قم، ط 2، 1404 هـ.
- 12 - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، الهيئة المصرية، القاهرة، د. ت.
- 13 - ابن تيمية، تقي الدين أحمد: قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.

- 14 - ابن تيمية، تقي الدين أحمد: حقيقة الصوم، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت.
- 15 - ابن تيمية، تقي الدين أحمد: الفتاوى، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1398 هـ.
- 16 - ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني: المسند، دار صادر، بيروت، د. ت.
- 17 - ابن خلدون، عبد الرحمن محمد: المقدمة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1414 هـ.
- 18 - ابن خلكان، شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان و أُنبااء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، د. ت.
- 19 - ابن سعد، محمد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1405 هـ.
- 20 - ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، منشورات العلمية، قم، د. ت.
- 21 - ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير و التنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1، 2000 م.
- 22 - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، 1412 م.
- 23 - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي: البداية و النهاية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1993 م.
- 24 - ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1975 م.
- 25 - ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي: تهذيب الأخلاق و تطهير الأعراق، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ن، د. ت.
- 26 - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت.
- 27 - ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، د. ن، د. ت.
- 28 - أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- 29 - أبو زهرة، محمد: الإمام الصادق حياته و عصره آراؤه و فقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993 م.
- 30 - أبو زهرة، محمد: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، 1989
- 31 - أبو الفوارس الأشتري، أبو الحسين: تنبيه الخواطر و نزهة النواظر (المعروف بمجموعة ورام)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، 1969 م.

- 32 - أبو العينين، علي خليل: الاهتمامات التربوية في فكر الإمام جعفر الصادق، من أعلام التربية العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة، دول الخليج، 1998 م.
- 33 - أبو العينين، علي خليل: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مكتبة إبراهيم حليبي، المدينة المنورة، 1980 م.
- 34 - أبو لاوي، أمين: أصول التربية الإسلامية، دار ابن الجوزي، الرياض، السعودية، 1991 م.
- 35 - الأديب، علي محمد الحسين: منهج التربية عند الإمام علي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1399 هـ.
- 36 - الأزهري، منظور احمد: ترشيد الاستهلاك الفردي في الاقتصاد الإسلامي، دار السلام، القاهرة، 2002 م.
- 37 - إسماعيل، محمد محروس: مقدمة في علم الاقتصاد، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، 2000 م.
- 38 - الإصفهاني، أبو نعيم: حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1993 م.
- 39 - أمين، أحمد: الأخلاق، مكتبة الخانجي، مصر، ط 8، 1958 م.
- 40 - أمين، أحمد: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، 1987 م.
- 41 - أمين، أحمد: فجر الإسلام، مطبعة اعتماد، القاهرة، د. ت.
- 42 - الأمين، حسن: دائرة المعارف الشيعية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1418 هـ.
- 43 - الأمين، محسن: أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1406 هـ.
- الأميني، محمد أمين: الإمام الصادق رمز الحضارة الإسلامية، مطبعة أمين، قم، 1423 هـ.
- 44 - الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه: العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983 م.
- 45 - الأهواني، أحمد فؤاد: التربية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، 1980.
- 46 - الأصفي، محمد مهدي: الكلمة الطيبة في القرآن، المشرق، طهران، 2004 م.
- 47 - الألويسي البغدادي، أبو الفضل شهاب الدين: روح المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001 م.

- 48 - الأمدي، عبد الواحد: غرر الحكم ودرر الكلم، د. ن، طهران، 1376 هـ.
- 49 - باعلوي الخضرمي، محمد بن أبي بكر: المشروع الروي، دار الكتب، طهران، 1967.
- 50 - الباقر، محسن: مقومات الشخصية الإسلامية، دار البيان العربي، بيروت، 1990 م.
- 51 - الباني، عبد الرحمن: مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، المكتب الإسلامي، دمشق، 1400 هـ.
- 52 - البخاري، محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990 م.
- 53 - البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- 54 - بدري، مالك: التفكير من المشاهدة إلى الشهود، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1981 م.
- 55 - البدوي، إسماعيل إبراهيم: عناصر الإنتاج في الاقتصاد الإسلامي و الاقتصاد الوضعي، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2002 م.
- 56 - بدوي، زكي: المعجم الاقتصادي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت.
- 57 - البرقي، أحمد بن محمد: المحاسن، دار الكتب الإسلامية، إيران، د. ت.
- 58 - البستاني، محمود: دراسات في علم النفس الإسلامي، دار البلاغة، بيروت، 2000 م.
- 59 - بسيوني، سعيد أبو الفتوح: الحرية الاقتصادية في الإسلام و أثرها في التنمية، دار الوفاء، المنصورة، 1988 م.
- 60 - البعلي، عبد الحميد محمود: أصول الاقتصاد الإسلامي، دار الداوي، الرياض، 2000 م.
- 61 - البغدادي، الإسفرايني، عبد القاهر بن طاهر: الفرق بين الفرق، المكتبة العصرية، بيروت، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، 1990
- 62 - البلاذري، أحمد بن يحيى: أنساب الأشراف، دار المعارف للمطبوعات، بيروت، 1977 م.
- 63 - البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، قم، 1404
- 64 - البوطي، محمد سعيد: تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث، مكتبة الفارابي، دمشق، 1410 هـ.

- 65 - البيضاوي، ناصر الدين عبد الله: أنوار التنزيل و أسرار التأويل، مكتبة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، مصر، 1968 م.
- 66 - البيهقي، أحمد بن الحسين: شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1431 هـ.
- 67 - التستري، نور الدين المرعشي: إحقاق الحق و إزهاق الباطل، مكتبة المرعشي، قم، 1406 هـ.
- 68 - توفيق، محمد: دليل الأنفس بين القرآن و العلم الحديث، دار السلام، القاهرة، 1998 م.
- 69 - التومي الشيباني، عمر محمد: من أسس التربية الإسلامية، المنشأة الشعبية للنشر، طرابلس، 1979 م.
- 70 - التومي الشيباني، عمر محمد: علم النفس الإداري، دار العربية للكتاب، تونس، 1988 م.
- 71 - الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992 م.
- 72 - الجمالي، محمد فاضل: تربية الإنسان الجديد، الدار التونسية، تونس، 1967 م.
- 73 - الجمالي، محمد فاضل: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972 م.
- 74 - الجميلي، رشيد حميد حسن: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث و الرابع للهجرة، دار الكتاب، طرابلس، 1982 م.
- 75 - الجندي، عبد الحلیم: الإمام جعفر الصادق، مؤسسة أنصاريان، قم، 1415 هـ.
- 76 - جوزي، بندلي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع، بيروت، د. ت.
- 77 - الجهشياري،: تاريخ الوزراء و الكتاب، دار الفكر، بيروت، 1988.
- 78 - حبنكة الميداني، عبد الرحمن: الأخلاق الإسلامية و أسسها، دار القلم، دمشق، 1979 م.
- 79 - حبنكة الميداني، عبد الرحمن: العقيدة الإسلامية و أسسها، دار القلم، دمشق، 1988 م.
- 80 - حجازي، عبد الرحمن عثمان: المذهب التربوي عند ابن سحنون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986 م.
- 81 - الحرّاني، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة: تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر لجامعة المدرسين، ط 2، 1404 هـ.

- 82 - الحر العاملي، محمد بن الحسين: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق عبد الرحيم الرباني الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 83 - الحر العاملي، محمد بن الحسين: الفصول المهمة في معرفة أصول الأئمة، تحقيق: محمد القائني، دار إحياء التراث العربي، 2003 م.
- 84 - حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 7، 1964 م.
- 85 - حسن، أمينة أحمد: النظرية التربوية في القرآن و تطبيقاتها في عصر الرسول، دار المعارف، القاهرة، 1985 م.
- 86 - حسنين، عبد النعيم: الإنسان و المال، دار الوفاء، المنصورة، 1986 م.
- 87 - الحسيني، هاشم معروف: سيرة الأئمة الإثني عشر، دار القلم، بيروت، 1981 م.
- 88 - الحسيني الحائري، كاظم: تزكية النفس، دار الحوراء، بيروت، 2005 م.
- 89 - حسيني زاده، علي: النظرة إلى التعليم الديني، مركز البحوث للحوزة و الجامعة، قم 1424 هـ.
- 90 - الحكيم، محمد باقر: دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، المجمع العالمي لأهل البيت، قم، 1997 م.
- 91 - الحكيمي، محمد رضا: الحياة، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طهران، 1413 هـ.
- 92 - الحلّي، تقي الدين داود: كتاب رجال، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، د. ت.
- 93 - الحموي، ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 94 - الحميري، نشوان: الحور العين، دار آزال، بيروت، 1985 م.
- 95 - الحنفراوي، أحمد: الحضارة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية، دار الكتب طهران، 1999 م.
- 96 - الحويزي، عبد علي: تفسير نور الثقلين، مؤسسة إسماعيليان، قم، ط 4، 1411 هـ.
- 97 - حيدر، أسد: الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2001 م.
- 98 - حيدر، أسد: الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2001 م.
- 99 - الخربوطلي، علي حسن: المهدي العباسي، الدار المصرية، 1984 م.

- 100 - الخطيب، عبد الكريم: السياسة المالية في الإسلام، دار الفكر العربي، بيروت، د. ت.
- 101 - الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997 م.
- 102 - الخطيب الرازي، فخر الدين: شرح أسماء الله الحسنى، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، 1976 م.
- 103 - الخلال، أحمد بن محمد بن هارون: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق عبد القادر عطا، دار الأنصار، القاهرة، 1974 م.
- 104 - الخليل، محمد: أمالي الصادق، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1985 م.
- 105 - خليل، عماد الدين: تحليل التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، قطر، 1990 م.
- 106 - خماش، نجدة: خلافة بني أمية في الميزان، ريع الدار السورية، 2001 م.
- 107 - الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط 6، 1998 م.
- 108 - الخوي، أبو القاسم: معجم رجال الحديث و تفصيل طبقات الرواة، ط 5، 1412 هـ.
- 109 - الخولي، أمين: مالك بن أنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994 م.
- 110 - الخياط، عبد العزيز: نظرة الإسلام للعمل و أثره في التنمية، دار السلام للطباعة، القاهرة، 1989 م.
- 111 - الخيل، سليمان عبد الرحيم: التربية الإسلامية، مطابع الشريف، الرياض، السعودية، 1412 هـ.
- 112 - الدائم، عبد الله: التربية عبر التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، 1973 م.
- 113 - داود، جرجس: الزندقة و الزنادقة في الأدب العربي من الجاهلية و حتى القرن الثالث، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت 2004 م.
- 114 - دراز، محمد عبد الله: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية و الدولية، دار القلم، الكويت، ط 2، 1974 م.
- 115 - الدسوقي، فاروق أحمد: مقومات المجتمع المسلم، المكتب الإسلامي، بيروت، 1986 م.
- 116 - الدسوقي، محمد: دعائم العقيدة في الإسلام، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1990 م.

- 117 - الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، د. ت.
- 118 - ديوي، جون: تجديد في الفلسفة، ترجمة مرسى قنديل، الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.
- 119 - ديوي، جون: المبادئ الأخلاقية في التربية، ترجمة عبد الفتاح جلال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966 م.
- 120 - الذهبي، شمس الدين محمد أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991 م.
- 121 - الذهبي، شمس الدين محمد أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992 م.
- 122 - الذهبي، شمس الدين محمد أحمد بن عثمان: تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 123 - الذهبي، شمس الدين محمد أحمد بن عثمان: ميزان الاعتدال، دار الفكر، بيروت، د. ت، تحقيق علي محمد الجاوي، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- 124 - الرازي، فخر الدين محمد: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- 125 - الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل: معجم مفردات ألفاظ القرآن، الدار الشامية، بيروت، 1992
- 126 - رستم، سعد: الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، الاوائل للنشر، دمشق، 2004 م.
- 127 - رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- 128 - الزبيدي، محمد مرتضى: تاج العروس و جواهر القاموس، مكتبة الحياة، بيروت، 1994
- 129 - الزحيلي، وهبة: أخلاق المسلم علاقته بالخالق، دار الفكر، دمشق، 1423 هـ.
- 130 - الزركلي، خير الدين: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، 1986 م.
- 131 - الزغلول، أمين: المال واستثماره في ميزان الشريعة، مطبعة الأمانة، القاهرة، 1986 م.
- 132 - الزمخشري، محمود بن عمر: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، مطبعة العاني، بغداد، د. ت.
- 133 - الزنتاني، عبد الحميد: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط 2، 1993 م.

- 134 - الزنتاني، عبد الحميد: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن و السّنة، الدار العربية للكتاب، الجماهير العربية الليبية، 1993 م.
- 135 - الزهراني، عبد الله: الوسطية في التربية الإسلامية، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، 2003 م.
- 136 - زيدان، عبد الكريم: الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في سلوك الإنسان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988 م.
- 137 - سابق، سيد: التربية العقلية في الإسلام، جامعة الدول العربية، ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، مكة المكرمة، 1400 هـ.
- 138 - سابق، سيد: العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي، مصر، 1968 م.
- 139 - السباعي، مصطفى: أخلاقنا الاجتماعية، دار السلام، القاهرة، 1418 هـ.
- 140 - سبحاني، جعفر: الإلهيات على هدى الكتاب و السّنة و العقل، الدار الإسلامية، بيروت، 1989 م.
- 141 - السحيمراني، أسعد: الأخلاق في الإسلام و الفلسفة القديمة، دار النفائس، بيروت، 1988 م.
- 142 - سرحان، منير المرسي: في اجتماعيات التربية، مكتبة الإنجلو المصرية، 1991 م.
- 143 - سعد الدين، محمد منير: دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، دار المحروسة، بيروت، 1992 م.
- 144 - سعيد، جودت: الإنسان كلاً و عدلاً، دار الفكر، بيروت، 1993 م.
- 145 - السمعاني، أبو سعد عبد الكريم: الأنساب، دار الجنان، بيروت، 1408 هـ.
- 146 - السندويي، حسن: رسائل الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر، د.ت.
- 147 - السندي، سلمان بن عمر: تدبر القرآن، البيان، الرياض، 1423 هـ.
- 148 - سويد، محمد نور الدين: منهج التربية النبوية للطفل، دار ابن كثير، دمشق، 2004 م.
- 149 - السيد، مجدي فتحي: تاريخ الإسلام و المسلمين في العصر الأموي، دار الصحابة، طنطا، 1998 م.
- 150 - سيد الأهل، عبد العزيز: جعفر بن محمد، دار الشروق الجديد، بيروت، 1954 م.

- 151 - سيرى، أحمد عبد الرحمن: دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، 1988 م.
- 152 - السيوطي، جلال الدين: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر، بيروت، 1401 هـ.
- 153 - السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، مصر، 1952 م.
- 154 - السيوطي، جلال الدين: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق محمد عمر هاشم، دار الكتاب العربي، بيروت، 1985 م.
- 155 - السيوطي، جلال الدين: الدر المنثور، الفتح، جدة، 1365 هـ.
- 156 - الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم: الموافقات في أصول الشريعة، شرح و تعليق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، 2000 م.
- 157 - الشافعي، ابن طلحة: مطالب السؤل، دار الكتاب، طهران، 1999 م.
- 158 - الشافعي النيشابوري، عبد الكريم هوزان: الرسائل القشيرية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1972 م.
- 159 - الشاكري، حسين: نشوء المذاهب و الفرق، دار الكتاب، طهران، 1999 م.
- 160 - الشلبي، أحمد: التربية الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، 1978 م.
- 161 - الشلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي، النهضة المصرية، القاهرة، 1996 م.
- 162 - الشلبي، أحمد: الاقتصاد في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1990 م.
- 163 - شرفاوي، عبد الرحمن: شخصيات إسلامية، أخبار اليوم، القاهرة، د. ت.
- 164 - الشريف الرضي: نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- 165 - شريف القرشي، باقر: موسوعة الإمام الصادق، دار الأضواء، بيروت، 1992 م.
- 166 - شريف القرشي، باقر: النظام التربوي في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1988 م.
- 167 - شلتوت، محمود: الإسلام عقيدة و شريعة، دار الشروق، بيروت، 1980 م.
- 168 - الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل و النحل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1408 هـ.

- 169 - الصابوني، محمد علي: النبوة والأنبياء، د. ن، مكة المكرمة، د. ت.
- 170 - الصالح، صبحي: منهل الواردين شرح رياض الصالحين للإمام النووي، دار العلم للملايين، بيروت، 1973
- 171 - صبحي، أحمد محمود: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1992 م.
- 172 - صبحي، أحمد محمود: نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية، دار المعارف، مصر، 1969 م.
- 173 - الصدر، محمد باقر: اقتصادنا، دار الفكر، بيروت، 1969 م.
- 174 - الصدر، محمد باقر: دور الأئمة في الحياة الإسلامية، تعليق محمد اليعقوبي، دار المحجة البيضاء، بيروت، 2005 م.
- 175 - الصدر، محمد باقر: المدرسة الإسلامية، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت، 1980 م.
- 176 - الصدر، محمد باقر: موجز في أصول الدين، مطبعة شريعة، 2001 م.
- 177 - الصفدي، صلاح الدين حنبل: الوافي بالوفيات، دار صادر، بيروت، 1970 م.
- 178 - ضميرية، عثمان جمعة: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، 1996 م.
- 179 - ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- 180 - طبارة، عفيف عبد الفتاح: روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، 1977 م.
- 181 - طبارة، عفيف عبد الفتاح: روح الصلاة في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1985 م.
- 182 - الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم،
- 183 - الطباطبائي، محمد حسين: سنن النبي، المكتبة الإسلامية، قم، 1369 هـ.
- 184 - الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط، تحقيق إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، د. ت.
- 185 - الطبرسي، فضل بن حسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 1، 1415 هـ.
- 186 - الطبرسي، فضل بن حسن: مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1385 هـ.

- 187 - الطبرسي، فضل بن حسن: مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضي، ط 6، 1972 م.
- 188 - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعارف، مصر، د. ت.
- 189 - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987 م.
- 190 - طقوش، محمد سهيل: تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، بيروت، 1996
- 191 - الطوسي، محمد بن الحسن: الاستبصار، دار الكتب الإسلامية، قم، ط 4، 1406 هـ.
- 192 - الطوسي، محمد بن الحسن: الأمالي، دار الثقافة، قم، ط 2، 1414 هـ.
- 193 - الطوسي، محمد بن الحسن: تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 4، 1406 هـ.
- 194 - الطهراني، آغا بزرك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط 3، 1983 م.
- 195 - العاملي، عبد الصاحب الحسيني: الأخلاق عند الرسول وأصحابه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1969 هـ.
- 196 - العاملي الشامي، زين الدين: منية المرید من آداب المفيد والمستفيد، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1405 هـ.
- 197 - عباس، إحسان: التربية العربية الإسلامية، المجتمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، 1990 م.
- 198 - عبد الباقي، زيدان: العمل والعمال والمهنة في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، 1987 م.
- 199 - عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، 1408 هـ.
- 200 - عبد السلام، فاروق: مدخل إلى القياس التربوي والنفسي، دار البشائر، بيروت، 1991 م.
- 201 - عبد العال، حسن إبراهيم: مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية، عالم الكتب، الرياض، 1405 هـ.
- 202 - عبد العزيز، عمر: الفكر السياسي للإمام الصادق، دار المحجة، بيروت، 1997 م.

- 203 - عبد اللطيف، نبيل: الإنسان كما فطره الله، الهيئة المصرية للكتاب، 2000 م.
- 204 - عبد الله، محمد: دراسات إسلامية من العلاقات الاجتماعية و الدولية، دار القلم، الكويت، 1974 م.
- 205 - عبد الهاللي، سليم: إيقاظ الهمم، دار ابن الجوزي، السعودية، ط 4، 1419 هـ.
- 206 - عبود، عبد الغني: التربية الاقتصادية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1992 م.
- 207 - عبود، عبد الغني: التربية الإسلامية وتحديات العصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990 م.
- 208 - عبود، عبد الغني: الفكر التربوي عند الغزالي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982 م.
- 209 - عبود، عبد الغني: دراسة مقارنة لتاريخ التربية، دار الفكر العربي، بيروت، 1978 م.
- 210 - عبيدات، سليمان أحمد: الطفولة في الإسلام، جمعية المطابع التعاونية، عمان، 1989 م.
- 211 - عتر، نور الدين: منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992 م.
- 212 - غرام، محفوظ علي: الأساس العقائدي للتربية، المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية، جمعيات الشبان، القاهرة، 1987 م.
- 213 - العسقلاني، ابن حجر: لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1986 م.
- 214 - العسقلاني، ابن حجر: تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، 1994 م.
- 215 - العصيمي، فهد: خطة الإسلام في موارد الإنتاج، دار النشر الدولي، الرياض، 1994 م.
- 216 - عطوي، فوزي: الاقتصاد و المال في التشريع الإسلامي و النظم الوضعية، دار الفكر العربي، بيروت، 1988 م.
- 217 - عفيفي، محمد عبد الله: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، مركز ملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، 1988 م.
- 218 - عمر، أحمد عمر: فلسفة التربية في القرآن الكريم، دار المكتبي، دمشق، 1420 هـ.

- 219 - العوضي، رفعت السيد: في الاقتصاد الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة، مؤسسة الخليج، قطر، 1410 هـ.
- 220 - علي، سعيد إسماعيل: اتجاهات الفكر التربوي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، 1991 م.
- 221 - علي، سعيد إسماعيل: فلسفة التربية الإسلامية، دار الكتاب، طهران، 1400 هـ.
- 222 - علي، سعيد إسماعيل: مكانة العمل في الفكر التربوي، دار الثقافة، القاهرة، 1979 م.
- 223 - العلي، صالح حميد: عناصر الإنتاج من الاقتصاد الإسلامي و النظم الاقتصادية المعاصرة، اليمامة للطباعة و النشر، دمشق، 2000 م.
- 224 - العلي، محمد تيسير: الصلة بالله و أثرها في تربية النفس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997 م.
- 225 - العليمي، بيلي إبراهيم أحمد: السياسة الاقتصادية الإسلامية لترشيد الاستهلاك الفردي، جامعة القاهرة، 2000 م.
- 226 - عياش السلمي السمرقندي، محمد بن مسعود: التفسير العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، د. ت.
- 227 - الغامدي، علي خميس: الإنسان الصالح و تربيته من منظور إسلامي، دار الطيبة، مكة المكرمة، 2003 م.
- 228 - الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار صادر، بيروت، ط 2، 2000 م.
- 229 - الغزالي، محمد: ركائز الإيمان بين العقل و القلب، دار القلم، دمشق، 1988 م.
- 230 - الغزالي، محمد: خلق المسلم، دار القلم، دمشق، 1989 م.
- 231 - الفاروق، التاجي: قاموس مصطلحات المصارف و المال و الاستثمار، مكتبة لبنان، د. ت.
- 232 - فرحان، إسحاق أحمد: نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية و التعليم، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية، 1399 هـ.
- 233 - فرحان، إسحاق أحمد: التربية بين الأصالة و المعاصرة، دار الفرقان، عمان، الأردن، 1983 م.
- 234 - فروخ، عمر: تاريخ صدر الإسلام و الدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، 1983 م.
- 235 - فروغي، محمد: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1992 م.

- 236 - فروغي، محمد: سير الحكمة في أوربا، نشر زوّار، طهران، 1400 هـ.
- 237 - فضل الله، محمد حسين: الحوار في القرآن، مطبعة الصدر، بيروت، 1418 هـ.
- 238 - فضل الله، محمد حسين: خطوات على طريق الإسلام، دار التعارف، بيروت، 1986 م.
- 239 - الفضلي، عبد الهادي: التربية الدينية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، د. ت.
- 240 - فلسفي، محمد تقي: الأخلاق من منظور التعايش و القيم الإنسانية، بيروت، 1992 م.
- 241 - فلسفي، محمد تقي: الطفل بين الوراثة و التربية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1987 م.
- 242 - فلسفي، محمد تقي: الشاب بين العقل و العاطفة، مؤسسة البعثة، بيروت، 1992 م.
- 243 - فلسفي، محمد تقي: المعاد بين الروح و الجسد، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1993 م.
- 244 - الفنجري، محمد شوقي: المذهب الاقتصادي في الإسلام، دار عكاظ، الرياض، 1401 هـ.
- 245 - الفياض، عبد الله: تاريخ التربية عند الإمامية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1983 م.
- 246 - الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987 م.
- 247 - فينكس، فيليب: فلسفة التربية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965 م.
- 248 - فهمي، سيف الدين: مبادئ التربية الصناعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967 م.
- 249 - القرضاوي، يوسف: التربية الإسلامية و مدرسة حسن البناء، بيروت، دار القرآن الكريم، 1400 هـ.
- 250 - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: بهجة المجالس، دار الكتاب العربي، القاهرة، د. ت.
- 251 - القزاز، محمد سعد: الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، دار الفكر العربي، مصر، 1995 م.
- 252 - القزويني، محمد كاظم: موسوعة الإمام الصادق، مطبعة سيد الشهداء، قم، 1415 هـ.

- 253 - الفزويني، أمير علاء الدين: الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مكتبة الفقيه، الكويت، 1986 م.
- 254 - قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 5، 1967 م.
- 255 - قطب، سيد: خصائص التصور الإسلامي و مقوماته، دار الشروق، بيروت، 1992 م.
- 256 - قطب، محمد: حول التأصيل للعلوم الاجتماعية، دار الشروق، بيروت، 1418 هـ.
- 257 - قطب، محمد: ركائز الإيمان، دار الشرق، بيروت، 2001 م.
- 258 - قطب، محمد: لا إله إلا الله عقيدة و شريعة و منهاج حياة، دار الشروق، القاهرة، 1995 م.
- 259 - قطب، محمد: منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، بيروت، 1400 هـ.
- 260 - قلعه جي، محمد رواس: مباحث في الاقتصاد الإسلامي، دار النفائس، بيروت، 1412 هـ.
- 261 - القندوزي، سليمان بن إبراهيم: ينابيع المودة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1997 م.
- 262 - القوصي، عبد العزيز: أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1988 م.
- 263 - الكاظم، محسن: تاريخ الفكر الاقتصادي، ذات السلاسل، الكويت، 1989 م.
- 264 - الكفراوي، عوف محمد: تكاليف الإنتاج و التسعير في الإسلام، مركز إسكندرية للكتاب، القاهرة، 1999 م.
- 265 - كلشني، مهدي: القرآن و معرفة الطبيعة، دار الأضواء، بيروت، لبنان، 1989 م، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران.
- 266 - الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب: الكافي (أصول و فروع)، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 3، 1388 هـ.
- 267 - الكيلاني، ماجد عرسان: الأمة المسلمة، دار الاستقامة، مكة المكرمة، 1995 م.
- 268 - الكيلاني، ماجد عرسان: فلسفة التربية الإسلامية، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، 1987 م.
- 269 - المازندراني، محمد صالح: شرح أصول الكافي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000 م.

- 270 - المالكي، ابن الصباغ: الفصول المهمة من معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت، 1988 م.
- 271 - الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري: أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398 م.
- 272 - متز، آدم: الحضارة الإسلامية من القرن الرابع الهجري، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1957 م.
- 273 - المتقي الهندي، علاء الدين علي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1990 م.
- 274 - المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط 2، 1983 م.
- 275 - مجموعة من الباحثين الغربيين: الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، دار الذخائر للمطبوعات، نقله إلى العربية آل علي، قم، 1988 م.
- 276 - محمد، قطب إبراهيم: الإطار الأخلاقي لمالية المسلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983 م.
- 277 - اختيار معرفة الرجال، تحقيق محمد باقر الحسيني، مؤسسة آل البيت، قم. د.
- ت.
- 278 - محمود، عبد القادر: الإمام الصادق رائد السنة والشيعة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، 1970 م.
- 279 - محمود، علي عبد الحلیم: التربية الاجتماعية في الإسلام، دار التوزيع والنشر الإسلامي، بور سعيد، 2001 م.
- 280 - محمود، علي عبد الحلیم: التربية الروحية، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 1997 م.
- 281 - محمود، علي عبد الحلیم: التربية العقلية، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة، 1996 م.
- 282 - محمود، علي عبد الحلیم: تربية الناشئ المسلم، دار الوفاء، المنصورة، 1992 م.
- 283 - مذكور، علي احمد: منهج التربية في التصور الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1990 م.
- 284 - مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية المنتجة، مكتبة وهبة، القاهرة، 1985 م.
- 285 - مرسي، محمد منير: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد، عالم الكتب، القاهرة، 1993 م.

- 286 - المزي، أبو الحجاج يوسف: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983 م.
- 287 - مسعود، سميح: الموسوعة الاقتصادية، شركة المطبوعات للتوزيع، بيروت، 1997 م.
- 288 - المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب و معادن الجواهر، دار الفكر، بيروت، ط 5، 1973 م.
- 289 - مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 2000 م.
- 290 - مصباح، محمد تقي: الأخلاق في القرآن الكريم، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 2004 م.
- 291 - مطاوع، إبراهيم عصمت: أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1983 م.
- 292 - مطاوع، إبراهيم عصمت: قراءات في التربية و علم النفس، مكتبة الطابع الجامعي، مكة المكرمة، 1986 م.
- 293 - مطر، سيف الدين علي: التغيير الاجتماعي دراسة تحليلية من منظور التربية الإسلامية، دار الوفاء، القاهرة، 1986 م.
- 294 - مطهري، مرتضى: التربية و التعليم في الإسلام، دار الهادي، بيروت، 2000 م.
- 295 - المظفر، كاظم: توحيد المفضل، مؤسسة الوفاء، ط 2، 1404 م.
- 296 - المظفر، محمد حسين: الإمام الصادق، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، 1409 م.
- 297 - معروف، نايف: الخوارج في العصر الأموي، دار الطليعة، بيروت، 1994 م.
- 298 - معروف، نايف: الإنسان و العقل، دار النفائس، بيروت، 1995 م.
- 299 - مغنيه، محمد جواد: فقه الإمام جعفر الصادق، نشر قدس، قم، د. ت.
- 300 - المفيد، محمد بن نعمان: الاختصاص، تحقيق علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د. ت.
- 301 - المفيد، محمد بن نعمان: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، المجمع العالمي لأهل البيت، طهران، 1423 هـ.
- 302 - المفيد، محمد بن نعمان: الآمال،: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، د. ت.

- 303 - المقريري، تقي الدين أحمد بن علي: الخطط المقريرية، إحياء العلوم، لبنان، د. ت.
- 304 - المقريري، تقي الدين أحمد بن علي: النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، 1387 هـ::
- 305 - مكارم شيرازي، ناصر: الخطوط الأساسية للاقتصاد الإسلامي، دار الصفوة، بيروت، 1994 م.
- 306 - مكارم شيرازي، ناصر: الأخلاق في القرآن، نشر الجيل الشاب، قم، 2001 م.
- 307 - مكارم شيرازي، ناصر: مثالهاي زيباي قرآن (أمثال القرآن)، نسل جوان، قم، 1420 هـ:
(باللغة الفارسية).
- 308 - مكرم، عبد العال سالم: أثر العقيدة في بناء الفرد و المجتمع، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998 م.
- 309 - المكّي الحارثي، أبو طالب: قوت القلوب في معاملة المحبوب، القاهرة، د. ت.
- 310 - مكّي، محمد كاظم: المدخل إلى حضارة العصر العباسي، دار الزهراء، بيروت، 199 م.
- 311 - منتصر، أمين: نظرية السلوك المستهلك في الاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر، د. ت.
- 312 - الموسوي، عباس علي: العلاقات الاجتماعية في الإسلام، دار المرتضى، بيروت، 1988 م.
- 313 - الموسوي، عبد الرحيم: المنهج الإصلاحي عند الإمام الصادق، دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الصادق، المجمع العالمي لأهل البيت، إيران 1423 هـ.
- 314 - موسى، كامل: أحكام العبادات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 4، د. ت.
- 315 - ناصر، محمد: قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات للنشر، 1977 م.
- 316 - الناطور، شحادة علي: دور الموالي في المجتمع الأموي، دار الكندي للنشر، عمان، 1997 م..
- 317 - نجاتي، محمد عثمان: الحديث النبوي و علم النفس، دار الشروق، بيروت، 2000 م.
- 318 - نجاتي، محمد عثمان: القرآن و علم النفس، دار الشروق، بيروت، 2001 م.

- 319 - النجار، عبد المجيد عمر: الإيمان بالله و أثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1977 م.
- 320 - النجاشي الكوفي، أحمد بن علي: رجال النجاشي، تحقيق محمد جواد الناشئ، دار الأضواء، بيروت، 1408 هـ.
- 321 - النجيجي، محمد ليب: الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1978 م.
- 322 - النحلاوي، عبد الرحمن: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1423 هـ.
- 323 - النراقي، محمد مهدي: جامع السعادات، دار التفسير، قم، 1423 هـ.
- 324 - النشمي، عجيل جاسم: الانقسام بين النظرية و التطبيق و دور الفكر الغربي، اللجنة الاستشارية العليا، الكويت، 1995 م.
- 325 - نشوان، يعقوب حسين: المنهج التربوي من منظور إسلامي، دار الفرقان، بيروت، 1992 م.
- 326 - النقيب، عبد الرحمن: مدخل لدراسة الاتجاه الحرفي و المهني في التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، المنصورة، د. ت.
- 327 - النووي، أبي زكريا يحيى بن شرف: رياض الصالحين، دار العلم للملايين، بيروت، 1973 م.
- 328 - النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الآداب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د. ت.
- 329 - نويهض، عادل: معجم المفسرين، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1988 م.
- 330 - وجددي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، 1971 م.
- 331 - الوزير، إبراهيم بن علي: دراسة السنن الإلهية و المسلم المعاصر، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1409 هـ.
- 332 - الهيثمي، علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد و منبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988 م.
- 333 - الهيثمي، أحمد بن محمد بن حجر: الصواعق المحرقة على أهل الرفض و الضلال و الزندقة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983 م.

- 334 - الهندي، السيد مير علي: مختصر تاريخ العرب و التمدن الإسلامي، القاهرة، 1938 م.
- 335 - الهندي، جمال محمد: التربية المهنية و الحرفية في الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، 2000 م.
- 336 - الهيكل، عبد العزيز فهمي: مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت.
- 337 - يالجن، مقداد: دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد و المجتمع، دار الشروق، بيروت، 1983 م.
- 338 - يالجن، مقداد: جوانب التربية الإسلامية، مطابع القصيم، الرياض، 1985 م.
- 339 - يالجن، مقداد: علم النفس التربوي في الإسلام، دار عالم الكتب، رياض، 1997 م، دار المريخ 1981 م.
- 340 - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، 1960 م.

المجلات:

- 341 - مجلة الاقتصاد الإسلامي، رجب مصطفى: حماية الملكية في النظام الإسلامي و أبعادها التربوية، عدد 290، دبي، الإمارات، 1426 هـ.
- 342 - مجلة الاقتصاد الإسلامي، شحاته، حسين: أصول منهج التربية الاقتصادية في الإسلام، العدد 295، دبي، الإمارات، 1426 هـ.:
- 343 - مجلة الاقتصاد الإسلامي، إرشيد، محمود عبد الكريم: دور القيم و الأخلاق في ضبط الاستهلاك، العدد 293، دبي، 1426 هـ.:
- 344 - مجلة نهج الإسلام: الزحيلي، وهبة: مفهوم المال و الاقتصاد في الإسلام، العدد 49، دمشق، 1992 م.
- 345 - مجلة الشريعة و الدراسات الإسلامية، سميران، محمد علي: مبدأ الإيثار في المنهج الإسلامي و نظرية تكبير المنفعة في الاقتصاد الوضعي، العدد 53، الكويت.
- 346 - مجلة الشريعة و الدراسات الإسلامية، العيادي، أحمد صبحي: السياسة النقدية و المالية في الإسلام، العدد 53، الكويت.
- 347 - مجلة الشريعة و الدراسات الإسلامية، المرزوقي،: عمر بن فيحان: النشاط الاقتصادي من المنظور الإسلامي، العدد 45، الكويت.
- 348 - مجلة إسلامية المعرفة، علي، سعيد اسماعيل: مركزية القضية التربوية في فهم واقع الأمة و أسباب تخلفها، العدد 29، السنة الثامنة، 2002 م.

فهرس المحتويات

الإهداء أ

تقديم 5

شكر و تقدير 7

الإطار العام للدراسة: المقدمة 9

أسباب اختيار الدراسة 10

إشكالية الدراسة 10

صعوبات الدراسة 11

منهج الدراسة و حدودها 11

الدراسات السابقة 12

خطوات الدراسة 12

فصل تمهيدي: التربية من المنظور الإسلامي 15

مفهوم التربية الإسلامية و أهميتها 18

العوامل المؤثرة في التربية 21

مصادر التربية الإسلامية و سماتها 26

أ - مصادر التربية الإسلامية 26

القرآن الكريم 27

السنة النبوية المطهرة 27

ب - سمات التربية الإسلامية 29

ربانية 29

تكاملية شاملة 29

متوازنة 30

وسطية 31

سلوكية عملية 32

مستمرة 33

سهلة و مرنة 34

ص: 452

عالمية وخالدة 35

أهداف التربية الإسلامية وأساليبها 36

أ - أهداف التربية الإسلامية 36

ب - أساليب التربية الإسلامية 37

التربية بالوعظ والنصح 38

التربية بالقُدوة 39

التربية بالقصة 40

التربية بالترغيب والترهيب 40

التربية بالتشبيه وضرب الأمثال 41

التربية بالعمل والعادة 43

الفصل الأول دراسة شخصية الإمام الصادق

تمهيد 47

المبحث الأول: المعالم البارزة في عصر الصادق 49

الجانب السياسي 51

الجانب الديني 58

أ - الخوارج 58

ب - المعتزلة 59

ج - الجهمية أو الجبرية 60

د - القدرية 61

هـ - المرجئة 61

و - الغالية (من الشيعة) 62

الجانب الاجتماعي 64

الجانب العلمي والثقافي 69

المبحث الثاني: المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق 73

المعالم البارزة من حياة الإمام الصادق 75

ولادته وتسميته 75

نشأته 76

روافد علمه وفكره 78

لمحات من صفاته وأخلاقه 80

ص: 453

أ- الإخلاص 80

ب- عبادته 81

ج- سخاؤه 81

ه- إكرامه للضيوف 82

و- تواضعه و مواساته للضعفاء 83

ز- حضور بديهته 84

ح- هيئته 84

مكانته العلمية و آثاره 86

مؤلفات الإمام جعفر بن محمد الصادق 91

أقوال العلماء في شخصيته 93

رواته و كبار المتخرجين من تلاميذه 96

أبان بن تغلب 99

جابر بن حيان 100

المبحث الثالث: إطار الفكر التربوي في مدرسة الصادق 105

أساسيات التربية عند الإمام 105

أ- الله 105

ب- الكون 107

ج- الإنسان 109

طبيعة الإنسان و فطرته 110

حرية الإنسان و إرادته 112

اهتمامات الصادق التربوية بالبعدين الروحي و الجسدي 114

العوامل المؤثرة في التربية عند الإمام 118

تربية الطفل ورعايته في فكر الصادق 120

طرائق التربية والتعليم في مدرسة الصادق 124

أ - طريقة الوعظ 124

ب - طريقة الرسائل 125

ج - طريقة المناظرة والحوار 127

د - طريقة الإملاء 128

هـ - طريقة الوصايا 129

و - طريقة الدعاء 130

ص: 454

المبحث الأول: البناء العقدي 137

العقيدة وأهميتها 139

موقع العقيدة الإسلامية في فكر الإمام التربوي 141

تكوين العقيدة الصحيحة في منهج الإمام التربوي 143

أ - معرفة الله و توحيدہ 144

دلالة فطرية 144

دلالة حسية 146

دلالة عقلية 148

تعريف الله بأسمائه و صفاته 150

ب - الإيمان بالملائكة 152

ج - الإيمان بالكتب السماوية 153

التربية على التمسك بالقرآن الكريم 154

د - معرفة أنبياء الله و رسله 155

التربية على اتخاذ الرسول صلى الله عليه و سلم قدوة و اتباع سنته 157

ه - المعرفة باليوم الآخر 160

و - المعرفة و الإيمان بالقدر 161

تحصين الأمة من التيارات المنحرفة و الخاطئة 164

أ - مواجهة الإلحاد و الزندقة 164

ب - تحذير الأمة من الأفكار المنحرفة 167

ج - صيانة الناس عن التصورات الخاطئة 169

المبحث الثاني: البناء العبادي 173

مفهوم العبادة وأهميتها 176

الالتزام بالنظرية و التطبيق في فكر الإمام 178

تعليم فقه العبادات في مدرسة الصادق 180

تربية الروح بمظاهر العبادة 182

أ - تقوية الصلاة بالله عن طريق الصلاة 182

ب - تطهير النفس و المال بالزكاة 185

ص: 455

ج - كمال الانقياد و العبودية بالحج 186

د - ضبط الأهواء و الشهوات بالصيام 187

ه - التعليم الذاتي لتلاوة القرآن الكريم 188

و - إظهار الافتقار إلى الله بالدعاء 190

التركيز على الاعتدال في العبادة 191

الفصل الثالث التربية العلمية و العقلية في مدرسة الإمام الصادق

تمهيد 195

المبحث الأول: البناء العلمي 197

أهمية العلم و حث الإمام على طلبه 199

مدرسته العلمية و خصائصها 202

مركزها 203

طلابها 203

أنواع علومها 204

مراعاة التخصص في العلوم 205

التأليف و التدوين 206

الإفادات التربوية حول العالم و المتعلم 208

أ - شخصية العالم المعلم في فكر الصادق 208

المقومات الشخصية للعالم المعلم 209

المقومات المهنية للعالم المعلم 212

ب - شخصية المتعلم في فكر الصادق 217

الأساليب التعليمية عند الصادق 224

أ - استخدام الوسائل التعليمية 224

ب - تشجيع الطالب و الثناء عليه 225

ج - التضاد أو المقارنة 226

د - التمثيل و التشبيه 226

هـ - تنظيم المعلومات و تقسيمها 227

و - الترقيم و الأعداد 228

ز - أسلوب الاستجواب 228

ح - التعليم العملي 229

ص: 456

ط - التدريب و التقييم 230

المبحث الثاني: البناء العقلي 233

مكانة العقل في مدرسة الصادق 237

العلاقة بين العقل و الدين 240

العلاقة بين العقل و السلوك الأخلاقي 242

سبل تنمية العقل عند الصادق 244

أ - تدريب العقل على حرية التفكير و الابتعاد عن الجمود و التقليد 244

ب - حث العقل على التفكير و النظر و التدبر 246

النظر في حكمة الكون و مخلوقاته 247

النظر في حكمة التشريع 248

النظر في السنن الإلهية 249

ج - تعويد العقل التفكير العلمي 249

الخطوة الأولى الدعوة إلى استخدام الحواس للوصول إلى المعرفة (مرحلة الملاحظة و الاستبطان) 250

الخطوة الثانية: إدراك العلاقة بين الظاهرة و مسبباتها (مرحلة الاستدلال العقلي) 251

الخطوة الثالثة: استخدام التفكير المنطقي (مرحلة الاستنتاج) 252

الفصل الرابع التربية الخلقية و الاجتماعية في مدرسة الإمام الصادق

تمهيد 257

المبحث الأول: البناء الخلقى 259

ماهية الخلق و أقسامه 261

موقع الأخلاق في صرح الإمام الصادق التربوي 264

أهداف التربية الخلقية في مدرسة الصادق 268

مبادئ التربية الخلقية في مدرسة الصادق 271

أ - تكوين بصيرة أخلاقية 271

تعريف السلوك الأخلاقي بظواهره 272

تحديد السلوك الأخلاقي و تمييزه عن غيره 273

تبين آثار السلوك الأخلاقي و نتائجه 274

ب - تكوين عاطفة أخلاقية 276

التذكير بالوازع الداخلي أو الحس الأخلاقي 276

ص: 457

تحريك عنصري الطمع و الخوف 277

تشجيع الناس على محاسبة النفس (المراقبة الذاتية) 278

ج - تكوين قوة الإرادة 279

الدعوة إلى مخالفة الهوى و جهاد النفس 280

الالتزام بالورع و التقوى 281

تقوية الثقة باللّٰه و التوكل عليه 281

أساليب التربية الخلقية عند الإمام الصادق 283

أ - الأسلوب العملي المباشر 283

ب - الإفادة من الاهتمامات الفكرية و العاطفية لدى المتلقي 284

ج - أسلوب التعريض أو التلميح 285

د - ردود الفعل السلوكية 286

ه - انتهاز الفرص و الظروف المناسبة 287

و - التنبيه الي الجوانب الخفية من العمل 288

ز - التوجيه و الإرشاد من خلال قضاء الحاجات 289

ح - الأوامر و النواهي المباشرة 290

المبحث الثاني: البناء الاجتماعي 291

تنمية روح التعلق بالمجتمع 295

تنمية الشعور بالمسؤولية في المجتمع 297

أ - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات الخاصة 297

العائلة المثالية في فكر الصادق 298

- العلاقة بين الزوجين 298

- العلاقة بين الوالدين و الأبناء 299

العلاقة الطيبة مع الأرحام و الأقارب 300

علاقة الجيران و الأصدقاء 301

ب - مسؤولية المسلم في دائرة العلاقات العامة 303

مبادئ التربية الاجتماعية في فكر الصادق 305

أ - مبدأ التآخي و التعاطف 305

التزاور 306

التناصف 306

التهادي 306

ص: 458

التصريح بالحب و المودة 307

الحفاظ على الحشمة 307

ترك ما يكدر المودة 307

ب - مبدأ التعاون و التكافل 308

تأصيل خدمة الناس و قضاء حوائجهم 309

الحث على الإقراض و الإمهال 311

الدعوة إلى المواساة و الإغاثة 312

ج - مبدأ الصدق و الأمانة 314

إلزام الناس بأداء الأمانة إلى صاحبها 315

التشجيع على هذا المبدأ من خلال عرض القدوة 315

وضع هذا المبدأ معيار لمعرفة الأشخاص 316

التركيز على النتائج الإيجابية لهذا المبدأ في التعامل الاجتماعي 316

التحذير من الائتمان بالفاسق 316

د - مبدأ الإصلاح الاجتماعي 317

المراقبة و النقد الاجتماعي 319

مواجهة الخلافات و الخصومات الاجتماعية 322

1 - تجنب جذور الخلافات و الخصومات 323

2 - التغافل و حسن الظن 327

3 - إصلاح ذات البين 328

4 - العفو و مقابلة الإساءة بالإحسان 330

الفصل الخامس التربية الاقتصادية و المهنية في مدرسة الصادق

المبحث الأول: البناء الاقتصادي 337

مفهوم الاقتصاد و أهميته 339

الجانب الاقتصادي في فكر الإمام التربوي 343

تربية المسلم الاقتصادية في المجال المعرفي 346

أ- تعميق مفهوم المال و المليية 346

حقيقة المال 346

حقيقة الملكية 348

ص: 459

دور المال في حياة الإنسان 349

ب - تصحيح المفاهيم الخاطئة في طلب المعاش 353

الرزق بين التقدير و الطلب 353

ضرورة الوعي بمؤثرات الرزق 356

ج - تقويم النظرة إلى الربح و الكسب 359

التوازن بين الربح المادي و المعنوي 359

العلاقة بين الكسب و العمل 361

تربية المسلم الاقتصادية في المجال السلوكي 364

أ - تربية المسلم على الإنتاج في مدرسة الصادق 365

أهمية الإنتاج و وجوهه 365

أهداف الإنتاج و ضوابطه 366

عناصر الإنتاج و حسن استغلالها 368

ب - تربية المسلم على الاستهلاك في مدرسة الصادق 375

أهمية الاستهلاك و ترشيده 375

تبين وجوه الإنفاق و الحصص عليه 378

تحديد الإنفاق و الإلزام به 381

المبحث الثاني: البناء المهني 391

مفهوم المهنة و أهميتها 394

الجانب المهني في فكر الإمام التربوي 395

تصنيف المهن و الحرف في مدرسة الصادق 398

أ - الزراعة 399

ب - الرعي 400

ج - الصناعة 400

د - التجارة 401

أخلاقيات المهن و الحرف في مدرسة الصادق 404

أ - الخبرة و المهارة 404

ب - الاتقان 405

ج - الصدق و تجنب الغش 406

د - الالتزام بالامانة 407

ه - حسن المعاملة 407

ص: 460

الخاتمه (و فيها ميزات التربية للإمام الصادق) 409

الفهارس العامة

فهرس الآيات الشريفة 417

فهرس الأحاديث النبوية 426

فهرس الأعلام 428

المصادر و المراجع 433

فهرس المحتويات 454

ص: 461

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصهبان
الغمامة

WWW

للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩